رُدَّ إليَّ روحي

(١)

بأي قلب نلقاه؟!

د. خالد أبو شادي



الطبعة الأولى للناشر

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

رقم الإيداع: ٢٦٠٦١/٢٠٠٧

الترقيم الدولي: I.S.B.N

977 – 6142 – 54 – 0

مركز السلام للتجهيز الفني

عبد الحميد عمر

٠١٠٦٩٦٢٦٤٧




١
موضع
الإصابة
رُدَّ إليَّ
روحي



تحرير قلب!!

قال قلبي وهو يرزح تحت الأغلال:

اتركيني يا نفس..
أرهقتني ذنوبك
أفقدتني صوابي..
أهلكتني عيوبك
زادت من عذابي
ضاقت عليَّ الأرض
واختَنَقْت.. اختنقت
من طول غيابي
يا نفس..
كم طمحتُ إلى الخير
وهممت بإجابة داعي الله
وكدتُ أضع قدمي في قطار الصالحين
وأمضي معهم في طريق النور
فحرمتِني
وحُلتِ بيني وبين النجاة
أما آن لك أن ترحميني
وتدعيني أنجو
فكّيني من أسارك
أطلقيني من قيدك المرير
إن رضيتِ الهجر فأنا لا أطيق منه لحظة

إن أبيت إلا الهلاك فأنا لا أتحمل غمسة في جهنم
إن رغبتِ عن جنات عدن
فأنا المتيَّم في هواها منذ زمن
ويحك!!
أنا منك وأنت مني لكن..
ما ذنبي وقد سددت عليَّ كل منافذ النجاة؟!
ماذا أفعل وقد قتلت فيَّ أي بذرة خير؟!
ما حيلتي وأنتِ تريدين قتلي؟!

أما أنتم يا أعوان نفسي:

أيتها الغفلة الجاثمة
أيتها الشهوة العارمة
أيتها القسوة الغالبة
أيها الضالعون عمدًا في المؤامرة
يا كل من شارك في الجريمة
ارحلوا عني إلى الأبد
غادروني إلى غير رجعة
لم يعد لكم عندي موضع قدم
موتوا بغيظكم
قد ردَّ الله إلي روحي.
وعافاني في ديني
وأذن لي بذكره.

بطاقة دخول

- **موضع الإصابة:** القلب
- **تاريخ الإصابة:** غير معلومة
- **تاريخ آخر كشف:** أول كشف في حياته
- **درجة الإصابة:** شديدة الخطورة
- **القسم:** قسم الحالات الحرجة
- **أعراض الحالة:** نبض الإيمان ضعيف لا يكاد يُسمع .. فطرة أوشكت على الانقراض .. فرح بالمعصية .. نفور من الطاعة.. عين جفت من قلة بكائها من خشية الله .. قلب راحته في معصية ربه .. روح وحشتها من الصالحين .. نفس أنسها بالعصاة والمذنبين .. جسد ما عرف طريق المسجد منذ سنين ..
- **التوصية:** يُرسل فورًا إلى الرعاية المركزة الإيمانية ..

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴿١﴾ ﴾، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴿٧٠﴾ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾، **أما بعد:**

فهذا الكتاب يُعدُّ موسوعة عصرية شاملة تغطِّي موضوع القلب، وما يتصل به من أعراض وأمراض وطرق علاج ليعالج **ظاهرة الجفاف الروحي** التي عمَّت الجميع حتى شملت كثيرًا من الملتزمين الذين أصبح بعضهم يعاني ظاهرة **الاكتفاء الذاتي**، وهي ظاهرة تراها من بعض المربين والدعاة وهي انصرافهم عن مجالس الوعظ والرقائق بحجة الاكتفاء الذاتي، وأن تربية المواعظ والرقائق قد تجاوزوها من زمن، فالمواعظ وترقيق القلوب إنما هي للمبتدئين أو من هم على عتبة باب الدعوة!! أما هم فقد تخرَّجوا من جامعة الإيمان وتسلموا شهادات التفوق منها، ولم يعد لهم في هذا الميدان مطمع، هذا لسان الحال وإن لم يُفصح عنه المقال.

ادفع الثمن أولاً

كان **عكرمة** حريصًا كل الحرص على أن لا يصل هذا العلم إلى من لا يستحق؛ لذا قال رحمه الله:

لا تعلِّموا العلم إلا لمن يعطي ثمنه، فقيل له: وما ثمنه؟ قال: «يضعه العالم عند من يعمل به»[(١)].

وبيَّن **سفيان الثوري** السبب في ما قال **عكرمة**، فانطلق يشرح:

> **«إذا رأيتم طالب العلم يطلب الزيادة من العلم دون العمل فلا تعلِّموه، فإنَّ من لم يعمل بعلمه كشجرة الحنظل كلما ازداد ريًّا بالماء ازداد مرارة، وإذا رأيتموه يُخلِّط في مطعمه ومشربه وملبسه ونحو ذلك ولا يتورع، فكُفُّوا عن تعليمه تخفيفًا للحجة عليه غدًا»**[(٢)].

وصدق الشاعر حين قال:

لو كان العلم دون التقى شرف
لكان أشرف خلق الله إبليس

لذا لما بعث قوم إلى **سفيان الثوري** يطلبون أن يُحدِّثهم اشترط عليهم: «حتى تعملوا بما تعلمون، ثم تأتوني فأحدِّثكم»، ثم أردف في صراحة فاضحة:

«يدنِّسون ثيابهم ثم يقولون تعالوا اغسلوها!!»[(٣)].

ولذا خوَّفك **سري بن المغلِّس السقطي** فقال:

---

(١) تنبيه المغترين ص ١٥، مطبعة البابي الحلبي.
(٢) تنبيه المغترين ص ١٩.
(٣) اقتضاء العلم العمل ١/ ٨٥، رقم:١٣٧.

«كلما ازددت علمًا كانت الحجة عليك أوكد»[(١)].

وأهمية عودة الروح كانت واضحة وأخذت ما تستحق من سلفنا المبارك، ومن هذا ما ذكره الإمام **الذهبي** في ترجمة **عبد الرحمن بن شريح** رحمه الله: قال **هانئ بن المتوكل**: حدثني **محمد بن عبادة المعافري** قال: كنا عند **أبي شريح** فكثرت المسائل فقال: «قد درنت قلوبكم، فقوموا إلى **خالد بن حميد المهري** استقلوا قلوبكم، وتعلموا هذه الرغائب والرقائق؛ فإنها تُجدِّد العبادة وتورث الزهادة، وتجر الصداقة، وأقلّوا المسائل فإنها في غير ما نزل تقسِّي القلب وتورث العداوة»[(٢)].

وحضارة اليوم وهي تسدِّد سهام خداعها صوب القلوب الغافلة لتصيب لُبَّها؛ تحتاج إلى درع حصينة تتكسَّر عليه، فأعينوني بقوة أجعل بينكم وبينهم ردمًا، وما هذه الدرع سوى تربية إيمانية راسخة تورث النظر في العاقبة، واليقين بالآخرة، والتنافس في الخيرات، والزهد في الفانيات، ولا يتم ذاك إلا إذا ردَّ الله إليك روحك.

وما أشبه هذه الحضارة ببساط يسحب الناس ببطء تجاه نهايتهم المحتومة، وهم عنها غافلون وبغيرها مشتغلون، والشيطان يرقص بينهم فرحًا، ويقهقه وهو يشُدُّهم بعيدًا عن طريق النجاة، حتى إذا ما وقعت بهم الداهية أفاقوا لكن.. هناك.. على أعتاب الحساب وفي ظلمة القبر؛ فيا إخوان.. أترضون أن يكون هذا حالكم: تغفلون تغفلون، ثم تموتون فتندمون!!

ذلك مبلغهم من العلم

اشتاط وهب بن منبه غضبًا فصاح معلنًا:

> **«واعجبًا من الناس!! يبكون على من مات جسده ولا يبكون على من مات قلبه وهو أشد»**[(٣)].

---

(١) اقتضاء العلم العمل ١/ ٥٣، رقم: ٧٨.

(٢) سير أعلام النبلاء ٧/ ١٨٣، ونزهة الفضلاء ٢/ ٦٩١، ٦٩٢.

(٣) تنبيه المغترين ص ٦٦.

وصدق رحمه الله؛ فأكثر الخلق يخافون موت أبدانهم ويركضون سراعًا لشفائها إن مرضت، ولا يبالون بموت قلوبهم ولا يُحرِّكون ساكنًا إن هي صرخت من الشكوى والألم، فليست الحياة عندهم إلا حياة الجسد، والحياة في هذه الحالة ليس لها سوى معنى واحد: الموت، فليس الميِّت من خرجت روحه من جنبيه، وإنما الميِّت من لا يفقه ماذا لربه من الحقوق عليه!!

ولذا لما قال رجل **لسهل بن عبد الله**: دخل اللص بيتي وأخذ متاعي قال له: اشكر الله تعالى!! لو دخل الشيطان قلبك فأفسد إيمانك، ماذا كنت تصنع؟![1]

أخي.. أتبكي في بيت الله ندمًا على ما سرقت، فإذا عدت إلى بيتك أكلت المسروق؟! يا غافل.. أنفقت ما سرقت وبقي قطع اليد!! أتحفر قبرك بظفرك؟! أتقطع أنفك بسيفك؟! أتقتل نفسك بنفسك؟!

أخي.. قلبك قلبك.. أنقذه منك قبل أن تهلكه، قلبك.. سفينة نجاتك الوحيدة إلى الجنة وليس لك غيرها، فإياك والغرق، والغرق اليوم معناه عدم التألم باقتراف المعصية، واللامبالاة بمواطن الزلل، ومجاراة أهل السوء دون أدنى ندم، وعدم إنكار المنكر ولو بالقلب، فإن وجدت نفسك تنجرف منك في هذا السيل؛ فأعلن **حالة الطوارئ**، واجذبها نحو النجاة بقوةٍ تفوق قوة الغريق الذي يتشبث بأي شيء لإدراك النجاة، وأسرع قبل أن تلفظ أنفاسك الأخيرة، وإلا فإنها المحرقة!!

ويحك.. كيف تنفصل عنه، وما خلقك إلا لتتصل به!!

أخي.. هذا الكتاب باب من أبواب الخير، «والله سبحانه يعاقب من فتح له بابًا من

---

(١) مختصر منهاج القاصدين ص ٢٩٣.

الخير فلم ينتهزه، بأن يحول بين قلبه وإرادته، فلا يُمكِّنه بعدُ من إرادته عقوبة له، فمن لم يستجب لله ورسوله إذا دعاه، حال بينه وبين قلبه وإرادته، فلا يمكنه الاستجابة بعد ذلك.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤]، وقد صرَّح سبحانه بهذا في قوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، وقال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾[التوبة: ١١٥]، وهو كثير في القرآن»[(١)].

أخي.. هذا الكتاب بضاعة وشراؤها بالعمل، فاقرأه موقنًا أن قراءتك هي سبيل الرقي في الدنيا قبل الآخرة «اقرأ وارقَ»، واستعد بعد قراءته للتسابق وتهيَّأ للانطلاق، وطلِّق زمن اللهو وانس أيام الغفلة، واحطم اللات والعزى لديك، وتزوَّد بالوقود لتبدأ الرحلة، واتخذه زادًا لتشغيل آلة القلب لتستأنف المسير وتتحمل المشاق وتستعذب الألم لتستوجب الثمن، واقبله مني هدية متواضعة ولمسة رقيقة ليكون جليس روحك وهي تولد من جديد من رحم الغفلة وتتحرر من أسر البدن.

هذا الكتاب رحلة سفر أخروية، ومن المعلوم أنه «لما سافر موسى إلى الخضر وجد في طريقه مس الجوع والنصب فقال لفتاه: آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا، فإنه سفر إلى مخلوق، ولما واعده ربه ثلاثين ليلة وأتمها بعشر فلم يأكل فيها؛ لم يجد مس الجوع ولا النصب، فإنه سفر إلى ربه تعالى، وهكذا سفر القلب وسيره إلى ربه لا يجد فيه من الشقاء والنصب ما يجده في سفره إلى بعض المخلوقين»[(٢)].

هذا الكتاب نهر صافٍ يسقي القلوب العطشى ويغسل الأرواح التي دنستها

---

(١) زاد المعاد ٣/ ٥٧٤، مؤسسة الرسالة، تحقيق شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط.
(٢) بدائع الفوائد ٣/ ٢٠٣.

الذنوب على مدى سنين، وليس هدف الكتاب صبَّ الإيمان في قلبك كلا، بل إثارة بواعثه الكامنة في عروقك، ولست أزعم أنني هنا الآن لأجعلك خيرًا مما أنت عليه، بل لأُعلِمك أنك خيرٌ بكثير مما تظن، وأصيح فيك بأن رصيد الفطرة الراقد فيك ينتظر شرارة تقدح الحماسة وتطرد الغفلة والكسل، وأسأل الله أن يجعل هذه الشرارة بين ثنايا هذه الصفحات وفي بطن هذا الكتاب.

أخي!! أجِب دعوة **محمد إقبال** يهيب بك ويصرخ فيك:

شُقَّ قلب الطود عن جوهرهِ   شُقَّ موج البحر عن دُرٍّ بهِ[(١)]

وقد عطَّرت هذا الكتاب بعبير القصص لأمتِّع به القارئ وأرسِّخ به المعنى، مستحضرًا إجابة طلب وتحقيق أمنية **أحمد بن حنبل** حين قال: «ما أحوج الناس إلى قاص صدوق»[(٢)].

ولا تتم الفائدة من هذا الكتاب إلا إذا انتقلت روحك من شعور إلى شعور ومن حال إلى حال، فإذا سافرت في ثنايا هذا الكتاب وهمُّ الدنيا يملأ قلبك، وأشغالها تشغلك، وهمومها تُهِمك، فكأنك قرأت وما قرأت، وحفظت وما فهمت.

أسأل الله أن يشرح صدرك، ويُيَسِّر أمرك، ويُلهِمك رشدك، ويُوفِّقك إلى أعظم الاستفادة من هذه الصفحات، ويجعل هذه الكلمات من العلامات الفارقات في حياتك، وأن تؤثِّر في جنبات روحك التأثير الدائم الذي لا يتغير حتى تلقى الله، وإني على ثقة برحمة ربي أنه لن يخذلني وسيُحقِّق أمنيتي بأن يكون هذا الكتاب من تباشير الصحوة الإيمانية وباكورة اليقظة الروحية.

كتبه لك أخوك

د. خالد أبو شادي

---

(١) ديوان الأسرار والرموز ص ١٣٠.

(٢) تلبيس إبليس ١/ ١٤٦.



أبدأ هذا الباب بسؤال:

قد يقوم إنسان بعملية زراعة قلب، ويحيا بقية حياته بقلب رجل آخر، فهل تتغيَّر مشاعره وتتبدل أفكاره وعواطفه تبعًا لهذا القلب الذي زُرِع فيه؟!

كلا، فالمشاهد أنه لا يتغيَّر دينه ولا محبته لأهله وقرابته، وهذا دليل دامغ على أن كل ما يظنه الناس من وظائف القلب ودوره في الحب والعاطفة، واعتباره مركز الفكر وموطن العقائد والسلوك مسألة فيها نظر، فهل يتعارض هذا مع ما ورد في القرآن والسنة من ذكر القلب مرتبطًا بهذه المعاني؟!

لقد استطاع الإمام **أبو حامد الغزالي** أن يحل هذه الإشكالية ويميِّز بوضوح بين المعنيين اللذين يختلطان في أذهان كثير من الناس، فقال رحمه الله في كتاب عجائب القلب من موسوعته القلبية: «إحياء علوم الدين» كلامًا كالبشرى بالولد الكريم يُقرع به سمع الشيخ العقيم وجاء فيه:

«لفظ القلب وهو يطلق لمعنيين:

أحدهما: اللحم الصنوبري الشكل، المودع في الجانب الأيسر من الصدر، وهو لحم مخصوص، وفي باطنه تجويف، وفي ذلك التجويف دم أسود هو منبع الروح ومعدنه، ولسنا نقصد الآن شرح شكله وكيفيته؛ إذ يتعلق به غرض الأطباء، ولا يتعلق به الأغراض الدينية، وهذا القلب موجود للبهائم؛ بل هو موجود للميت، ونحن إذا أطلقنا لفظ القلب في هذا الكتاب لم نعن به

ذلك، فإنه قطعة لحم لا قدر له، وهو من عالم الملك والشهادة؛ إذ تدركه البهائم بحاسة البصر فضلاً عن الآدميين.

والمعنى الثاني هو لطيفة ربانية روحانية لها بهذا القلب الجسماني تعلق، وتلك اللطيفة هي حقيقة الإنسان، وهو المدرك العالم العارف من الإنسان، وهو المخاطب والمعاقب والمعاتب والمطالب، ولها علاقة مع القلب الجسماني»(١).

والمقصود أنا إذا أطلقنا لفظ القلب في هذا الكتاب أردنا به المعنى الثاني، وهدفنا هو ذكر أوصاف الروح وأحوالها التي تعتبر سرا مغلقا، والتعرض لأصناف النفوس وتقلباتها رغم أنها أمر مبهم، ورغم أن آيات وأحاديث القلب قد يشتبه في بعضها الأمر ويتبادر إلى الذهن أنها مرتبطة بالقلب العضلي، إلا أن المقصود منها على الحقيقة: القلب المعنوي كما قال **الإمام الغزالي**: «وحيث ورد في القرآن والسنة لفظ القلب، فالمراد به المعنى الذي يفقه من الإنسان، ويعرف حقيقة الأشياء، وقد يُكنَّى عنه بالقلب الذي في الصدر؛ لأن بين تلك اللطيفة وبين جسم القلب علاقة خاصة»(٢).

لكن لماذا الحديث عن القلب بالذات دون سائر الأعضاء؟! لقد أحصيت في هذا الباب عشرين سببًا لهذا، وتبدأ بما يلي:

1 إنه الملك:

القلب أمير الجسد وملك الأعضاء، فهو راعيها الوحيد وقائدها، وإنما الجوارح والحواس تبع له وآلات تصدع بما تؤمر، فلا تصدر أفعالها إلا عن أمره، ولا يستعملها في غير ما يريد، فهي تحت سيطرته وقهره، ومنه تكتسب الاستقامة أو الزيغ، وبين القلب والأعضاء صلة عجيبة وتوافق غريب بحيث تسري مخالفة كل منهما فورا إلى الآخر، فإذا زاغ البصر فلأنه مأمور، وإذا كذب اللسان فما هو غير عبد مقهور، وإذا سعت القدم إلى الحرام فسعي القلب أسبق، لهذا قيل عن المصلي العابث في

(١) الإحياء ٣/ ٣.
(٢) السابق ٣/ ٥.

صلاته: «**لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه**»، وقال ﷺ لمن يؤم من المصلين: «**استووا ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم**»[(١)]، فأعمال الجوارح ثمرة لأعمال القلب، والخلاصة: القلب هو خط الدفاع الأول والأخير، فإذا ضعف القلب أو فسد أو استسلم انهارت الجوارح!!

وإلى هذا أشار حجة الإسلام أبو حامد الغزالي حين قال:

«اعلم أن آداب الظواهر عنوان آداب البواطن، وحركات الجوارح ثمرات الخواطر، والأعمال نتائج الأخلاق، والآداب رشح المعارف، وسرائر القلوب هي مغارس الأفعال ومنابعها، وأنوار السرائر هي التي تشرق على الظواهر فتزينها وتحليها. ومن لم يخشع قلبه، لم تخشع جوارحه، ومن لم يكن صدره مشكاة الأنوار الإلٰهية، لم يفض على ظاهره جمال الآداب النبوية»[(٢)].

وفي المقابل إذا ذكر العبد ربه فلأن القلب ذَكَر، وإذا أطلق يده بالصدقة فلأن القلب أذِن، وإذا بكت العين فلأن القلب أمر، فالقلب مملي الكلام على اللسان إذا نطق، وعلى اليد إذا كتبت، وعلى الأقدام إذا مشت، وقد عرف النبي ﷺ للقلب حقه ومكانته حتى وصفه بأنه: «**مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله**»، وتوجه أول ما توجَّه إليه ليربيه ويهتم به ويزكِّيه.

فكل الأفعال مردها إلى القلب وانبعاثها من القلب، وكل الأفعال تعني كل الأفعال ولو كانت لبس ثيابك وزينة بدنك!! وهذا ما أدركه مستودع القرآن الصحابي الجليل **عبدالله بن مسعود** ﷺ فقال: «لا يشبه الزي الزي حتى تشبه القلوب القلوب»[(٣)].

هدف الحبيب الأول

قالت أم المؤمنين **عائشة** رضي الله عنها: «**إنما نزل أول ما نزل منه (القرآن) سورة من المُفصّل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء: لا تشربوا الخمر لقالوا لا ندع الخمر أبدًا، ولو نزل: لا تزنوا لقالوا لا ندع الزنا أبدًا**»[(٤)].

---

(١) صحيح: رواه أحمد ومسلم والنسائي عن ابن مسعود كما في ص ج ص رقم: ٩٦١.
(٢) إحياء علوم الدين ٢/ ٣٥٧.
(٣) الزهد لهناد ١/ ٤٣٨.
(٤) صحيح: رواه البخاري عن يوسف بن ماهك رقم: ٤٦٠٩.



فقد حرَّم الله الخمر في العام الثاني من الهجرة أي بعد البعثة بخمس عشرة سنة، وفرض الزكاة في العام الثاني من الهجرة كذلك، وفرض الحجاب في العام السادس من الهجرة بعد تسع عشرة سنة من بعثة النبي ﷺ، وهي كلها تكليفات تأخَّر نزولها حتى زكى القلب ولان وتمكَّن منه الحق واستبان.

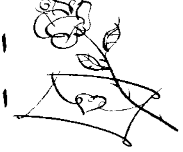
ولشرف القلب جعله الله أداة التعرف عليه ووسيلة الاهتداء إليه، بل إذا غضب الله على عبد كان أقصى عقوبة يُنزلها به أن يحول بينه وبين قلبه، وحيلولته هي أن يحرمه من معرفته وقربه، لذا كان الاهتمام به تعبير عن الاهتمام بالأهم عن المهم وبالأصل عن الفرع.

2 الهدف المشترك:

وقد أدرك الشيطان دور القلب ومكانه فلم يضيِّع وقته في معارك جانبية أو مناوشات هامشية، بل صوَّب جهده نحو هدف واحد وغاية ثابتة. قال ابن القيِّم:

«ولما علم عدو الله إبليس أن المدار على القلب والاعتماد عليه؛ أجلب عليه بالوساوس، وأقبل بوجوه الشهوات إليه، وزيَّن له من الأقوال والأعمال ما يصده عن الطريق، وأمدَّه من أسباب الغي بما يقطعه عن أسباب التوفيق، ونصب له من المصايد والحبائل ما إن سلم من الوقوع فيها لم يسلم من أن يحصل له بها التعويق»(١).

فالقلب هو الهدف المشترك بين الملك والشيطان، كلاهما يستهدفه، فهو موضع الصراع، والنقطة الملتهبة، وساحة القتال، وأرض المعركة، ونتيجة هذه المعركة: إما هداية القلب وحياته، وإما قساوته وموته وهلاكه، فواعجبًا ممن أخذ نصيحة العدو، وردّ وصية الحبيب، واشترى صداقة الشيطان بعداوة الملائكة، وأعلن الحرب على ما تبقى من إيمانه بالتعاون مع عدوه اللدود، وهي صيحة التعجب التي سبق وأن أطلقها ابن الجوزي حين قال:



«كيف طابت نفسك أن تكون ظهيرًا لفئة النفس على فئة القلب، وفئة القلب مؤمنة وفئة النفس كافرة؟!»(٢).

---

(١) إغاثة اللهفان من مكائد الشيطان ص ١٠، ط مكتبة الدعوة الإسلامية.
(٢) التذكرة ص١٩٧.

عن الجوارح مختلف

وقد يقول قائل: لكن الأعضاء والجوارح كذلك مستهدفة من قبل الملائكة والشياطين، فما الفارق بينها وبين القلب؟!

وأقول على لسان **أبي حامد الغزالي** الذي بيَّن الفارق الجلي في قوله:

«العوارض له أكثر، فإن الخواطر له كالسهام، لا تزال تقع فيه، وكالمطر؛ لا تزال تُمطر عليه ليلاً ونهارًا لا تنقطع، ولا أنت تقدر على منعها فتمنع، وليس بمنزلة العين التي بين الجفنين، تغمض وتستريح، أو تكون في موضع خال، أو ليل مظلم فتُكفى رؤيتها، أو اللسان الذي هو وراء الحجابين: الأسنان والشفتين، وأنت قادر على منعه وتسكينه، بل القلب غرض للخواطر، لا تقدر على منعها والتحفظ عليها بحال، ولا هي تنقطع عنك بوقت»(١).

3 طهارته شرط الدخول:

والسبب الثالث في أهمية القلب أن طهارته شرط دخول الجنة؛ لذا ذم الله خبثاء القلوب فقال: ﴿ **أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْۚ لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌۖ وَلَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴾ [المائدة: ٤١]، والآية دليل دامغ على أن من لم يطهِّر قلبه فلا بد أن يناله الخزي في الدنيا والعذاب في الآخرة، ولهذا حرَّم الله سبحانه الجنة على من كان في قلبه مثقال ذرة من خبث، قال ﷺ: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر**»(٢).

ولا يدخلها أحد إلا بعد كمال طيبه وطهره، لأنها دار الطيبين؛ ولذا يُقال لهم وهم على مشارف الجنة: ﴿ **فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ** ﴾ [الزمر: ٧٣].

---

(١) منهاج العابدين ص ٩٥.

(٢) صحيح: رواه مسلم عن ابن مسعود كما في صحيح الجامع رقم: ٧٦٧٤، وقد أبان **ابن قدامة** سر اختصاص الكبر بجعله حجابًا عن الجنة فقال: «وإنما صار حجابًا دون الجنة، لأنه يحول بين العبد وبين أخلاق المؤمنين؛ لأن صاحبه لا يقدر أن يحب للمؤمنين ما يحب لنفسه، فلا يقدر على التواضع، ولا على ترك الحقد والحسد والغضب، ولا على كظم الغيظ وقبول النصح، ولا يسلم من الازدراء بالناس واغتيابهم، فما من خلق ذميم إلا وهو مضطر إليه».

ويُبشَّرون عند موتهم دون غيرهم على لسان الملائكة الكرام: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢].

قال **ابن القيِّم**: «فالجنة لا يدخلها خبيث، ولا مَن فيه شيء من الخبث، فمن تطهَّر في الدنيا ولقي الله طاهرًا من نجاساته دخلها بغير معوِّق، ومن لم يتطهر في الدنيا؛ فإن كانت نجاسته عينية كالكافر لم يدخلها بحال، وإن كانت نجاسته كسبية عارضة دخلها بعد ما يتطهر فى النار من تلك النجاسة، ثم يخرج منها حتى إن أهل الإيمان إذا جازوا الصراط حُبِسوا على قنطرة بين الجنة والنار، فيهَذَّبون وينقَّون من بقايا بقيت عليهم قصرت بهم عن الجنة، ولم توجب لهم دخول النار، حتى إذا هُذِّبوا ونقوا أُذِن لهم في دخول الجنة»(١).

من أجل ذلك جاء الأمر الرباني جازمًا للنبي ﷺ: ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ [المدثر: ٤].

قال **ابن القيِّم**: «وجمهور المفسرين من السلف ومن بعدهم على أن المراد بالثياب ها هنا القلب، والمراد بالطهارة إصلاح الأعمال والأخلاق»(٢).

النجاسة الكبرى

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾ [التوبة: ٢٨].

فعبَّر سبحانه وتعالى عن نجاستهم بالمصدر للمبالغة؛ وكأنهم عين النجاسة لأن خبائث الباطن أولى بالاجتناب وهل أخبث من الشرك؟! فإن خبائث القلب مع خبثها في الحال مهلكات في المآل، ومعنى آخر: هو أن الطهارة والنجاسة غير مقصورة على الظاهر، فالمشرك قد يكون نظيف الثوب مغسول البدن ولكنه نجس القلب، وهذا الذي ذهب إليه أهل المذاهب الأربعة إلى أن الكافر ليس بنجس الذات؛ لأن الله سبحانه أحل طعامهم، وثبت عن النبي ﷺ في ذلك من فعله وقوله، فأكل في آنيتهم، وشرب منها، وتوضأ فيها، وأنزلهم في مسجده.

وإضافة إلى هذا؛ فالنجاسات المعنوية ليست على درجة واحدة بل تتفاوت، وليس محلها قلوب

(١) إغاثة اللهفان ص ٧١.
(٢) إغاثة اللهفان ص ٦٧.

الكفار فحسب، بل قد توجد في قلوب المسلمين، فالغضب والكبر والحسد وغيرها من أمراض القلوب نجاسة، وإذا كان ﷺ قد قال: «**لا تدخل الملائكة بيتًا فيه كلب ولا صورة**»(١)، فإن **أبا حامد الغزالي** [ت: ٥٠٥] قد تأمل في هذا الحديث تأملاً قد يكون بعيدًا عن الظاهر لكنه ذو دلالة فقال:

«والقلب بيت هو منزل الملائكة، ومهبط أثرهم، ومحل استقرارهم، والصفات الرديئة مثل الغضب والشهوة والحقد والحسد والكبر والعجب وأخواتها كلاب نابحة، فأنَّى تدخله الملائكة وهو مشحون بالكلاب، ونور العلم لا يقذفه الله تعالى في القلب إلا بواسطة الملائكة، وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيًا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء، وهكذا ما يرسل من رحمة العلوم إلى القلوب إنما تتولاها الملائكة الموكلون بها، وهم المقدسون المُطهَّرون المُبرَّءون عن الصفات المذمومات، فلا يلاحظون إلا طيبًا، ولا يعمرون بما عندهم من خزائن رحمة الله إلا طيبًا طاهرًا»(٢).

4 موضع نظر الله:

من القلوب قلب كقبور الموتى ظاهرها الزرع والورد وباطنها الجيف والموت، أو كبيت مظلم على سطحه سراج وباطنه ظلام، والنبي ﷺ يقول في هذا: «**إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن إنما ينظر إلى أعمالكم وقلوبكم**»(٣).

إنها حياة القلب وإن كانت البطون خاوية والثياب بالية، وقد أبان الحديث أن القلب هو موضع نظر الرب، فلا عبرة إذن بحسن الظاهر مع خبث الباطن، فاعجب ممن يعتني بمظهره وهندامه الذي هو محل نظر الخلق؛ فيغسل ثوبه ويعطره، وينظِّف بدنه ويطهِّره، ويتزيَّن بما أمكن، لئلا يطَّلع مخلوق على عيب فيه، ولا يهتم بقلبه الذي هو محل نظر الخالق؛ فيطهِّره ويزيِّنه لئلا يطلع ربه منه على دنس أو خبث أو أحد غيره.

---

(١) صحيح: رواه الشيخان عن أبي طلحة الأنصاري كما صحيح الجامع رقم: ٧٢٦٢.
(٢) الإحياء ١/ ٤٩.
(٣) صحيح: غاية المرام ٤١٥، والصحيحة ٢٦٥٦، وتحقيق رياض الصالحين ص ١٤، وأخرجه مسلم.

وتأمَّل ما يلي لتعلم أهمية القلب:

إن العمل قد يكون ظاهره العصيان وصاحبه مُثاب، كأن ينطق الرجل بكلمة الكفر مُكرَها وقلبه مطمئن بالإيمان، أو يشرب مُسكِرا بغير رضاه، وفي المقابل قد يكون ظاهر العمل الإحسان وصاحبه في النار، كأن يُقتل المرء في ساحة قتال ليتغنى الناس بشجاعته، ويُنفق ماله في طرق الخير ليُثني الناس على كرمه، ويقرأ القرآن ليلفت إليه أعناق الغير، والقلب في كل هذه الأحوال واقف وحده في قفص الاتهام أو مُسجَّل بأزهى الحروف في لوحة الشرف.

مذنب وبريء!!

وتأمل قول النبي ﷺ: «**إذا عُمِلَت الخطيئة في الأرض كان من شهِدها؛ فكرِهها كمن غاب عنها، ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها**»(١).

سبحان الله! غائبٌ عن ساحة الجريمة لكنه أول المتهمين واسمه في سجل المذنبين، وآخر حضر الجريمة بنفسه ورآها بعينه ومع ذلك يأتي الحكم له بالبراءة!! والسبب في ذلك كله القلب الذي أنكر فسلِم أو رضي فأثم.

وفي الحديث بشارة ونذارة؛ بشارة لمن اضطر إلى حضور مجلس يُعصى الله فيه ولم يستطع أن ينكره بيده أو بلسانه بل ولم يقدر حتى على مغادرة المكان؛ فيقوم القلب بالواجب وينبري للإنكار، ونذارة لرجل أراد الله له الخير فأبى لنفسه إلا الشر، وعصمه من المنكرات فأبى إلا التلطخ بها، وصرف جسده عن مكان الإثم فسافر إليه بقلبه وروحه فعوقب بمساواته مع مرتكب الجرم.

إنه القلب حين يزني!! نعم يزني، ومع شدة وقع هذه الكلمة على النفس إلا أن الذي أطلقها هو من وصفه ربه أنه بالمؤمنين رؤوف رحيم، ومن رحمته ورأفته بأمته تحذيره الصريح لها بقوله: «**وزنا القلب: التمني**»(٢). قال الشيخ **أحمد عبد الرحمن البنا**: «**زنا القلب التمني**: أي

(١) حسن: رواه أبوداود عن العرس بن عميرة كما في صحيح الجامع رقم: ٦٨٩.
(٢) صحيح: رواه أحمد عن أبي هريرة كما في مسند الإمام أحمد ٢/ ٣٢٩ مذيلا بأحكام شعيب الأرناؤوط، وتتمة الحديث: «**العين تزني، والقلب يزني، فزنا العين النظر، وزنا القلب التمني، والفرج يصدِّق ما هنالك أو يُكذِّبه**».



يهوى وقوع ما تحبه النفس من الشهوة»[١].

إن للقلب كسبًا ككسب الجوارح وعملاً كعملها، والله سبحانه أعلن أنه يؤاخذ على كسب القلب ثوابًا وعقابًا، فقال سبحانه: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٥].

ويشهد لعمل القلب هذا وأن الله يحاسب العبد عليه حديث:

«**إذا التقى المسلمان بسيفيهما، فقتل أحدهما صاحبه، فالقاتل والمقتول في النار**». قيل: يا رسول الله!! هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: «**إنه كان حريصًا على قتل صاحبه**»[٢].

فدخل هذا المسلم النار بشيء وقر في قلبه وهلك بسبب عمل قلبي؛ ليس غير.

الظاهر والباطن!!

نعم.. صورة القلب هي الأصل، فإن وافق الظاهر الباطن كان ما في القلب حقيقيًّا، وإن خالف الظاهر الباطن كان ما في القلب مزيفًا، وعلى القلب أيضًا يتوقف صحة الظاهر أي قبوله عند الله، أما الناس فإنهم مكلَّفون بقبول الظاهر فحسب والحكم على أساسه والله يتولى السرائر، ومن هنا كان مقصد الشهادتين هو توجيه رسالة ملموسة إلى الناس بإسلام الناطق بها، في حين أن الله وحده هو المطلع على غير الملموس من محتوى الباطن، وقد نطقت ألسنة المنافقين بالشهادتين، فعصمت دماءهم في الدنيا، لكن مستقرهم في النهاية هو الدرك الأسفل من النار بما حَوت قلوبهم.

واسمعوا إلى ارتباط الظاهر بالباطن في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي﴾ [آل عمران: ٣١]، فإن حب الله في القلب يورث اتباع الجوارح ولا بد؛ وإلا كان ادعاء وكذبًا وزورًا.

(١) الفتح الرباني ١٦/ ٧٣.
(٢) صحيح: رواه الشيخان عن أبي بكرة كما في اللؤلؤ والمرجان رقم: ١٨٣٤.

5 النافع الوحيد:

قال عز وجل: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩].

فلا القول ينفع، ولا العمل يشفع، بل سلامة القلب هي أصل كل نجاة؛ كما أن فساده أصل كل بلية، لكن ما هو القلب السليم؟!

والجواب: هو القلب الذي سلم من كل شيء إلا من عبوديته لربه. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فالقلب السليم المحمود هو الذي يريد الخير لا الشر، وكمال ذلك بأن يعرف الخير والشر؛ فأما من لا يعرف الشر فذاك نقص فيه لا يُمدح به»(١).

وتأمل كيف جعل الله المال والبنون بمعنى الغنى، كأن المعنى: يوم لا ينفع أحد غناه إلا غنى من أتى الله بقلب سليم؛ لأن غنى الرجل الحقيقي هو في دينه بسلامة قلبه كما أن غناه في دنياه بماله وولده، وعلى هذا يكون من معاني القلب السليم أي من فتنة المال والبنين.

لكن تلميذًا نجيبًا من تلامذة ابن تيمية أفاض في شرح معنى القلب السليم؛ يبغي بذلك إزالة أي لبس أو غموض حتى يسهل الوصول إلى المراد، فقال الإمام ابن القيِّم [ت: ٧٥١]:

«والقلب السليم هو الذى سلم من الشرك والغل والحقد والحسد والشح والكبر وحب الدنيا والرياسة، فسلم من كل آفة تبعده من الله، وسلم من كل شبهة تعارض خبره، ومن كل شهوة تعارض أمره، وسلم من كل إرادة تزاحم مراده، وسلم من كل قاطع يقطعه عن الله، فهذا القلب السليم فى جنة معجلة فى الدنيا، وفى جنة فى البرزخ، وفى جنة يوم المعاد، ولا يتم له سلامته مطلقًا حتى يسلم من خمسة أشياء: من شرك يناقض التوحيد، وبدعة تخالف السنة، وشهوة تخالف الأمر، وغفلة تناقض الذكر، وهوى يناقض التجريد والاخلاص، وهذه الخمسة حُجُب عن الله»(٢).

(١) الفتاوى الكبرى ٥/ ٢٤٩.
(٢) الجواب الكافي ص ٨٤.

لذا كان غرض كل العبادات في الإسلام الوصول إلى القلب السليم ، فالصلاة من أجل القلب ، والصيام من أجله ، والحج والزكاة وكل أحكام الدين هدفها أن تطهِّر قلبك لكي تلقى الله بقلب سليم تدخل به الجنة.

والقلوب تمرض كما تمرض الأبدان ، وتحتاج إلى قوتها من الإيمان كما تحتاج الأبدان إلى الغذاء وإلا ماتت ، وبدون هذا الزاد تهلك وتبلى كما يبلى الثوب ، وبهذا أخبر النبي ﷺ حين شبَّه غائبا غير ملموس بحاضر محسوس فقال :

«إن الإيمان ليخلق في جوف أحدكم كما يخلق الثوب ، فاسألوا الله تعالى : أن يجدِّد الإيمان في قلوبكم»(١) .

وفي آية سورة ق: ﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ۝٣٢ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾ [ق: ٣٢، ٣٣].

وتأمل قوله تعالى في الشعراء: ﴿ أَتَى ﴾، وفي سورة ق: ﴿جَآءَ﴾، وكأن المعنى الذي يريد أن يوصله لك ربك: ائتني بقلب سليم وجئني بقلب منيب تنجُ من عذابي وتنل رضائي، فأنت يا أخي وحدك الذي تملك أن تأتي بمثل هذا القلب وليس أحد غيرك.

وفي المقابل قد يدخل عبد النار بسبب قلب كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

بل إن حال العبد في قبره ما هو إلا انعكاس لحال قلبه في الدنيا كما قرَّر ذلك **ابن القيم** وهو يزيدنا في كتابه زاد المعاد:

«فحال العبد في القبر كحال القلب في الصدر نعيمًا وعذابًا وسجنًا وانطلاقًا»(٢) .

---

(١) صحيح : رواه الطبراني والحاكم عن ابن عمرو كما في صحيح الجامع رقم : ١٥٩٠ .
(٢) زاد المعاد ٢/ ٢٢.

٥ بيت الإيمان والتقوى:

قال خبير القلوب وكاتم سِرِّ النبي ﷺ **حذيفة بن اليمان** ﷺ: حدَّثنا رسول الله ﷺ حديثين، رأيتُ أحدهما، وأنا أنتظر الآخر: **حدَّثنا أن الأمانة نزلت في جِذر قلوب الرِّجال، ثم علموا من القرآن، ثم علموا من السُّنة**، وحدَّثنا عن رفعها قال: «**ينام الرجل النوْمة فتُقْبَض الأمانة من قلبه،..**»[١].

والأمانة المذكورة في الحديث هي الأمانة التي جاءت في قوله تعالى: ﴿ **إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا** ﴾ [الأحزاب: ٧٢]، وهي عين الإيمان، فالأمانة هنا هي الإيمان، وقد أخبرنا ﷺ في هذا الحديث أن الإيمان نزل أول ما نزل في القلب تعبيرًا عن الفطرة السوية التي يولد بها العبد، ثم يزيد الإيمان بعد ذلك اكتسابًا بتعلم القرآن والسنة،، وتأتي أهمية الأمانة من أنها إذا تمكنت من قلب العبد؛ قام بأداء ما أُمِر به واجتنب ما نُهِي عنه بكل طواعية وتسليم.

وفي الشطر الثاني من الحديث أشار ﷺ إلى أن الإيمان يُنزع أول ما يُنزع كذلك من القلب، فمن القلب الزيادة ومنه النقصان، وفيه نشأة الخير ومولد الشر، ولو لم يكن للقلب من فضل إلا أنه وعاء الإيمان لكفاه وفضل عليه.

والقلب كذلك هو وعاء التقوى، وقد قال النبي ﷺ: «**التقوى ها هنا**»، وأشار إلى صدره، علامة على أن مكان التقوى هو القلب، والقلب وحده، فليست التقوى مجرَّد نبرة خشوع أو دمعة عين أو إطالة سجدة أو غير ذلك من المظاهر إذا كانت فارغة من الروحانية والخشوع، إنما هي سِر قلبي مستودع في القلب لا يطلع عليه أحد إلا الله.

---

(١) صحيح: رواه الشيخان والترمذي وأحمد وابن ماجة عن حذيفة كما في اللؤلؤ والمرجان، رقم: ٨٧.

7 هشاشة المصاب:

قال ابن القيِّم:

«ولما كان البدن المريض يؤذيه ما لا يؤذي الصحيح من يسير الحر والبرد والحركة ونحو ذلك، فكذلك القلب إذا كان فيه مرض آذاه أدنى شيء من الشبهة أو الشهوة، حيث لا يقدر على دفعهما إذا وردا عليه، والقلب الصحيح القوي يطرقه أضعاف ذلك وهو يدفعه بقوته وصحته»(١).

فمريض القلب أي نفحة هواء أو هبة تراب تصيبه في مقتل، وأي شهوة عابرة أو زلة تتسبب في فتنته، وأعرى فخ للشيطان يسقط فيه، وأسهل مكيدة لعدوه يسارع إليها، والسبب في ذلك كله ضعف قلبه وانهيار أجهزة المناعة لديه.

8 السرطان:

أصعب المرض عدم معرفة المرض، وأصعب منه عدم معرفة أنك مريض، وأصعب وأصعب أن ترفض الاستماع إلى وصية الطبيب، وهذه ثلاثتها تجتمع في أمراض القلوب، فمرض القلب خفي قد لا يعرفه صاحبه؛ لذلك يغفل عنه، وأمراض القلوب هي سرطان الروح، وخطورتها في أنها كالمرض الخبيث تتسلل إليك دون أن تشعر، فلا ارتفاع حرارة ولا ضغط مرتفع ولا نزيف يؤلم أو جرح ينذر؛ لذا يمرض فيها الطب ولا ينفع.

قال لنا ابن القيِّم بعد أن زرناه في عيادته الربانية:

«وقد يمرض القلب ويشتد مرضه ولا يعرف به صاحبه لاشتغاله وانصرافه عن معرفة صحته وأسبابها، بل قد يموت وصاحبه لا يشعر بموته، وعلامة ذلك أنه لا تؤلمه جراحات القبائح ولا يوجعه جهله بالحق، فإن القلب إذا كان فيه حياة تألّم بورود القبيح عليه، وتألّم بجهله بالحق بحسب حياته، وما لجرح بميت إيلام»(٢).

---

(١) إغاثة اللهفان ص ٢٤.

(٢) إغاثة اللهفان ص ٨٣،٨٤.

ومما يجعل مرض القلب أخطر من مرض البدن بكثير أن مرض القلب عذابه دائم بعد الموت لا ينقضي؛ بعكس مرض البدن الذي يُتخَلَّص منه بالموت، مما يجعل الاهتمام بأمراض القلوب أوجب، والسعي في علاجها أدعى.

إن ما يصيب البدن من أسقام في هذه الحياة يؤجر عليه الإنسان، أما ما يصيب القلب من أمراض فهو الإثم كله والهلاك كله في الحياة وبعد الممات، إنك إذا دخلت معركة فقتلك العدو الظاهر وسلبك حياتك لمت شهيدًا، أما إذا غلبك العدو الباطن بأسلحة الشهوات والشبهات لمت حينئذٍ طريدًا، وشتان عند الله ما بين شهيد وطريد، شتان شتان.

9 وحده مالك دوائه :

قال الله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴾ [الحج: ١٥].

هذه الآية تصف حال نفر من المنافقين امتلأت قلوبهم غيظًا من رسول الله ﷺ ومن علوه ونصره، فقال الله لهم: إن الله ناصر رسوله في الدنيا والآخرة؛ فمن كان يظن من حاسديه وأعاديه أن الله لن يفعل ويغيظه أن يظفر نبينا بموعود الله له؛ فليستقص وسعه وليستفرغ جهده في إزالة ما في قلبه من غيظ بأن يفعل أقصى ما يستطيع فعله، ولو كان ذلك أن يفعل من بلغ منه الغيظ كل مبلغ حتى مدَّ حبلاً إلى سماء بيته فشنق به نفسه، فإنه وإن فعل ذلك فلينظر هل يشفي ذلك ما يجد في صدره من غيظ، كلا والله فلن يذهب غيظه ولن يزول مرضه إلا أن يشاء الله، فالله وحده هو شافي الصدور ورافع وحر القلوب.

والمعنى:

✍ إذا كنت تعاني الكآبة والحزن واليأس والجزع، فهل تملك قوى الأرض جميعًا أن تغيِّر من ذلك مثقال ذرة؟!

- إذا حيزت لك الدنيا بحذافيرها وصارت تحت قدميك؛ لكن امتلأ قلبك كمدًا وغمًّا فهل تهنأ من دنياك بشيء؟!
- إذا غرق قلب في الشك والشبهات والزيغ والرِّيَب؛ فهل يملك نزع ذلك المرض من صدرك أحد من أهل الدنيا ما لم يشأ ربك؟!
- إذا رأيت نعيم الدنيا مقبلاً على غيرك ومُعرِضًا عنك، فمددت عينيك حسدًا ولسانك حقدًا وقلبك غلاًّ، فهل يملك تطهيرك مما أنت فيه أحد غير الله؟!
- إذا أحب قلبك شهوة وأُشرِبها ومال إلى خطيئة وعشقها، فهل يملك أن يعدل قلبك المنكوس ويحيي فطرتك السليمة أحد سوى خالقه؟!
- إذا كره قلبك طاعة واستثقلها وملَّ المداومة عليها حتى كاد ينقطع، فهل يملك أحد أن يحبِّبك فيها ويدنيك منها سوى الذي حبب إلينا الإيمان وزيَّنه في قلوبنا؟!

هذا ما أدركه **مطرف بن عبد الله** حين انخلع من رؤية عمله واعترف بقمة عجزه وغاية ضعفه وردَّ الفضل كل الفضل إلى الله وحده حين قال: «لو أُخرِج قلبي فجُعِل في يدي هذه في اليسار، وجيء بالخير فجُعِل في هذه اليمنى، ثم قُرِّبت من الأخرى ما استطعت أن أولج في قلبي شيئًا حتى يكون الله -عز وجل- يضعه»[(١)].

إلى كل مريض:

يستطيع الإنسان أن يحرِّك رجله إن أراد أو يهوي بيده أو يرفعها، لكن هل يستطيع أن يفعل ذلك مع قلبه؟! كلا والله.. فكيف تتعامل مع قلب لا سلطان لك عليه بل لا سلطان عليه إلا لله، ولا معرفة لك بأسراره وكنهه بل لا يعرف ذلك إلا الله؟! ألا فليعلم كل من أراد علاج قلبه اليوم دون الاستعانة بربه أنه لن يزداد إلا مرضا، ألا وقل لطالبي الشفاء من عند غير الله: يا عظم خسرانكم، ألا قل للواقفين بغير بابه: يا طول هوانكم، ألا قل للمؤمِّلين لغير فضله: يا خيبة أملكم، ألا قل للعاملين عند غيره: يا ضلال سعيكم.

(١) مدارج السالكين ٣/ ١٠٨.



من الذي يستطيع أن يحول بينك وبين الدواء، ويمنع عنك الطاعة؟! ومن الذي يُبدِّل الأمن خوفًا والجبن جرأة؟! ومن الذي يقلب الكره حبًّا والحب كرهًا؟!

أخي.. دواؤك عنده فلا تلتمسه عند غيره، وشفاؤك بيده فلا تُتعِب الأطباء معك، وإن من شيء إلا عنده خزائنه؛ وأنت تائه على أبواب الفقراء تتسول!!

10 موضع الانقلاب:

القلب هو أرق أعضاء الجسم وأسرعها تأثرًا بما يحيط به ويغشاه، ومن رقته أن تؤثِّر فيه أدنى خاطرة وأقل هاجس، وأثر القليل عليه كثير، فالآفات إليه أسرع، وهو إلى الانفلات أدنى، ومن الانقلاب أقرب، فإن قلب المرء وإن صفا زمنًا، وثبت على الإيمان فترة، واستلذ بحلاوته حينًا، فإنه معرَّض للانتكاسة، وهذه هي طبيعة القلب ومنها اشتُقَّ اسمه، قال **القرطبي** وهو يشرح معنى كلمة القلب:

«وهو في الأصل مصدر قلبت الشيء أقلبه قلبًا إذا رددته على بداءته، وقلبت الإناء: رددته على وجهه، ثم نُقِل هذا اللفظ فسُمِّي به هذا العضو الذي هو أشرف الحيوان لسرعة الخواطر إليه ولترددها عليه كما قيل:

ما سُمِّي القلب إلا من تقلُّبه   فاحذر على القلب من قلب وتحول»(١).

قال النبي ﷺ: «**إنما سُمِّي القلب من تَقَلُّبِه، إنما مثل القلب مثل ريشة بالفلاة تعلقت في أصل شجرة يُقلِّبها الريح ظهرًا لبطن**»(٢)، وإن القلب شديد التقلب سريع التحول، ويضرب النبي ﷺ لذلك مثلاً فيقول: «**لقلب ابن آدم أسرع انقلابًا من القدر إذا استجمعت غليانًا**»(٣).

---

(١) تفسير القرطبي ١/ ٢٣٢.
(٢) صحيح: رواه الطبراني عن أبي موسى كما في صحيح الجامع حديث رقم: ٢٣٦٥.
(٣) صحيح: رواه أحمد والحاكم عن المقداد بن الأسود كما في صحيح الجامع حديث رقم: ٥١٤٧.

ولأن القلب سريع التقلب والتغيُّر من حالة الصحة إلى الوعكة الخفيفة إلى المرض العابر ومنه إلى المرض المزمن ، وكل هذا في لحظة واحدة أطلق ابن الجوزي صيحته فيك :

«ويحك!! تعاهد قلبك»[(١)].

إن بقاء قلب المؤمن على الدرجة الرفيعة من الإيمان التي يجدها بعد أعظم العبادات قدرًا، وعقب أكثر المواسم خيرًا وفضلاً؛ أمر مستحيل؛ لشدة انشغال القلب بالدنيا وملذاتها، وما يعتريه فيها من أفراح وأتراح، بل وتعرّضها لغزوات الشيطان المتلاحقة، وتلاعب اليهود بالعورات، وعزفهم على وتر الأهواء، ومع ذلك أريد أن أطمئنك وأُخوِّفك في الوقت ذاته مادام تقليب القلوب بيد الله وحده.

يقول النبي ﷺ: «**إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرِّفه حيث يشاء**»، ثم قال رسول الله ﷺ: «**اللهم مصرِّف القلوب صرِّف قلوبنا على طاعتك**»[(٢)].

أخي.. لقد صليت اليوم خمس صلوات فأجبني صادقًا: كم مرة دعوت بهذا الدعاء؟! مع أنك أحوج إليه من رسول الله ﷺ، والفتن اليوم أعم وأطغى، والقلب أضعف وأوهن، فاحرص على ما بينك وبين الله، وصِل ما انقطع من حبالك معه حتى يثبّتك على مرضاته اليوم ويهديك.

11 أطباؤه مرضى :

وطب القلوب من العلوم التي شحَّت في زماننا، ونتج عنه المرض الذي عمَّ وانتشر حتى أصاب كثيرًا من علمائنا وحاملي دوائنا؛ فحفظت أذهانهم الشروح والمتون، ونسيت جوارحهم الهدى والمنون، وقالت ألسنتهم إنهم عالمون ونطقت أفعالهم أنهم جاهلون.

---

(١) المدهش ص ٤٩٩.
(٢) صحيح: رواه مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص ٤/ ٢٠٤٥ حديث رقم: ٢٦٥٤.

وأكثر علماء زماننا نوعان:

نوع منكبٌّ على حطام الدنيا لاهث وراءها، لا يمل جمعها، ويتقلب شهره ودهره في ملذاتها، وقد أخذت دنياه بمجامع قلبه، ولزمه خوف الفقر وحب التكاثر؛ وأكثر هؤلاء دُفِع إلى ذلك دفعا وأُريد له أن ينشغل بالسعي وراء لقمة العيش والكدِّ من أجل الرزق وأُعطوا في مقابل ذلك الكفاف؛ ليس غير الكفاف، ليظلوا دومًا غارقين في الإعصار، دائرين في الرحى، لا يبلغون ما يأملون، ولا يتركون السعي إلى ما يطمحون؛ وبذلك نسوا أسمى مهامهم وأشرفها وهي وراثة الأنبياء والقيام بوظيفة الرُّسل.

ونوع آخر اختصر الطريق على نفسه، ورضي بالحرام السهل، والشبهة المربحة، واتخذ الإيمان سلعة، يبيع بعضه أو كله، ويقبض الثمن توسعة وإكرامًا وإغداقًا وأموالاً، أهل تصنُّع ودهاء، وتزيُّن للمخلوقين، وتملُّق للحكام، يلتقطون الرُّخص ويفتون بها، ديدنهم المداهنة، وطريقتهم المنافقة؛ ولذا عمَّ البلاء وعزَّ الدواء، وقد سبق للعالم المجاهد **عبد الله بن المبارك** أن رأى أحد إخوانه يسلك أول هذا الطريق فقام بواجبه في النصح على الفور، ومدَّ له يد العون، وما أطيب سيرة رجل **كابن المبارك** كأريج الزهور تنقلها الريح من سهل إلى سهل ومن عصر إلى عصر متجاوزة حدود الزمان والمكان، لتنقل لنا أنه لما قيل له: إن **إسماعيل بن علية** قد ولي الصدقات كتب إليه **ابن المبارك** أبياتًا من الشعر تصلح لكل زمان سرى فيه هذا الداء فقال:

يا جاعل العلم له بازيا ... يصطاد أموال المساكين
احتلت للدنيا ولذاتها ... بحيلة تذهب بالدين
فصرت مجنونا بها بعد ما ... كنت دواءً للمجانين
أين رواياتك في سردها ... عن ابن عون وابن سيرين
أين رواياتك والقول في ... لزوم أبواب السلاطين
إن قلت أُكرهتُ فماذا كذا ... زلَّ حمار العلم في الطين

فلما قرأ الكتاب بكى واستعفى(١).

---

(١) صفة الصفوة ٤/ ١٤٠.

وإن كان لموت القلب علامات تختلف من شخص إلى آخر ومن مهنة إلى أخرى؛ فإن أبرز علامات موت قلب العلماء وأشهرها هي ما عرفناه من **مالك ابن دينار** الذي قال:

«سألتُ الحسن: ما عقوبة العالم؟ قال: موت القلب. قلت: وما موت القلب؟ قال: طلب الدنيا بعمل الآخرة»(١).

وسمَّاهم **ربيعة الرأي** بالسفلة وسفلة السفلة، فقد روى الإمام الجليل **مالك ابن أنس**:

«قال لي أستاذي **ربيعة الرأي**: يا **مالك!** من السفلة؟ قلت: من أكل بدينه، فقال: فمن سفلة السفلة؟ قال: من أصلح دنيا غيره بفساد دينه»(٢).

أظهـــروا لله دينًا ... وعلى الدينار داروا
وله صاموا وصلوا ... وله حجـــوا وزاروا
لو بـــدا فوق الثريا ... ولهم ريـــش لطاروا(٣)

عالم السوء الذي لا يعمل بعلمه فتنة ووبال على نفسه وغيره، ومَثَله مثل صخرة وقفت في فم النهر؛ لا هي تشرب ولا هي تدع الماء يخلص إلى الزرع.. ارحمونا يا علماء السوء!!

إن الفقيــــه إذا غوى وأطاعه ... قومٌ غووا معه فضاع وضيَّعـــا
مِثل السفينة إن هوت في لجة ... تغرقْ ويغرقُ كلٌّ من فيها معا

(١) شعب الإيمان ٢/ ٢٩٦.
(٢) شعب الإيمان ٥/ ٣٥٧.
(٣) العقد الفريد ٣/ ١٧٠،١٦٩.

12 رسالة تحذير:

قال ﷺ: «أول ما يُرْفع من الناس الخشوع»(١).

وهو إشارة إلى أن علم القلوب سيضمحل وسط طغيان علوم الدنيا، وأن أسراره ستضيع وبركاته ستذهب وسط الزحام، وهو أول فساد يمس الأرض بعد رسول الله، ليكون علامة على خبث الباطن، ومخالفة السر العلن، وعندها فساد كل شيء: تذبل القلوب لموت الأرواح فيها، وتقرأ الألسنة العربية القرآن وكأنها أعجمية، فلا فهم ولا تدبر ولا امتثال، وتنشغل الأمة - إن انشغلت - بمظهر العبادة دون جوهرها، وتهتم بأركانها دون مقاصدها، ويكثر البهرج الزائف وإن اتَّشح بوشاح القرآن. قال ﷺ: «أكثر منافقي أمتي قرّاؤها»(٢).

وإذا فشا النفاق في أمة رأيتَ العجب العجاب، ليس في زماننا فحسب، بل وفي زمان من هم أزكى منا وأطهر، وليس بين العوام بل بين حفظة كتاب الله.

قال **النووي**: ما أخاف على ذِمِّي إلا القُرَّاء والعلماء، فاستنكروا منه ذلك، فقال: ما أنا قلته وإنما قاله **إبراهيم النخعي**، وقال **عطاء**: احذروا القُرَّاء واحذروني معهم، فلو خالفتُ أودَّهم لي في رمانة؛ أقول إنها حلوة ويقول إنها حامضة ما أمنته أن يسعى بدمي إلى سلطان جائر.

وقال **الفضيل** لابنه: اشتروا دارًا بعيدة عن القُرَّاء؛ ما لي والقوم! إن ظهرت مني زلة قتلوني، وإن ظهرت علي حسنة حسدوني(٣).

وهل هذا إلا لفساد الباطن وخبث السريرة؛ مع أن الله قد يهدي بقراءتهم الألوف من الناس، لكن ذلك لا يُغني عنهم من عذاب الله من شيء إن هم فسدت قلوبهم، وهذا ما سبق وحذَّرنا منه رسول الله ﷺ فروى عنه **عمر بن الخطاب** ﷺ قوله:

«إن أخوف ما أخاف على أمتي كلُّ منافق عليم اللسان»(٤).

---

(١) صحيح: رواه الطبراني عن شداد بن أوس وانظر حديث رقم: ٢٥٧٦ في صحيح الجامع.

(٢) صحيح: رواه أحمد والطبراني والبيهقي عن ابن عمرو، وأحمد والطبراني عن عقبة بن عامر، والطبراني وابن عدي عن عصمة بن مالك كما في صحيح الجامع حديث رقم: ١٢٠٣.

(٣) فيض القدير ٢/ ٨٠.

(٤) صحيح: رواه أحمد عن عمر بن الخطاب كما في صحيح الجامع حديث رقم: ١٥٥٤.

قال المناوي شارحًا:

«أي كثير علم اللسان، جاهل القلب والعمل، اتخذ العلم حرفة يتأكل بها ذا هيبة وأبهة يتعزز ويتعاظم بها؛ يدعو الناس إلى الله ويفرُّ هو منه، ويستقبح عيب غيره ويفعل ما هو أقبح منه، ويُظهِر للناس التنسك والتعبد ويسارر ربه بالعظائم، إذا خلا به ذئب من الذئاب لكن عليه ثياب، فهذا هو الذي حذَّر منه الشارع ﷺ هنا حذرا من أن يخطِفك بحلاوة لسانه، ويُحرِقك بنار عصيانه، ويقتلك بنتن باطنه وجَنانه»[(١)].

وسبب تحديث عمر ﷺ بهذا الحديث أن الأحنف بن قيس سيد أهل البصرة كان فاضلاً فصيحًا مفوَّها، فقدم على عمر فحبسه عنده سنة يأتيه كل يوم وليلة، فلا يأتيه عنه إلا ما يحب، ثم دعاه فقال: تدري لم حبستك عني؟! قال: لا. قال: إن رسول الله ﷺ حدَّثنا فذكر الحديث، ثم قال: «خشيتُ أن تكون منافقًا عليم اللسان، وإن رسول الله ﷺ حذَّرنا منه، وأرجو أن تكون مؤمنًا، فانحدر إلى مصرك»[(٢)].

وهو ما يؤدِّي حتمًا إلى عدم تأثير الموعظة في القلوب لأن الرامي غير ماهر والسهم غير نافذ، مما دعا الحسن البصري - رحمه الله- إلى أن يتهم قلبه أو قلب الواعظ الذي وعظه حين لم تؤثِّر فيه موعظته قائلاً له: «يا هذا! إن بقلبك لشَرًّا أو بقلبي»[(٣)].

13 أعمال القلوب أولى وأغلى:

لعمل القلب المكانة العظمى والمنزلة الأسمى في دولة الإيمان؛ لذا ذكر العلماء أن عمل القلب أهم من عمل الجوارح، قال الإمام ابن القيم رحمه الله:

«ومن تأمل الشريعة في مصادرها ومواردها علم ارتباط أعمال الجوارح بأعمال القلوب، وأنها لا تنفع بدونها، وأن أعمال القلوب أفرض على العبد من أعمال الجوارح، وهل يُميَّز المؤمن عن المنافق إلا بما في قلب كل واحد منهما من الأعمال التي ميَّزت بينهما؟! وهل يمكن

(١) فيض القدير ٢/ ٤١٩.
(٢) فيض القدير ٢/ ٢٢١.
(٣) البيان والتبيين ص ٥٩، ط دار صعب - بيروت.

أحد الدخول في الإسلام إلا بعمل قلبه قبل جوارحه؟! وعبودية القلب أعظم من عبودية الجوارح وأكثر وأدوم، فهي واجبة في كل وقت»[(١)].

وقال في موضع آخر:

«فعمل القلب هو روح العبودية ولبها، فإذا خلا عمل الجوارح منه كان كالجسد الموات بلا روح»[(٢)].

وقال أيضًا:

«فمعرفة أحكام القلوب أهم من معرفة أحكام الجوارح؛ إذ هي أصلها وأحكام الجوارح متفرعة عليها»[(٣)].

ولهذا يسبق أصحاب القلوب أصحاب الجوارح بمراحل وعلى الدوام، «فالكيِّس يقطع من المسافة بصحة العزيمة وعلو الهمة وتجريد القصد وصحة النية مع العمل القليل أضعاف أضعاف ما يقطعه الفارغ من ذلك مع التعب الكثير والسفر الشاق، فإن العزيمة والمحبة تذهب المشقة وتُطيِّب السير، والتقدم والسبق إلى الله سبحانه إنما هو بالهمم وصدق الرغبة والعزيمة، فيتقدم صاحب الهمة مع سكونه صاحب العمل الكثير بمراحل، فإن ساواه في همته تقدَّم عليه بعمله»[(٤)].

14 عليه مدار الأجر وتفاوته:

فتتفاوت الأجور في كل عمل حسب محتوى القلوب، ففي الصلاة: قد يصلي الرجلان في صف واحد وبين ثوابهما كما بين السماء والأرض، وقد ينفق الأخوان مبلغًا واحدًا فينال أحدهما أجرًا واحدًا بينما الآخر ينال سبعمائة أجر أو أكثر، وقد يدرك قلبان ليلة القدر فيتضاعف أجر أحدهما عن الآخر أضعافًا مضاعفة، بل حتى في الجهاد؛ ففي غزوة مؤتة لما قتل جعفر أخذ عبد الله بن

---

(١) بدائع الفوائد ٣/ ٧١٠.
(٢) المصدر السابق نفسه.
(٣) بدائع الفوائد ٣/ ٧٠٥.
(٤) الفوائد ١/ ١٤٢.

رواحة الراية، ثم تقدَّم بها وهو على فرسه، فجعل يستنزل نفسه ويتردد بعض التردد، ثم أخذ سيفه وتقدم فقاتل حتى قُتِل ﷺ. قال ﷺ: «**لقد رُفعوا إلى الجنة فيما يرى النائم على سرر من ذهب، فرأيت في سرير عبد الله بن رواحة ازورارًا عن سريري صاحبيه، فقلت: عمَّ هذا؟! فقيل لي: مضيا وتردد عبد الله بن رواحة بعض التردد ثم مضى**»(١).

لحظة واحدة من عمل القلب كانت سببًا في تأخر ابن رواحة، ولمحة من طرْف العين أنزلته دون صاحبيه، ليحوز شهادة دون شهادة، وفوزًا دون فوز، وهذ كله من عمل لحظة!! لكنها لحظة قلبية، لكن كيف بمن غرق قلبه الأيام والأعوام في غفلات متتابعات وسكرات متلازمات؟! تُرى كم يتأخر في الجنة؛ هذا إن دخلها!!

لذا أدرك **ابن عطاء السكندري** قيمة عمل القلب فانطلق يرسي قاعدة وزن الأعمال، وهي قاعدة سارية المفعول في زمانه وغير زمانه:

«ما قَلَّ عمل برز من قلب زاهد، ولا كثر عمل برز من قلب راغب»(٢).

وأكَّدها **يحيى بن معاذ** في قوله الأخَّاذ:

«مفاوز الدنيا تُقطع بالأقدام، ومفاوز الآخرة تُقطع بالقلوب»(٣).

بل وشهد لأعمال القلوب من قبل هؤلاء جميعًا الصحابي المُعلِّم **عبد الله بن مسعود** ﷺ حين قال مخاطبًا جموع التابعين المجدين في عبادات الجوارح: «أنتم أطول صلاة، وأكثر اجتهادًا من أصحاب رسول الله، وهم كانوا أفضل منكم». قيل له: بأي شيء؟ قال: «إنهم كانوا أزهد في الدنيا وأرغب في الآخرة منكم»(٤).

15 رفعة الدنيا وشرف الآخرة:

واسمع كيف رفعت القلوب قوما كانوا خدمًا وعبيدًا، وسمت بذكرهم فوق السحاب، ووالله

(١) فقه السيرة ص ٣٦٨، وقد رواه ابن إسحاق منقطعًا.
(٢) شروح الحكم العطائية ص ١٨٤.
(٣) حلية الأولياء ١٠/ ٥٢.
(٤) صفة الصفوة ١/ ٤٢٠، ٤٢١.

لو كانت قلوبهم غير نقية أو خالصة لطمس الله ذكرهم وبعثر علمهم ومحا سيرتهم، أو قرنها بكل خبيث وسوء، ولكنه القلب الحي يظل ينبض بعد موت صاحبه يتغنى بالذكر الجميل والسيرة العطرة، بذا نطق الأمير شوقي فقال:

الناس صنفان: موتى في حياتهم　　　وآخرون ببطن الأرض أحياءُ

قال ابن أبي ليلى:

«قال لي **عيسى بن موسى** وكان جائرًا شديد العصبية للعرب: من كان فقيه البصرة؟ قلت: **الحسن بن أبي الحسن**. قال: ثم من؟ قلت: **محمد بن سيرين**. قال: فما هما؟ قلت: موليان.

قال: فمن كان فقيه مكة؟ قلت: **عطاء بن أبي رباح، ومجاهد بن جبر، وسعيد ابن جبير، وسليمان بن يسار**. قال: فما هم؟ قلت: موالي.

فتغيَّر لونه، ثم قال: فمن كان أفقه أهل قباء؟ قلت: **ربيعة الرأي، وابن أبي الزناد**، قال: فما كانا؟ قلت: من الموالي.

فاربدَّ وجهه ثم قال: فمن كان فقيه اليمن؟ قلت: **طاووس، وابنه، وهمام بن منبه**. قال: فما هؤلاء؟ قلت: من الموالي.

فانتفخت أوداجه فانتصب قاعدًا، ثم قال: فمن كان فقيه خراسان؟ قلت: **عطاء بن عبد الله الخراساني**. قال: فما كان **عطاء** هذا؟ قلت: مولى.

فازداد تغيظًا وحنقًا، ثم قال: فمن كان فقيه الجزيرة؟ قلت: **ميمون بن مهران**. قال: فما كان؟ قلت: مولى.

قال: فتنفس الصعداء، ثم قال: فمن كان فقيه الكوفة؟ قلت: فوالله لولا خوفه لقلت: **الحكم بن عُيينة، وعمار بن أبي سليمان**، ولكن رأيت فيه الشر، فقلت: **إبراهيم، والشعبي**. قال: فما كانا؟ قلت: عربيان. قال: الله أكبر! وسكن جأشه»(١).

لله درُّهم.. عبيدٌ أشرف من سادة، وهمم تناطح الجبال؛ ونجوم ساطعة وإن رآهم الجاهل في أدنى سلم المجتمع أو في القاع، وملوك آخرة ولو لم يجدوا ما يسد الرمق، والسر من وراء هذا كله

---

(١) العقد الفريد ٣/ ٣٢٨، ٣٢٩، تحقيق محمد سعيد العريان، ط دار الفكر.

القلب، وما يضرهم أن يكونوا من الحطام الفاني والعز الراحل فارغي اليد إذا كانوا من كنوز الشفاء ونوافع الدواء ممتلئي القلب؟!

وصدق **إقبال** وهو يجزم:

بامتثال الأمر يعلو من رَسَب   وهوى الطاغي ولو كان اللهب[(١)]

16 العلم الحقيقي:

وهو علم القلوب، وقد فهم سلفنا الصالح أهمية هذا علم القلوب على سائر العلوم، فقال عنه **أبو حامد الغزالي**: «وهو فرض عين في فتوى علماء الآخرة»[(٢)]، وقال **عمرو بن قيس الملائي**[(٣)]: «حديث أُرقِّق به قلبي، وأتبلَّغ به إلى ربي، أحب إليَّ من خمسين قضية من قضايا **شُرَيح**»[(٤)] بل لما قيل للإمام **أحمد**: من نسأل بعدك؟! قال **عبد الوهاب الوراق**. قيل له: إنه ليس له اتساع في العلم قال: إنه رجل صالح مثله يُوفَّق لإصابة الحق، وسُئل كذلك عن **معروف الكرخي**؛ فقال: كان معه أصل العلم: خشية الله[(٥)].

واستُفتي **الحسن** عن مسألة فأجاب فقيل له: إن فقهاءنا لا يقولون ذلك، فقال: «وهل رأيت فقيهًا قط؟! الفقيه: القائم ليلة الصائم نهاره الزاهد في الدنيا»[(٦)].

وعن **ليث** قال: «كنت أسأل **الشعبي** فيُعرِض عني ويجبهني بالمسألة، فقلت: يا معشر العلماء! يا معشر الفقهاء! تروون عنا أحاديثكم وتجبهوننا بالمسألة، فقال **الشعبي**: يا معشر العلماء! يا معشر الفقهاء! لسنا بفقهاء ولا علماء، ولكنا قوم قد سمعنا حديثًا، فنحن نحدثكم بما سمعنا، إنما الفقيه من

---

(١) ديوان الأسرار والرموز ص ٣٨، ط دار الأنصار، الطبعة الثانية، ١٤٠١هـ-١٩٨١م.
(٢) الإحياء ١/ ٢١.
(٣) قال الثَّوري: عمرو بن قيس هو الذي أدَّبني، علمني قراءة القرآن والفرائض، وكنت أطلبه في سوقه، فإن لم أجده، ففي بيته، إما يصلِّي، أو يقرأ في المصحف، كأنه يُبادر أمرًا يفوتُه، فإن لم أجده، وجدتُه في مسجدٍ قاعدًا يبكي، وأجدُه في المقبرة ينوح على نفسه، وقد ازدحم في جنازته خلق أبيض لم يُرَ في خلقتها وحسنها وعليهم ثياب بيض، فلما صلوا عليه فُقِدوا!!.
(٤) حلية الأولياء ٥/ ١٠٢، ١٠٣.
(٥) جامع العلوم والحكم ١/ ٩٥.
(٦) إحياء علوم الدين ٣/ ٣٨٩.

ورع عن محارم الله، والعالم من خاف الله»[١].

وليس الوصول إلى الله والدار الآخرة بكثرة العلم والرواية بل بثمرة العلم والهداية، وما قيمة علم لا يدفع صاحبه إلى العمل؟! وهل هو إلا حجة عليه ودليل إدانته وعلامة عدم اكتراثه بربه؟! لذا كان نهج السلف تجهيز تربة القلب وإعدادها جيدًا قبل أن يبذروا فيها أي بذرة علم. قال **سفيان الثوري**: «كان الرجل لا يطلب الحديث حتى يتعبَّد قبل ذلك عشرين سنة»[٢].

يا من تباعد عن مكارم خلقه ... ليس التفاخر بالعلوم الزاخرة
من لم يهذِّب علمُه أخلاقَه ... لم ينتفع بعلومه في الآخرة

لن ينتفع وسيخسر ويُخبر عن نفسه عند انكشاف غطائه وطلب الرسل له لقدومه على ربه فقال وصدق:

إن كان منزلتي في الحب عندكم ... ما قد لقيت فقد ضيَّعتُ أيامي
أمنية ظفرَت نفسي بها زمنًا ... واليوم أحسبها أضغاث أحلام

المحتالون

وإذا مرِض قلب العالم استخدم علمه في حِيَل يظن بها أن يتخلص من حكم الشرع وعاقبة البغي وكأن الله غير مطلع عليه، وقد انتشرت هذه الحيل عندما وهن الإيمان في الصدور واستثقل الناس أحكام الشرع؛ حتى أفرد **ابن القيم** في كتابه إغاثة اللهفان فصولاً عن الحيل وأقسامها، واسمع إلى واحدة من هذه الحيل يرويها لك **أبو حامد الغزالي**:

«وحُكي أن **أبا يوسف القاضي** كان يهب ماله لزوجته آخر الحول، ويستوهب مالها إسقاطًا للزكاة، فحُكِي ذلك **لأبي حنيفة** رحمه الله؛ فقال: ذلك من فقهه، وصدق فإن ذلك من

(١) الحلية ٤/ ٣١١.
(٢) حلية الأولياء ٦/ ٣٦١.

فقه الدنيا، ولكن مضرته في الآخرة أعظم من كل جناية، ومثل هذا هو العلم الضار»[(١)].

لذا كان عليك وأنت تدرس أي علم من علوم الشرع اليوم أن تقرأه بروح جديدة، وقلب كأنه وُلِد اليوم ولم يتلطَّخ بخطيئة بعد، وخذ مثلاً على ذلك: عِلم السيرة الذي حثَّك الأستاذ البهي الخولي على قراءته بهذه الطريقة الجديدة باستخدام قلبك قبل عينك، وبروحك وعاطفتك مع عقلك، وأرشدك إلى الطرح الحي فقال:

«أن تُكثِر مصاحبة مولانا رسول الله ﷺ في سيرته المطهرة مصاحبة وجدانية عميقة، تجعلك في مجلسه – عليه السلام- إذا جلس، وفي ركابه إذا ركب، وفي معيته إذا سار، وتُسمعك قوارع وعظه، وتُسرِّب إلى قلبك رقة مناجاته إذا ناجى ربه في جوف الليل، أو في خلوات النهار، وتصل عواطفك بعواطفه صلوات الله عليه، حتى تكاد تشعر بخلجات قلبه العظيم إذا غضب، وبشاشته وسماحته إذا تسهل لشيء وتهلل، وتسلكك في صفوف المؤمنين به، فأنت معهم حين يسامون العذاب، تألم كما يألمون، وتهاجر كما يهاجرون، تهاجر معهم بوجدانك وخيالك وعواطفك إلى الحبشة أو غيرها من بلاد الله، فإذا شُرِع له الجهاد في المدينة، فأنت تحت لوائه المُظفَّر، تشهده ممتطيًا صهوة جواده، وقد لبس لامة الحرب، وتقلَّد السيف، وأخذ برمحه، فهو فارس الميدان، وقائد الفرسان، تزهر عيناه الشريفتان من تحت مغفره، فما يصعد شرفًا ولا يهبط واديًا، ولا ينال من عدو نيلاً إلا وأنت معه عليه السلام، تكاد تضرِب إذا ضرب، وتُقدِم إذا أمر، وتفديه بما تملك، وتحوطه بكل ما في سويداء قلبك من حب وعاطفة»[(٢)].

17 شرط الطبيب الناجح:

قال ابن القيم في كتابه الطب النبوي عندما تكلم عن الطبيب الحاذق وذكر أنه يجب أن يراعى في علاجه عشرين أمرًا كان منها:

«أن يكون له خبرة باعتلال القلوب والأرواح وأدويتها، وذلك أصل عظيم في علاج

---

(١) إحياء علوم الدين ١/ ١٨.

(٢) تذكرة الدعاة ص ٢٠٤، ط مكتبة التراث.

الأبدان، فإن انفعال البدن وطبيعته عن القلب والنفس أمر مشهود، والطبيب إذا كان عارفًا بأمراض القلب والروح وعلاجها كان هو الطبيب الكامل، والذي لا خبرة له بذلك وإن كان حاذقًا في علاج الطبيعة وأحوال البدن نصف طبيب، وكل طبيب لايداوي العليل بتفقد قلبه وصلاحه، وتقوية أرواحه وقواه بالصدقة وفعل الخير والإحسان والإقبال على الله والدار الآخرة فليس بطبيب بل مُتَطَبِّب قاصر»(١).

إن غاية ما وصل إليه طب الدنيا أنه يصف الدواء، لكنه لا يضمن لك حتمية الشفاء، أما دواء الآخرة فالله هو الذي ضمن لمن تناوله تمام الشفاء، ولو علم الناس ما للطاقة الروحية من فوائد علاجية على الجسم والنفس لتخلو عن استعمال كمية وافرة من الأدوية التي في معظمها لا تعالج إلا الأعراض، ولا تنفذ إلى الأسباب، وقد كان سلفنا الصالح أدرى ما يكونون بذلك، فأرشدوا أطباء الدنيا إلى ما غاب عنهم من طب الآخرة، وعلَّموهم أن راحة قلب للمريض وسعادته لها أعظم الأثر في محاصرة داء الجسد ودفع بلائه.

قال **ابن القيِّم** وهو يصف حال شيخه **ابن تيمية**:

«وحدَّثني شيخنا قال: ابتدأني مرض، فقال لي الطبيب: إن مطالعتك وكلامك في العلم يزيد المرض، فقلت له: لا أصبر على ذلك؛ وأنا أحاكمك إلى علمك، أليست النفس إذا فرحت وسُرَّت قويت الطبيعة فدفعت المرض، فقال: بلى، فقلت له: فإن نفسي تُسَرُّ بالعلم، فتقوى به الطبيعة، فأجد راحة، فقال: هذا خارج عن علاجنا»(٢).

18 قلب يقلب المعركة:

قد يدخل قلبٌ المعركة فيقلب الهزيمة الساحقة نصرًا مبينًا خاصة إن كان من نوع قلب **أبي طلحة** ﷺ الذي شهد له النبي ﷺ: **«صوت أبي طلحة في الجيش خير من ألف رجل»**(٣).

صوته فحسب بألف فكيف بسيفه؟! وهل بلغ هذا إلا بقلبه وما يحوي قلبه؟ وهل هذا إلا نتاج

---

(١) الطب النبوي ص ١٣٩، ١٤٠، ابن قيم الجوزية، منشورات دار مكتبة الحياة بيروت، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
(٢) روضة المحبين ١/ ٧٠.
(٣) صحيح: رواه سمويه عن أنس كما في صحيح الجامع حديث رقم: ٣٨٠٠.

شجاعته وإقدامه وثباته وإيمانه وهي كلها أعمال قلوب؟! رحمة الله عليه وكأنه يشرح بفعله معنى قول ابن الجوزي: «الشجاع يلبس القلب على الدرع، والجبان يلبس الدرع على القلب»(١).

ليدخل بذلك في زمرة من عناهم رسول الله ﷺ بقوله: «**خير الصحابة أربعة، وخير السرايا أربعمائة، وخير الجيوش أربعة آلاف، ولا تُهزَم اثنا عشر ألفًا من قلة**»(٢).

ومعنى آخِر مقطعٍ في الحديث: «**ولا تُهزَم اثنا عشر ألفًا من قلة**»: أن هزيمة أي جيش إن بلغ هذا العدد لا تكون بسبب قلته لكن بسبب قلوب جنوده، فهل علمتم الآن سبب غثائية الأمة وكثرة زبدها وضعف قوتها ووهن عزيمتها وتبوئها ذيل الأمم؟

وفي المقابل: قد ينقلب قلب نصر الأمة هزيمة ماحقة، فإن مرضًا واحدًا من أمراض القلب وهو الوهن كان كافيًا لتسلط حفنة من اليهود لا تجاوز ملايينها عدد أصابع اليدين على مقدَّرات أمة فاق عددها الألف ومائتي مليون مسلم، إن قلوبنا هي سلاحنا الحقيقي في معركتنا الفاصلة مع العدو؛ لذا كانت ولا زالت هي هدف العدو الأساسي ومرمى سهامه الوحيد، يبث فيها السم ليتفشى فيها الداء؛ فتبقى دومًا طريحة فراش الشهوات والأمنيات، وتترك بوابة الأمة مفتوحة على مصراعيها لغارات العدو بعد أن رفعت رايتها البيضاء مستسلمة.

ويعضِّد هذا قول رسولنا الكريم ﷺ: «**صلاح أول هذه الأمّة بالزهد واليقين، ويهلك آخرها بالبخل والأمل**»(٣)، وهي كما ترى ليست أعمال جوارح بل أعمال قلوب، فاعلم قدر قلبك وأعطه ما يستحق واعتن به يا غافلا عن أثمن ما يملك!! نصر الأمة في قلب وهزيمتها من قلب، فأي القلبين قلبك؟!

19 مستودع الأخلاق والمشاعر:

إن قلب المرء هو الذي يتحكم في أخلاقه ويكظم انفعالاته ويضبط سلوكه ويهذِّب الشارد من

---

(١) المدهش ص ٤٦٥.

(٢) صحيح: رواه الترمذي وأبو داود والحاكم عن ابن عباس كما في صحيح الجامع حديث رقم: ٣٢٧٨.

(٣) حسن: رواه أحمد والطبراني في الأوسط، وحسنه الألباني في ص ج ص رقم: ٣٨٤٥.

طباعه، وهل تسكن أخلاق الأمانة والوفاء والصبر والحلم والرحمة والعفو والصدق والعدل بيتًا غير القلب؟! ولذا قال **الأحنف بن قيس**:

ولربما ضحك الحليم من الأذى ... وفؤاده من حرِّه يتأوَّه

ولربما شَكِل الحليم لسانه ... حذر الجواب وإنه لَمُفوَّه(١)

فحُسْن الخلق من حياة القلب، وسوء الخلق من مرض القلب أو موته، وقد كان النبي ﷺ أحسن الناس خلقًا؛ ولذا فقد كان قلبه أعمر القلوب بالحياة حتى أيقظ قلوب كل من كان حوله في حياته وبعد رحيله.

قال **أبو حامد الغزالي**:

«القلب خزانة كل جوهر للعبد نفيس، وكل معنى خطير، أولها: العقل، وأجلُّها: معرفة الله تعالى التي هي سبب سعادة الدارين، ثم البصائر التي بها التقدُّم والوجاهة عند الله تعالى، ثم النية الخالصة في الطاعات التي بها يتعلَّق ثواب الأبد، ثم أنواع العلوم والحكم التي هي شرف العبد، وسائر الأخلاق الشريفة الخصال الحميدة التي بها يحصل تفاضل الرجال، وحُقَّ لهذه الخزانة أن تُحفظ وتصان عن الأدناس والآفات، وتُحرس وتُحرز من السُرَّاق والقُطَّاع، وتُكرم وتُجَلَّ بضروب الكرامات؛ لئلا يلحق تلك الجواهر العزيزة دنس، ولا يظفر بها – والعياذ بالله – عدو»(٢).

إن قلبًا عزيزًا يمتلئ بالحزن سوف يرسل الأوامر إلى الوجه ليبتسم حتى لا يعلم الناس ما به من أذى، فإن علموا ما به ظلَّ متألما بِذُلِّ الشكوى محترقا بنار شفقة الناس عليه.

وهكذا كان قلب العزيز النبيل **أسامة بن منقذ** حين قال:

نافقتُ قلبي فوجهي ضاحكٌ جذِل ... طلق وقلبي كئيب مُكْمد باكِ

وراحة القلب في الشكوى ولذتها ... لو أمكنت لا تساوي ذلة الشاكي

(١) العقد الفريد ٢/ ١٤١.

(٢) منهاج العابدين ص ٩٤، ط دار الحكمة الطبعة الأولى، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م، تحقيق وتعليق موفق فوزي الجبر.

إن القلب والباطن هو من يضبط ويتحكم في الجوارح والظاهر ليظهر أمام الناس ما يسمح به القلب فحسب، ويأذن به ويرضاه، واسمع مرة ثانية إلى قول أسامة بن منقذ وتمثيله الجميل:

انظر إلى حسن صبر الشمع يُظهِرُ ... للرائين نورًا وفيه النار تستعِر

كذا الكريم تراه ضاحكًا ... جذِلا وقلبه بدخيل الغم منفطر

20 بين الموت والحياة:

قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وهذا مثل ضربه الله للذي هداه بعد الضلالة وشبَّهه بأنه كان كالميت الذي أحياه الله، وجعل له نورًا يمشي به في الناس مستضيئًا به، فيميز بعضهم من بعض، ويفصل بين أبيضهم وأسودهم وجميلهم وقبيحهم ومن يعرف منهم ومن لا يعرف، ويسير فلا يتعثَّر أو ينكب على وجهه، ويعرف طريقه بل يساعد غيره على معرفة طريقه: يرشد العميان ويهدي الحيران، أهذا مثله مثل من بقي على الضلالة المتخبط في الظلمة لا ينفك منها ولا يتخلص؟!

ولكي تفهم الفارق جيدًا بين الفريقين وترى التناقض الكبير والبون الشاسع بين طريقين، فاسمع ما قاله زيد بن أسلم والإمام السُّدِّي في تفسير هذه الآية: «﴿فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾: عمر ﷺ، ﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾: أبو جهل لعنه الله»(١).

إنه الفارق بين السماء والأرض، لكن الصحيح أنها عامة في كل مسلم وكافر، أو ضالٍّ ومهتدٍ، ووصف الموت هذا أحد عشرة أوصاف وصف الله بها قلوب الكافرين في القرآن. قال الإمام القرطبي: «وقال أهل المعاني: وصف الله تعالى قلوب الكفار بعشرة أوصاف: بالختم والطبع والضيق والمرض والرين والموت والقساوة والانصراف والحمية والإنكار...

---

(١) القرطبي ٧/ ٧٠.

فقال في الإنكار: ﴿قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾[النحل: ٢٢]، وقال في الحمية: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ﴾ [الفتح: ٢٦]، وقال في الانصراف: ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾[التوبة: ١٢٧]، وقال في القساوة: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الزمر: ٢٢]، وقال: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ [البقرة: ٧٤]، وقال في الموت: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وقال: ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ﴾ [الأنعام: ٣٦]، وقال في الرين: ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين: ١٤]، وقال في المرض: ﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ [البقرة: ١٠]، وقال في الضيق: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾[الأنعام:١٢٥]، وقال في الطبع: ﴿ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ [التوبة:٨٧]، وقال: ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ﴾[النساء: ١٥٥]، وقال في الختم: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾[البقرة: ٧]»[1].

وفي مقابل وصف: ميت؛ أطلق الله على كل من قُتِل جهادًا في سبيله لفظ: حي، بل حرَّم علينا أن نطلق عليهم لقب أموات، وما ذلك إلا لحياة قلبه، فقال: ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴾[البقرة: ١٥٤].

فنهانا سبحانه أن نطلق على الشهيد كلمة: ميت، فهو حي في حياته وبعد رحيله، لذا قال النبي ﷺ عن **طلحة بن عبيد الله** وهو حي: «**طلحة ممن قضى نحبه**».

فالحي حي في حياته وبعد مماته، وميت القلب ميت في حياته وبعد موته، وحياة قلب الشهيد توحي بها معنى كلمة شهيد والتي تعني أنه شهد على الغيب حتى صار عنده شهادة، ولأنه رأى بقلبه ما لا يراه الناس إلا بعد موتهم؛ فأقدم على التضحية بأغلى ما يملك؛ كوفئ باستمرا إطلاق صفة الحياة عليه حتى بعد الموت.

---

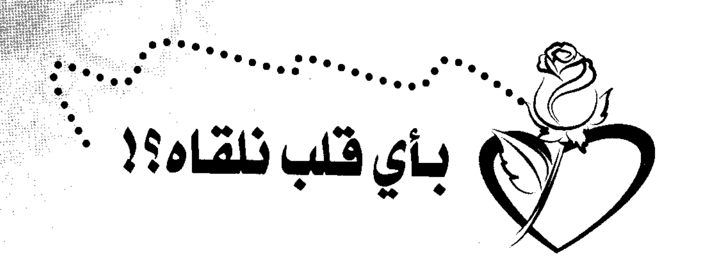
(١) القرطبي ١/ ٢٣٢.

٢

بأي قلب نلقاه؟!







بأي قلب نلقاه؟!

تُرى لو قبضنا الله الآن فبأي قلب نلقى الله؟! واسأل نفسك اليوم صادقًا: قلبك معك أم عليك؟! عندك أم عند غيرك؟!

ومن العجب أن الرجل فينا كلما لقي أخاه أو صاحبه سأله عن أولاده وعن عمله وعن أهله وعن صحته وعن تجارته وعن كل شيء، لكنه لا يسأله أهم سؤال: ما حال قلبك؟

ولو سُئل أحدنا هذا السؤال لاستغرب أشد الاستغراب هذا إن فهمه في الأصل، فأي القلوب قلبك؟! أم أنك لا تملك قلبًا من الأساس؟!

قال ابن القيِّم:

«اطلب قلبك في ثلاثة مواطن: عند سماع القرآن، وفي مجالس الذكر، وفي أوقات الخلوة، فإن لم تجده في هذه المواطن؛ فسل الله أن يمن عليك بقلب فإنه لا قلب لك»(١).

ولذا لما قابل رجلٌ قلبًا من القلوب الحية من أمثال الربيع بن خيثم وسأله عن حاله انصرف عقل الربيع أول ما انصرف أنه يسأله عن قلبه وحياة روحه، فلما قال له قائل: كيف أصبحت؟

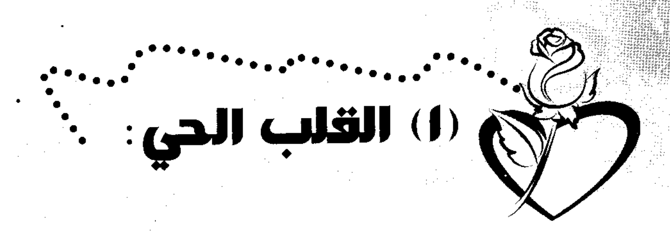
قال: «أصبحنا مذنبين، نأكل أرزاقنا، وننتظر آجالنا»(٢).

فكم منا يفهم ما فهم الربيع، ويجيب مثل ما أجاب؟! فالحياة حياة القلب، والموت موت القلب، والمرض مرض القلب، وإلى أقسام القلوب نتجوَّل في هذه الصفحات.

---

(١) الفوائد ص ١٤٨، ١٤٩.
(٢) حلية الأولياء ٢/ ١٠٧.





1 إذا ذُكِر الله وجل قلبه:

ولا تزال قصة الطبيب المسلم الذي عاد أحد مرضاه قديمًا دالة على معنى وجل القلب، وذلك أنهم حكوا أن طبيبًا ذهب ليتفقد أحد المرضى، والذي كان طريح الفراش لا يُدرى سبب مرضه، ولا يُعرف له علة ظاهرة، فتناول الطبيب يد المريض ليقيس النبض، وأخذ أثناء ذلك يسأل من حوله عن أحواله، ثم عرَّج فسأل عن جيرانه، فأخذ النبض عندها يسرع شيئًا فشيئًا، حتى إذا سأل عن جار بعينه وهنا أسرع النبض أكثر؛ حتى إذا سأل عن أبناء هذا الجار اضطربت أوصال المريض وازداد النبض علوا، فلما ذُكِر أن له ابنة حسناء وأتى ذكر اسمها سَرَت الرعشة من نبضه إلى جسده الذي بدأ يرتجف، وبصره الذي زاغ، ووجهه الذي أمطر العرق، فقال الطبيب لأهله عندها: هذا ليس بمريض!! هذا رجل عاشق!!

ولله المثل الأعلى! أيحضر القلب عند ذكر الحبيب ولا يحضر عند ذكر المجيب؟! أتخشع الجوارح لذكر المخلوق ولا تبالي بذكر الخالق؟! أينقطع الفؤاد كمدًا لغياب فانٍ وزائل ولا يبالي بهجران باقٍ ودائم؟!

من علامات المحب انزعاجه عند ذكر محبوبه، فإذا أردت اختبار قلبك لتعرف أي القلوب هو؟! فاسأل نفسك: أيحضر القلب عند ذكر ربه؟ أيخشع لسماع كلامه؟ أينصت لترديد أذانه؟ أيسرع ليلبِّي نداءه؟! أبكى ليلة خوفًا من عذابه؟ أضطرب يومًا لاحتمال طرده من جواره؟ أقلق من خاتمة أعماله؟ كن صادقًا وإن لم يطلع عليك أحد، فإنه سبحانه أدرى منك بسريرتك وأعلم بك منك، فاعرف موقعك من الإيمان كما سبق وعرف **الحسن البصري** لما سأله رجل فقال: يا أبا سعيد! أمؤمن أنت؟ فقال له: «الإيمان إيمانان، فإن كنت تسألني عن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والجنة والنار والبعث والحساب فأنا به مؤمن، وإن كنت تسألني عن

قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ إلى قوله: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٢-٤] فوالله ما أدري أنا منهم أم لا»(١).

أحياء القلوب إذا تليت عليهم آيات الرحمن خروا سجدًا وبكيًّا، بينما غيرهم خرَّ عليها صمًّا وعميانًا، لأنهم أصحاب حياة يسمعون بقلوبهم قبل أسماعهم؛ ولذا قال **ابن زيد** في قوله ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٢] واعية: «إنما تعي القلوب ما تسمع الآذان من الخير والشر»(٢).

قال **ابن القيِّم**:

«فالوعي توصف به الأذن كما يوصف به القلب، يقال: قلب واع وأذن واعية لما بين الأذن والقلب من الارتباط، فالعلم يدخل من الأذن إلى القلب، فهي بابه والرسول الموصل إليه العلم؛ كما أن اللسان رسوله المؤدي عنه، ومن عرف ارتباط الجوارح بالقلب علم أن الأذن حقها أن توصف بالوعي، وأنها إذا وعت وعى القلب»(٣).

2 له في كل شيء عبرة:

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر: ٧٥]، والمتوسِّمون هم المتفكرون المعتبرون الذين يتوسمون في الأشياء ويتفكرون فيها ويعتبرون، ويدققون نظرهم حتى يعرفوا حقيقة الشيء بسمته.

قال العلماء: التوسُّم من الوسم وهي العلامة التي يُستدل بها؛ يُقال: توسَّمت فيه الخير إذا رأيت ملامح ذلك فيه، ومنه قول **عبد الله بن رواحة** للنبي ﷺ:

إني توسَّمت فيك الخير أعرفه   والله يعلم أني ثابت البصر

---

(١) القرطبي.
(٢) جامع البيان ١٢/ ٢١٢.
(٣) مفتاح دار السعادة ١/ ١٢٥.

واتسم الرجل إذا جعل لنفسه علامة يُعرف بها، والواسم: الناظر إليك من فرقك إلى قدمك، وأصل التوسم التثبت والتفكر مأخوذ من الوسم، وهو التأثير بحديدة في جلد البعير وغيره.

والإشارة ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾ إلى جميع ما تضمنته القصة التي بدأت بقوله تعالى ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الحجر: ٥١]، ففيها من الآيات الكثير: آية نزول الملائكة في بيت **إبراهيم** عليه السلام كرامة له، وبشارته بغلام عليم، وإعلام الله إياه بما سيحل بقوم **لوط**، ونصر الله **لوطًا** بالملائكة، وإنجائه - عليه السلام- وآله، وإهلاك قومه وامرأته لمناصرتها إياهم، وآية عمى أهل الضلالة عن أنوار الهداية، وآية غضب الله على المُصِرِّين على عصيان الرسل، وفي هذا إهانة للذين لم تردعهم العبر بأنهم دون مرتبة النظر، وتعريض بمشركي مكة الذين لم يتعظوا؛ بأن يحل بهم ما حلَّ بالأمم من قبلهم التي عرفوا أخبارها ورأوا آثارها، وتعريض كذلك بمن سلك نفس الطريق من العصاة والغافلين.

للفراسة رجالها

ولا تكون الفراسة إلا بتفريغ القلب من هَمِّ الدنيا، وتطهيره من أدناس المعاصي وسيئ الأخلاق وفضول المباحات، وعندها يجري على مرآة القلب كل حق لا خيال، لأنه تقلب بين آيات الحق وأنوار الطاعات فانهالت عليه الفيوضات والإشراقات، ومثل ذلك قول **ابن عباس** ﷺ: ما سألني أحد عن شيء إلا عرفت أفقيه هو أو غير فقيه.

وما رُوِي عن **الشافعي** و**محمد بن الحسن** أنهما كانا بفناء الكعبة ورجل على باب المسجد فقال أحدهما: أراه نجارًا، وقال الآخر: بل حدادًا، فتبادر من حضر إلى الرجل فسأله فقال: كنت نجارًا وأنا اليوم حداد!!

ورُوي عن **جندب بن عبد الله البجلي** أنه أتى على رجل يقرأ القرآن فوقف فقال: من سمَّع سمَّع الله به، ومن راءى راءى الله به، فقلنا له: كأنك عرَّضت بهذا الرجل، فقال: إن هذا يقرأ عليك القرآن اليوم ويخرج غدًا حروريًّا؛ فكان رأس الحرورية واسمه **مرداس**.

ورُوِي عن **الحسن البصري** أنه دخل عليه **عمرو بن عبيد** فقال: هذا سيد فتيان البصرة إن لم يُحدِث، فكان من أمره من القدَر ما كان حتى هجره عامة إخوانه.

وقال **لأيوب**: هذا سيد فتيان أهل البصرة ولم يستثن.

ورُوِي عن **الشعبي** أنه قال **لداود الأزدي** وهو يماريه: إنك لا تموت حتى تُكوى في رأسك وكان كذلك.

ورُوي أن **عمر بن الخطاب** ﷺ دخل عليه قوم من مذحج فيهم **الأشتر** فصعَّد فيه النظر وصوَّبه وقال: أيهم هذا؟ قالوا: **مالك بن الحارث** فقال: ما له قاتله الله! إني لأرى للمسلمين منه يومًا عصيبًا، فكان منه في الفتنة ما كان.

ورُوِي عن **عثمان بن عفان** ﷺ: أن **أنس بن مالك** دخل عليه وكان قد مرَّ بالسوق، فنظر إلى امرأة فلما نظر إليه قال **عثمان**: يدخل أحدكم علي وفي عينيه أثر الزنا! فقال له **أنس**: أوحيًا بعد رسول الله ﷺ؟! فقال: لا! ولكن برهان وفراسة، وصدق، ومثله كثير من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم أجمعين[١].

من ألوان الفراسة

التفاعل مع الأحداث اليومية: صاحب القلب الحي إذا رأى ظلمة حسبها ظلمة القبر، وإذا وجد لذة ذكر نعيم الجنة، وإذا صرخ من ألم خاف عذاب النار، وإذا شمَّ شواء ذكر جهنم، وإذا رأى ضاحكًا على معصية رقَّ لحاله في الآخرة، وإذا رأى مطيعًا على فاقة استبشر بنعيمه في الجنة.

كان **عمر بن عبد العزيز** من أرباب القلوب الحية وكان واقفًا مع **سليمان بن عبد الملك**، فسمع سليمان صوت الرعد فجزع ووضع صدره على مقدِّمة الرحل، فقال **عمر** وهو المعتبر المتدبر بكل ما حوله: هذا صوت رحمته فكيف إذا سمعت صوت عذابه؟![٢]

(١) القرطبي ١٠/ ٤٤ – طبعة دار الشآم للتراث.
(٢) الإحياء ٢/ ١٤٧.

ومثله **الحسن البصري** الذي روى عنه سلام: «أُتي الحسن بكوز من ماء ليفطر عليه، فلما أدناه إلى فيه بكى؛ وقال: ذكرت أمنية أهل النار؛ قولهم: ﴿ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ ﴾[الأعراف: ٥٠]، وذكرت ما أُجيبوا: ﴿إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[الأعراف: ٥٠]»[1].

إن حياة القلب تمنح العين حياة فوق الحياة وبصيرة فوق البصر، فإذا هي مثل عين **أبي الفرج بن الجوزي** الذي أبصر وتبصَّر فقال حاكيًا إحدى تأملاته التي لا يدركها إلا من كان مثله:

«رأيت كل من يعثر بشيء أو يزلق في مطر يلتفت إلى ما عثر به فينظر إليه طبعًا موضوعًا في الخلق، إما ليحذر منه أن جاز عليه مرة أخرى أو لينظر - مع احترازه وفهمه - كيف فاته التحرز من مثل هذا، فأخذت من ذلك إشارة وقلت: يا منْ عثر مرارًا.. هلا أبصرت ما الذي عثَّرك فاحترزتَ من مثله، أو قبَّحت لنفسك - مع حزمها - تلك الواقعة»[2].

قراءة الرسائل الربانية: وصاحب القلب الحي إذا وفَّقه الله لطاعة سأل نفسه: بأي عمل صالح أثابني الله بهذه الطاعة؟ أبدعوة إلى خير أم بصلاة ليل أم بسعي في حاجة مسلم أم بعفو عن مسيء أم بإنظار معسر؟! فيراجع شريط ذكرياته ليُكرِّر صالح أعماله فينعم بنفس الثواب مرات كثيرة، وقد جعل الله ثمارًا عديدة تربو على الخمسين لمن حرس ثغور قلبه من عدوه، ولم يُدخِل منها سوى الحسنات الموالية للقلب والعاملة على مصلحته ومنفعته، لكن قضى الله أن لا يتذوق لذة هذه الثمرات إلا من زكى قلبه وسمت روحه؛ ولذا قال **ابن القيم** وهو يحاول أن يقنعك بجدوى هذه الحراسة وفاعلية ترك الذنوب:

«لو لم يكن في ترك الذنوب والمعاصي إلا إقامة المروءة، وصون العرض، وحفظ الجاه، وصيانة المال الذي جعله الله قِوامًا لمصالح الدنيا والآخرة، ومحبة الخلق، وجواز القول بينهم، وصلاح المعاش، وراحة البدن، وقوة القلب، وطيب النفس، ونعيم القلب، وانشراح الصدر، والأمن من مخاوف الفُساق والفجار، وقلة الهم والغم والحزن، وعز النفس عن احتمال الذل، وصون نور القلب أن تطفئه ظلمة المعصية، وحصول المخرج له مما ضاق على الفساق والفجار، وتيسير عليه الرزق من حيث لا يحتسب، وتيسير ما عسر على أرباب

(١) حلية الأولياء ٦/ ١٨٩.
(٢) صيد الخاطر ص ١٣.

الفسوق والمعاصي، وتسهيل الطاعات عليه، وتيسير العلم والثناء الحسن في الناس، وكثرة الدعاء له، والحلاوة التي يكتسبها وجهه، والمهابة التي تُلقى له في قلوب الناس، وانتصارهم وحميتهم له إذا أوذي وظُلِم، وذبِّهم عن عرضه إذا اغتابه مغتاب، وسرعة إجابة دعائه، وزوال الوحشة التي بينه وبين الله، وقُرب الملائكة منه، وبُعد شياطين الإنس والجن منه، وتنافس الناس على خدمته وقضاء حوائجه، وخطبتهم لمودته وصحبته، وعدم خوفه من الموت، بل يفرح به لقدومه على ربه ولقائه له ومصيره إليه، وصِغَر الدنيا في قلبه، وكِبَر الآخرة عنده، وحرصه على الملك الكبير والفوز العظيم فيها، وذوق حلاوة الطاعة، ووجد حلاوة الإيمان، ودعاء حملة العرش ومن حوله من الملائكة له، وفرح الكاتبين به ودعاؤهم له كل وقت، والزيادة في عقله وفهمه وإيمانه ومعرفته، وحصول محبة الله له، وإقباله عليه، وفرحه بتوبته، وهكذا يجازيه بفرح وسرور لا نسبة له إلى فرحه وسروره بالمعصية بوجه من الوجوه»(١).

لكن.. تُرى هل يلمح هذه المكافآت أحد غير أحياء القلوب؟! وهل يقوم بشكرها غير من يتمتَّعون بالرقة الإيمانية والحساسية النورانية والفطرة النقية التي لم تتدنس بعد؟

ومن أحياء القلوب هؤلاء وأرباب المشاعر الرقيقة هذه: **يحيى بن معاذ** الذي لمح ذلك بما حباه الله من بصيرة إيمانية ثاقبة فقال:

«إن العبد على قدر حبه لمولاه يُحبِّبه إلى خلقه، وعلى قدر توقيره لأمره يُوَقِّره خلقه، وعلى قدر التشاغل منه بأمره يشغل به خلقه، وعلى قدر سكون قلبه على وعده يطيب له عيشه، وعلى قدر إدامته لطاعته يُحلِّيها في صدره، وعلى قدره لهجه بذكره يديم ألطاف برِّه، وعلى قدر استيحاشه من خلقه يُؤنسه بعطائه، فلو لم يكن لابن آدم الثواب على عمله إلا ما عُجِّل له في دنياه لكان كثيرا»(٢).

العقوبات إشارات

وفي المقابل إذا حُرِم القلب الحي من طاعة بادر على الفور بالسؤال: بأي معصية حُرِمت وبأي خطيئة مُنِعت؟ أبكلمة غيبة؟ أبنظرة محرَّمة؟ أبعقوق والدة؟! أبسماع فحش؟! يسأل نفسه

(١) الفوائد ص ١٩٨، ١٩٩، ط دار النفائس.
(٢) الحلية ١٠/ ٥٨، ٥٩.

خاصة بعد أن ارتجف خوفًا واضطرب وجلا واقتنع بسلامة تحليل ابن القيم الذي انتهى إلى (أن الله سبحانه جعل عقوبات أصحاب الجرائم بضد ما قصدوا له بتلك الجرائم، فجعل عقوبة الكاذب إهدار كلامه ورده عليه، وجعل عقوبة الغالِّ من الغنيمة لَمَّا قصد تكثير ماله بالغلول: حرمانه سهمه وإحراق متاعه.

وجعل عقوبة من اصطاد فى الحرم أو الإحرام: تحريم أكل ما صاده وتغريمه نظيره.

وجعل عقوبة من استكبر عن عبوديته وطاعته: أن صيَّره عبدًا لأهل عبوديته وطاعته.

وجعل عقوبة من أخاف السبيل وقطع الطريق: أن تُقطع أطرافه وتُقطع عليه الطرق كلها بالنفي من الأرض؛ فلا يسير فيها إلا خائفًا.

وجعل عقوبة من التذ بدنه كله وروحه بالوطء الحرام: إيلام بدنه وروحه بالجلد والرجم فيصل الألم إلى حيث وصلت اللذة.

وشرع النبي ﷺ عقوبة من اطلع في بيت غيره: أن تقلع عينه بعود ونحوه؛ إفسادًا للعضو الذي خانه، وأولجه بيته بغير إذنه.

وعاقب من حرص على الولاية والإمارة والقضاء بأن شرع منعه وحرمانه ما حرص عليه، ولهذا عاقب أبا البشر آدم – عليه السلام- بأن أخرجه من الجنة لما عصاه بالأكل من الشجرة ليخلد فيها، فكانت عقوبته إخراجه منها ضد ما أمَّله.

وعاقب الناس إذا بخسوا الكيل والميزان بجور السلطان عليهم؛ يأخذ من أموالهم أضعاف ما يبخس به بعضهم بعضًا.

وعاقبهم إذا منعوا الزكاة والصدقة ترفيهًا لأموالهم بحبس الغيث عنهم، فيمحق بذلك أموالهم، ويستوي غنيهم وفقيرهم في الحاجة.

وعاقبهم إذا أعرضوا عن كتابه وسنة نبيه ﷺ وطلبوا الهدى من غيره: بأن يضلهم ويسد عليهم أبواب الهدى.

وهذا باب واسع جدًّا عظيم النفع لمن تدبَّره يجده متضمنًا لمعاقبة الرب سبحانه لمن خرج

عن طاعته، بأن يعكس عليه مقصوده شرعًا وقدرًا دنيا وآخره..)[١].

وممن تدبر هذا الباب: **عمر بن الخطاب** ﷺ ولا أعقل، فقد روى **الزهري أن عمر بن الخطاب** ﷺ أصابه حجر وهو يرمي الجمار فشجَّه فقال: «ذنب بذنب، والبادي أظلم»[٢].

وآخر على الدرب يقتفي أثر **الفاروق** خطوة خطوة وقدمه في إثر قدمه وهو **أبو زرعة الرازي**، فعن **عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي** قال:

«اعتلَّ **أبو زرعة الرازي**، فمضيت مع أبي لعيادته، فسأله أبي عن سبب هذه العِلَّة، فقال: بِتُّ وأنا في عافية، فوقع في نفسي أني إذا أصبحت أخرجتُ ما أخطأ فيه **سفيان الثوري**، فلما أصبحتُ خرجتُ إلى الصلاة، وفي دربنا كلبٌ ما نبحني قطُّ، ولا رأيته عدا على أحد، فعدا عليَّ وعقرني، وحُمِمت، فوقع في نفسي أن هذا لِما وضعتُ في نفسي، فأضربتُ عن ذلك الرأي»[٣].

وثالثهم سجَّان!! نعم سجَّان. قال بعض السجانين: «كنتُ سجَّانًا نيِّفًا وثلاثين سنة أسأل كل مأخوذ بالليل أنه هل صلى العشاء في جماعة؟! فكانوا يقولون: لا»[٤].

وصدق ﷺ حين قال: «**لايصيب عبدًا نكبة فما فوقها أو دونها إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر**»[٥]، بل وأكَّد: «**المصائب والأحزان في الدنيا جزاء**»[٦].

الراشد يَرْشُد ويُرْشِد

وليست هذه الرسائل الربانية بحرمان الطاعات والقربات فحسب، بل قد تكون كذلك بتعسير دنيا وتضييق رزق وعقوق ولد وتنغيص عيش وشجار زوجة، لينتبه كل من لم ينتبه إلى عقوبة حرمان أجر الآخرة إن كان دنيوي الهمة لا تقلقه الآخرة بحال، ولا يستيقظ إلا بحرمان دنيوي، وللأستاذ **الراشد** إسقاط لطيف يقول فيه:

---

(١) إغاثة اللهفان بتصرف ١/ ٣٧٢-٣٧٤.
(٢) الزهد ١/ ٥٢٠ – الإمام هناد بن السري الكوفي التميمي – ط قطر.
(٣) تاريخ بغداد ١٢/ ٣٢١ نقلا عن صفحات مضيئة من حياة السابقين – الجزء الثاني – إبراهيم محمد علي – دار القلم.
(٤) الإحياء ١/ ٣٥٦.
(٥) حسن: رواه الترمذي عن أبي موسى كما في صحيح الجامع حديث رقم: ٧٧٣٢.
(٦) صحيح: رواه سعيد بن منصور في سننه وأبو نعيم في الحلية مرسلاً عن مسروق كما في صحيح الجامع حديث رقم: ٦٧١٧.



«فلو أسلف مسلم حسنة في المساء من صدقة، أو صلاة بوقتها، أو أمر بمعروف، أو إغاثة لهفان، أو تفهيم علم، أو بذل شفاعة، أو ستر عرض، أو تخذيل عن شر، أو خلافة غاز مجاهد، فماذا يحدث له في الصباح؟

يستيقظ فإذا زوجه مبتسمة في وجهه، وإذا أولاده يستيقظون مع أول نداء، على أتم نظافة، وكلٌّ قد كتب واجبه المدرسي وجمع كتبه، فإذا أفطر كان طعامه لذيذًا، وتودِّعه زوجه بابتسامة أيضًا حتى إذا ركب سيارته -وهي دوابنا اليوم- وجدها سلسة تشتغل مع أول إدارة للمفتاح، ووجد الإشارات الضوئية خضراء تفتح له الطريق مُرحِّبة به، والسائق الذي أمامه يسير وفق الأصول بأدب وهدوء، حتى شرطي المرور يرفع له يده بالتحية.

فإذا دخل مكتبه الوظيفي: وجده نظيفًا، وجاءه من المراجعين أهل الرفق والأخلاق، فإذا رجع: لم يجد ألذ من طعامه، وهكذا سائر يومه!

ثم لو أسلف سيئة في ليلة أخرى: من غيبة، أو بخل، أوتقاعس عن نجدة، أو تأخير صلاة، أو تنابز بالألقاب، أو منع خير، أو أذى جار، أو انتصار بالباطل لزوجه في تعاملها مع زوج صاحبه، فماذا يحدث له؟

يستيقظ فإذا زوجه ذات عبوس وتأفف، ولا يدري سببًا منه مباشرًا في إغضابها، ثم من بعد قليل إذا بها تولول، ولربما فتَّش عن الفرد الضائع من حذاء ابنه نصف ساعة، حتى يتأخر عن دوامه المدرسي، ويكون طعامه مالحًا لا يكاد يسيغه، وتعذِّبه سيارته نصف ساعة أخرى كي تشتغل، وتكون كالدابة الشموس، ويجد الإشارات الضوئية حمراء في وجهه، ويُبتلى بسائق طائش عن يمينه، ثم يوقفه شرطي مرور كان قد تشاجر مع زوجه هو الآخر فيُفرِّغ همومه فيه ويحرِّر له مخالفة هو منها بريء، وقد يُبتلى ثالثة في مكتبه بمراجع فوضوي ملحاح يعكِّر عليه ويشكوه لدى الرئيس، ولربما يجد في الآخِر طعام غدائه دخانًا محضًا وتكون زوجه قد نسيت القدر على النار حتى احترق، ويظل سائر يومه قلقًا كئيبًا، حتى أن أقل عقوبته أن توقظه رنة الهاتف وهو في عز نوم القيلولة، فيزعجه.

وكلنا يمر بمثل هذه الأحوال، ولكن الأقل هم الذين يرجعون بذاكرتهم إلى ما أسلفوا من حسنات أو سيئات تكون سببًا لهذه الأحوال، والمُوَفَّق هو الذي يسرع إلى بديهته هذا المعنى فيعلم

موطن قدمه، فيزداد خيرًا وصعودًا، أو يحذر المنزلق، ويجد في هذه المعاكسات الخفيفة اللطيفة تحذيرًا يمنعه من الاسترسال في الغي وركوب الشهوات، بل هي إشارات تحذير ربانية توازي اللمم والصغائر تنبِّهه إلى وجوب فطم النفس عن هواها، وإلا عوقب بأكبر من ذلك، من تضييق رزق، وضياع تجارة، وجلاء بركة، ومرض متعب، وتسلط ظالم، وطلاق، وقذف عرض، وفشل في امتحان، وسفاهة جار، وبما هو أكبر من ذلك ربما، ولهذا فإن هذه المعاكسات هي من تمام اللطف الرباني بمؤمن يفهمها ويستوجب موعظتها، من أجل أن لا يتمادى، بل قيل: هي مداعبة من الله للعبد، يُذكِّره أنه معه وتحت رقابته ليستقيم»[1].

يا إخوتاه.. النظر في العاقبة نجاة، ومن كثر اعتباره قلَّ عثاره، فما لنا لا ننتبه؟! مع ما قد ينتظرنا بعد لطيف العتاب من عنيف العقاب؟!

والحر تكفيه الإشارة

وهاك تجربة عملية ومقياس واقعي تعرف به حالة قلبك ومنسوب الإيمان فيه:

كم من الليالي تنام متأخِّرًا مع شدة التعب ومع ذلك تجد نفسك تنهض لصلاة الفجر أو للقيام دون أن يوقظك أحد!! وكم من الليالي نمت فيها فورًا بعد العشاء ومع ذلك طلعت عليك الشمس بعد أن ضاعت عليك الصلاة!! إنها والله حياة قلبك ليس غير، وقد علمت أن العبد يُقرع بالعصى، والحر تكفيه الإشارة، وهذه ليست إشارة واحدة بل إشارات، وأنت لست عبد شهوة أو شيطان، ولست ملك هوى أو غفلة بل أنت من سادات الأحرار وسالكي طريق الأبرار.

3 انتفاضة الأحياء:

فمع أن العين مبصرة لما حولها، لكنها لو رأت مشهدًا محرمًا فلن يُمكِّن القلبُ الحي الخواطرَ منه بحال، ومع أن الأذن مصغية؛ لكنه لو كان الحرام لارتعدت وجلا، وبنت على الفور سدًّا منيعًا وحجابًا حاجزًا بينها وبين ما يُغضب الله، وإذا جلس صاحب هذا القلب

---

(١) صناعة الحياة ص ٨، ٩ ، محمد أحمد الراشد ، ط دار المنطلق ، الطبعة الأولى ١٤١٠/ ١٩٨٩.



مجلسًا وتسلل إليه الحرام للمحه على الفور وهبَّ خارجًا في الحال إن لم يقدر على التغيير والمواجهة، وهذا هو مصدر سلامة هذا القلب وعنوان نقائه. قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

وتأمل قوله ﴿ مَسَّهُمۡ ﴾ الدال على إصابة غير مكينة، وذلك بسبب فزعهم إلى الله ليعصمهم من الشيطان عند ابتداء خواطره؛ فإن الخواطر ولادة إن أُهملت لم تلبث أن تصير شهوة، ثم تصير الشهوة إرادة، ثم تصير الإرادة عزمًا، ثم يتحول العزم عملاً.

وتأمل قوله ﴿ طَٰٓئِفٞ ﴾ وكأن خواطر الشر طافت بهم، ودارت حولهم فلم تقدر أن تدخل إليهم وتؤثِّر فيهم لقوة قلوبهم ويقظة إيمانهم، فهم كمن طاف به الخيال ولم يجرؤ على أن يدفعهم إلى الفعال، والطائف يُطلق على الذي يمشي حول المكان ينتظر الإذن له بالدخول، فشبَّه الله الخاطر في ابتداء وروده في النفس بحلول الطائف على المكان دون أن يستقر فيه.

4 حلو اللسان:

عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يُلقي لها بالاً يرفع الله بها درجات**»(١).

والبال هو القلب، وتأمل قوله «**لا يُلقي لها بالاً**»، أي أنها تخرج رغمًا عنه دون تفكير أو تدبر ودون أن يُمِرَّها على قلبه، ومع ذلك تخرج منه طيبة نقية، لأن كل وعاء بما فيه ينضح، وحديقة الورد لا يفوح منها غير شذى الورد، إن حي القلب يتذوَّق كل كلمة بقلبه قبل النطق بها، فإن كانت حلوة علم أن طعمها في الآخرة سيكون أحلى فأطلقها، وإن كانت مُرَّة عرف أن طعمها في الآخرة أشد مرارة فسكت.

واسمع إلى طهارة لا تدانيها طهارة، وقلب طهور كالماء الطهور طاهر ومطهِّر لما حوله من القلوب، وهو قلب **عبد الله بن عون** الذي قال عنه **خارجة بن مصعب**: «صحبتُ **عبدالله** أربعًا وعشرين سنة، فما أعلم أن الملائكة كتبت عليه خطيئة»(٢).

(١) صحيح: انظر الحديث ٦١١٣ في صحيح البخاري ٥/ ٢٣٧٧.
(٢) الحلية ٣/ ٣٧.

فمهما استفزه الشيطان ببعض جنده وكافة حيله واجتمع عليه من أعوانه ما اجتمع؛ فلن يفلحوا إذًا أبدًا، فعن **بكار بن محمد وابن قعنب** قال: «كان **ابن عون** لا يغضب فإذا أغضبه الرجل قال: بارك الله فيك»(١).

ومن ذلك أن جاءه غلام له فقال: فقأت عين الناقة!! قال: بارك الله فيك. قال: قلت فقأت عينها، فتقول بارك الله فيك!! قال: أقول.. أنت حر لوجه الله.

أي تربية؟! وأي صفاء ونقاء؟! وأي مجاهدة أورثت هذا السمو الراقي من سماحة النفس وطيب الكلم وروعة التقى حتى صار مضرب الأمثال، ومنتهى غاية الصالحين، وأسمى أمنيات المخلصين؛ في عصره وغير عصره، فعن **معاذ بن معاذ** قال:

«حدثني غير واحد من أصحاب **يونس بن عبيد** قال: إني لأعرف رجلاً منذ عشرين سنة يتمنى أن يسلم له يوم من أيام **ابن عون** فما يقدر عليه، وليس ذاك أن يسكت رجلٌ لا يتكلم، ولكن يتكلم فيسلم كما يسلم **ابن عون**»(٢).

لكنه ليس وحده في الميدان بل ينافسه في الحلبة أطهار كُثر، منهم **الفضيل** الذي أراد أن يعطِّر ألسنتنا ويطيِّب كلامنا بطريقته الخاصة وأسلوبه المقنع فقال: «حسناتك من عدوك أكثر منها من صديقك!! قيل: وكيف ذلك يا أبا علي؟! قال: إن صديقك إذا ذُكِرتَ بين يديه قال: عافاه الله، وعدوك إذا ذُكِرت بين يديه يغتابك الليل والنهار، وإنما يدفع المسكين حسناته إليك، فلا ترضَ إذا ذُكِر بين يديك أن تقول: اللهم أهلكه.. لا، بل ادعُ الله: اللهم أصلحه.. اللهم راجِع به، ويكون الله معطيك أجر ما دعوت به، فإنه من قال لرجل: اللهم أهلكه، فقد أعطى الشيطان سؤله، لأن الشيطان إنما يدور على هلاك الخلق»(٣).

رحمة الله على أصحاب تلك القلوب، وصدق فيها وصف من وصفها بقوله: «إن من الرجال ما هو كالنسخة المخطوطة؛ ربما كانت ناقصة أو مخرومة، أو مسَّ الزيت أطرافها فأفسدها، ولكنها أثمن وأغلى لأنها واحدة لا ثانية لها»(٤).

---

(١) السابق ٣/ ٣٨.
(٢) الحلية ٣/ ٣٨.
(٣) حلية الأولياء ٨/ ٩٧.
(٤) رجال من التاريخ ص ٤٢١ - الطبعة الثامنة - دار المنارة عام ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.

الرسول قدوتنا

ولماذا نذهب بعيدًا وبين أيدينا سيد القدوات نبينا ﷺ الذي روى عنه جابر ابن سمرة ﷺ: «**كان رسول الله ﷺ طويل الصمت قليل الضحك**»(١)، وهو مع صمته كان إذا تكلم لا يُخرِج غير الرحيق والعبير والدواء والشفاء، وبهذا وصفه رسول الله ﷺ: «**مثل المؤمن مثل النحلة؛ لا تأكل إلا طيبًا ولا تضع إلا طيبًا**»(٢).

قال **ابن الأثير**: «ووجه المشابهة بينهما: حذق النحل وفطنته، وقلة أذاه، وحقارته، ومنفعته، وقنوعه، وسعيه في الليل، وتنزهه عن الأقذار، وطيب أكله، وأنه لا يأكل من كسب غيره، ونحوله، وطاعته لأميره»(٣).

إنه قطعة ذهب نقية ليس فيها شائبة واحدة ولا ذرة غريبة من غير الذهب، فلا زيف ولا خبث ولا تلوُّن أو تغير بل ثبات وطهارة تمامًا، وليس فيها أدنى خبث تنفيه النار، مصداق وصف رسول الله ﷺ للمؤمن:

> **«ومثل المؤمن مثل سبيكة الذهب؛ إن نُفِخت عليها احمرَّت، وإن وُزِنت لم تنقص»**(٤).

5 غزير الدمع:

أخي المريض.. إن ساعدك الدمع وإلا فتباكَ، فليس مثل الدموع علامة على القلب الحي، وإنما يحصد الزرع يوم القيامة من روَّى أرض قلبه قبل الندامة، فماذا أنت حاصد إذا حُرِمت الدموع؟!

---

(١) حسن : رواه أحمد عن جابر بن سمرة كما في ص ج ص رقم : ٤٨٢٢.

(٢) حسن أو صحيح كما في السلسلة الصحيحة رقم : ٣٥٥ ، وتأمل ما تقوم به النحلة من أجل إطعامنا كيلو جرام واحدًا من العسل ، فقد ذكر العلماء أنها تقوم بما يقرب ٦٠٠ ألف إلى ٨٠٠ ألف طلعة ، وتقف على مليون زهرة ، وتقطع ما يزيد على ١٠ أضعاف الكرة الأرضية رغم الرياح والأنواء ، ولا تترك عندها بطالاً إلا نفته وأبعدته وأقصته عن الخلية ، لأنه يُضيِّق المكان ويُفني العسل ، ويعلم النشيط الكسل ، وهو درس بليغ في علو الهمة.

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر ٥/ ٢٩.

(٤) حسن : رواه البيهقي عن ابن عمرو ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم :٥٨٤٦.

حي القلب يبكي شوقًا وقلقًا: قال **عبد الواحد بن زيد**:

«**يا إخوتاه!** ألا تبكون شوقًا إلى الله؟ ألا إنه من بكى شوقًا إلى سيده لم يحرمه النظر إليه..

يا إخوتاه! ألا تبكون خوفًا من النار؟ ألا إنه من بكى خوفًا من النار أعاذه الله منها..

يا إخوتاه! ألا تبكون خوفًا من العطش يوم القيامة؟ ألا إنه من بكى خوفًا من ذلك سُقِي على رؤوس الخلائق يوم القيامة..

يا إخوتاه! ألا تبكون؟ بلى فابكوا على الماء البارد أيام الدنيا لعله أن يسقيكموه في حظائر القدس مع خير الندماء والأصحاب من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا»، ثم جعل يبكي حتى غُشِي عليه![1].

حي القلب قد يبكي من الأذان: كان **أبو زكريا النهشلي** إذا سمع النداء تغيَّر لونه وأرسل عينيه فبكى، فسُئل عن ذلك فقال: أشبِّهه بالصريخ يوم العرض، ثم غُشِي عليه[2].

حي القلب قد يبكي من الوضوء. كان **عطاء السليمي** إذا فرغ من وضوئه انتفض وارتعد وبكى بكاء شديدًا، فيُقال له في ذلك فيقول: «إني أريد أن أُقدِم على أمر عظيم.. أريد أن أقوم بين يدي الله عز وجل»[3].

حي القلب تُبكيه الذنوب: نظر **حذيفة المرعشي** إلى رجل يبكي فقال: ما يبكيك يا فتى؟ قال: ذكرت ذنوبًا سلفت فبكيت. قال: فبكى حذيفة ثم قال: نعم يا أخي! فلمثل الذنوب فليُبكَ، ثم أخذ بيده فتنحيا فجعلا يبكيان![4]

حي القلب يزعجه الختام فيبكي. قال **محسن بن موسى**: كنت عديل **سفيان الثوري** إلى مكة فرأيته يُكثِر البكاء فقلت له: يا أبا عبد الله بكاؤك هذا خوفًا من الذنوب؟ قال: فأخذ عودًا من المحمل فرمى به فقال: «إن ذنوبي أهون عليَّ

---

(١) الرقة والبكاء ١/ ٥١.
(٢) الرقة والبكاء ص ١٢٣، ١٢٤.
(٣) حلية الأولياء ٦/ ٢١٨.
(٤) الرقة والبكاء ص١٤١.

من هذا، ولكني أخاف أن أُسلَب التوحيد»[1].

لكن من الناس أجدب العينين، فلا يستطيع البكاء مع أن قلبه تعمره الخشية، ومنهم في المقابل من هو رقيق الحس سريع الانفعال والدمع؛ وإن لم يصاحب ذلك منه عمل صالح أو خشية دائمة، وعندما نفاضل بين الاثنين نقول: بكاء القلب أولى وأعلى، لأن بكاء العين شهادة على حيوية القلب لكن الشهادة قد تكون مزورة أحيانًا إذا لم يصاحبها عمل، أما بكاء القلب وخشيته فشهادة دامغة على حيوية القلب، وهي شهادة لا تقبل التزوير على الإطلاق.

بكاء الحبيب

قال **ابن القيِّم**:

«وكان بكاؤه تارة رحمة للميت، وتارة خوفًا على أمته وشفقه عليها، وتارة من خشية الله، وتارة عند سماع القرآن، وهو بكاء اشتياق ومحبة وإجلال مصاحب للخوف والخشية، ولما مات ابنه **إبراهيم** دمعت عيناه وبكى رحمة له وقال: «**تدمع العين ويحزن القلب، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون**»، وبكى لما شاهد إحدى بناته ونفسها تفيض، وبكى لما قرأ عليه **ابن مسعود** سورة النساء، وانتهى فيها إلى قوله تعالى: ﴿ **فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا** ﴾ [النساء: ٤١]، وبكى لما مات **عثمان بن مظعون**، وبكى لما كسفت الشمس وصلى صلاة الكسوف، وجعل يبكي في صلاته وجعل ينفخ ويقول: «**رب ألم تعدني ألا تعذبهم وأنا فيهم وهم يستغفرون ونحن نستغفرك**»، وبكى لما جلس على قبر إحدى بناته، وكان يبكي أحيانًا في صلاة الليل.

والبكاء أنواع:

أحدها: بكاء الرحمة والرقة.

والثاني: بكاء الخوف والخشية.

والثالث: بكاء المحبة والشوق.

---

(١) شعب الإيمان ١/ ٥٠٨.

والرابع: بكاء الفرح والسرور.

والخامس: بكاء الجزع من ورود المؤلم وعدم احتماله.

والسادس: بكاء الحزن.

والسابع: بكاء الخور والضعف.

والثامن: بكاء النفاق، وهو: أن تدمع العين، والقلب قاسٍ، فيظهر صاحبه الخشوع، وهو من أقسى الناس قلبًا.

والتاسع: البكاء المستعار والمستأجر عليه كبكاء النائحة بالأجرة فإنها كما قال **عمر بن الخطاب**: تبيع عبرتها وتبكي شجو غيرها.

والعاشر: بكاء الموافقة، وهو: أن يرى الرجل الناس يبكون لأمر ورد عليهم فيبكي معهم، ولا يدري لأي شيء يبكون، ولكن يراهم يبكون فيبكي»[(١)].

6 هومه أخروية:

فإن فات حي القلب ورده من قرآن أو صلاة وجد لفواته ألـمًا أشد من فوات ماله، وتقلَّب بالليل على فراش كالجمر، فما عسانا نقول لمن ليس له وِرْد بالأساس؟! بل ماذا عسانا نقول لمن إذا فاتته الصلاة المفروضة لم يجد ألـمًا ولا حسرة؟! وكأن رسول الله ﷺ لا يخاطب بالحديث التالي إلا أحياء القلوب حين يقول: **«الذي تفوته صلاة العصر كأنما وُتِر أهله وماله»**[(٢)].

أي كأنما فقد أهله وماله وهلكوا، لكن صاحب القلب الحي فحسب هو من يشعر بهذا وأما غيره فهيهات هيهات، ولما كان **حاتم الأصم** رجلاً كريمًا من أرباب القلوب الحية، فقد أراد أن يبعث الحياة في قلوب من حوله، فكان أن روى لنا تجربته قائلاً وهو يحمل **هم فوات الخير**:

---

(١) زاد المعاد ١/ ١٨٣.

(٢) صحيح: متفق عليه وهو عن عبد الله بن عمر كما في اللؤلؤ والمرجان رقم: ٣٦٤.

«فاتتني صلاة الجماعة مرة فعزاني أبو إسحاق البخاري وحده، ولو مات لي ولد لعزّاني أكثر من عشرة آلاف؛ لأن مصيبة الدين عندهم أهون من مصيبة الدنيا»(١).

وآخر كان يحمل **هَمَّ الأمة** وهو **أويس القرني** الذي كان رغم فقره المدقع وبؤسه الشديد مستشعرًا مسئوليته تجاه كل مسلم جائع أو عريان، ويسأل الله أن يغفر ذنبه هذا!! فكيف بنا يا أصحاب النعيم والترف؟! قال عنه **سفيان الثوري**: «كان **لأويس القرني** رداء إذا جلس مسَّ الأرض، وكان يقول: اللهم إني أعتذر إليك من كبد جائعة وجسد عارٍ، وليس لي إلا ما على ظهري وفي بطني»(٢).

ومن القرن العشرين يُطِل علينا **الإمام حسن البنا** الذي حمل الهَمَّ حتى أطار النوم من عينيه، وذلك لما انتشرت موجتا الإلحاد والإباحية في آن واحد على أرض مصر، واسمع إليه يقول:

«وصرتُ أرقب هذين المعسكرين فأجد معسكر الإباحية والتحلل في قوة وفتوة، ومعسكر الإسلامية الفاضلة في تناقص وانكماش، واشتد بي القلق حتى إني لأذكر أنني قضيت نحوا من نصف رمضان هذا العام في حالة أرق شديد لا يجد النوم إلى جفني سبيلاً من شدة القلق والتفكير في هذه الحال».

ومثله في حمل هذا الهَمِّ كان الشيخ **رشيد رضا** الذي دخلت عليه أمه يومًا فوجدته مهمومًا فقالت له: «مالك؟! هل مات مسلم بالصين؟!»(٣).

ورابع ممن يحمل حيوية القلب يحمل معها **هَمَّ الخاتمة**، فلا يدري أيختم له بخير أم يودِّع الدنيا بسوء؟! قال **يحيى بن معاذ**: «التائب يُبكيه ذنبه، والزاهد يُبكيه غربته، والصديق يُبكيه خوف زوال الإيمان»(٤).

وخامس يحمل **هَمَّ التقصير** حتى أبكاه وهو **يحيى بن معاذ** كذلك الذي قال: «لست أبكي على نفسي إن ماتت؛ إنما أبكي على حاجتي إن فاتت»(٥).

---

(١) المستطرف ١/ ٢١.
(٢) شعب الإيمان ١/ ٥٢٣.
(٣) علو الهمة ٢٥٨، ٢٥٩.
(٤) الحلية ١٠/ ٥٤.
(٥) السابق ١٠/ ٥١.

7 توحيد الخوف:

حي القلب لا يخشى إلا الله، فلا خوف من بشر ولو كان جائرًا، ولا من حدث ولو كان قاهرًا، ولا خوف على رزق أو أجل، ولا خوف على ولد أو متاع، بل وبسبب حياة قلبه؛ كلما علا وعزَّ من أمامه كلما هوى وهان في عينيه، وهكذا كان **طاووس اليماني**، فعن **الصلت بن راشد** قال: كنت جالسًا عند **طاووس** فسأله **سلم بن قتيبة** عن شي فانتهره قال: قلت هذا **سلم بن قتيبة** صاحب خراسان. قال: «ذلك أهون له عليَّ»(١).

ولا يخاف أحد من غير الله إلا لمرض في قلبه، وقد حكى الله أن من صفات الذين في قلوبهم مرض أنهم قالوا: ﴿ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ﴾ [المائدة: ٥٢]، وحكى أن أحياء القلوب الذين سلمت قلوبهم قالوا: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

وهؤلاء امتثلوا أمر ربهم الذي طمأن قلوبهم بقوله: ﴿ فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقد ربط الله سبحانه الخوف منه وحده بالإيمان، وجعل الخشية منه حكرًا على أحياء القلوب، فقال على سبيل التقرير والتوبيخ:

﴿ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة: ١٣]، وقال آمرًا وناهيًا في آن واحد: ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

وعدم الخوف إلا من الله دليل على حياة القلب وجسارته كما ذكروا أن رجلاً شكا إلى الإمام أحمد بن حنبل خوفه من بعض الولاة فقال: «لو صححت لم تخف أحدًا»(٢).

وذلك مع التسليم بأن الخوف الجبلي الذي لا يمنع من أداء الواجب لا يقدح في صحة

(١) حلية الأولياء ٤/ ١٢.
(٢) العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية – ابن قدامة المقدسي – دار الكتاب العربي.

القلب كخوف الإنسان من عدوه ومن المخاطر والأهوال، أما الخشية الكاملة فلا تكون إلا من الله وحده.

8 غيرة الأنبياء:

قال ﷺ وهو يحكي قصة المعراج إلى السماء: «**ثم انطلقنا حتى انتهينا إلى السماء السادسة، فأتيت على موسى عليه السلام، فسلمت عليه، فقال: مرحبا بالأخ صالح والنبي الصالح، فلما جاوزته بكى فنودي: ما يبكيك؟ قال: رب!! هذا غلام بعثته بعدي يدخل من أمته الجنة أكثر مما يدخل من أمتي**».

قال العلماء:

«لم يكن بكاء موسى حسدًا معاذ الله، فإن الحسد في ذلك العالم منزوع عن آحاد المؤمنين، فكيف بمن اصطفاه الله تعالى؟! بل كان أسفًا على ما فاته من الأجر الذي يترتب عليه رفع الدرجة بسبب ما وقع من أمته من كثرة المخالفة المقتضية لتنقيص أجورهم المستلزم لتنقيص أجره، لأن لكل نبي مثل أجر كل من اتبعه، ولهذا كان من اتبعه من أمته في العدد دون من اتبع نبينا ﷺ مع طول مدتهم بالنسبة لهذه الأمة، وأما قوله «**غلام**» فليس على سبيل النقص بل على سبيل التنويه بقدرة الله وعظيم كرمه؛ إذ أعطى لمن كان في ذلك السن ما لم يعطه أحدًا قبله ممن هو أسن منه»[(١)].

وانظروا مثلاً إلى حياة قلبي **أبي بكر وعمر** رضي الله عنهما، وهل أشد حياة من قلبي أقرب وأحب صحابيين إلى رسول الله؟! وتأمَّل أثر ذلك على تنافسهما في الخيرات، وليس ذلك في ميدان العبادات فحسب بل تعدَّاها إلى العادات والذوقيات، وعن ذلك قال **عمر بن الخطاب** رضي الله عنه:

«إنا سهرنا ليلة في بيت عند أبي بكر في بعض ما يكون من حاجة النبي ﷺ، ثم خرجنا ورسول الله ﷺ يمشي بيني وبين أبي بكر، فلما انتهينا إلى المسجد إذا رجل يقرأ فقام النبي ﷺ يستمع إليه، ثم قال: «**من سرَّه أن يقرأ القرآن رطبًا كما أنزل فليقرأ قراءة ابن أم عبد**»، فعلمت أنا وصاحبي أنه **عبد الله بن مسعود**، فلما أصبحت غدوت إليه لأبشِّره، فقال: **سبقك بها أبو بكر!!**»[(٢)].

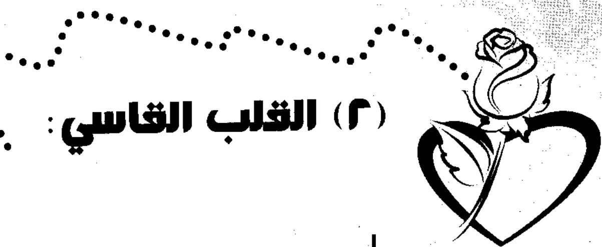
---

(١) فتح الباري ٧/ ٢١١.
(٢) البداية والنهاية ٩/ ١٢٩ بتصرف.

وموقف آخر لا يقل غرابة في الحرص على الخير يرويه **أبو صالح الغفاري** أن **عمر بن الخطاب** ﷺ كان يتعاهد عجوزًا كبيرة عمياء في بعض حواشي المدينة من الليل، فيستسقي لها، ويقوم بأمرها، وكان إذا جاءها وجد غيره قد سبقه إليها، فأصلح ما أرادت، فجاءها غير مرة، فلا يسبق إليها، فرصده **عمر** فإذا هو **بأبي بكر الصديق** الذي يأتيها وهو خليفة[(١)].

لذا اعترف **عمر** ﷺ بفضل **أبي بكر** وأقرَّ له قائلاً: «ما سبقتُ **أبا بكر** قطُّ إلى خير إلاَّ سبقني إليه، ولودِدْتُ أنِّي شعرة في صدر **أبي بكر**».

(١) كنز العمال ١٢/ ٧٣١.



(٢) القلب القاسي:

والقسوة هي الموت، والقساوة عبارة عن غلظة مع صلابة، وهي عبارة عن خلو القلب من الإنابة والإذعان لآيات الله تعالى، وهي أشد عقوبات القلب على الإطلاق؛ ولذا ضُرِبت بها قلوب الكافرين والمنافقين.

قال **مالك بن دينار**: «إن لله عقوبات في القلوب والأبدان: ضنك في المعيشة، ووهن في العبادة، وما ضُرِب عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب»[١].

وأكَّد على نفس المعنى **حذيفة المرعشي** فقال:

«ما أُصيب أحد بمصيبة أعظم من قساوة قلبه»[٢].

وتأمل قول الله تعالى:

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[البقرة: ٧٤].

إشارة الى ما ذكره الله من آية إحياء القتيل أو إلى جميع العظات والقوارع التي مرَّت ببني إسرائيل، والتي تزول منها الجبال وتلين لها الصخور؛ وكان الأجدر أن تلين لها قلوبهم، أما وقد لم تفعل فقد استحقت أن توصف بالقسوة لنفورها من الإيمان بعد معاينة أسبابه وموجباته، فهذه القلوب ﴿كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾، وقد كانت صلابة الحجر أعرف للناس وأشهر مثل يضرب للقساوة لأنها محسوسة لديهم، ومع ذلك فقد عذر الله الحجارة

---

(١) حلية الأولياء ٦/ ٢٨٧.

(٢) السابق ٨/ ٢٦٩.

لكنه لم يعذر القاسية قلوبهم فقال: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾.

وتأمل قول الله المُعجِز يصف صاحب القلب القاسي: ﴿وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ أي استولت عليه، وشملت جميع أحواله حتى صار محاطًا بها لا ينفذ إليه من حوله شيء، وذلك أن من أذنب ذنبًا ولم يُقلع عنه جرَّه ذلك إلى العودة لمثله، والانهماك فيه، وارتكاب ما هو أكبر منه؛ حتى تستولي عليه الذنوب، وتأخذ بمجامع قلبه، فيتحول طبعه مائلاً إلى المعاصي، مستحسنًا إياها، معتقدًا أن لا لذة سواها، مُبغِضًا لمن يحول بينه وبينها، مُكذِّبًا لمن ينصحه بالبعد عنها. قال تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الروم: ١٠].

فتصبح ذنوبه كالخيمة تحجب عنه كل شيء: نظر الله إليه، ونعيم الجنة المنتظر، وعذاب النار المترقِّب، وكيد إبليس المتحفِّز، وحسرة الملائكة المشفقة، كل ذلك يغيب عنه عند وقوعه في الذنب ولا يراه، وهو معنى قول النبي ﷺ:

«لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشرب وهو مؤمن، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن، ولا ينتهب نهبة يرفع الناس إليه فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن»(١).

القساوة الموسمية

قاسي القلب يموت أقرب الناس إليه ولا يتأثر، وحي القلب يموت أبعد الناس عنه ومع ذلك يخشع لموته، بل قد يقسو القلب في وقت ويلين في آخر، فحي القلب نفسه قد تمُرُّ به حالات قساوة، فيسمع الآية من كتاب الله في يوم فيبكي، ويسمع قوارع الآيات في يوم آخر ولا يتأثر، والسبب: أنه سمع الأولى حال سلامة قلبه والثانية حال قسوته.

(١) صحيح: أخرجه الشيخان عن أبي هريرة كما في اللؤلؤ والمرجان رقم: ٣٦.

وقد تأتيه الموعظة فتسري في جسده كالكهرباء في يوم، وتنزل عليه في اليوم الذي يليه كما تنزل على عمود الرخام!! والسبب قلبه.

وقد تجود يداه بالصدقة حينًا وتمسك أنامله عليها أحايين كثيرة وكأنها صخرة، والسبب أيضا قلبه.

ولا تستثني القسوة أحدًا حتى أنها لتضرب قلوب الذين يحملون مفاتيح القلوب، ويسقون الناس شراب حيوية الأرواح، ألا وهم قُرَّاء القرآن؛ لذا بعث **أبو موسى الأشعري** ﷺ إلى قُرَّاء أهل البصرة، فدخل عليه ثلاثمائة رجل قد قرءوا القرآن، فقال لهم:

«أنتم خيار أهل البصرة وقراؤهم، فاتلوه ولا يطولن عليكم الأمد، فتقسو قلوبكم كما قست قلوب من كان قبلكم»[١].

(١) صحيح مسلم ٢/ ٧٢٦.

علامات القسوة

لكل شيء علامة، وبمعرفة هذه العلامة يسهل الاكتشاف المبكِّر لهذا الداء الوبيل، ألا وإن أبرز علامات القلب القاسي:

1 تعطل الحواس:

القلب القاسي.. لا القرآن يُزكِّيه ولا النظر في آيات الله يحييه، والسبب موت حواسه وتعطل عملها.

قال ابن الجوزي: «رأيتُ هذه الآية: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَـٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٦] فلاحت لي فيها إشارة كدتُ أطيش منها، وذلك أنه إن كان عنى بالآية نفس السمع والبصر، فإن السمع آلة لإدراك المسموعات والبصر آلة لإدراك المبصرات، فهما يعرضان ذلك على القلب فيتدبر ويعتبر، فإذا عرضت المخلوقات على السمع والبصر أوصلا إلى القلب أخبارها من أنها تدل على الخالق، وتحمل على طاعة الصانع، وتحذِّر من بطشه عند مخالفته.

وإن عنى معنى السمع والبصر؛ فذلك يكون بذهولها عن حقائق ما أدركا شُغِلا بالهوى، فيُعاقب الإنسان بسلب معاني تلك الآلات، فيرى وكأنه ما رأى، ويسمع كأنه ما سمع، والقلب ذاهل عما يتأذى به لا يدري ما يُراد به، لا يؤثِّر عنده أنه يبلى، ولا تنفعه موعظة تُجلى، ولا يدري أين هو، ولا ما المراد منه، ولا إلى أين يُحمل، وإنما يلاحظ بالطبع مصالح عاجلته، ولا يتفكر في خسران آجلته، فلا يعتبر برفيقه، ولا يتعظ بصديقه، ولا يتزود لطريقه، فنعوذ بالله سبحانه من سلب فوائد الآلات، فإنها أقبح الحالات»[1].

(١) صيد الخاطر ص ١٠٥.

لا أرى لا أسمع لا أتكلم

ومن قسوة القلب كونه «أصم لا يسمع الحق أبكم لا ينطق به أعمى لا يراه، فيصير النسبة بين القلب وبين الحق كالنسبة بين أذن الأصم والأصوات، وعين الأعمى والألوان، ولسان الأخرس والكلام، وبهذا يعلم أن الصم والبكم والعمى للقلب بالذات والحقيقة، والجوارح بالفرض والتبعية، فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور، وليس المراد نفي العمى الحسي عن البصر، وإنما المراد أن العمى التام على الحقيقة: عمى القلب، حتى أن عمى البصر بالنسبة إليه أمر هيِّن حتى يصح نفيه بالنسبة إلى كماله وقوته»[1]، واسمع إلى تفاصيل تعطل حواس القاسية قلوبهم حاسة حاسة:

أ- السمع:

وصف الله حال الكفار حال سماعهم الهدى أنهم جعلوا أصابعهم في آذانهم، وأطلق الله اسم الأصابع على الأنامل على وجه المجاز، فإن الذي يُجعل في الأذن الأنملة لا الأصبع كله، لكنه عبَّر عن الأنامل بالأصابع للمبالغة في إرادة السامعين سد المسامع؛ بحيث لو أمكن لأدخلوا الأصابع كلها، فإن حدث ووصلت إلى آذانهم كلمة واحدة من كلمات الحق قبل أن يسدوها، ونفذ إليها سهم من سهام الخير، لارتد من على أبواب الآذان المؤصدة.

لذا قال تعالى: ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرًا﴾ أي صممًا وثقلاً مانعًا من سماع الحق، بل لو أزال الله انسداد هذه الأسماع حتى تصل الموعظة إلى قلوبهم لوصلت؛ لكن إلى قلوب غلفاء لا تُنفِذ النور، ظلمات بعضها فوق بعض؛ لذا قال تعالى: ﴿وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرًا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣]

والإسماع المطلوب هو إسماع القلوب وهو أعلى درجة من إسماع الآذان، فإن الكلام له لفظ ومعنى، فسماع لفظه هو حظ الأذن، وسماع معناه هو حظ القلب، ومتى لم ينصت القلب ضاع

(١) الجواب الكافي ص ٨٢ بتصرف.

الحديث والحدث، وقد نفى سبحانه عن الكفار غلاظ القلوب سماع المعنى الذي هو حظ القلب، وأثبت لهم سماع اللفظ فقط الذي هو حظ الأذن، وهذا النوع من السماع لا يفيد السامع بل يضره لقيامه حجة عليه.

وهو ما يلخصه قول أهل الكتاب لنبينا: ﴿وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ [النساء:٤٦] أي اسمع غير مسموع منك، فآذاننا معك وقلوبنا مع غيرك، فقاسي القلب لا يسمع، وإذا سمع لا ينصت، وإذا أنصت لا يعي، وإذا وعى لا يُدرك، وإذا أدرك لا يعمل، وإذا عمل أتبع عمله برياء وسمعة، فعمله كله عليه مردود، وعاقبته ضلال وحسرة.

وإن كان هذا هو وصف القرآن لسمع أصحاب القلوب القاسية فإن وصف النبي ﷺ لهم قريب من قريب.

قال ﷺ: «**ويل لأقماع القول!! ويل للمصرِّين الذين يُصِرُّون على ما فعلوا وهم يعلمون**»(١).

فكما أن القمع يدخل ما يوضع فيه من جانب ويخرج من الآخر؛ فكذلك قاسي القلب أذناه طرفا قمع!! يدخل الكلام من الأذن اليمنى ليخرج من اليسرى دون أن يستقر في القلب منه شيء.

ب- البصر:

> ما أشقى قساة قلوب رانت عليها ذنوب، فلم تعد عيونهم تبصر دلائل الحق وآيات الخير، ولا ترى رسل الله نظرًا لِما غطَّى أبصارها من قساوة وجهالة.

قال تعالى: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ۝١٠٠ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ [الكهف: ١٠٠، ١٠١].

قال ابن القيم: «وهذا يتضمن معنيين: أحدهما أن أعينهم في غطاء عما تضمنه الذكر من

---

(١) صحيح: رواه أحمد والبيهقي في الشعب عن ابن عمرو كما في صحيح الجامع رقم: ٨٩٧.

آيات الله وأدلة توحيده وعجائب قدرته، والثاني أن أعين قلوبهم في غطاء عن فهم القرآن وتدبره والاهتداء به، وهذا الغطاء للقلب أولاً ثم يسري منه إلى العين»[١].

لذا كان الكافرون - وقلوبهم أشد القلوب قساوة - لهم عيون لا يبصرون بها، فهم عُمي عن الحق لا يبصرونه؛ لذا وصفهم ربهم وهو الأعلم بهم بقوله: ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ [الحجر: ١٤، ١٥].

فشبَّه تعطّل حاسة البصر بسكر الشراب، أي غشيهم ما غطَّى أبصارهم كما غشي السكران ما غطَّى عقله، فلم ير شيئًا، وإن كان لصاحب القلب الحي في الآية الواحدة آيات، فإن صاحب القلب القاسي نظرًا لتقلبه في ظلمات الذنب وغوصه في أعماق الخطيئة يُعاقَب بأشد العقوبة وهي: ﴿ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا ﴾ [الأنعام: ٢٥]، وهذا يشمل كلاً من آيات الله المنظورة في كونه أو المستورة في كتابه، فمرور الآيات عليه شبيه بطلوع الشمس والقمر على العميان.

ألا رُبَّ ذي عينين لا تنفعانه ... وهل تنفع العينان من قلبه أعمى

قد يُنصَح من بعينيه رمد بِعدم البروز إلى الشمس، وما في الشمس مِن عيب ولا مرض! والمرض في عيني الأرمد! وقد يُنصح المريض بِعَدم شمِّ الطِّيب.. وما في الطِّيب إلا الشذى والعطر.

فقل للعيون الرُّمْد للشمس أعينٌ ... تراها بحَقٍّ في مَغيبٍ ومَطلعِ
وسامِح عيونــا أطفأ الله نورها ... أبصارها لا تستْفيق ولا تَعِي

ج- اللسان:

قاسي القلب الخرس أحسن من معانيه والعي أبلغ من بيانه، وقال فيه نبينا ﷺ: **«وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم»**[٢].

---

(١) شفاء العليل ١/ ٩٣.

(٢) صحيح : صحيح البخاري ٥/ ٢٣٧٧.

واسمع مثلاً إلى ابن هانئ الأندلسي وهو يمدح الخليفة المعز بقوله:

ما شئتَ لا ما شاءت الأقدار　　فاحكم فأنت الواحد القهار

فابتلاه الله بمرض شديد على إثر هذا الكلمة، صار يعوي فيه من شدة الألم نادمًا على ما قال، لسان حاله:

أبعين مفتقرٍ إليك نظرتَ لي　　فأهنتني وقذفتني من حالق

لستَ الملوم أنا الملوم لأنني　　أنزلت آمالي بغير الخالق

فقاسي القلب على الإجمال ما سلمت له يد ولا قدم ولا عقل ولا جارحة، وهذا حال القلب حين يقسو ويذبل ويفقد رطوبة إيمانه، فالبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه، والذي خبث لا يخرج إلا نكدًا، فكل شيء طالح، وهل يخرج من الفاسد إلا فاسد؟! وهل يلد الضال غير (ضلَّ) (يضلُّ) (ضلالًا)؟!

قاسي القلب غافل عن الغاية التي خلق الله لأجلها لسانه فلا ذكر ولا دعاء ولا خير ولا بناء، بل غيبة وفحش، وخشن قول واعتداء، والقساوة القلبية ستؤدي إلى قساوة اللفظ ولا بد.

مثل فقهي

وحتى تقترب الصورة وتكون أوضح، وتعرف معنى تعطل الحواس عند قاسي القلب وتُصدِّق ما أقول هاك هذا المثل العملي في هذا الحديث:

عن **صفية بنت شيبة** قالت: حدثتني **عائشة** أن رسول الله ﷺ قال: «**لا طلاق ولا عِتاق في إغلاق**»[1].

والإغلاق هو شدة الغضب أو الإكراه، ذلك أن الإنسان في حالة الغضب الشديد قد يفقد إحساسه بمن حوله فلا سماع لصوت الحق ولا إبصار لعواقب الأمر ولا عقل يُرشد للصواب، تمامًا كما يُغْلَق البابُ على الإنسان، فلا يدرك ما حوله؛ ولذا جعل الشارع الحكيم لا عبرة عندها بالطلاق أو الإعتاق، وهو شبيه بما يحدث لقاسي القلب الذي لجَّ في عصيانه

(١) حسن: الإرواء حديث رقم: ٢٠٤٧ عن عائشة وصحيح أبي داود حديث رقم: ١٩١٩.

حتى ذهب عقله، وكما تأتي الإنسان حالات يفقد فيه عقلة وسيطرته على حواسه من جراء غضب عارم؛ تأتيه كذلك أوقات وحالات تتعطَّل فيها حواسه من جراء غفلة عارمة أو قساوة شديدة أو طول غياب عن أنوار الحق.

يا مؤثر الأمراض على العافية.. يا مختار الكدر على الصافية:

إذا كنت تضجر من حجاب الشمس ساعة، فكيف لا يضجر من شمس عقله محجوبة عن الحق أربعين عامًا؟!

ومن القلوب القاسية: القلوب الممسوخة، قال ابن القيِّم وهو يتكلم عن أثر الذنوب:

«ومنها مسخ القلب فيمسخ كما تُمسخ الصورة، فيصير القلب على قلب الحيوان الذي شابهه في أخلاقه وأعماله وطبيعته، فمن القلوب ما يمسخ على قلب خنزير لشدة شبه صاحبه به، ومنها ما يُمسخ على خلق كلب أو حمار أو حية أو عقرب وغير ذلك، وهذا تأويل سفيان بن عيينة فى قوله تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَـٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٨]. قال: منهم من يكون على أخلاق السباع العادية، ومنهم من يكون على أخلاق الكلاب، وأخلاق الخنازير، وأخلاق الحمير، ومنهم من يتطوَّس في ثيابه لحمًا بتطوس الطاووس فى ريشه، ومنهم من يكون بليدا كالحمار»[(١)].

ويعلِّق **أبو سليمان الخطابي** على كلام **سفيان بن عيينة** قائلًا:

«ما أحسن ما تأول أبو محمد –رحمة الله عليه– هذه الآية واستنبط منها هذه الحكمة ، وذلك أن الكلام إذا لم يكن حكمه مطاوعًا لظاهره وجب المصير إلى باطنه ، وقد أخبر الله –تعالى– عن وجود المماثلة بيننا وبين كل دابة وطائر ، وكان ذلك ممتنعًا من جهة الخلقة والصورة ، وعدمًا من جهة النطق والمعرفة ، فوجب أن يكون مصروفًا إلى المماثلة في الطباع والأخلاق»[(٢)].

---

(١) الجواب الكافي ص ٨٢.

(٢) العزلة ص ٨٤ – الخطابي – مكتبة التراث الإسلامي.

ومن أقسام القلوب القاسية: القلوب المحجوبة، فقد قال ابن القيِّم وهو يُكمل كلامه عن أثر الذنوب:

«ومنها حجاب القلب عن الرب في الدنيا، والحجاب الأكبر يوم القيامة كما قال الله: ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ [المطففين: ١٥]، فمنعتهم الذنوب أن يقطعوا المسافة بينهم وبين قلوبهم فيصلوا إليها، فيروا ما يصلحها ويزكيها وما يفسدها ويشقيها، وأن يقطعوا المسافة بين قلوبهم وبين ربهم فتصل القلوب إليه، فتفوز بقربه وكرامته وتقرَّ به عينًا، وتطيب به نفسًا، بل كانت الذنوب حجابًا بينهم وبين قلوبهم، وحجابًا بينهم وبين ربهم وخالقهم»(١).

ومن أقسام القلوب القاسية: القلوب المطبوعة. قال تعالى: ﴿ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ [الأعراف: ١٠٠]، وأصل الطبع: الصدأ يكون على السيف ونحوه، فلا يدخلها شيء من ضوء الهدى، فصاروا بسبب استغراقهم في ذنوبهم مطبوعًا على قلوبهم لا يصل إليها من النور شيء، فلا يسمعون ما يُتلى من الوعظ والإنذار، والإصرار على الذنب من أخطر مفاتيح الطبع على القلب؛ لذا قال ﷺ في الحديث:«**من ترك الجمعة ثلاث مرات متواليات من غير ضرورة طبع الله على قلبه**»(٢).

ومن أقسام القلوب القاسية: القلوب المكنونة كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: ٥]، وهي جمع كِنان، وأصله من الستر والتغطية، فذكر الله في هذه الآية غطاء القلب وهو الأكنة، وغطاء الأذن وهو الوقر، وغطاء العين وهو الحجاب، والمعنى: إنا في ترك قبول أي شيء منك بمنزلة من لا يسمع ما تقول ولا يراك.

فهذا الصنف من الناس لا يكتفي بما قاله أصحاب القلوب المغلفة:﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾، إنما يتجاوز ذلك، ويبدي كراهيته لسماع أي خير، بل وعدم رغبته حتى في رؤية من يرشده إلى الخير، فمجرد رؤيتُه تُنغِّص عليه لذته الدنيوية، وهذا النوع من أقسى أنواع القلوب، وقد قال تعالى في تشبيه هؤلاء

(١) الجواب الكافي ص ٨٣.
(٢) صحيح : رواه أحمد والحاكم عن أبي قتادة كما في ص ج ص رقم : ٦١٤٠.

المعرضين عن كلامه وهديه: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ * كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ * فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ [المدثر: ٤٩-٥١].

قال ابن القيم: «شبَّههم في إعراضهم ونفورهم عن القرآن بحُمر رأت الأسد أو الرماة ففرَّت منه، وهذا من بديع القياس والتمثيل، فإن القوم في جهلهم بما بعث الله به رسوله كالحمر وهي لا تعقل شيئا، فإذا سمعت صوت الأسد أو الرامي نفرت منه أشد النفور، وهذا غاية الذم لهؤلاء، فإنهم نفروا عن الهدى الذي فيه سعادتهم وحياتهم كنفور الحمر عما يُهلكها ويعقرها، وتحت المستنفرة معنى أبلغ من النافرة؛ فإنها لشدة نفورها قد استنفر بعضها بعضًا وحضَّه على النفور، فإن في الاستفعال من الطلب قدرًا زائدًا على الفعل المجرد، فكأنها تواصت بالنفور وتواطأت عليه»[١].

وهل تنفع الموعظة مع أمثال هؤلاء؟! كلا والله..

إذا قسا القلب لم تنفعه موعظة ... كالأرض إن سبخت لم ينفع المطر

2 احتلال الدنيا القلب:

ما فائدة شراب الدنيا الحلو إذا كان يورثُ الشرق. قال ﷺ:

«تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة؛ إن أُعطِي رضي، وإن لم يُعطَ سخِط، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش»[٢].

قال الطيبي: «خصَّ العبد بالذكر ليؤذن بانغماسه في محبة الدنيا وشهواتها، كالأسير الذي لا يجد خلاصًا، ولم يقل: مالك الدينار ولا جامع الدينار، لأن المذموم من المُلك والجمع: الزيادة عن قدر الحاجة»[٣].

وكذلك خصَّ الشوكة بالذكر لأنه أقل ما يُتصوَّر من الألم، فإذا دعا بعدم زوال أقل الألم انتفى زوال ما فوقه بالأوْلى، فهو دعاء من النبي ﷺ على عاشق الدنيا بالتعاسة والكآبة وفقدان السعادة.

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين ١/ ١٦٤.

(٢) صحيح: رواه البخاري وابن ماجة عن أبي هريرة كما في ص ج ص رقم: ٢٩٦٢.

(٣) فتح الباري ١١/ ٢٥٤.

ومن معاني التعاسة في اللغة: سقوط العبد من فوق دابته وتعثره وانكبابه على وجهه، فيكون معنى الدعاء: سقوطه الدائم مع ما في هذا السقوط من هوان وذلة وصغار.

وأما الدعاء عليه بالانتكاس، فالانتكاس هو الانقلاب على الرأس كناية عن الخيبة والخسار، ومنه انتكاسة المريض وهو رجوع المرض إليه بعد أن ظن أنه منه شُفِي.

فكأن الرسول ﷺ دعا على عبد الدنيا أن يظل في سقوط دائم أي كلما أفاق سقط وكلما نهض تعثر؛ ولذا تجد الغارق في دنياه وأمواله قلما يفيق، وإذا أفاق كان ذلك على قارعة وقعها شديد تهزه هزًّا عنيفًا ليس غير.

بالمؤمنين رؤوف رحيم

ونظرًا لتسلل مرض حب الدنيا إلى القلوب، وغزوه لها في هدوء وكتمان وتدرج وخبث فلا يشعر به أحد؛ كان من رحمة النبي ﷺ بأمته أن علَّمها هذه الدعوات لاطلاعه من وراء ستار الغيب على المستقبل، فعن **عبد الله بن عمر** رضي الله عنهما قال: قلما كان رسول الله ﷺ يقوم من مجلس حتى يدعو بهؤلاء الكلمات لأصحابه:

«اللهم اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تُبلِّغنا به جنتك، ومن اليقين ما تُهوِّن به علينا مصيبات الدنيا، ومتِّعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منا، واجعل ثأرنا على من ظلمنا، وانصرنا على من عادانا، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا، ولا تسلِّط علينا من لا يرحمنا»(١).

وكان هذا في مجالس النبي ﷺ وأصحابه وهي مجالس آخرة لا تُذكر فيها الدنيا إلا لتزرع للآخرة، وهو دعاء موجه إلى قلوب القرن الأول التي لم يكن لغير الله فيها شيء، فكيف بمجالس القرن الواحد والعشرين ورسول الله عنها غائب، وقلوبنا تشكو فيها توالي غارات المادية عليها، وتعاني إزاحة همِّ الآخرة تحت مطارق التنافس المادي الشرس والتكالب الدنيوي الشره؟! فيا إخوتاه!! يا أهلاه!! أفيقوا قبل أن تُضرب على قلوبكم القسوة التي يعجز معها أبرع الأطباء،

---

(١) حسن: رواه الترمذي والحاكم عن ابن عمر كما في ص ج ص رقم: ١٢٦٨.

أفسحوا لأخراكم نصيبًا من دنياكم قبل نزول الموت، وأيقنوا أنكم إن لم تركعوا لله بقلوبكم وأجسامكم في خشوع؛ ستركع قلوبكم وتسجد للدنيا في تذلل وخضوع، ومن رغِب عن عبودية الله ابتُلي بعبودية الخلق ولا بد، ومن زهد في حب الله عوقب بحب الدنيا حتى الثمالة، ألا فاهدموا هذه الأصنام التي أنتم لها عاكفون.

قال ابن القيِّم:

«ومن لم يعكف قلبه على الله وحده عكف على التماثيل المتنوعة كما قال إمام الحنفاء لقومه: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٢]، فاقتسم هو وقومه حقيقة العكوف، فكان حظ قومه العكوف على التماثيل، وكان حظه العكوف على الرب الجليل، والتماثيل جمع تمثال وهو الصور الممثلة، فتعلق القلب بغير الله واشتغاله به والركون إليه عكوف منه على التماثيل التي قامت بقلبه، وهو نظير العكوف على تماثيل الأصنام؛ ولهذا كان شرك عباد الأصنام بالعكوف بقلوبهم وهممهم وإرادتهم على تماثيلهم، فإذا كان في القلب تماثيل قد ملكته واستعبدته بحيث يكون عاكفا عليها؛ فهو نظير عكوف الأصنام عليها، ولهذا سماه النبي عبدًا لها ودعا عليه بالتعس والنكس فقال: **تعس عبد الدينار**»(١).

رحم الله رجالاً سلمت منهم القلوب وطهروا من العيوب، فكانت الدنيا عندهم أحقر من أن تحتاج إلى محاربة أو تتطلب مجاهدة.

قال ابن الجوزي: «ويحك!! إنما يكون الجهاد بين الأمثال، ولذلك مُنِع من قتل النساء والصبيان، فأي قدر للدنيا حتى يحتاج قلبك إلى محاربة لها؟! أما علمت أن شهواتها جيف ملقاة؟! أفيحسن ببازي الملك أن يطير عن كفه إلى ميتة؟!»(٢). لسان حال أحدهم:

الله يعلم أني لست أعشقها ... ولا أريد بقاءً ساعة فيها
لكن تمرَّغت في أدناسها زمنًا ... وبتُّ أنشرها حينا وأطويها
وكم تحمَّلت فيها غير مكترث ... من شامخات ذنوب لستُ أحصيها

(١) الفوائد ص ١٩٦.
(٢) المدهش ص ٣١٦.

فقلت أبقى لعلي أهدم ما بنيتُ منها وأدناسي أنقيها
ومن ورائي جبال لست أقطعها حتى أخفف أحمالي وألقيها
يا ويلتي وبحار العفو زاخرة إن لم تُصبني برشٍّ في تثنيها

3 انتكاسة الفطرة:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية وهو يصف حال عاشق انتكست فطرته:

أحب لحبها السودان حتى أحب لحبها سود الكلاب

«فقد أحب سوداء فأحب جنس السواد حتى في الكلاب، وهذا كله مرض في القلب في تصوراته وإرادته»[1].

واسمع هذه القصة التي تثبت لك صحة كلام ابن تيمية والتي أوردها ابن الجوزي في المنتظم عن رجل كان صريع شهوته وقتيل هواه، واسمه **أحمد بن كليب** هذا المسكين المغتر؛ وكان قد عشِق عشقًا حرامًا، ولو كان مع امرأة لكان مع جرمه معذورًا بحال مع الأحوال، لكنه كان عشقًا قبيحًا فاحشًا انتكست به فطرته مع غلام!! والغلام اسمه **أسلم بن أبي الجعد** من بنى خلد، وكان فيهم وزارة أي كانوا وزراء للملوك وحجابًا، فأنشد فيه أشعارًا تحدث الناس بها، وكان هذا الشاب **أسلم** يطلب العلم في مجالس المشايخ؛ فلما بلغه عن **ابن كليب** ما قال فيه استحى من الناس، وانقطع في دارهم، وكان لا يجتمع بأحد من الناس، فازداد غرام **ابن كليب** به حتى مرض من ذلك مرضًا شديدًا بحيث عاده منه الناس، ولا يدرون ما به، وكان في جملة من عاده بعض المشايخ من العلماء، فسأله عن مرضه، فقال: أنتم تعلمون ذلك ومن أي شيء مرضي وفي أي شيء دوائي؛ لو زارني **أسلم** ونظر إليَّ نظرة، ونظرته نظرة واحدة لبرأت!! فرأى ذلك العالم من المصلحة أن لو دخل على **أسلم** وسأله أن يزوره ولو مرة واحدة متخفيًا، ولم يزل ذلك الرجل العالم بأسلم حتى أجابه إلى زيارته؛ فانطلقا إليه فلما دخلا دربه ومحلته تردَّد الغلام، واستحى من الدخول عليه، وقال للرجل العالم لا أدخل عليه وقد ذكرني ونوَّه بأسمي؛ وهذا مكان ريبة وتهمة، وأنا لا أحب أن أدخل مداخل التهم، فحرص به

(١) الفتاوى الكبرى لابن تيمية ١٠/ ٨٢ - دار الوفاء - الطبعة الثانية ١٤٢٢/ ٢٠٠١.



الرجل كل الحرص ليدخل عليه فأبى عليه، فقال له إنه ميت لا محالة، فإذا دخلت عليه أحييته، فقال:

يموت وأنا لا أدخل مدخلا يُسخِط الله علي ويغضبه، وأبى أن يدخل وانصرف راجعًا إلى دارهم، فدخل الرجل على ابن كليب، فذكر له ما كان من أمر أسلم معه؛ وقد كان غلام ابن كليب دخل عليه قبل ذلك، وبشَّره بقدوم معشوقه عليه، ففرح بذلك جدًّا، فلما تحقق رجوعه عنه اختلط كلامه واضطرب في نفسه، وقال لذلك الرجل الساعي بينهما: اسمع يا أبا عبد الله واحفظ عني ما أقول ثم أنشده:

أسلم يا راحة العليل ... رفقًا على الهائم النحيل

وصلك أشهى إلى فؤادي ... من رحمة الخالق الجليل

فقال له الرجل: ويحك!! اتق الله تعالى!! ما هذه العظيمة!! فقال: قد كان ما سمعت أو قال: القول ما سمعت. قال: فخرج الرجل من عنده فما توسط الدار حتى سمع الصراخ عليه وسمع صيحة الموت وقد فارق الدنيا على ذلك[1].

وهو ما عبَّر عنه ابن الجوزي بمثل من عالم الحيوان حين قال: «هيهات.. إن الطبع الرديء لا يليق به الخير، هذه الخنفساء إذا دُفِنت في الورد لم تتحرك، فإذا أعيدت إلى الروث رتعت، وما يكفي الحية أن تشرب اللبن حتى تمجَّ سُمَّها فيه، وكلٌّ إلى طبعه عائد»[2].

4 الفرح بالخطيئة:

الفرح بالمعصية والتفاخر بها والدعوة إليها كل هذه أدلة على شدة الرغبة فيها والجهل بسوء عاقبتها والاستهانة بقدر من عصاه العبد، فكل من اشتدت غبطته وسروره فليتهم إيمانه، وليبك على موت قلبه، فإنه لو كان حيًّا لأحزنه ارتكابه للذنب وغاظه وصعب عليه، ولا يحس القلب الميت بذلك فحيث، فما لجرح بميت إيلام.

(١) البداية والنهاية ١٢/ ٣٨.
(٢) المدهش ص ٥٢٦.

قال ابن عطاء:

«من علامات موت القلب: عدم الحزن على ما فاتك من الموافقات، وترك الندم على ما فعلته من وجود الزلات»(١).

وقد سمى **ابن القيم** هذه العلامة: **الخسف بالقلب** كما «يُخسف بالمكان وما فيه، فيخسف به إلى أسفل سافلين وصاحبه لا يشعر، وعلامة الخسف به أنه لا يزال جوالاً حول السفليات والقاذورات والرذائل، كما أن القلب الذى رفعه الله وقربه إليه لا يزال جوَّالاً حول البر والخير ومعالي الأمور والأعمال والأقوال والأخلاق»(٢).

5 ألعوبة الشيطان:

تذكَّر دائمًا أن **العقل السليم في الجسم السليم**، ومعنى هذا أن التغذية الإيمانية وتعاهد الرجل قلبه لابد وأن تثمِر بإذن الله تصحيح مفاهيمك وضبط أفكارك في إطار الشرع الحنيف ودوائر الهدى، والعكس بالعكس في حالة قسوة القلب ويبوسته، فيتبع قسوة القلب فساد يحصل له يُفسِد تصوره للحق، فلا يرى الحق حقًّا، أو يراه باطلاً، أو ينقص إدراكه له، وتنعدم إرادته له، فيبغض الحق النافع، ويحب الباطل المهلك.

واسمع إلى حالة مستعصية من حالات تلاعب الشيطان **بالقلب**، وإفساده لتصوراته، وعكسه لإدراكاته، ومثل جليٍّ على الفطرة حين تنتكس والشيطان حين يتحكم والغواية وقد غلبت، وذلك في قصة قاتل **علي بن أبي طالب** ﷺ وهو **عبد الرحمن بن ملجم**:

كان **عبد الرحمن بن ملجم** قد أبصر امرأة من بني تميم يُقال لها **قطام**، وكانت من أجمل أهل زمانها، وكانت ترى رأي الخوارج فولع بها فقالت: لا أتزوج بك إلا على ثلاثة آلاف وقتل **علي بن أبي طالب**، فقال لها: لك ذلك، فأتى **ابن ملجم** رجلاً من أشجع يقال له **شبيب بن بجرة** ليعاونه في قتل **علي**، فقال له: هل لك في شرف الدنيا والآخرة؟ قال: وما ذاك؟ قال: قتل **علي بن أبي طالب!!** فاتفقا على قتله وقد كان، واسمع إلى خاتمته وكيف سخر الشيطان منه حتى آخر لحظات حياته:

---

(١) شرح الحكم ص ١٨٧.

(٢) الجواب الكافي ص ٨٢.

«ثم إن الحسن بن علي استحضر عبد الرحمن بن ملجم من السجن فأحضر الناس النفط والبواري ليحرقوه فقال لهم أولاد علي: دعونا نشتفي منه، فقُطعت يداه ورجلاه فلم يجزع ولا فتُر عن الذكر!! ثم كحلت عيناه وهو فى ذلك يذكر الله!! وقرأ سورة اقرأ باسم ربك إلى آخرها، وإن عينيه لتسيلان على خديه، ثم حاولوا لسانه ليقطعوه فجزع من ذلك جزعًا شديدًا، فقيل له في ذلك فقال: إني أخاف أن أمكث في الدنيا فواقًا لا أذكر الله!!»(١).

وأيضًا وقع في هذا الفخ وانخدع للشيطان عمرو بن الحمق وهو من قتلة عثمان ﷺ، فقد وثب على عثمان فجلس على صدره وبه رمق، فطعنه تسع طعنات قال عمرو: «فأما ثلاث منهن؛ فإني طعنتهن إياه لله، وأما ست فإني طعنتهن إياه لما كان في صدري عليه»(٢).

إنه تلاعب الشيطان بهذه القلوب، وإلباسه أكبر الكبائر ثياب أعظم القربات، وإدخالهم النار بما يظنونه يُدني من الجنة، ونيل سخط الله وهم واهمون أن الرحمة تغمرهم، نسأل الله العافية.

6 بكاء الذليل:

علام يبكي قاسي القلب؟! لكم أن تتوقَّعوا، هل يبكي على فوات حظه من الله أم حظه من الشيطان؟! هل يبكي على ضياع الأجر أو فوات الوزر؟! هل يبكي على الدنيا أم الآخرة؟! ألا فلتسمعوا الطنطاوي يخاطب فريقًا من هؤلاء وهم عشاق لبنى وليلى قائلاً:

«ولا تقيموا الدنيا وتقعدوها، وتغرقوا الأرض بالدموع لأن الحبيبة المحترمة لم تمنح قُبلة وَعدت بها، ولم تصِل وقد لوَّحت بالوصل، تنظمون الأشعار في هذه الكارثة وتنشؤون فيها الفصول، تبكون وتستبكون، ثم تنامون آمنين مطمئنين، والنار من حولكم تأكل البلاد والعباد.

الشعر شعور، فأي شعور وأي حس فيمن يرى أمة كريمة مجيدة بقضِّها وقضيضها، ومفاخرها وتاريخها وحياتها وأمجادها تُطرد من ديارها وتُخرج من بيتها - وهي أمته، وأفرادها إخوته - لتعطى

---

(١) البداية والنهاية ٨/ ١٣.
(٢) تاريخ الطبري ٢/ ٦٧٧.

مساكنها إلى أمة من أسقط الأمم، أمة ضُرِبت عليها الذلة والمسكنة وباءت بغضب من الله، وغضب من الناس ومن الحق والفضيلة والتاريخ، ويرى صدورها مفتحة للرصاص، وشيوخها مساقين إلى حبال المشانق، وشبابها في شعاف الجبال وبطون الأودية يدفعون الظلم بالدم، وأطفالها ونساءها بين لصين: لص ديار، ولص أعراض، لص يحارب بالذهب، ولص يقاتل بالبارود ثم لا يُحِس بهذا كله، ولا يدري به ولا يفكِّر فيه لماذا؟ لأن الشاعر المسكين مصاب متألم!.

ما له؟ ما مُصابه؟ إن حبيبته لم تعطه خدَّها ليقبِّله!! إن العاطفة إذا بلغت هذا المبلغ كانت جريمة»(١).

7 داء الذكر:

قال تعالى متوعِّدًا ومنذرًا: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الزمر: ٢٢].

أي قست قلوبهم بسبب ذكر الله الذي لانت له قلوب المؤمنين وانشرحت صدورهم، فاستقبلوا الدواء على أنه داء، وتلقوا الغيث بسد المنافذ عليه، وقابلوا الضيف المحمَّل بالهدايا بالأبواب المؤصدة، فإذا ذُكر الله تعالى عندهم أو تُلِيت آياته اشمأزوا من ذلك وزادت قلوبهم قساوة وغلظة وشدة، وللمبالغة في وصف أحياء القلب بالقبول ووصف قساة القلب بالصدود؛ فقد ذكر الله شرح الصدر دون القلب الذي يسكن فيه ليدل على شدة قبول أحياء القلوب للإسلام حتى ملأ الصدر الأوسع من القلب؛ بعكس قساة القلوب.

وسبب هذا التباين الرهيب والبون الشاسع: اختلاف قابلية القلب واستعداده للهداية، فإن السبب الواحد تختلف آثاره وأفعاله باختلاف القلب المتلقي ونوعية التربة المستقبلة، فذكر الله سبب لين القلوب وإشراقها إذا كانت القلوب سليمة من مرض العناد والمكابرة والكبر، فإذا حلَّ فيها هذا المرض صارت إذا ذكر الله عندها أشد مرضًا مما كانت عليه: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [الزمر: ٤٥]

---

(١) فصول إسلامية ص ٤٩-٥١.

قلوب بذكر الله تزداد قسوة فلا الوعظ يُجدي ولا العُتب ينفع
أسوق لها طيب الكلام لعلها تلين فلا تصغي ولا تتخشَّع
إذا قلت هذا مدرج القوم فارتقي يقول الهوى: حدَّثت من لم يسمع
وإذا هوت يومًا إلى الناس شهوة تراها إلى ما يُغضب الرب تُسرِعِ

القسوة من تسعة

قسوة القلب نابعة من تسعة أشياء، وهي كما يلي:

١- كثرة الأكل:

روى **أسد بن موسى** من حديث **عون بن أبي جحيفة** عن أبيه قال:

أكلت ثريدًا بلحم سمين فأتيت النبي ﷺ وأنا أتجشأ، فقال: «**كفَّ عنا جشاءك، فإن أكثرهم شبعًا في الدنيا أطولهم جوعا يوم القيامة**»[1]، فما أكل **أبو جحيفة** بملء بطنه حتى فارق الدنيا، وكان إذا تغدى لا يتعشى وإذا تعشى لا يتغدى.

لكن ما العلاقة بين التجشؤ والجوع يوم القيامة والتي قد تبدو بعيدة من أول وهلة؟

قال **المناوي** موضِّحًا خطورة الإسراف في الطعام الذي استهان به الكثيرون، يحسبونه هينًا وهو عند أطباء القلوب عظيم:

«والنهي عن الجشاء نهي عن سببه وهو الشبع، وهو مذموم طِبًّا وشرعًا، كيف وهو يقرِّب الشيطان ويهيِّج النفس إلى الطغيان، والجوع يضيِّق مجاري الشيطان، ويكسر سطوة النفس، فيندفع شرهما، ومن الشبع تنشأ شدة الشبق إلى المنكوحات، ثم يتبعها شدة الرغبة إلى الجاه والمال اللذان هما الوسيلة إلى التوسع في المطعومات والمنكوحات، ثم يتبع ذلك استكثار المال والجاه وأنواع الرعونات وضروب المنافسات والمحاسدات، ثم يتولد من ذلك آفة الرياء

---

(١) حسن: رواه الترمذي وابن ماجة عن ابن عمر كما في ص ج ص رقم: ٤٤٩١.

وغائلة التفاخر والتكاثر والكبرياء، ثم يتداعى ذلك إلى الحسد والحقد والعداوة والبغضاء، ثم يُفضي ذلك بصاحبه إلى اقتحام البغي والمنكر والفحشاء والبطر والأشر، وذلك مُفضٍ إلى الجوع في القيامة وعدم السلامة إلا من رحم ربك»(١).

ولذا كانت سنة وطريقة **عبد الله بن عمر** ﷺ التي سار عليها طوال حياته أن يقلل من طعامه عن طريق وسيلة تفيض ثوابا وتقذف أجرا، فقد كان لا يأكل حتى يؤتى بمسكين فيأكل معه، فأُدخِل عليه يوما رجل فأكل أكلاً كثيرًا، فقال **ابن عمر** لغلامه: يا **نافع** لا تُدخل علي هذا، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**المؤمن يأكل في معيٍّ واحد، والكافر يأكل في سبعة أمعاء**»(٢).

وهنا يبادرنا سؤال:

> **كم من كافر أقل أكلاً من مؤمن، وكم من كافر أسلم فلم يتغير مقدار أكله!!**

قال ابن حجر:

«قيل: المراد حض المؤمن على قلة الأكل إذا علم أن كثرة الأكل صفة الكافر، فإن نفس المؤمن تنفر من الاتصاف بصفة الكافر، ويدل على أن كثرة الأكل من صفة الكفار قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَـٰمُ﴾ [محمد: ١٢].

وقال **الطيبي**: ومحصل القول أن من شأن المؤمن الحرص على الزهادة والاقتناع بالبلغة بخلاف الكافر، فإذا وجد مؤمن أو كافر على غير هذا الوصف لا يقدح في الحديث، ومن هذا قوله تعالى ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ [النور: ٣]، وقد يوجد من الزاني نكاح الحرة ومن الزانية نكاح الحر.

---

(١) فيض القدير ٥/ ٨.

(٢) صحيح: رواه الشيخان وأحمد والترمذي وابن ماجة عن ابن عمر كما في اللؤلؤ والمرجان رقم: ١٣٣٤ و ص ج ص رقم: ٦٦٦٠، والخبر في شعب الإيمان ٥/ ٢٣.

وقيل أن المراد بالمؤمن في هذا الحديث التام الإيمان؛ لأن من حسن إسلامه وكمل ايمانه اشتغل فكره فيما يصير إليه من الموت وما بعده، فيمنعه شدة الخوف وكثرة الفكر والإشفاق على نفسه من استيفاء شهوته»[١].

وإن كثرة الطعام ما هي إلا علامة على قسوة القلب وطريق مُمَهَّد موصل إلى موته؛ لذا غفل قساة القلوب عن سبب رئيسي لإفراطهم في الطعام وبالتالي جهلوا سبب القساوة، وهو ما أشار إليه **ابن القيِّم** في الفوائد:

«لو تغذَّى القلب بالمحبة لذهبت عنه بطنة الشهوات:

ولو كنت عذري الصبابة لم تكن
بطينا وأنساك الهوى كثرةَ الأكل»[٢].

وإن كثرة الطعام كذلك تُدخل القلب في متاهة الآفات الستة التي أشار إليها **أبو سليمان الداراني** بقوله: «من شبع دخل عليه ست آفات: فقد حلاوة المناجاة، وحرمان الشفقة.. على الخلق؛ لأنه إذا شبع ظن أن الخلق كلهم شباع، وثقل العبادة، وزيادة الشهوات، وإن سائر المؤمنين يدورون حول المساجد، والشباع يدورون حول المزابل»[٣].

بل أوصى **الحسن البصري** كل من ضاع خشوعه والتمس دموع الخشية فلم يجدها؛ أوصاه بهذه الوصية العملية المُجرَّبة واقعيا فقال: «من أراد أن يخشع قلبه ويغزر دمعه فليأكل في نصف بطنه»[٤].

فضلا عن أن كثرة الطعام تضيِّع على المرء فرص الثواب الجزيل لأنها تصرف الطعام في غير وجهه الصحيح، ولو صرِفت صدقة وبذلاً بدلاً من أكلها لكان خيرًا لصاحبها في الدنيا والآخرة، وقد رُوِي عن النبي ﷺ أنه رأى رجلاً عظيم البطن فأشار إلى بطنه بأصبعه فقال:

«لو كان هذا في غير هذا لكان خيرا لك»[٥].

---

(١) فتح الباري ٥/ ٥٣٩ بتصرف.
(٢) الفوائد ١/ ٧٧.
(٣) إحياء علوم الدين ٣/ ٨٧.
(٤) الحسن البصري ١١.
(٥) ضعيف الترغيب والترهيب ٢/ ٢٩.

لكن.. هل مقصود كلامي أن يجوّع الإنسان نفسه ويُحرِّم على نفسه ما أحل الله له؟! حاشا وكلا؛ بل كل ما أريد قوله جاء موجزًا على لسان **الحليمي** - رحمه الله- الذي بيَّن مغزى الكلام:

«وكل طعام حلال فلا ينبغي لأحد أن يأكل منه ما يثقل بدنه، فيحوجه إلى النوم، ويمنعه من العبادة، وليأكل بقدر ما يسكن جوعه، وليكن غرضه من الأكل أن يشتغل بالعبادة ويقوي عليها»(١).

فالمطلوب منك على الفور إذن ثلاثة أمور:

أولاً: نية صالحة لكل لقمة تؤكل، حتى يتحوَّل كل طعام لك إلى عبادة، ويُشبع روحك مع جسدك.

ثانيًا: قلة الأكل، وهي ما قال عنه النبي ﷺ: ثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه، وعلامة ذلك أن تفارق المائدة وأنت لا تزال جائعا، وهو معنى قوله: «**وإذا أكلنا لا نشبع**».

ثالثًا: المواظبة على الصيام انتصارا لروحك على شهوة الأكل.

٢- كثرة النوم:

النوم كالملح لابد من قليل منه في الطعام، لكن زيادته مضرة وتجعل طعم الحياة غير مستساغ، فلكثرة النوم أضرار كثيرة، وما قسوة القلب إلا أحد نتائجها، وقد سبق وأن أحصى أبو حامد الغزالي عواقب كثرة النوم فقال:

«وفي كثرة النوم: ضياع العمر، وفوت التهجد، وبلادة الطبع، وقساوة القلب، والعمر أنفس الجواهر، وهو رأس مال العبد فيه يتجر، والنوم موت، فتكثيره يُنقص العمر، ثم فضيلة التهجد لا تخفى، وفي النوم فواتها»(٢).

وكيف يُكثِر النوم في هذه الدنيا من ينتظر أطول رقدة له في القبر؟! وكيف يُسرِف أحد في

(١) شعب الإيمان ٥/ ٢٢.
(٢) الإحياء ٣/ ٨٦.

النوم وهو أخو الموت من الرضاع؟! يا من قساوة قلبه أشد من الحجر..

يـا طويـل الرقـاد والغفـلات ... كثـرة النـوم تـورث الحسـرات

إنَّ في القـبر إن نزلـت إليـه ... لرقـادا يطـول بعـد الممـات

ومِهـادا مُمَهَّـدا لـك فيـه ... بـذنوب عملـت أو حسـنات

أأمنـت الهجـوم مـن ملـك المـو ... ت وكـم نـال آمنًـا ببيـات

لكن لماذا يصحو قاسي القلب إذا كان يتقلب طوال يومه في طبقات من النوم المتواصل، من نوم في اليقظة إلى نوم في المنام، إنها قسوة القلب تجعل صاحبها غير آبه بقيمة الوقت ولا مكترث به، فلا يوجد ما يفعله كي يستيقظ، لذا يغط في نوم عميق.

أسباب قلة المنام

قال ﷺ: «**ما رأيت مثل النار نام هاربها، ولا مثل الجنة نام طالبها**»(١).

أي أن النوم وشدة الغفلة والاسترسال في الكسل ليست طرق الهارب من جهنم والطالب للجنة، بل إن طريقه يمر باليقظة ووثبات الهروب من جحيم المعاصي إلى جنة الطاعات، وفي الحديث معنى التعجب والاستنكار على من أكثر نومه وسدر في غفلته عما أُعِدَّ له.

ومما يعين على قلة النوم: همُّ الخوف من النار، فقد كان **طاووس** يفترش فراشه ثم يضطجع عليه فيتقلب كما تقلى الحبة على المقلى ثم يثب فيدرجه ويستقبل القبلة حتى الصباح ويقول: طيَّر ذكر جهنم نوم العابدين، وكان **شداد بن أوس** إذا أوى إلى فراشه كأنه حبة على مقلاة فيقول: اللهم إن ذكر جهنم لا يدعني أنام، ثم يقوم إلى مُصَلاه، ولما قالت ابنة **الربيع بن خيثم**: يا أبت مالك لا تنام والناس ينامون؟ فقال: إن النار لا تدع أباك ينام!! وكان **صفوان بن محرز** إذا جنَّه الليل يخور كما يخور الثور ويقول: منع خوف النار مني الرقاد، وكان **سفيان الثوري** لا ينام إلا أول الليل، ثم ينتفض فزعًا

(١) حسن: رواه الترمذي عن أبي هريرة والطبراني في الأوسط عن أنس كما في ص ج ص رقم: ٥٦٢٢.

مرعوبًا ينادي: النار النار.. شغلني ذكر النار عن النوم والشهوات، ثم يتوضأ ويقول عقب وضوئه: اللهم إنك عالم بحاجتي، وما أطلب إلا فكاك رقبتي من النار، وهؤلاء عبَّر عن حالهم شعرا **عبد الله بن المبارك** فقال:

إذا ما الليل أظلم كابدوه ... فيُسفر عنهم وهم ركوع

أطار الخوف نومهم فقاموا ... وأهل الأمن في الدنيا هجوع

ومما يعين على قلة النوم: معرفة قيمة الوقت، فوالله يا أخي.. لو أن ساعة من النوم حذفتها من ساعات نومك اليومية لأضفت إلى نفسك عمرًا آخر لو كنت تعلم، لتجد الفارق مبهجًا يوم القيامة.

ومما يعين على قلة النوم: قلة الأكل، فمن أكل كثيرًا نام كثيرًا فخسر كثيرًا.

ومما يعين على قلة النوم: التعامل مع الساعة البيولوجية بحكمة، فإن وظائف الجسم في الإنسان تستطيع أن تتكيف مع أي عدد من ساعات نومه، ولن يشبع أحد من كثرة النوم، لكن العاقل هو من أعطى جسمه راحته دون إفراط أو تفريط.

ومما يعين على قلة النوم: النوم على الشق الأيمن، «وقد قيل: إن الحكمة في النوم على الجانب الأيمن أن لا يستغرق النائم في نومه لأن القلب فيه ميل إلى جهة اليسار، فإذا نام على جنبه الأيمن طلب القلب مستقره من الجانب الأيسر، وذلك يمنع من استقرار النائم واستثقاله في نومه بخلاف قراره في النوم على اليسار، فإنه مستقره، فيحصل بذلك الدعة التامة، فيستغرق الإنسان في نومه ويستثقل، فتفوته مصالح دينه ودنياه»[١].

ومما يعين على قلة النوم: حمل الهَمِّ وأعلاه هَمُّ الدعوة إلى الله، ورحمة الله على دعاة الإسلام في زماننا يحيون ما اندثر من سيرة السلف ويحيون قلوبنا عندما نسمع

---

(١) زاد المعاد ٤/ ٢١٩.

عن عزمهم، فقد حدَّثني والد زوجتي المهندس **خيرت الشاطر** أنه صاحب فضيلة الداعية الشيخ **عبد المتعال الجبري** في رحلة دعوية دائبة، لتتواصل حركته من بعد صلاة الفجر انتقالا من محاضرة إلى درس إلى سعي في قضاء حوائج حتى انتصف عليهما الليل، ووصلا البيت في تمام الساعة الثانية فجرًا، ليجدا عند رجوعهما من ينتظرهما ليستشير الشيخ في أمر!! فاعتذر الأخ المضيف قائلا: إن الشيخ متعب من سعيه طيلة اليوم ولن يستطيع مقابلة أحد، وهنا قال الشيخ: ومن قال لك أني متعب؟ يا أخي.. أنا يكفيني كل يوم من النوم ساعتان، مجتمعتان أو متفرِّقتان!! فجلس مع الرجل وأشار عليه في مسألته!!

أمة وسطًا

لكن الدعوة إلى التقليل من النوم لابد أن تكون معتدلة لا تغمط النفس حقها وضرورات حياتها، فتضر من حيث تريد أن تنفع، ولا تبلِّغ المقصود بل ضد المقصود. قال **ابن القيم** وهو يقود قافلتنا بحكمة في طريق الاعتدال:

«وكما أن كثرة النوم مورثة لهذه الآفات؛ فمدافعته وهجره مورث لآفات أخرى عظام: من سوء المزاج ويبسه وانحراف النفس وجفاف الرطوبات المعينة على الفهم والعمل، ويورث أمراضا متلفة لا ينتفع صاحبها بقلبه ولا بدنه معها، وما قام الوجود إلا بالعدل، فمن اعتصم به فقد أخذ بحظه من مجامع الخير»(١).

أنفع النوم وأضره

فإن تابعت وسألت **ابن القيم**: وما أنفع النوم وما أضره؟! وما المستحب منه وما المكروه؟! فعلى الخبير وقعت، حيث أجابك - رحمه الله - قائلاً:

«وأنفع النوم: ما كان عند شدة الحاجة إليه، ونوم أول الليل أحمد وأنفع من آخره، ونوم

(١) المدارج ص ٤٦٠.

وسط النهار أنفع من طرفيه، وكلما قرب النوم من الطرفين قلَّ نفعه وكثر ضرره، ولا سيما نوم العصر والنوم أول النهار إلا لسهران، ومن المكروه عندهم: النوم بين صلاة الصبح وطلوع الشمس، فإنه وقت غنيمة، وللسير ذلك الوقت عند السالكين مزِيَّة عظيمة حتى لو ساروا طول ليلهم لم يسمحوا بالقعود عن السير ذلك الوقت حتى تطلع الشمس، فإنه أول النهار ومفتاحه، ووقت نزول الأرزاق، وحصول القسم، وحلول البركة، ومنه ينشأ النهار، فينبغى أن يكون نومها كنوم المضطر وبالجملة فأعدل النوم وأنفعه: نوم نصف الليل الأول وسدسه الأخير، وهو مقدار ثماني ساعات، وهذا أعدل النوم عند الأطباء، وما زاد عليه أو نقص منه أثر عندهم في الطبيعة انحرافًا بحسبه، ومن النوم الذي لا ينفع أيضًا: النوم أول الليل عقيب غروب الشمس حتى تذهب فحمة العشاء، وكان رسول الله يكرهه، فهو مكروه شرعًا وطبعًا»[(١)].

مراعاة الفوارق

ومن الخطأ الفاحش: معاملة الناس معاملة واحدة وعدم مراعاة اختلاف حال الأشخاص والقدرات؛ فمن الناس من تقِلُّ عدد ساعات نومه بطبيعته، ولابد كذلك من مراعاة اختلاف البيئات؛ فالبلاد الحارة غير البلاد الباردة، والبلاد المزدحمة غير البلاد الهادئة، ومراعاة اختلاف الأعمار كذلك؛ فما يحتاجه الشاب غير ما يحتاجه الشيخ، ومراعاة اختلاف الأعمال فأصحاب الأشغال الشاقة غير أصحاب الأعمال السهلة؛ والأعمال البدنية غير الأعمال الذهنية.

ولابد كذلك من فهم قضية البركة في الأوقات لدى الصالحين وإعطائها حقها، ومن الخطأ عدم مغالبة النعاس الخفيف إن وُجِد والاستجابة لدواعيه، ولو صمد صاحبه قليلاً لانقشع عنه وزال وربح هو وقته، وأخيرًا فمن الخطأ الشائع الإكثار من جوالب النعاس ككثرة الطعام والتمدد الطويل في غير وقت النوم[(٢)].

---

(١) مدارج السالكين ١/ ٤٦٠،٤٥٩.

(٢) الترف وأثره في الدعاة والصالحين ص ٨٥-٩٠ - محمد موسى الشريف - ط دار الأندلس الخضراء الأولى ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، وقد نقلته كما هو مختصرًا.

وأخيرًا: عبادة النوم

واسمع كيف حوَّل ﷺ نومه إلى عبادة، وكيف علَّمنا ذلك من بعده لنتعبَّد الله تعالى حتى أثناء نومنا؟!

فقد روت عنه **عائشة** رضي الله عنها أنه **(كان لا ينام حتى يقرأ بني إسرائيل والزمر)**[١]، وفي حديث آخر **للعرباض بن سارية** ﷺ أن النبي ﷺ **(كان لا ينام حتى يقرأ المُسبِّحات، ويقول: فيها آية خير من ألف آية)**[٢]، والمُسبِّحات هي السور التي افتُتِحت بقوله تعالى: ﴿سَبَّحَ﴾ أو ﴿يُسَبِّحُ﴾، وهُنَّ سور: الإسراء، والحديد، والحشر، والصف، والجمعة، والتغابن، والأعلى.

إن شأن أي مقتدٍ برسول الله ﷺ أن يقرأ هذه السور حتى يغلبه النعاس، وكأن المراد منك أن تنام وأنت تقرأ القرآن، وأن يكون هذا هو آخر ما ينطق به لسانك في يومك، وقد بيَّن **ابن القيم** فضل هذا النوع من الذكر قبل النوم، ورغَّبك فيه، ووضَّح لك الحكمة منه، وحسن العاقبة والجزاء عليه، وكل هذا ليغريك فتواظب، فقال:

«وبالجملة فلا يزال يذكر الله على فراشه حتى يغلبه النوم وهو يذكر الله، فهذا منامه عبادة وزيادة له في قربه من الله»[٣].

ومكافأة أخرى عظيمة لمن نام وهو يذكر ربه نقلها لنا **أبو أمامة** ﷺ فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«من أوى إلى فراشه طاهرًا وذكر الله تعالى حتى يُدركه النعاس، لم ينقلب ساعة من الليل يسأل الله شيئًا من خير الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه»**[٤].

٣- كثرة الكلام:

قال **عطاء بن أبي رباح**: «إن من قبلكم كانوا يعدون فضول الكلام ما عدا كتاب الله أو أمر بمعروف أو نهي عن منكر أو أن تنطق في معيشتك التي لا بد لك منها، أتذكرون أن عليكم

---

(١) صحيح: رواه أحمد والترمذي والحاكم عن عائشة كما في ص ج ص رقم: ٤٨٧٤.

(٢) حسن: رواه الترمذي عن العرباض بن سارية كما في صحيح الترمذي رقم: ٢٧١٢.

(٣) طريق الهجرتين ١/ ٣١٨.

(٤) صحيح دون قوله **«وذكر الله تعالى حتى يدركه النعاس»** كما في صحيح الكلم الطيب رقم: ٨٢.

حافظين كرامًا كاتبين، عن اليمين وعن الشمال قعيد، ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد، أما يستحي أحدكم لو نشرت صحيفة التي أملى صدر نهاره وليس فيها شيء من أمر آخرته»(١).

إن من القلوب القاسية من لا يصلح معه إلا مثل هذه اللهجة القاسية، وإن كثرة الكلام بالباطل لا تُعالج إلا بقوة كلام الحق، لكن **عبد الله بن المبارك** كان أخف لهجة حين خاطب من كان قلبه بين القساوة والحياة قائلاً:

وإذا ما هممت بالنطق في البـ … اطل فاجعل مكانه تسبيحا

فاغتنام السكوت أفضل من خوض … وإن كنت في الحديث فصيحا(٢)

إن كثرة الكلام هي علامة واضحة على قسوة القلب لكن كثرة الكلام كذلك من أسهل الطرق الموصلة إليه.

لذا قال **بشر بن الحارث**: «خصلتان تقسيان القلب: كثرة الكلام وكثرة الأكل»(٣)، وأخطر من ذلك قول النبي ﷺ:

«وإن أبغضكم إليَّ وأبعدكم مني في الآخرة أسوؤكم أخلاقًا الثرثارون المتفيهقون المتشدِّقون»(٤).

و«**الثرثارون**» أي الذين يُكثرون الكلام تكلفًا وتشدقًا، و«**المتفيهقون**» هم مدَّعو الفقه الذين يتوسعون في الكلام ويفتحون به أفواههم تفاصحًا وتفاخرًا؛ وهو مأخوذ من الفهق وهو الامتلاء والاتساع؛ لأنه يملأ فمه بالكلام ويتوسع فيه إظهارًا لفصاحته وفضله واستعلاء على غيره؛ ليميل بقلوب الناس وأسماعهم إليه، أما «**المتشدِّقون**» فهم الذين يتكلمون بأشداقهم ويتقعرون في مخاطبتهم من غير احتياط واحتراز.

---

(١) شعب الإيمان ٤/ ٢٧٤.
(٢) السابق ٤/ ٢٧٤.
(٣) حلية الأولياء ٨/ ٣٥٠.
(٤) صحيح: رواه أحمد وابن حبان والطبراني والبيهقي عن أبي ثعلبة الخشني كما في ص ج ص رقم: ١٥٣٥.



لكن يبادرنا هنا سؤال:

ما الدافع إلى كثرة الكلام؟!

قال المناوي:

«كثرة الكلام تتولد عن أمرين: إما طلب رئاسة يريد أن يرى الناس علمه وفصاحته، وإما قلة العلم بما يجب عليه في الكلام»(١).

فكثرة الكلام نابعة من قسوة القلب، فإن القلب القاسي إما أن يمتلأ بحب الرئاسة أو يمتلأ غفلة وعدم إدراك عواقب الكلام، وكلٌّ منهما دافع إلى كثرة الكلام، أما حب الرئاسة فيدفع صاحبه إلى التباهي بما فيه وما ليس فيه، فيمتلئ فخرًا وينطق زهوا، وأما قلة العلم فتجعل صاحبها ينسى أنه محاسب على فلتات لسانه ومنتجات فمه، فيكثر كلامه وإن كان فيه الهلاك، وصدقك نصر بن أحمد النصيحة حين أنشدك محذِّرًا:

لسان الفتى حتف الفتى حين يجهل ... وكل امرئ ما بين فكيه مقتل
وكم فاتحٌ أبوابِ شرٍّ لنفسه ... إذا لم يكن قفل على فيه مقفل
إذا ما لسان المرء أكثر هذره ... فذاك لسان بالبلاء مُوَكَّل
إذا شئت أن تحيا سعيدا مُسلَّما ... فدبِّر وميِّز ما تقول وتفعل

وإن كثرة الكلام مُهلكة حتى وإن كان الكلام مباحا، لأنها ستجر حتما إلى الكلام الحرام، والشيطان يستدرجك لينقلك من المنطقة المباحة إلى الدائرة المحرَّمة، وكثرة السير في الأرض الموحلة لابد أن تؤدي بصاحبها إلى الانزلاق في الوحل. قال عمر ﷺ: «من كثر كلامه كثر سقطه، ومن كثر سقطه قلَّ حياؤه، ومن قلَّ حياؤه قلَّ ورعه، ومن قلَّ ورعه مات قلبه»(٢).

وحسب كثير كلامه أنه بمثابة من ينتظر الفتنة والموشك على الخطأ، ويكفي قليل الكلام أنه ينتظر الرحمة ويدنو بإنصاته من الهداية والصواب.

---

(١) فيض القدير ٤/ ٣٥٠.
(٢) الإحياء ٣/ ١٢٨.

ولأن العاقل يعلم أنه محاسب عن كل كلمة، لذا يتفكَّر في كلامه أولا، فإن كان لله أمضاه، وإن كان لغيره حبسه؛ لذا قلَّ كلامه، وسكت عن كثير الكلام، أما قاسي القلب فلا يعمل حسابًا لقول أو كلام لذا ينطق بكل سوء، ويزيد في منطقه دون خشية أو مراقبة، إن القلب الحي مصفاة لكل قول سيئ، والقلب القاسي باب مفتوح لكلمات السوء. فعن **الحسن البصري** قال:

«كانوا يقولون إن لسان المؤمن وراء قلبه، فإذا أراد أن يتكلم بشيء تدبره بقلبه ثم أمضاه بلسانه، وإن لسان المنافق أمام قلبه فإذا هَمَّ بشيء أمضاه بلسانه ولم يتدبره بقلبه»[١].

وليست كثرة كلام المرء من العقل في شيء، لذا كان من أحكم ما قيل: إذا تمَّ العقل نقص الكلام، وقد قال **المُهَلب بن أبي صفرة الأزدي**: «يعجبني أن أرى عقل الرجل الكريم زائدا على لسانه»[٢].

وهل أوفر عقلاً وأكثر نبوغًا من رسول الله ﷺ؟! لذا كان من صفات كلام النبي ﷺ أنه كان يُحدِّث حديثا لو عده العاد لأحصاه، وهذا هذا إشارة إلى قلة كلامه، وفي هذا كذلك: الوقار والمهابة التي يلبس تاجها أحياء القلوب.

تاج الوقار وحسن سمت المسلم — صمت المليء وحكمة المتكلِّم

وقد جعل **أبو الدرداء** ﷺ قلة الكلام من علامات الفقه؛ ما هو بغزارة العلم ولا كثرة الرواية، فقال رحمه الله: «من فقه الرجل قلة كلامه فيما لا يعنيه»[٣].

أقلل كلامك واستعذ من شرِّه — إنَّ البلاء ببعضه مقرون
واحفظ لسانك واحتفظ من عيِّه — حتى يكون كأنه مسجون
وكِّل فؤادك باللسان وقُلْ له — إنَّ الكلام عليكما موزون

وفي نهاية كلامنا عن كثرة الكلام يبادرنا سؤال: هل لابد لأحياء القلوب أن يكونوا قليلي الكلام؟!

(١) الإحياء ٣/ ١١٠.
(٢) تاريخ بغداد تاريخ بغداد ٩/ ٣٠٠.
(٣) أدب المجالسة ص ٨٦.

والجواب: كلا؛ ليس إذا كان الكلام صحيحًا وفي الخير؟! ولذا لما عيب **إياس بن معاوية** بكثرة الكلام قال: وأما كثرة الكلام فبصواب أتكلم أم بخطأ؟ قالوا: بصواب. قال: «فالإكثار من الصواب أمثل»(١).

٤- كثرة المخالطة:

والمقصود بها: مخالطة المرضى والاحتكاك بأموات القلوب ومعايشة قساة المشاعر الإيمانية والمبيت وسط من يذكِّرونك بالدنيا وليس لهم من الآخرة نصيب، وهؤلاء يجرونك نحو النار جرا ويوصدون في وجهك أبواب الجنة، وفيهم يقول **ابن القيِّم** رحمه الله:

«وكم جلبت خلطة الناس من نقمة، ودفعت من نعمة، وأنزلت من محنة، وعطَّلت من منحة، وأحلت من رزية، وأوقعت في بلية، وهل آفة الناس إلا الناس، وهل كان على **أبي طالب** عند الوفاة أضرَّ من قرناء السوء؛ لم يزالوا به حتى حالوا بينه وبين كلمة واحدة توجب لَه سعادة الأبد»(٢).

وغني عن القول أن الصاحب جسر إلى الرحمة أو اللعنة، والصديق سائق إلى الجنة أو النار، لذا قصَّ الله تعالى علينا في القرآن قصة يوم الندم فقال: ﴿**وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا**﴾ [الفرقان: ٢٧، ٢٨].

والقصة أن **عقبة** كان قد همَّ بالإسلام فمنعه منه **أمية بن خلف** وكانا صديقين، وكان **عقبة** قد صنع وليمة فدعا إليها قريشا، ودعا رسول الله ﷺ فأبى أن يأتيه إلا أن يُسلم، وكره **عقبة** أن يتأخر عن طعامه أحد من أشراف قريش فأسلم ونطق بالشهادتين، فأتاه رسول الله ﷺ وأكل من طعامه، فعاتبه خليله **أمية بن خلف** وكان غائبا، فقال **عقبة**: رأيت عظيما ألا يحضر طعامي رجل من أشراف قريش، فقال له خليله: لا أرضى حتى ترجع وتبصق في وجهه وتطأ عنقه وتقول كيت وكيت، ففعل عدو الله ما أمره به خليله؛ فأنزل الله عز وجل: ﴿**وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ**﴾ [الفرقان: ٢٧].

---

(١) صفة الصفوة ٣/ ٢٦٤.
(٢) مدارج السالكين ١/ ٤٥٤، ٤٥٥ ، ط دار الكتاب العربي.

والظالم هنا هو **عقبة بن أبي معيط** وخليله هو **أمية بن خلف**، ولم يُسمَّيا في الآية لأنه أبلغ في الفائدة، ليُعلم أن هذا سبيل كل ظالم أطاع صاحبه في معصية الله.

قال **مجاهد**: «الظالم عام في كل ظالم»(١).

إشارة إلى كل ظالم اتخذ خليلاً له يصده عن الذكر بعد إذ جاءه على يد نبيه، ويصرفه عن ما فيه نجاته، ليرتدع التابع ويرتجف رعبا هو يرى نفسه يُقرن بمن بصق في وجه رسول الله ﷺ، وداس على عنقه وقُتل على يديه.

ومن يكن الغراب له دليلا يمرُّ به على جيَف الكلاب

إن تأملاً في من يُحشر معهم المرء يكفي للتخلص من أثر هذا السم في الحال ﴿ **ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ** ﴾ [الزخرف: ٦٧]، ولكن قساة القلوب من الظالمين أعاجم لا يفهمون لغة القرآن، وهو سُمٌّ ليس لك تتهاون في تناوُل جرعة واحدة منه وإلا كان العطب (**لا تصاحب إلا مؤمنًا، ولا يأكل طعامك إلا تقي**).

وإن أي طالب للشفاء اليوم وباحث عن العافية سيفشل حتما ويظل متخبِّطًا في الضلال والظلمة، وكلما قام سقط، وكلما تقدَّم تعثَّر؛ ما لم يتخذ القرار المصيري الحاسم بهجر الرفقة المهلكة والتي تشده إلى الوراء وتهوي بإيمانه إلى الأسفل، ولن تُجدي أبدا جرعة دواء ما دام يعقبها جرعة سم، ولن تحصل عافية يوما ما دمت تُصبح وتُمسي بين أعداء العافية.. ألا فانتبه!!

أخي..

كاذبٌ ثم كاذبٌ من ادَّعى قدرته على معايشة البيئة الفاسدة دون التأثر بغبارها، لأن قلبه قلب بشر لا قلب مَلَك، وسيتأثر حتما بالبيئة المحيطة سلبا أو إيجابا، وإلا لماذا أمر الله رسوله المؤيَّد بالوحي والذي رأى الجنة والنار رأي العين بصيانة سمعه وبصره ومفارقة مجالس السوء؟ بل وحذَّره من أن يفتن بهم قائلا: ﴿ **وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ**

(١) القرطبي.

﴿عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ [الأنعام: ٦٨]، فإذا كان هذا التحذير للنبي ﷺ وهو أطهر القلوب وأنقاها وأشرفها وأزكاها؛ بل وأبعدها عن التأثر بما يتأثر به غيره، فكيف بغيره؟! بل لما ذهب إلى عرس من أعراس الجاهلية ألقى الله على عينيه بالنعاس صيانة له وحفظا.

سببا المرض

إن سبب الإقبال على صحبة السوء هو التشابه أو الغفلة، فأما **التشابه** فقد كان **مالك بن دينار** يقول: «لا يتفق اثنان في عِشرة إلا وفي أحدهما وصفٌ من الآخر، وإن أجناس الناس كأجناس الطير، ولا يتفق نوعان من الطير في الطيران إلا وبينهما مناسبة. قال: فرأى يومًا غرابًا مع حمامة فعجب من ذلك، فقال: اتفقا وليسا من شكل واحد، ثم طارا فإذا هما أعرجان، فقال: من ها هنا اتفقا»(١).

ولذلك قال بعض الحكماء: كل إنسان يأنس إلى شكله؛ كما أن كل طير يطير مع جنسه، وإذا اصطحب اثنان برهة من زمان ولم يتشاكلا في الحال فلا بد أن يتفرقا، وهذا معنى خفي فطن له الشعراء حتى قال قائلهم:

وقائلٌ كيف تفارقتما ... فقلت قولا فيه إنصاف

لم يك من شكلي ففارقته ... والناس أشكال وألاف

وأما **الغفلة** فالمقصود بها: عدم الانتباه إلى سهولة انتشار العدوى وعموم البلوى بالمخالطة، والإنسان بطبعه وحكم بشريته يتأثر بصديقه وجليسه، ويكتسب أخلاق قرينه وخليله؛ لأن رفقة السوء أعدى من الجرب، ولربما يعدي السليمَ الأجربُ، وقد قال **ابو قدامة** في كلام مختصر حواه كتابه مختصر منهاج القاصدين، وهو يرصد فيه ما خفي عن غيره من الأطباء والمرضى من عواقب رفقة السوء:

«مسارقة الطبع من أخلاقهم الرديئة، وهو داء دفين قلما ينتبه له العقلاء فضلاً عن الغافلين، وذلك أنه قلَّ أن يجالس الإنسان فاسقًا مدة، مع كونه منكرًا عليه في باطنه، إلا ولو قاس نفسه إلى ما قبل مجالسته لوجد فارقًا في النفور عن الفساد، لأن الفساد يصير بكثرة المباشرة هيِّنًا على الطبع، ويسقط وقعه واستعظامه، ومهما طالت مشاهدة الإنسان الكبائر من غيره، احتقر الصغائر من نفسه»(٢).

---

(١) الإحياء ٢/ ١٦٢.

(٢) مختصر منهاج القاصدين – ربع العادات.

ومن آثار صحبة السوء: الرضا عن النفس، وما حال مريض يقارن نفسه بالأموات؟! أو يفرح أن وجد نفسه أعور بين قطيع من العُمي؟! أو يظن بنفسه الخير أن كان يهوي إلى أسفل وغيره أسفل منه؛ كلاهما يهوي لكنه مطمئن أن أخاه أقرب منه إلى الهاوية!! وهو معنى قول **ابن عطاء**: ربما كنت مسيئًا فأراك الإحسان صحبة من هو أسوأ حالاً منك.

ومن آثارها: حالة **الموت السريري** أو ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لأن مخالطة الفاسدين تُضعِف قوة الإنكار في القلب، ومع مرور الوقت تنعكس المشاعر، وتتحول كراهة المنكر إلى حب له واستئناس به، وحتى إن لم تنطمس الفطرة وتصل إلى هذا المنحدر يكون السكوت عن الإنكار حتى لا يخسر الصديق صديقه أو حتى يؤذي مشاعره!!

وجَّه **علي باشا ماهر** الدعوة للإمام الشهيد **حسن البنا** لحضور حفل زفاف ابنه بالإسكندرية، فذهب الأستاذ المرشد إلى الإسكندرية ونزل عند الإخوان، وكلَّف الأستاذ أحد الإخوة الذين رافقوه بالذهاب إلى الحفل، وقال له: إذا لم تجد أي مخالفة شرعية فاتصل بي تليفونيًّا حتى أحضر، وإذا وجدت ما يُسبِّب أي حرج فقم أنت بالواجب، وانتظر الأستاذ فترة، ولم يتصل به الأخ، فقال الأستاذ للإخوان: ألا توجد مناسبة عند أحد الإخوة؟ قالوا: بلى، عند فلان عقد زواج، فذهبوا جميعًا، وكانت مفاجأة سارة، وعمت الفرحة والبهجة[١].

ومن آثارها نفور الصالحين منك بعد أن أدنيت أهل السوء، وهي وصية الواعظ **أبي حازم** لما دخل على أمير المدينة، فقال له: تكلم. قال له: «انظر الناس ببابك، إن أدنيت أهل الخير ذهب أهل الشَّر، وإن أدنيتَ أهل الشَّر ذهب أهل الخير»[٢].

فإذا وجدت الصالحين يهربون منك والعابثين يهربون إليك، وإذا لم تجد حولك غير قساة القلوب الذين يمتصون حيوية القلب وآثار حياته، فاعلم أنك أنت السبب، لأن الضوء لا يدخل مكانا حتى يطرد منه الظلام، ولا يملؤ العسل وعاءً مُلئ بالعلقم.

---

(١) مائة موقف من حياة المرشدين لجماعة الإخوان المسلمين ص ٥٤ – ط١، ١٤١٤هـ- ١٩٩٣م.
(٢) الحلية ٧/ ٢٨٦.

ولهذا حذَّر عالم المدينة وسيد التابعين في زمانه **سعيد بن المسيب** [ت: ٩٤] من مجرَّد النظر إلى الفئة الضالة فضلاً عن مخالطتهم؛ فقال متخذًا أقصى درجات الحيطة ومتجنبًا أولى خطوات الانهيار والسقوط:

«لا تنظروا إلى الظلمة فتحبط أعمالكم الصالحة؛ بل هؤلاء لا سلامة في مخالطتهم، وإنما السلامة في الانقطاع عنهم»(١).

٥- نقض عهد الله:

قال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ لَعَنَّـٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَـٰسِيَةً﴾[المائدة: ١٣].

فجعل الله نقض العهد معه سببًا رئيسًا لقسوة القلب، ويشهد لهذا قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ * فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ * فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ [التوبة: ٧٥-٧٧].

فتأمل هذه القصة(٢)، وهي أن هؤلاء القوم عاهدوا الله إن آتاهم من فضله أن يتصدقوا

---

(١) الإحياء ٢/ ١٧٢، ١٧٣.

(٢) قصة **ثعلبة بن حاطب الأنصاري** التي يرويها بعض المفسرين كسبب لنزول آية في سورة التوبة قصة باطلة، والقصة بإيجاز: أن **ثعلبة** سأل رسول الله ﷺ يدعو الله أن يرزقه مالاً فقال له النبي ﷺ: أما ترضى أن تكون مثل نبيك، فإنني لو شئت أن يسير معي مثل أحد ذهبًا لكان ذلك، فقليل تؤدي شكره خير من كثير يشق عليك، فقال: لئن رزقني الله مالاً لأعطين كل ذي حق حقه، فدعا له النبي ﷺ بكثرة المال، فاتخذ غنمًا نمت وكثرت فضاقت به المدينة، فنزل بواد خارج المدينة، وجعل لا يحضر للجماعة إلا الظهر والعصر، ثم كثر ماله فصار لا يحضر إلا الجمعة، ثم كثر ماله حتى صار يتخلف عن الجمعة، فسأل عنه النبي ﷺ فأُخبر خبره، فقال: ويح **ثعلبة**، ثم لما أرسل النبي عماله لجباية الزكاة قال: مروا على فلان وفلان وعلى **ثعلبة**، ففعلوا فقال لهم **ثعلبة**: ما أظن هذه إلا أخت الجزية وامتنع عنها، فجاء العمال وأخبروا النبي ﷺ، فقال: هلك **ثعلبة** وأنزل الله الآية السابقة فسمعها بعض أقارب **ثعلبة** فخرج إليه وقال: ويحك يا **ثعلبة**!! قد أنزل الله فيك كذا، فجاء **ثعلبة** وعرض على النبي ﷺ صدقته فقال: إن الله أمرني أن لا آخذها منك، ثم لما قبض النبي ﷺ جاء بصدقته إلى **أبي بكر** رضي الله عنه، فقال: كيف آخذها ولم يأخذها النبي منك وأبى أخذها، ثم لما قُبِض **أبوبكر** رضي الله عنه جاء بها **عمر بن الخطاب** رضي الله عنه فلم يأخذها لذات السبب، ولما قُبِض **عمر** رضي الله عنه جاء **عثمان** رضي الله عنه فرده كصاحبيه، ثم توفي **ثعلبة**.

وقد طعن بها الحافظ **ابن حجر** في الإصابة، و**ابن الأثير** في أسد الغابة، والعلامة المحقق **عبد الفتاح أبو غدة** في تعليقه على الأجوبة الفاضلة، فضلاً عن الانتقادات الموجهة للقصة وهي: **ثعلبة بن حاطب** بدري أنصاري وممن شهد الله له ورسوله بالإيمان فما روي عنه باطل وغير صحيح، إضافة إلى أنها تعارض أصلاً ثابتًا في الدين وهو قبول التائب ما لم يغرغر، فإن المشرك إذا أذنب وتاب تاب الله عليه، فكيف بمانع الزكاة؟! ومهما يكن فليس ثعلبة شرًّا من **عبد الله بن أبي بن سلول** زعيم المنافقين الذي كان النبي ﷺ يحسن عشرته فكيف يردُّ **ثعلبة**؟! لهذا فإن هذه قصة باطلة لا يصح أن تُروى إلا على وجه التنبيه والترهيب.

مما آتاهم، ولكن لما آتاهم الله من فضله نكصوا على أعقابهم، وغدروا في ما عاهدوا، فكانت العقوبة أن أعقبهم الله تعالى نفاقًا دائمًا في قلوبهم يبقى معهم حتى المات، وهذا وعيد مخيف يرتعد منه المرء إن هو خالف ما سبق وأن عاهد ربه عليه: أن يصل إلى ما انحدر إليه هؤلاء المنافقون، فإن قانون التماثل لا يتخلَّف ولا يتبدَّل، فإن فعلنا مثل ما فعل أسلافنا من الأمم والأقوام السابقة وصلنا إلى ما وصلوا إليه خيرًا كان أو شرًّا، وما ربك بظلام للعبيد.

إن منا من إذا نزلت به بلية أو مرض أو احتاج إلى ربه في حل مشكلة ألَّمت به؛ أناب وخضع وتاب وخشع، وعاهد الله لئن كشف الله عنه ما هو فيه ليفعلن وليكونن، ثم لا يكون بعدها إلا التولي يوم الزحف، وإخلاف الوعد مع البشر من نواقض المروءة؛ فكيف بنقض العهد مع الله؟! لذا يشتد غضب الله على هذا المستهين بربه، فيضرب على قلبه القسوة والنفاق.

أعرف رجلاً كان أبعد ما يكون عن الله، لكنه ابتُلي بمرض عضال، فصار المسجد بيته، والقرآن نطقه، وأقبل على الصلاة بعد أن هجرها دهرًا، وأشرقت عيناه بدمع الندم بعد أن ولى زمان الجدب؛ حتى شفاه الله وأخذ بيديه إلى العافية، فرجع إلى سابق عهده ناكثًا مدبرًا، دون أن يدرك قبح فعلته وهول غدرته، فماذا كانت النتيجة؟! تيه في دروب الحياة وقسوة أشد وبعدًا أكثر عن ساحل النجاة، حتى يتوفاه الموت أو يجعل الله له سبيلاً.

٦- تعليم العلم دون استعماله:

قال ذو النون وقد سئل: ما أساس قسوة القلب للمريد؟! فقال: «ببحثه عن علوم رضي نفسه بتعليمها دون استعمالها والوصول إلى حقائقها»[(١)].

والسبب في هذه العقوبة أنه رغَّب الناس في بضاعة زهد هو فيها، وأرشد الناس إلى دواء لم يستعمله، وحمل بين يديه الهناء فاختار الشقاء؛ ومن العجائب أعمش كحَّال؛ ولذا كانت عقوبته إماتة قلبه وحرمانه من الحياة.

إن كثرة الوعظ قد تذهب بتأثيره في قلب الواعظ لاعتياده إياه وتكراره له مرات كثيرة وفي محافل شتى.

(١) الحلية ٩/ ٣٦١.

والأمر يحتاج إلى نوبة إفاقة متكرِّرة وعلى الدوام، وإلى إتقان مهارة التأثير في النفس إضافة إلى مهارة التأثير في الغير، وإلا كان حظ الإنسان من وعظه: لسانه، ونصيبه من موعظته: دموع غيره، ودوره مع كلامه: هداية المستمعين إليه، وهو ما حذَّر منه رسول الله ﷺ: «**مثل العالم الذي يُعلِّم الناس الخير وينسى نفسه؛ كمثل السراج يضيء للناس ويُحرِق نفسه**»(١).

كان **السري السقطي** يُعجب مما يرى من علم **الجنيد** وحسن خطابه وسرعة جوابه، فقال له يومًا وقد سأله عن مسألة فأجاب وأصاب: أخشى أن يكون من الدنيا لسانك، فكان **الجنيد** لا يزال يبكي من تلك الكلمة(٢).

وتأمَّلوا رقة قلب وحياة روح سيد الوعاظ الواعظ الكوفي **ابن السماك** فقد ذكر النار في بعض مجالسه، فبكى وأبكى ووعظ وذكر وجرى مجلس حسن جميل، فلما كان في المجلس الثاني دُفِعت إليه رقعة كان فيها:

يا أيها الرجل المعلِّم غيره ... هلا لنفسك كان ذا التعليم

تصف الدواء من السقام لذي الضنا ... كي ما يصحُّ به وأنت سقيم

وأراك تملؤ بالرشاد عقولنا ... نصحًا وأنت من الرشاد عديم

فمرض من ذلك مرضًا شديدًا، وتُوفِّي منه رحمه الله!!(٣).

ومثلما كان في الكوفة أحياء قلوب كان لهم إخوان في أقصى المغرب في أرض الأندلس يخافون من نفس المصير ويتهمونة النفس بالتقصير، ومنهم **المنذر بن سعيد** القاضي الأندلسي الذي خطب يومًا وأراد التواضع؛ فكان من فصول خطبته أن قال:

«حتى متى؟ وإلى متى؟ فكم الذي أعظ ولا أتعظ؛ وأزجر ولا أزدجر، أدل الطريق على المستدلين، وأبقى مقيمًا مع الحائرين! كلا إن هذا لهو البلاء المبين! ﴿**إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ**﴾ [الأعراف: ١٥٥] اللهم فرِّغني لما خلقتني له! ولا تشغلني بما تكفَّلت لي به! ولا تحرمني وأنا أسألك! ولا تعذِّبني وأنا أستغفرك! يا أرحم الراحمين!»(٤).

---

(١) صحيح: رواه الطبراني والضياء عن جندب كما في ص ج ص رقم: ٥٨٣١.

(٢) مجموعة رسائل ابن رجب ١/ ٩٥ - ط الفاروق الحديثة للطباعة والنشر - ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

(٣) شعب الإيمان ٢/ ٣١٦.

(٤) نفح الطيب ٢/ ٢١، أحمد بن محمد المقري التلمساني- ط دار صادر - بيروت.



طواف أهل النار

قال رسول الله ﷺ:

«**يُجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقتابه، فيدور بها في النار كما يدور الحمار برحاه، فيطيف به أهل النار فيقولون: يا فلان! ما أصابك؟ ألم تكن تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ فيقول: بلى قد كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه**»(١).

يُقال أطاف به القوم إذا حلقوا حوله حلقة، وهذا الطواف يكون يوم القيامة، حيث يجتمع إليه أهل النار، تتملَّكهم أقصى درجات الدهشة والتعجُّب ممن كان يحذِّرهم من النار ثم صاحبهم فيها، ويدعوهم إلى الجنة ثم حُرِمها معهم، فتندلق أمعاؤه، وتنكشف أسراره، ويُبدي الله ما كان يُخفيه، ويفضح ما كان غارقًا فيه.

لهذا ألحَّ الصحابة على كل من دخل طريق الدعوة أن يكون مؤهَّلاً، وقلبه مهيئًا، وروحه مستعدة، وإلا كان دخيلاً على جمهور الدعاة، والمستزيد من العلم دون العمل به شبيه بشجر الحنظل؛ كلما ازداد ريًّا بالماء ازداد مرارة، فقد جاء رجل إلى **عبد الله بن عباس** ﷺ فقال:

يا **ابن عباس!!** إني أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر. قال: أو بلغت؟ قال: أرجو. قال: فإن لم تخش أن تفتضح بثلاثة أحرف في كتاب الله فافعل. قال: وما هن؟ قال: قوله عز وجل: ﴿**أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ**﴾ [البقرة: ٤٤] أحكمت هذه الآية؟! قال: لا. قال: فالحرف الثاني. قال: قول الله عز وجل: ﴿**لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ**﴾ [الصف: ٢-٣] أحكمت هذه الآية؟ قال: لا. قال: فالحرف الثالث. قال: قول العبد الصالح شعيب عليه السلام: ﴿**وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ**﴾ [هود: ٨٨] أحكمت هذه الآية؟ قال: لا. قال: «فابدأ بنفسك»(٢).

---

(١) صحيح: رواه الشيخان وأحمد عن أسامة بن زيد كما في ص ج ص رقم: ٨٠٢٢.
(٢) شعب الإيمان ٦/ ٨٨.

٧- كثرة الذنوب:

قال ﷺ: «**الإثم حوَّاز القلوب، وما من نظرة إلا وللشيطان فيها مطمع**»(١).

وحوازٌّ بتشديد الزاي أو الواو، فهي حَوَازٌّ بتشديد الزاي جمع حازٍّ، وهي الأمور التي تحزُّ فيها أي تؤثِّر، كما يؤثر الحزُّ في الشيء، أو حوَّاز بتشديد الواو، أي يحوزها ويتملكها ويغلب عليها.

وسواء كان المراد أن الذنوب تجرح القلوب وتؤثِّر فيها، أو تحوز القلوب وتسيطر عليها، فإن ضررها عظيم وفادح؛ ولذا كان من رحمة الله بعباده أن فرض عقوبات تنبيهية لتستيقظ القلوب رهبًا وترتعد الأطراف وجلاً، فتغلق على العدو بابًا سبق وأن ولج منه، وتطرد فلوله على أدبارها بعد أن غزا قلعته.

الذنب إذن يُضعف مقاومة حصن القلب العتيد في مواجهة المعاصي، فتنهار مقاومته أمام أي شهوة، ويستسلم لأي غفلة، فإذا تتابعت على القلب غزوات العدو مع انعدام الحراسة عليه أصابته حالة من حالات السُّكر، فيصبح كالمخمور، بل إن المخمور قد يكون أفضل حالا منه، فإنه تأتيه ساعة إفاقة يصحو فيها ويعقل، بل لو صادف شيئًا ينقذه من همومه غير الخمر لربما تركها، أما مخمور القلب فلا يفيق من سكرته إلا على دقات ملك الموت يطرق بابه!! فهو ميت في صورة حي، وحجر في صورة قطعة لحم!!

إن الوقوع في الذنوب مع عدم النزوع عنها والمداومة عليها يؤدي إلى القساوة أو الموت؛ لذا كان من بديع شعر ابن المبارك الذي رصد فيه هذا المعنى قوله:

رأيتُ الذنوب تُميت القلوب ... ويورث الذلَّ إدمانها

وترك الذنوب حياة القلوب ... وخيرٌ لنفسك عصيانها

٨- كثرة الضحك:

وهي وصية النبي ﷺ لنا حيث قال ناصحًا **أبا هريرة**:

---

(١) صحيح: السلسلة الصحيحة رقم: ٢٦١٣.



«ولا تكثر الضحك؛ فإن كثرة الضحك تميت القلب»[١].

قال المناوي:

«أي تصيره مغمورًا في الظلمات بمنزلة الميت الذي لا ينفع نفسه بنافعة، ولا يدفع عنها شيئًا من مكروه، وحياته وإشراقه مادة كل خير، وموته وظلمته مادة كل شر، وبحياته تكون قوته وسمعه وبصره وتصور المعلومات وحقائقها على ما هي عليه»[٢].

وموت القلب هو أصل فساده؛ لذا قال ﷺ في حديث آخر:

«وإياك وكثرة الضحك، فإن كثرة الضحك فساد القلب»[٣].

أي أن كثرة الضحك تورث قسوة القلب، لأن الإفراط فيه يورث الانغماس في اللهو والغفلة عن الآخرة، وإذا كان الإسلام يكره الغلو والإسراف في كل شيء ولو كان في العبادة؛ فكيف باللهو والمرح؟!

هزل الأطباء!!

والبعد عن الإفراط في المزاح أوجب للدعاة، فهم القدوات والصور التي يتأمل الناس حسنها ثم يقلِّدونها، وهم الأصل الذي يستنسخ منه الناس نسخا من أعمالهم الزكية، فإذا كان الأصل مهتزًّا فكيف بالصورة؟! والبحر الذي يغسل الأدران إذا كان غير نظيف فكيف يُطهِّر؟! وكيف تقسو قلوب من مهمتهم أن تلين بهم قلوب الناس؟! وكيف يموت قلب مطلوب منه أن يحيي قلوب الآخرين؟! ولذا كان من الوصايا العشر للإمام **البنا** وصيتان مرتبطتان بهذا الأمر؛ الأولى: «**لا تمزح فإن الأمة المجاهدة لا تعرف إلا الجد**»، والثانية: «**لا تكثر الضحك فإن القلب المتصل بالله ساكن وقور**»، ويبيِّن ذلك جليًّا ويحذِّر منه بشدة بعد أن رصده بدقة في تقريره الميداني المفصَّل الأستاذ **الراشد** فيقول:

«وقضايا الإسلام أوفر جدًّا وأثقل همومًا من أن تدع عصبة من الدعاة تطيل الضحك،

---

(١) حسن: رواه أحمد والترمذي البيهقي عن أبي هريرة كما في ص ج ص رقم: ١٠٠.
(٢) فيض القدير ١/ ١٢٤.
(٣) حسن: رواه ابن ماجة عن أبي هريرة كما في ص ج ص رقم: ٧٨٣٣.

وتستجيز المزاح، وتتخذ لها من صاحب خير فيها محور تندُّر وتروي قصصه وغرائبه، والابتسامة علامة المؤمن ولسنا نُنْكرها، والنكتة في ساعتها سائغة، والأريحية أصل في سلوكنا والألفة والبشاشة، ليس العبوسة، والقهقهة الأولى لك، والثانية نهبها لك أيضًا، فإنا كرماء، ولكن الثالثة عليك، وتشفع حسناتك لها عندنا، وأما الرابعة فيلزمها حد لا شفاعة فيه، وشعار: الضحك للضحك؛ باطل، والهزل الهزيل مرفوض في أوساط العمل الإسلامي، وإنما الداعية مُفوَّض بالجد والتجديد»(١).

بقي عليك أربعة

حتى تستكمل آداب المزاح وتحيط بها علمًا؛ هاك ما يلي من شروط المزاح المباح:

أولها: ألا يكون كذبًا، ولهذا قال ﷺ: «**ويل للذي يُحدِّث فيكذب ليُضحك به القوم، ويل له، ويل له**»(٢).

قال **المناوي**: «كرَّره إيذانًا بشدة هلكته، وذلك لأن الكذب وحده رأس كل مذموم، وجماع كل فضيحة، فإذا انضم إليه استجلاب الضحك الذي يميت القلب، ويجلب النسيان، ويورث الرعونة؛ كان أقبح القبائح»(٣).

وغالبًا ما يؤدي بصاحبه إلى الكذب؛ لأن غرضه أن يُضحك الناس كيفما كان، فيسحبه الشيطان رويدًا رويدًا دون أن يشعر حتى يكذب ليُضحك غيره.

ثانيًا: ألا يشتمل على تحقير أو استهزاء أو سخرية من أحد لقول النبي ﷺ **محذِّرًا**:

«**بحسب امرئ من الشَّر أن يحقِر أخاه المسلم**».

ثالثًا: ألا يؤدي إلى ترويع مسلم، فقد روى **النعمان بن بشير** - رضي الله عنهما- قال: كنا مع رسول الله ﷺ في مسير فخفق رجل على راحلته، فأخذ رجل سهمًا من كنانته،

---

(١) تقرير ميداني.
(٢) حسن: رواه أحمد وأبوداود والترمذي والحاكم عن معاوية بن حيدة كما في ص ج ص رقم: ٧١٣٦.
(٣) فيض القدير ٦/ ٣٦٨.

فانتبه الرجل ففزع، فقال رسول الله ﷺ: «**لا يحل لرجل أن يُرَوِّع مسلمًا**»(١).

والسياق يدل على أن الذي فعل ذلك كان يمزح، وقد ورد في الحديث: «**لا يأخذن أحدكم متاع صاحبه لاعبًا ولا جادًّا، وإن أخذ عصا صاحبه فليرُدَّها عليه**»(٢).

رابعًا: ألا يهزل في موضع الجد، ولا يضحك في مجال يستوجب البكاء، فلكل شيء أوانه، ولكل مقام مقال، والحكمة هي وضع الشيء في موضعه المناسب.

وأقبح المزاح ما كان في لحظة خشوع أو عقيب طاعة، فإنه يذهب بأثرها ويضيع مفعولها في الحال، وبعد أن كان القلب خاشعًا وجلاً خائفًا رطبًا؛ إذا به يتحوَّل، وليس قلب المازح وحده بل قلوب كل من سمعوا مزاحه وتأثَّروا به.

وقد عاب الله تعالى على المشركين أنهم كانوا يضحكون عند سماع القرآن وكان أولى بهم البكاء، فقال عز وجل: ﴿ **أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۝ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ** ﴾ [النجم: ٥٨-٦٠].

اعتراض!!

قال **أبو حامد الغزالي** متقمِّصًا كلاًّ من شخصية المعارض والمؤيد:

«فإن قلت: قد نقل المزاح عن رسول الله ﷺ وأصحابه فكيف يُنهى عنه؟! فأقول: إن قدرت على ما قدر عليه رسول الله ﷺ وأصحابه وهو: أن تمزح ولا تقول إلا حقًّا، ولا تؤذي قلبًا، ولا تُفرِّط فيه، وتقتصر عليه أحيانًا على الندور، فلا حرج عليك فيه، ولكن من الغلط العظيم أن يتخذ الإنسان المزاح حرفة يواظب عليه، ويُفرِّط فيه، ثم يتمسك بفعل الرسول ﷺ، وهو كمن يدور نهاره مع الزنوج ينظر إليهم وإلى رقصهم؛ ويتمسك بأن رسول الله ﷺ أذن **لعائشة** في النظر إلى رقص الزنوج في يوم عيد، وهو خطأ إذ من الصغائر ما يصير كبيرة بالإصرار، ومن المباحات ما يصير صغيرة بالإصرار، فلا ينبغي أن يُغفل عن هذا»(٣).

---

(١) حسن صحيح: رواه الطبراني في الكبير عن النعمان بن بشير ورواته ثقات كما في صحيح الترغيب والترهيب ٣/ ٤٢.
(٢) حسن: رواه أحمد وأبوداود والترمذي عن السائب بن يزيد كما في ص ج ص رقم: ٧٥٧٨.
(٣) الإحياء ٣/ ١٢٨، ١٢٩.

٩- أكل الحرام:

السم الذي يصل إلى القلب عن طريق أكلة محرمة يتسبب على الفور في موت القلب ويبوسه؛ إن لم يتدارك الإنسان نفسه بترياق التوبة ودموع الندم، وقد قرَّر علماء القلوب مرارًا أنه لا ينشأ من أكل الحرام إلا فعل الحرام، ولا من أكل الحلال إلا فعل الطاعات، فلو أراد آكل الحلال أن يعصي لما قدر، ولو أراد آكل الحرام أن يطيع لما قدر.

فأكل الحلال هو الذي تلين به القلوب وتسمو على إثره الروح، وهو دواء غير معتاد وزاد يغفل عنه الكثيرون، ويحسبون الأمر بكثرة الصيام وطول القيام فحسب، وهو الأمر الذي غاب عن بشر بن الحارث وعن صاحبه **عبد الوهاب ابن أبي الحسن**، لكن ما كان ليغيب عن إستاذهما **أحمد بن حنبل**، فعن **أبي حفص عمر بن صالح الطرسوسي** قال:

«ذهبت أنا و**يحيى الجلاء** إلى أبي عبد الله فسألته، فقلت: رحمك الله يا أبا عبد الله بم تلين القلوب؟! فأبصر إلى أصحابه فغمزهم بعينه، ثم أطرق ساعة، ثم رفع رأسه، فقال: يا بني بأكل الحلال، فمررت كما أنا إلى **أبي نصر بشر بن الحارث**، فقلت له: يا **أبا نصر**! بم تلين القلوب؟! قال: ألا بذكر الله تطمئن القلوب. قلت: فإني جئت من عند أبي عبد الله، فقال: هيه.. إيش قال لك أبو عبد الله؟! قلت: بأكل الحلال، فقال: جاء بالأصل، فمررت إلي **عبد الوهاب بن أبي الحسن**، فقلت: يا أبا الحسن! بم لين القلوب؟! قال: ألا بذكر الله تطمئن القلوب. قلت: فإني جئت من عند أبي عبد الله، فاحمرت وجنتاه من الفرح، وقال لي: إيش قال أبو عبد الله؟! قلت: قال بأكل الحلال، فقال: جاءك بالجوهر.. جاءك بالجوهر، الأصل كما قال، الأصل كما قال»(١).

ومن هنا أفتاك **إبراهيم بن أدهم** بما يلي:

«أطب مطعمك؛ ولا عليك أن لا تقوم بالليل وتصوم بالنهار»(٢).

---

(١) الحلية ٩/ ١٨٣.
(٢) السابق ٨/ ٣١.

بل وعقد هؤلاء العلماء المقارنات وعلَّموك مبكِّرًا ما يُعرف بفقه الأولويات، فنطق **عبد الله بن المبارك** وقال: «ردُّ درهم من شبهة أحب إليَّ من أن أتصدق بمائة ألف درهم ومائة ألف ومائة ألف؛ حتى بلغ إلى ستمائة ألف»(١).

ومن بعد جاء **إبراهيم بن أدهم** الذي أرشدنا إلى طريق الارتقاء في مدارج المتقين فقال: «ما أدرك من أدرك إلا من كان يعقل ما يدخل جوفه»(٢).

والثالث هو **الفضيل بن عياض** الذي قال: «من عرف ما يدخل جوفه كتبه الله صديقًا، فانظر عند من تفطر يا مسكين»(٣)، وأخيرًا **سفيان الثوري** الذي فضح آكلي الحرام المتستِّرين بالتصدق منه ببعض الإحسان، فعرَّفهم حقيقة ما صنعوا بمثل واضح فاضح: «من أنفق من الحرام في طاعة الله كان كمن طهَّر الثوب النجس بالبول، والثوب النجس لا يطهِّره إلا الماء، والذنب لا يكفِّره إلا الحلال»(٤).

وقرَّر أخيرا **أبو حامد الغزالي** في صرامة واضحة بعد أن استدل بكلام هؤلاء الفضلاء السابقين (أن العبادات كلها ضائعة مع أكل الحرام، وأن أكل الحلال هو أساس العبادات كلها)(٥).

---

(١) إحياء علوم الدين ٢/ ٩١.
(٢) السابق ٢/ ٩١.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) المصدر نفسه.
(٥) الإحياء ٤/ ٤٢٩.



(٣) القلب المريض:

المرض دون القساوة، والقلب المريض هو المتذبذب بين السلامة والقساوة، فهو يعلو حينًا ويهبط حينًا، وهو القلب الذي تمده مادتان: مادة إيمان ومادة كفر، وهو إن غلب عليه مرضه التحق بالميت القاسى، وإن غلبت عليه صحته التحق بالقلب السليم، وخطورة هذا القلب وأهميته تتمثَّل في أن الشيطان لا يقرب القلب القاسي الميت فهذا لا مطمع له فيه، ولا يستطيع أن يقرب القلب الحي وإلا احترق، إنما يهاجم القلوب المريضة.

وخطورة هذا القلب كذلك في أن أمراض القلوب تفوق أمراض الأبدان كمًّا وكيفًا، بل تتفاوت تفاوتًا عظيمًا من حيث مدة المرض، فالأمراض لها أعمار، فمن مرض موسمي عارض إلى مرض مستحكم دائم، ومن مرض ساعة إلى مرض شهر إلى مرض لا يزول إلا بموت صاحبه، فكم سيطول مرضك، ومتى الشفاء من العناء؟! كما تتفاوت خطورة المرض الواحد تفاوتًا شديدًا، فمن إصابة حادة إلى إصابة مزمنة، ومن مرض مؤلم إلى آخر مميت، ومن مرض محدود الأثر لا يتعدَّى صاحبه إلى مرض مُعدي يضر بالمجتمع.

ومن خطورة المرض أن المرض قد يبدأ بسيطًا هينًا يسهل علاجه لكنه إن أُهمل تطوَّر إلى مرض خطير بل وقد يؤدي إلى الوفاة، وكم سمعنا عن مريض أجرى عملية بسيطة لكن بسبب سوء المتابعة وإهمال التمريض حدثت الوفاة، وهذا في أمراض الأبدان وكذلك الحال في أمراض القلوب.

لكن.. وقبل الدخول في التفاصيل..

ما هو المرض؟!

قال **ابن القيِّم**:

«والمرض يدور على أربعة أشياء: فساد وضعف ونقصان وظلمة، ومنه مَرِض الرجل في

الأمر إذا ضعف فيه ولم يبالغ، وعين مريضة النظر أي فاترة ضعيفة، وريح مريضة إذا هَبَّ هبوبها كما قال:

راحت لأربعك الرياح مريضة، أي لينة ضعيفة حتى لا يُعفى أثرها، وقال **ابن الأعرابي**: أصل المرض النقصان ومنه: بدن مريض أي ناقص القوة، وقلب مريض: ناقص الدين، ومَرِض في حاجتي إذا نقصت حركته، وقال **الأزهري** عن **المنذري** عن بعض أصحابه: المرض إظلام الطبيعة واضطرابها بعد صفائها. قال: والمرض الظلمة وأنشد:

وليلة مرِضَت من كل ناحيـــة فما يُضيء لها شمس ولا قمــر

هذا أصله في اللغة»(١).

أما من حيث الواقع والمشاهد، فيكمل **ابن القيِّم** كلامه في موضع آخر فهو فارس هذا الميدان بلا جدال:

«كل عضو من أعضاء البدن خُلِق لفعل خاص به كماله في حصول ذلك الفعل منه، ومرضه: أن يتعذر عليه الفعل الذي خلق له حتى لا يصدر منه أو يصدر مع نوع من الاضطراب، فمرض اليد: أن يتعذر عليها البطش، ومرض العين: أن يتعذر عليها النظر والرؤية، ومرض اللسان: أن يتعذر عليه النطق، ومرض البدن: أن يتعذر عليه حركته الطبيعية أو يضعف عنها، ومرض القلب: أن يتعذر عليه ما خلق له من معرفة الله ومحبته والشوق إلى لقائه والإنابة إليه وإيثار ذلك على كل شهوة»(٢).

نوعا المرض

وأمراض القلوب نوعان: أمراض تتعلق بالجوارح وهي الشهوات، وأخرى تتعلق بالعقول وهي الشبهات، وقد جمعهما النبي ﷺ في الحديث الصحيح عن **أبي برزة** ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**إنما أخشى عليكم شهوات الغي في بطونكم وفروجكم، ومُضِلات الهوى**»(٣).

(١) شفاء العليل ١/ ٩٩.
(٢) إغاثة اللهفان ١/ ٦٨.
(٣) صحيح: رواه أحمد والبزار والطبراني في معاجيمه الثلاثة كما في صحيح الترغيب والترهيب رقم: ٥٠.

ومضلات الهوى هي الشبهات. قال ابن القيم:

«وأصل كل فتنة إنما هو من تقديم الرأي على الشرع والهوى على العقل، فالأول: أصل فتنة الشبهة، والثاني: أصل فتنة الشهوة، ففتنة الشبهات تُدفع باليقين، وفتنة الشهوات تدفع بالصبر، ولذلك جعل سبحانه إمامة الدين منوطة بهذين الأمرين، فقال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾[السجدة:٢٤]، فدلَّ على أنه بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين»[1].

أولاً: مرض الشهوات:

قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾[آل عمران: ١٤].

فالشهوات شكلها حلو وطعمها حلو، لكنها الحلاوة التي تتبعها المرارة، وتلحقها التبعات، وتتلوها الحسرات، وتخامر العقل فتُسكره، وتدخل عليه فتغلبه، وإنما تُصرع عقول أذكى الأذكياء وأحكم الحكماء عند استعار الشهوات.

(١) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان ٢/ ١٦٧ - محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله - ط دار المعرفة - بيروت - ط الثانية، ١٣٩٥هـ-١٩٧٥م - تحقيق: محمد حامد الفقي.

والآن إلى أول شهوة وهي:

1 شهوة حب الدنيا وجمع المال:

وهي أول شهوة حذَّر منها النبي ﷺ أمته حيث قال ﷺ: «**إن الدنيا خضرة حلوة، وإن الله مستخلفكم فيها، فينظر كيف تعملون فاتقوا الدنيا..**»(١).

ولأن الرزق مضمون؛ لذا لم يخش علينا النبي ﷺ من الفقر بل خاف علينا الغنى، فأقسم ﷺ -وهل يحتاج مثله إلى قسم؟! -: «**والله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى أن تُبسط عليكم الدنيا كما بُسِطت على من كان قبلكم؛ فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم**»(٢).

وحب الدنيا هو الذنب الذي خاف منه الحسن البصري وأخافنا منه حين قال: «لو لم تكن لنا ذنوب نخاف على أنفسنا منها إلا حبنا للدنيا، لخشينا على أنفسنا، إن الله يقول: ﴿**تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ**﴾ [الأنفال: ٦٧]، أريدوا **ما** أراد الله»(٣).

والحق أن شهوة حب المال عمت غالب الخلق حتى فُتِنوا بالدنيا وزهرتها، وصارت غاية قصدهم: لها يطلبون، وبها يرضون، ومن أجلها يغضبون، وبسببها يوالون، وعليها يعادون، وكم قُطِعت أرحام في سبيلها، وسُفِكت دماء بسببها، ووقعت فواحش من أجلها، ونزلت القطيعة وحلَّت البغضاء، وفُرِّق بين الأخ وأخيه، وتقاتل الأب مع ابنه، وتعادى الأصحاب والخلان، والسبب: دنيا.

وهذا ما استشرفه **عمر بن الخطاب** ﷺ، حتى لم يؤثِّر في بصيرته الفرح بالغنيمة والانشغال بالنصر، فقد أورد **ابن حجر** أن **عمر بن الخطاب** ﷺ أُتي بمال من المشرق يُقال له نفل كسرى، فأَمر به فصُبَّ وغُطِّي، ثم دعا الناس فاجتمعوا، ثم أمر به فكُشِف عنه، فإذا حُلي كثير وجوهر ومتاع، فبكى **عمر**، وحمد الله عز وجل، فقالوا له: ما يبكيك يا أمير المؤمنين؟! هذه غنائم غنمها الله لنا

---

(١) صحيح: رواه مسلم عن أبي سعيد الخدري وهو في السلسلة الصحيحة حديث رقم: ٩١١.
(٢) صحيح: البخاري ٦/ ٢٥٨، ومسلم ٤/ ٣٢٧٤.
(٣) صحيح: البخاري ٦/ ٢٥٨، ومسلم ٤/ ٣٢٧٤.

ونزعها من أهلها، فقال: «ما فُتِح من هذا على قوم إلا سفكوا دماءهم واستحلوا حرمتهم»[١].

ولماذا لا يبكي **عمر**، وقد بيَّن النبي ﷺ هذا المصير في نظره لحالنا المؤلم من وراء ستار رقيق، فقال: «**كيف أنتم إذا فتحت عليكم خزائن فارس والروم. أي قوم أنتم؟**». قال **عبد الرحمن بن عوف** ﷺ: نقول كما أمرنا الله. قال: «**أو غير ذلك؟ تتنافسون، ثم تتحاسدون، ثم تتدابرون**»[٢].

ولأنه رأى ما لم نر، وأحس بما ينتظرنا، وخاف من سوء عاقبتنا، فقد حذَّر النبي ﷺ من أناس يبيعون الدين بعرض الدنيا، فقال ﷺ: «**بادروا بالأعمال فتنًا كقطع الليل المظلم: يُصبح الرجل مؤمنًا ويُمسي كافرًا، ويمسي مؤمنًا ويصبح كافرًا، يبيع دينه بعرض من الدنيا**»[٣].

وهو ما أخاف **عمر بن عبد العزيز** لما ولي الخلافة حتى بكى، فقال: يا أبا فلان!! أتخشى عليَّ. قال: كيف حبك للدرهم؟! قال: لا أحبه، قال: «لا تخف فإن الله سيعينك»[٤].

ومن آثارها المدمِّرة عدم جدوى نصيحة عشاقها، وهو ما سبق ورصده أبو يحيى **مالك بن دينار** حين قال: «إن البدن إذا سقم لم ينجح فيه طعام ولا شراب، ولا نوم ولا راحة، وكذلك القلب إذا علقه حب الدنيا لم تنجح فيه الموعظة»[٥].

ومن آثارها المؤلمة والمشاهدة بوضوح والمُجرَّبة مرارًا وتكرارًا أنك «بقدر ما تحزن للدنيا يخرج همُّ الآخرة من قلبك، وبقدر ما تحزن للآخرة كذلك يخرج همُّ الدنيا من قلبك»[٦]، وقديما قالوا: تزيد من دنياك بقدر ما تنقص من دينك، فإن زيادة الجدار على قدر نقصان الجبل!!

الفضيحة!!

ومن علامات حب الدنيا: بيع الآخرة بالاغتراف من المال دون مبالاة بمصدره: حلال أم حرام، وقد تنبَّأ النبي ﷺ بهذا الزمان، ولعله زماننا الذي نعيش فيه فقال: «**ليأتين على الناس**

---

(١) فتح الباري ١١/ ٢٥٩.
(٢) صحيح : رواه مسلم عن عبد الرحمن بن عوف رقم : ٢٩٦٢ ، وهو في صحيح ابن ماجة رقم : ٣٢٣٠.
(٣) صحيح : رواه مسلم والترمذي عن أبي هريرة كما في ص ج ص رقم : ٢٨١٤.
(٤) تاريخ الإسلام ٧/ ١٩٦ - الإمام الذهبي – ط دار الكتاب العربي.
(٥) الحلية ٢/ ٣٦٣.
(٦) الزهد لأحمد ٣١٩/١.

زمان لا يبالي المرء مما أخذ المال؟ أمن حلال أم من حرام؟»[١].

وجزم في قول آخر أن هذا الداء داء قديم موغل في القِدم فقال:

«إن هذا الدينار والدرهم أهلكا من كان قبلكم وهما مهلكاكم»[٢].

وإذا كان لابد من ورود كلمة الحرص في قاموس حياتك، فليكن الحرص النافع لا الحرص الفاجع كما في نصيحة العابد الزاهد **عبد الواحد بن زيد** الذي قال:

«الحرص حرصان: حرص فاجع، وحرص نافع، فأما النافع: فحرص المرء على طاعة الله، وأما الحرص الفاجع: فحرص المرء على الدنيا»[٣].

ومن علامات حب الدنيا: الحسد الذي يحس صاحبه بالألم إذا فاته من حظوظ الدنيا شيء كالمال والجاه والمنصب والسلطان، فلا يرضى عن حاله أبدًا، بل يعتبر نفسه دائمًا سيئ الحظ صريع الأقدار لأنه لم ينل ما نال غيره، مع أنه لا يحس بنفس الشعور إذا رأى من هو خير منه دينًا وأفضل منه خلقًا، فلا يغار إلا لدنيا، ولا ينافس أبدا في دين، ليكون ممن عيَّرهم ابن المبارك بقوله:

أرى أناسًا بأدنى الدين قد قنعوا ... ولا أراهم رضوا في العيش بالدون
فاستغنِ بالدين عن دنيا الملوك كما ... استغنى الملوك بدنياهم عن الدين

والحسد كما علَّمنا رسول الله (يخدش الإيمان) كما قال ﷺ: «**ولا يجتمعان في قلب عبد: الإيمان والحسد**»[٤]، فيا أخي الحاسد:

متى تُمسي وتُصبح مستريحًا ... وأنت الدهر لا ترضى بحال
وقد يجري قليل المال مجرى ... كثير المال في سد الخلال
إذا كان القليل يسدُّ فقري ... ولم أجد الكثير فلا أبالي

ومن علامات حب الدنيا: كثرة الحديث عنها، فمن أحبَّ شيئًا أكثر من ذكره، فكثرة

---

(١) صحيح: رواه أحمد والبخاري عن أبي هريرة كما في ص ج ص رقم: ٥٣٤٤.
(٢) صحيح: رواه الطبراني والبيهقي عن ابن مسعود وعن أبي موسى كما في ص ج ص رقم: ٢٢٤٥.
(٣) شرح وبيان لحديث ما ذئبان جائعان ص ٢٦.
(٤) صحيح: رواه أحمد والنسائي والحاكم عن أبي هريرة كما في ص ج ص رقم: ٧٦٢٠.

الكلام عن التجارات، وأحدث الأزياء والموضات، وأنواع السيارات، وآخر الصيحات، وأشهى المأكولات، وإضاعة المجالس في الإشادة بهذه الأمور؛ كل هذا يدل على أن القلب مزدحم بدنيا لم تفسح للآخرة موضع قدم.

ومن علامات حب الدنيا: المغالاة في الاهتمام بترفيه النفس مأكلاً ومشربًا وملبسًا ومسكنًا ومركبًا، والاهتمام بالكماليات والترفيات اهتمامًا يملك عليه وقته وعقله، فيجهد نفسه بشراء الأنيق من اللباس ويزوِّق مسكنه وينفق الأموال والأوقات في هذا، ويغرق في التنعيم والترف المنهي عنه في حديث **معاذ بن جبل** ﷺ لما بعث به النبي ﷺ إلى اليمن وأوصاه فقال: «**إياك والتنعيم، فإن عباد الله ليسوا بالمتنعمين**»[(١)].

ولذلك حثَّ النبي ﷺ على أخذ الكفاية من الدنيا دون التوسع الذي يشغل عن ذكر الله، فقال رسول الله ﷺ: «**إنما يكفيك من جمع المال خادم ومركب في سبيل الله**»[(٢)]، بل هدَّد النبي ﷺ المكثرين من الأموال إلا أهل الصدقات فقال: «**ويل للمكثرين إلا من قال بالمال هكذا وهكذا وهكذا، أربع عن يمينه وعن شماله ومن قُدَّامه ومن ورائه**»[(٣)]، وصدق القائل:

فلو كانت الدنيا جزاءً لمحسنٍ ... إذا لم يكن فيها معاش لظالم
لقد جاع فيها الأنبياء كرامة ... وقد شبعت فيها بطون البهائم

لا تذموها ولكن

قال **يحيى بن معاذ الرازي**: «الدنيا خزانة الله فما الذي يُبغض منها، وكل شيء من حجر أو مدر أو شجر يسبِّح الله فيها. قال الله تعالى: وإن من شيء إلا يسبح بحمده، وقال الله تعالى: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾، فالمجيب له بالطاعة لا يستحق أن يكون بغيضًا

(١) صحيح: رواه أبو نعيم في الحلية ٥/ ١٥٥، وهو في السلسلة الصحيحة رقم: ٣٥٣.
(٢) صحيح: رواه أحمد ٥/ ٢٩٠ وهو في صحيح الجامع رقم: ٢٣٨٦.
(٣) صحيح: رواه ابن ماجة رقم ٤١٢٩ وهو في صحيح الجامع رقم: ٧١٣٧.



في قلوب المؤمنين»[١].

فليس المطلوب منك سب الدنيا أو الهرب منها بل الواجب عليك: تحقيق **الزهد**، والزهد في أبسط صوره ومعانيه أن تحوز الدنيا في يدك لا في قلبك، وأن تملكها لا أن تملكك، وأن تضحي بها في سبيل آخرتك لا أن تبيع الآخرة من أجلها، وأن تطلب الآخرة بالدنيا لا أن تطلب الدنيا بالآخرة، وأن تفرِّغ قلبك مما خلت منه يدك، ويبشِّرك عندها بحسن العاقبة الدنيوية والأخروية **يحيى بن معاذ** فيقول:

«الدنيا أمير من طلبها، وخادم من تركها، الدنيا طالبة ومطلوبة، فمن طلبها رفضته، ومن رفضها طلبته، الدنيا قنطرة الآخرة فاعبروها ولا تعمروها، ليس من العقل بنيان القصور على الجسور، ومن طلَّق الدنيا فالآخرة زوجته، فالدنيا مطَلَّقة الأكياس، لا تنقضي عدتها أبدًا، فخلِّ الدنيا ولا تذكرها، واذكر الآخرة ولا تنسها، وخذ من الدنيا ما يبلِّغك الآخرة، ولا تأخذ من الدنيا ما يمنعك الآخرة»[٢].

وما يعين قلبك على التشبع بالزهد: المقارنة العابرة بين الدنيا والآخرة كمًّا وكيفًا، فالدنيا أيام قلائل معدومة في مواجهة خلود لا آخر له، والدنيا نعيمها متنغص، إن أضحكت اليوم أبكت غدا، وإن سرَّت تبع سرورها الردى، وإن حلَّت فيها النعم جميعًا نزلت فيها النقم سريعًا، إن أخصبت أجدبت، وإن جمعت فرَّقت، وإن ضمت شتَّتت، وإن زادت أبادت، وإن أسفرت أدبرت، وإن راقت أراقت، وإن عمَّت بنوالها غمَّت بوبالها، وإن جادت بوصالها جاءت بفصالها، غزيرة الآفات، كثيرة الحسرات، قليلة الصفا، عديمة الوفا، ومن لم يتبصر في أمرها اليوم عضّ يديه غدًا، وبكى مع الدمع دمًا، بل وحتى من ملك أقصى نعيمها.. أتظنونه قد استراح؟! كلا والله..

أرى من الدنيا لمن هي في يديه ... عذابًا كلما كثُرت لديه

تهين لها المكرمين لها بذُلّ ... وتُكرم كل من هانت لديه

وأين كل هذا من الآخرة ونعيم الآخرة ولذة الآخرة وخلود الآخرة؟!

---

(١) حلية الأولياء ١٠/ ٦٤.

(٢) حلية الأولياء ١٠/ ٥٣، ٥٤ بتصرف.

وبعد الإحاطة بالزهد علما تنزل إلى ساحة الجد عملاً، وممارسة يومية ومشقة نفسية، والنفس على ما عوَّدتها نشأت، وكيف ما ربيتها نمت وترعرت؛ ولذا لما قيل هذا المعنى شعرًا على لسان أبي ذؤيب الهذلي:

والنفسُ راغبةٌ إذا رغَّبتها وإذا تُردُّ إلى قليلٍ تقنع

قال الأصمعي: «هذا أبدع بيت قالته العرب»[(١)].

توازن.. لا تقع!!

واسمع إلى هذا التوازن الرائع الذي نجح في بلوغه الصحابي الجليل الزبير بن العوَّام ﷺ، وتعليمه لنا معنى الزهد الحقيقي، وذلك في ما رواه عنه عمر بن قيس قال:

«كان لابن الزبير مائة غلام، يتكلم كل غلام منهم بلغة أخرى، فكان ابن الزبير يُكلِّم كل واحد منهم بلغته، فكنت إذا نظرت إليه في أمر دنياه قلت: هذا رجل لم يُرِد الله طرفة عين، وإذا نظرت إليه في أمر آخرته قلت: هذا رجل لم يُرِد الدنيا طرفة عين»[(٢)].

إنه الاحتراف الإيماني بشقيه الدنيوي والأخروي، وبلوغ المؤمن أقصى ما يبلغه صاحب دنيا من علوم وفنون، وما يبلغه صاحب آخره من تقوى واهتداء، وما أحوجنا اليوم إلى أحفاد ابن الزبير، نريد المؤمن الثري الذي يضرب بماله في كل تجارة ويربح في كل سوق، ثم هو مع ذلك الزاهد الورع الذي يسخِّر ماله لنصرة الدين ونفع المسلمين.. نريد الناس إذا مدحوا ثريًّا بكثرة ماله التفتوا إلى تقواه فزادهم إيمانًا واقتداء.. نريد أن نكسر احتكار ملايين اللاهين والعابثين لثروات الأمة.. نريد أن نذكر أن عثمان اشترى الجنة بماله، وأن مال أبي بكر هو أكثر ما نفع رسول الله ﷺ، وكذلك نريد أن نفعل ولا تكون الحياة في هذه الحالة متاع الغرور. قال سعيد بن جبير: «متاع الغرور ما يلهيك عن طلب الآخرة، وما لم يُلهِك فليس متاع الغرور، ولكنه متاع بلاغٍ إلى ما هو خير منه»[(٣)]..

---

(١) العقد الفريد ٣/ ٢١٠.
(٢) حلية الأولياء ١/ ٣٣٤.
(٣) جامع العلوم والحكم ص ٢٩٥.

نعم.. آن لنا نحن أبناء الإسلام في القرن الحادي والعشرين أن ندرك الزهد الحقيقي بعد أن فهمناه دهرًا فقرًا ورضًا بالقليل وإيثارًا للعزلة في الزوايا على المضاربة في الأسواق تاركين الساحة لكل عابث فاجر أو عدو ماكر، وهو ما فطن إليه علم الزهد في زمانه **سفيان الثوري** وأدرك تغير أولويات كل زمن فقال:

«كان المال فيما مضى يُكره، فأما اليوم فهو تِرس المؤمن»[١].

أعلى همـــة

ومن حقق هذين الهدفين كان عالي الهمة بحق، حاز دنياه في يمناه ولم ينصرف قلبه عن منتهاه ، وبهذا حاجَّ **ابن حزم أبا الوليد الباجي** حين جاء **الباجي** يوما مفاخرًا: أنا أعظم منك همة في طلب العلم ، لأنك طلبته وأنت تُعان عليه ، تسهر بمشكاة الذهب -يشير إلى ثروة ابن حزم وآبائه- وطلبته وأنا أسهر على قنديل.

فقال **ابن حزم** : هذا الكلام عليك لا لك ؛ لأنك إنما طلبت العلم وأنت في تلك الحال ؛ رجاء تبديلها بمثل حالي ، وأنا طلبته على ما ذكرت ، فلم أرجُ به إلا علو قدر علمي في الدنيا والآخرة.

ويعلِّق العلامة **محمد الخضر حسين** على هذه المناقشة الرائعة قائلاً:

«ويؤيِّد **ابن حزم** في جوابه هذا أن من تربَّى في مهد الترف ، وأحاطت به زخارف الدنيا من كل ناحية يسكن في قلبه الحرص على اللذائذ ، ويصعب عليه التخلص من شواغلها ، فمن خلع صدره من الشغف بمناظر النعيم ، والميل إلى مضاجع الراحة وهي طوع يمينه ، ثم استبدلها بالتوجه في سبيل المجد الذي لا يخلص سالكه من متاعب ، واقتحام أخطار – فلابد أن يكون قد ضم بين جنبيه همة سامية ، وإرادة لنفس الفضيلة خالصة»[٢].

(١) حلية الأولياء ٦/ ٣٨١.
(٢) مناهج الشرف ص ٤٥، ٤٦ – الشيخ محمد الخضر حسين – مطبوعات الدار الحسينية للكتاب - ط ٤ لعام ١٤١٣ للهجرة.

2 شهوة حب الشهرة:

وله صور خفية وجلية منها:

✍ **حب تصدر المجالس والاستئثار بالكلام وفرض الاستماع على الآخرين**، وصدر أي مجلس هو من المحاريب التي حذَّرنا منها رسول الله ﷺ بقوله: «**اتقوا هذه المذابح يعني المحاريب**»(١).

فالمحراب الذي يعظ منه الواعظ مثلاً من المذابح إن لم يراع هو العمل بما يقول، وامتثال ما أمر به؛ مع أنها قد تكون مراكز التوجيه للخير والهداية إلى الفوز لكنها مع ذلك قد تودي بصاحبها إلى الشر وترمي به في الخسران.

✍ **الانتشاء بالمدح**: ولذا كان **عمر بن الخطاب** ﷺ يقول: «**المدح هو الذبح**»(٢).

قال **المناوي**: «وسماه ذبحًا لأنه يميت القلب فيخرج من دينه، وفيه ذبح للممدوح، فإنه يغرُّه بأحواله ويغريه بالعجب والكبر، ويرى نفسه أهلاً للمدحة سيما إذا كان من أبناء الدنيا أصحاب النفوس وعبيد الهوى»(٣).

وقد تعلَّم **عبد الله بن عمر** ﷺ الدرس من أبيه الذي روى الحديث السابق، فكان لسلامة قلبه يكره المدح وينقبض منه، ولما جاءه رجل وقال له: يا خير الناس وابن خير الناس، قال له: «ما أنا بخير الناس ولا أنا ابن خير الناس، ولكني عبد من عباد الله، أرجو الله وأخافه، والله لن تزالوا بالرجل حتى تُهلِكوه»(٤).

✍ **محبة أن يقوم الناس له**: وقد قال رسول الله ﷺ: «**من سرَّه أن يمتثل له الرجال قيامًا فليتبوأ بيتًا من النار**»(٥).

---

(١) صحيح: رواه الطبراني والبيهقي عن ابن عمرو كما في صحيح الجامع رقم: ١٢٠.
(٢) فتح الباري ١٠/ ٤٧٧.
(٣) فيض القدير ٣/ ١٢٩.
(٤) سير أعلام النبلاء ٣/ ٢٢٠.
(٥) صحيح: رواه الترمذي وأبو داود كما في مشكاة المصابيح ٣/ ١٧.

ومثل هذا النوع من الناس يعتريه الغضب إن لم يقم له أحد ليجلس مكانه ويشعر بالمهانة وانتقاص القدر؛ رغم نهيه ﷺ عن ذلك في قوله: «**لا يُقيم الرجل الرجل من مجلسه ثم يجلس فيه**»(١).

وأين هؤلاء من القلوب الحية التي كرهت الشهرة وعافت علو المكانة وتميز المكانة بين العامة. كان **أبو العالية** إذا جلس إليه أكثر من أربعة قام(٢)، وكان **خالد ابن معدان** إذا عظمت حلقته قام وانصرف كراهة الشهرة(٣)، وغيرهم وغيرهم لأن كل واحد منهم قد عرف قدر نفسه وحقيقة جهله وضعفه فما غرَّه ثناء الناس عليه. قال **المروزي** للإمام **أحمد**: «إني أرجو أن يكون يُدعى لك في الأمصار فقال: يا أبا بكر!! إذا عرف الرجل نفسه فما ينفعه كلام الناس»(٤).

لذا ما تفاخروا مرة واحدة في حياتهم ولا غالوا في أثمانهم حتى لقاء ربهم بل تواضعوا، والمواقف لا تزال تُروى للإمام **أحمد**. قال عنه **يحيى بن معين**: «ما رأيت مثل **أحمد!!** صحبناه خمسين سنة فما افتخر علينا بشيء مما كان فيه من الخير»(٥).

ومما يرتبط ارتباطًا وثيقًا بشهوة حب الشهرة:

3 شهوة حب الرئاسة:

وهي شهوة مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بحب الظهور، وهي التي حذر منها رسول الله ﷺ بقوله: «**إنكم ستحرصون على الإمارة، وستكون ندامة يوم القيامة، فنعم المرضعة وبئس الفاطمة**»(٦).

وقوله: «**نعم المرضعة**» وذلك أولها لأن معها المال والجاه والسلطة، وقوله: «**بئس الفاطمة**» أي: آخرها لأن معه القتل والعزل في الدنيا

(١) صحيح : رواه البخاري، فتح ١١/ ٦٢.
(٢) سير أعلام النبلاء ٤/ ٢١٠.
(٣) صفة الصفوة ٤/ ٢١٥.
(٤) سير أعلام النبلاء ١١/ ٢١١.
(٥) سير أعلام النبلاء ١١/ ٢١٤.
(٦) صحيح : رواه البخاري رقم : ٦٧٢٩.

والحسرة والتبعات يوم القيامة، وقد بيَّن النبي ﷺ عواقب الرئاسة ومراحلها الثلاث في قوله: «**إن شئتم أنبأتكم عن الإمارة وما هي: أولها ملامة، وثانيها ندامة، وثالثها عذاب يوم القيامة إلا من عدل**»[(١)].

والرئاسة التي نقصدها هنا ليست دنيوية فحسب بل قد تكون دينية كذلك لمن يتبوأ مراكز الإرشاد والتوجيه والنصح والتربية، ولو كان يدفع إلى التطلع للرئاسة: القيام بالواجب وتحمل التبعة الثقيلة في وقت لا يسد الثغرة فيه من هو أفضل بذلاً وعملاً لكان الأمر محمودًا، أما إذا كان الدافع: رغبة جامحة في الزعامة ونفورًا من قبول التوجيه من غيره واستئثارًا بمركز الأمر والنهي؛ فيا خطورة ما أصاب من مرض.

وقد رفض رسول الله ﷺ إسلام من ابتُلي بهذا المرض وردَّه ولم يقبله، واسمعوا ما رواه **الزهري** أن النبي ﷺ أتى بني **عامر بن صعصعة** فدعاهم إلى الله، وعرض عليهم نفسه، فقال له رجل منهم يقال له **بحيرة بن فراس**: والله لو أني أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب، ثم قال له: أرأيت إن نحن تابعناك على أمرك، ثم أظهرك الله على من يخالفك؛ أيكون لنا الأمر من بعدك؟ قال: «**الأمر لله يضعه حيث يشاء**». قال: فقال له: «أفنهدف نحورنا للعرب دونك، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا! لا حاجة لنا بك»[(٢)].

بل قال ﷺ لرجلين سألاه الإمارة: «**إنا لا نولِّي هذا مَنْ سأله، ولا من حرص عليه**»[(٣)].

يسن بذلك أحد قوانين الإدارة الإيمانية ويميِّزها عن إدارة اليوم الحديثة، ويمدح ﷺ هذا الصنف من الدعاة، الذين ليس يعنيهم ويشغل فكرهم سوى رضا الله سبحانه وتعالى بارزين كانوا أو مستترين، في المقدمة أو في المؤخِّرة، وذلك بقوله ﷺ: «**طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله، أشعث رأسه، مغبرة قدماه، إن كان في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في الساقة كان في الساقة، إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يُشفَّع**»[(٤)].

---

(١) صحيح: رواه الطبراني في الكبير كما في صحيح الجامع رقم: ١٤٢٠.
(٢) البداية والنهاية ٣/ ١٣٩-١٤٠.
(٣) صحيح: رواه البخاري رقم: ٧١٤٩.
(٤) صحيح: رواه البخاري وابن ماجة عن أبي هريرة كما في ص ج ص رقم: ٢٩٦٢.



وتأمل أنه ذكر هنا الساقة والحراسة وكلاهما ليس من أماكن الصدارة أو مراكز القيادة، فكأنه أراد ترسيخ معنى الجندية ومعالجة حب الرئاسة في قلوب السامعين معالجة جذرية، فلا يذكر الرئاسة ولو بكلمة لتغيب حتى حروفها عن عينك وتتوارى عن قلبك.

يا ذئاب!!

قال النبي ﷺ: «**ما ذئبان جائعان أُرسلا في غنمٍ بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه**». والذئبان الجائعان هما: الحرص على المال والحرص على الشرف، وإذا أُرسِلت الذئب في الغنم فماذا تفعل؟! فكذلك يفعل الحرص على المال والحرص على الجاه والشرف في الدين، إنها تلتهم دين المرء وتفترس إيمانه.

قال **ابن رجب**: «فأخبر النبي ﷺ أن حرص المرء على المال والشرف إفساد لدينه ليس بأقل من إفساد الذئبين لهذه الغنم، بل إما أن يكون مساويًا وإما أكثر، يشير أنه لا يسلم من دين المسلم مع حرصه على المال والشرف في الدنيا إلا القليل، كما أنه لا يسلم من الغنم مع إفساد الذئبين المذكورين فيها إلا القليل، فهذا المثل العظيم يتضمن غاية التحذير من شر الحرص على المال والشرف في الدنيا»(١).

وحب الرئاسة والسعي لها شهوة خفية في النفس، وكثير من الناس قد يزهد في الطعام والشراب والثياب لكن الزهد في الرئاسة عنده نجم سماوي لا يُدرك. قال **سفيان الثوري** رحمه الله: «ما رأيت زهدًا في شيء أقل منه في الرئاسة، ترى الرجل يزهد في المطعم والمشرب والمال والثياب فإن نوزع الرئاسة تحامى عليها وعادى»، وقال **يوسف بن أسباط**: «الزهد في الرئاسة أشد من الزهد في الدنيا»، ولذلك كان السلف رحمهم الله يحذرون من يحبون منها، فقد كتب **سفيان** إلى صاحبه **عباد بن عباد** رسالة فيها:

«إياك وحب الرئاسة، فإن الرجل تكون الرياسة أحب إليه من الذهب والفضة وهو باب غامض لا يبصره إلا البصير من العلماء السماسرة، فتفقَّد نفسك واعمل بنية».

---

(١) شرح وبيان لحديث ما ذئبان جائعان ص ٢١، ٢٢ – ط دار الريان عام ١٤١٣-١٩٩٢.

واتهم **أيوب السختياني** كل محب للرئاسة بالكذب فقال: «ما صدق عبد قط فأحب الشهرة»، ونفى عنه التقوى **بشر بن الحارث** فقال: «ما اتقى الله من أحب الشهرة»، ووصفه بعدم الفلاح **يحيى بن معاذ** حين قال: «لا يفلح من شممت منه رائحة الرياسة».

وما أحسن وصف **شدّاد بن أوس** ﷺ لحب الرئاسة بالشهوة الخفية حين قال محذرًا: يا بقايا العرب... إن أخوف ما أخاف عليكم الرياء، والشهوة الخفية. قيل **لأبي داود السجستاني**: ما الشهوة الخفية؟ قال: حب الرئاسة.

قال **ابن تيمية** معقبًا: «فهي خفية، تخفى عن الناس، وكثيرًا ما تخفى على صاحبها»[(١)].

أمارة حب الإمارة

لكنها وإن كانت خفية، ومهما توارت وأتقنت فن التستر والهرب، فقد أذن الله لنا أن نفضحها عن طريق علاماتها حتى لا يعود لمبتلى عذر في ترك التداوي وهجر التسامي، ومن العلامات:

- ما ذكره **الفضيل بن عياض**: «ما من أحد أحب الرئاسة إلا حسد وبغى، وتتبع عيوب الناس، وكره أن يُذكر أحد بخير»[(٢)]، فمن علاماتها إذن حب ذكر الغير بالنقائص والعيوب، وكراهة أن يُذكر أحد عنده بخير، بل وانتقاص الآخرين ليرفع نفسه، فلا يدل على من هو أفضل منه في الدين أو العلم، بل ويحجب فضائل الآخرين ويكتم أخبارهم خشية أن يستدل الناس عليهم فيتركوه ويذهبوا إلى غيره، أو يقارنوا بينه وبين من هو خير منه فينفضوا عنه.
- الحسرة إذا زالت أو سُلِبت منه الرئاسة، وتأمل لو أن عالمًا تصدَّر مجلس علم مثلاً، فالتف الناس حوله، ثم جاء من هو أعلم منه فقدَّمه الناس عليه وانقطعوا إليه، فهل يفرح هذا العالم أو يحزن؟ هل يفرح لأنه قد جاء من هو أعلم منه يحمل عنه المسئولية ويرفع عنه التبعة ويفيد الناس أكثر منه؛ أم يحزن ويغتم لأنه قد جاء من خطف منه الأضواء

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٦/ ٣٤٦.
(٢) جامع بيان العلم وفضله ١/ ٥٧١.

وصيحات الإعجاب؟! بهذا تفضح قلبك أيها الداعية إذا خشيت مرضه وأردت شفاءه.

قال ابن الجوزي:

> **«وقد يكون الواعظ صادقًا قاصدًا للنصيحة إلا أن منهم من شرب الرئاسة في قلبه مع الزمان فيحب أن يُعظَّم، وعلامته: أنه إذا ظهر واعظ ينوب عنه أو يعينه على الخلق كره ذلك، ولو صحَّ قصده لم يكره أن يعينه على خلائق الخلق»**[(١)].

وقال كذلك: «ومنهم من يفرح بكثرة الأتباع، ويلبِّس عليه إبليس بأن هذا الفرح لكثرة طلاب العلم، وإنما مراده كثرة الأصحاب»[(٢)].

إنها مجالس السوء وإن كان ظاهرها الخير، وأماكن الفتنة وإن رُفِعت عليها رايات الهدى، ووسائل الهلاك وإن صُنِعت للنجاة!!

كم شاربٍ عسلا فيه منيته   وكم تقلَّد سيفًا من به ذُبحا

وتستطيع أخي الداعية أن تُجري اختبارًا واحدًا يكشف لك حقيقة مجالسك وطبيعتها على الفور، وذلك إذا جرَّبت طريقة ابتكرها **عبد الرحمن بن مهدي** وهي كما يلي:

عن **عبد الرحمن بن مهدي** قال: «كنتُ أجلس يوم الجمعة فإذا كثر الناس فرحت، وإذا قلوا حزنت، فسألت **بشر بن منصور** فقال: هذا مجلس سوء فلا تعُد إليه، فما عدتُ إليه»[(٣)].

✍ حسرة قلبه إذا منع من الظهور وفاتته فرصة إبداء إمكاناته واستعراض قدراته، وبالحلو تُعرف المرارة، وبالضد تتميز الأشياء؛ لذا فاسمعوا ما فعل المحدِّث الرباني شيخ نيسابور **أبي عمرو إسماعيل بن نجيد** فيما قصَّه الإمام **الذهبي**:

«ومن محاسنه أن شيخه الزاهد **أبا عثمان الحيري** طلب في مجلسه مالا لبعض الثغور فتأخَّر، فتألم وبكى على رؤوس الناس، فجاءه **ابن نجيد** بألفي درهم فدعا له، ثم إنه نوَّه به، وقال: قد

---

(١) تلبيس إبليس ص ١٥٢.

(٢) تلبيس إبليس ص ١٥٨.

(٣) سير أعلام النبلاء ٩/ ١٩٦.

رجوت **لأبي عمرو** بما فعل، فإنه قد ناب عن الجماعة، وحمل كذا وكذا، فقام **ابن نجيد** وقال: لكن إنما حملت من مال أمي وهي كارهة فينبغي أن تُردَّه لترضى، فأمر **أبو عثمان** بالكيس فرد إليه، فلما جنّ الليل جاء بالكيس والتمس من الشيخ ستر ذلك، فبكى وكان بعد ذلك يقول: أنا أخشى من همة **أبي عمرو**»(١).

✍ إضفاء هالات الأهمية الزائفة كادعاء المواعيد الكاذبة والانشغالات التافهة، ليوقع في روع الناس علو قدره وارتفاع منزلته وتهافت الناس عليه، والنبي ﷺ يقول: **«المتشبِّع بما لم يُعطَ كلابس ثوبي زور»**(٢).

قال **ابن حجر**:

«المتشبِّع أي المتشبِّه بالشبعان وليس به شبع، واستعير للتحلي بفضيلة لم يرزقها، وشُبِّه بلابس ثوبي زور؛ أي ذي زور، وهو الذي يتزيا بزي أهل الصلاح رياء، وأضاف الثوبين إليه لأنهما كالملبوسين، وأراد بالتثنية أن المتحلي بما ليس فيه كمن لبس ثوبي الزور ارتدى بأحدهما واتزر بالآخر كما قيل: إذا هو بالمجد ارتدى وتأزَّر، فالإشارة بالإزار والرداء إلى أنه متصف بالزور من رأسه إلى قدمه، ويحتمل أن تكون التثنية إشارة إلى أنه حصل بالتشبع حالتان مذمومتان: فقدان ما يتشبع به، وإظهار الباطل»(٣).

✍ عدم المشاركة بفاعلية عندما يكون مرؤوسًا، بل والتهرب من التكاليف حين لا يكون هناك فرصة للبروز، واشتعال قلبه حماسة ونشاطًا عندما يكون رأس الأمر وقائده.

✍ كثرة نقده لغيره بسبب وبغير سبب، ومحاولة التقليل من أهمية مقترحات الغير ومبادراتهم مع عدم تقديم البديل، والعمل على إخفاق ما لم يشارك فيه.

✍ الإصرار على رأيه وصعوبة التنازل عنه، وإن ظهرت أدلة بطلانه ورجحان غيره.

---

(١) نزهة الفضلاء ٣/ ١٢٧٥.

(٢) صحيح: رواه أحمد والشيخان وأبو داود عن أسماء بنت أبي بكر كما في ص ج ص رقم: ٦٦٧٥.

(٣) فتح الباري ٩/ ٣١٨.

سبب هذا المرض

السبب الرئيس: عدم تقدير عواقب التقصير في الآخرة، وقد قال ﷺ:«**ما من رجلٍ يلي أمر عشرةٍ فما فوق ذلك، إلا أتى الله مغلولاً يده إلى عنقه، فكَّه بِرُّه أو أوثقه إثمه، أولها ملامة، وأوسطها ندامة، وآخرها خزي يوم القيامة**»(١).

ألا فانتبه يا طالب العلم وأنت تعلِّم الناشئة، وانتبه أيها المربي حين تربِّي من حولك، وتعلَّم من **سعد بن أبي وقاص** رضي الله عنه، وكيف حثَّنا على الزهد في الرئاسة بلسان حاله مما أغنانا عن آلاف الخطب والصفحات، فعن **عامر بن سعد بن أبي وقاص** قال: كان **سعد** في إبلٍ له وغنم فأتاه ابنه **عمر بن سعد**، فلما رآه قال: أعوذ بالله من شرِّ هذا الراكب، فلما أتاه قال: يا أبت! أرضيتَ أن تكون أعرابيا في غنمك والناس يتنازعون في الملك بالمدينة؟! فضرب **سعدٌ** صدر **عمر** وقال: اسكت فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول:«**إن الله يحب العبد التقي الغني الخفي**»(٢).

وتأمَّل أيضًا كيف كان هروب العلماء من مسئولية القضاء، والقضاء منصب وسلطة ومكانة وأبهة، وقد كان القاضي من أعظم الناس مكانة في زمانه، وكلمته مسموعة لا ترد؛ ومع ذلك كان الصالحون يهربون من القضاء ويُضربون عنه ولا يتولونه، بل ويسجنون ولا يرضونه، مع أنهم أهل له، وذلك لخوفهم من تبعات الأمر، وكيف لا وقد سمعوا قول النبي ﷺ ينذر:«**قاضيان في النار، وقاضٍ في الجنة**»(٣).

وكيف لا والنبي ﷺ يحذِّر:«**من أتى أبواب السلطان افتُتِن**»(٤)، وكثرة من قضاة اليوم والعلماء على باب السلطان وقوف، وعلى رضاه حريصون، ولا يحسون بالكارثة!!

---

(١) حسن: رواه أحمد عن أبي أمامة كما في ص ج ص رقم: ٥٧١٨.
(٢) صحيح: رواه مسلم عن سعد كما في صحيح الترغيب والترهيب رقم: ٢٧٣٣ والخبر بالتفصيل في البداية والنهاية ٧/ ٢٨٣.
(٣) صحيح: رواه الحاكم عن بريدة كما في ص ج ص رقم: ٤٢٩٨.
(٤) صحيح: رواه أحمد كما في ص ج ص رقم: ٦١٢٤.

التوازن المفقود

التوازن المنشود بين كراهية الشهرة ووجوب قيادة جموع الأمة، فإننا نريد لجموع الصالحين أن تبرز في الوقت الذي توارت فيه الكفايات وبرزت فيه الرويبضات، وأن تفخر بعملها الصالح قائلة: هلم إلينا أيها الناس، وذلك في الوقت الذي تبارت رموز الشر في الدعوة إلى باطلها، وتنافست في طمس فطرة الناس ببث سمومها وشرورها.

لذا كان لابد للطيِّب أن يدافع الخبيث ويزاحمه حتى يبث الخير إلى محيط الناس الملوَّث، وعلى كل واحد أن يتفرَّس في نفسه اليوم، ويرى هل فيه من علامات حب الرئاسة شيء، ويعيد تقييم نفسه باستمرار وعلى مرور الأشهر والأعوام، فإن البداية قد تكون صحيحة ويتسلل الخطأ بعد ذلك، والنية قد تبدأ خالصة حتى تتسرَّب إليها جرثومة رياء، لذا وجب التنبه والمراقبة.

4 شهوة النساء:

ويسأل سائل: لماذا نتكلم عن شهوة الرجال نحو النساء ولا نتكلم عن شهوة النساء نحو الرجال؟! إن كثيرًا ما يتساءلون: لماذا تكلم القرآن عن الحور العين في الجنة ولم يتكلم عن مثيل ذلك للمؤمنات؟!

والجواب أن الحب عند الرجل يتمحور حول الأفعال، فهو عنده غريزة تتبعها عاطفة، بينما الحب عند المرأة عاطفة مقدمة على الغريزة، وحين يمتزج الحب بالشهوة عند الرجال؛ فهو عند النساء: كلمات وثناء وغزل، لذا وجدنا الشعر عربيًّا وغربيًّا قديمًا وحديثًا يحفل بغزل الرجال للنساء لا غزل النساء للرجال، فالرجل يعلن عن الرغبة طالبًا، والمرأة سلاحها معه التمنع والدلال.

من هنا جاء تحذير الرسول ﷺ: «**ما تركت بعدي فتنة أضرَّ على الرجال من النساء**»(١).

وقد سبق أن أخبرنا النبي ﷺ: «**إن المرأة تُقبل في صورة شيطان وتُدبر في صورة**

---

(١) صحيح: رواه الشيخان وأحمد والنسائي والترمذي عن أسامة بن زيد كما في ص ج ص رقم: ٥٥٩٧.

شيطان»[1]، إشارة إلى الهوى والميل الطبيعي الذي جعله الله تعالى في نفوس الرجال من الميل إلى النساء، والالتذاذ بالنظر إليهن، والحديث معهن، وسماع أخبارهن، وكل ما يتعلق بهن، ولا غرو، فالمرأة أعظم فتن إبليس وأشد محنه وأيسر طرقه وأخفى حيله؛ ولذا يتبعها ويلازمها ويزيِّنها ويُحلِّيها في أعين الرجال. قال **مجاهد**: «إذا أقبلت المرأة جلس الشيطان على رأسها فزيَّنها لمن ينظر، فإذا أدبرت جلس على عجزها فزيَّنها لمن ينظر»[2].

وعدَّها **الحسن بن صالح** نصف جيش الشيطان المرابط على ثغر القلب فقال: «سمعت أن الشيطان قال للمرأة: أنت نصف جندي، وأنت سهمي الذي أرمي به فلا أخطأ، وأنت موضع سري، وأنت رسولي في حاجتي»[3].

ويُشخِّص **ابن الجوزي** مرضًا عضالاً يُصاب به مطلق بصره - وما أكثر جراحاته - فيقول:

«يُعرِض الإنسان عن زوجته ويؤثر عليها الأجنبية، وقد تكون الزوجة أحسن، والسبب في ذلك أن عيوب الأجنبية لم تَبِن له، وقد تكشفها المخالطة، ولهذا إذا خالط هذه المحبوبة الجديدة، وكشفت له المخالطة ما كان مستورًا ملَّ وطلب أخرى إلى ما لا نهاية له»[4].

ثم يكمل وصيته أثناء صيده لإحدى خواطره فيقول:

«ليعلم العاقل أن لا سبيل إلى حصول مراد تام كما يريد ﴿ **وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ** ﴾ [البقرة: ٢٦٧]، ما عيب نساء الدنيا بأحسن من قوله عز وجل: ﴿ **وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ** ﴾ [البقرة: ٢٥]»[5].

فاسمُ بعينيك إلى نسوة ... مهورهن العمل الصالح
وحدِّث النفس بعشق الألى ... في عشقهن المتجر الرابح
واعمل على الوصل فقد أمكنت ... أسبابه ووقتها رائح

---

(١) صحيح: رواه مسلم كما في صحيح مسلم رقم: ٢٤٩١.
(٢) تفسير القرطبي ١٢/ ٢٢٧.
(٣) تلبيس إبليس ص ٣٢ - ط دار الإيمان- وأورده ابن أبي الدنيا في مكائد الشيطان.
(٤) ذم الهوى ص ٤٨٦.
(٥) صيد الخاطر ص ٢٣٧ - ط دار الفكر.

الطنطاوي يصيح

قال الشيخ علي **الطنطاوي** رحمه الله:

> **«لو أُتيت مال قارون وجسد هرقل وواصلتك عشر آلاف من أجمل النساء من كل لون وكل شكل وكل نوع من أنواع الجمال هل تظن أنك تكتفي؟ لا.. أقولها بالصوت العالي: لا.. أكتبها بالقلم العريض، ولكن واحدة بالحلال تكفيك، ولا تطلبوا مني الدليل فحيثما تلفّتم حولكم وجدتم في الحياة الدليل قائمًا ظاهرًا مرئيًا»**[1].

لكن ما الذي يزيِّن الحرام للإنسان ويبغِّض له الحلال؟! وما الذي يجعله تهفو نفسه للغريبة عنه وتزهد في سكنه ومودته وشريكة عمره؟! إنه الرغبة في التغيير والقضاء على الملل، إنه التطلع إلى كل جديد، فالمرء توَّاق إلى ما لم ينل، ويجيب **الطنطاوي** ثانية قائلاً:

«فالنساء مختلفات، ولكن طعم المتعة بهن واحد لا يختلف، وما فرق بين تلك الراقصة وبين امرأتك إلا أن الأولى تأتيك على جوعك بالرغيف قد لفَّته بمنديل الحرير، ووضعت المنديل في شملة[2]، وألقت الشملة في صندوق من الفضة المذهبة، وجعلت حول الصندوق الورق الشفاف، فأنت كلما رفعت حجابًا من هذه الحجب اشتد جوعك وشوقك إلى ما وراءها، فإذا بلغت الرغيف حسبته قُطِف من قمح الجنة، ثم طحنته الملائكة، ثم عجنته بأيديهن الحور العين، وأنت لا تأكل المنديل ولا الشملة ولا الصندوق، إنما تأكل الرغيف، وأنت لا تريد هذه الثياب ولا هذه الأنوار، إنما تريد المرأة، ولعل امرأتك أبهى منها وأجمل»[3].

---

(١) فتاوى علي الطنطاوي ص ١٤٦.

(٢) الكساء والمئزرُ يُتَّشح به.

(٣) روائع الطنطاوي ص ١٩٨، ١٩٩ – إبراهيم مضواح الألمعي – ط دار المنارة بجدة – الطبعة الثانية ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.



السجود للصنم

وإليك نماذج من هؤلاء المرضى الذين استسلموا لمرضهم، فلم يحاولوا الاستشفاء بطبيب بارع أو مشفى جامع حتي غزاها المرض فشوَّه ملامحها ومسخ فطرتها ووصل إلى النخاع وقطع عليها خط الرجعة. قيل لأحدهم: جاهد في سبيل الله، فقال:

يقولــــون جاهد يا جميل بغـــزوة وأي جهـــــاد غيرهـــن أريـــد

لكـــل حـــديث بيـــنهن بشاشـــة وكـــل قتيـــل بيـــنهن شـــهيد

وأعلن أخ له في الغواية:

ولو أنني أســـتغفر الله كلمـــا ذكرتك لم تُكتَـــب عليَّ ذنـــوب

هذا حال اللسان، أما حال القلب فأسوأ:

محا حُبها حب الأولى كُنَّ قبلها وحَلَّ مكانا لم يكن حَلَّ من قبل

أما حب الله والشوق إليه، فلم يعد له في القلب لا أقول موضع قدم بل موضع إبرة!! بل وصل حالهم إلى وصف مريع أفاض فيه **ابن القيِّم** ليخوِّف كل عاقل من عواقب المرض ويلوِّح أمام ناظريه براية الخطر، فقال في شفقة الطبيب يبيِّن خطورة المرض وفداحة الإصابة:

«فلو خُيِّر بين رضاه ورضا الله لاختار رضا معشوقه على رضا ربه، ولقاء معشوقه أحب إليه من لقاء ربه، وتمنيه لقربه أعظم من تمنيه لقرب ربه، وهربه من سخطه عليه أشد من هربه من سخط ربه عليه، يُسخِط ربه بمرضاة معشوقه، ويقدِّم مصالح معشوقة وحوائجه على طاعة ربه، فإن فضل من وقته، وكان عنده قليل من الإيمان، صرف تلك الفضلة في طاعة ربه، وإن استغرق الزمان حوائج معشوقه ومصالحه صرف زمانه كله فيها وأهمل أمر الله تعالى، يجود لمعشوقه بكل نفيسة ونفيس، ويجعل لربه من ماله - إن جعل له - كل رذيلة وخسيس، فلمعشوقه لُبُّه وقلبه، وهمه ووقته، وخالص ماله، وربه على الفضلة، قد اتخذه وراءه ظهريًّا، وصار لذكره نسيًّا، إن قام في خدمته في الصلاة فلسانه يناجيه وقلبه يناجي معشوقه، ووجه بدنه إلى القبلة ووجه قلبه إلى المعشوق، ينفر من خدمة ربه حتى كأنه واقف في الصلاة على

الجمر من ثقلها عليه وتكلُّفه لفعلها، فإذا جاءت خدمة المعشوق أقبل عليها بقلبه وبدنه فرحًا بها، ناصحًا له فيها، خفيفة على قلبه لا يستثقلها ولا يستطيلها»[(١)].

لذا يعاقبه الله في الدنيا قبل الآخرة، وعلى يد من؟! على يد من لا يخطر له على بال ومن بذل في سبيله كل غال: على يد محبوبه الذي أحبه من دون الله. قال ابن القيِّم:

«وقد قضى الله تعالى قضاء لا يرد ولا يُدفع أن من أحب شيئًا سواه عُذِّب به ولا بد، وأن من خاف غيره سُلِّط عليه، وأن من اشتغل بشيء غيره كان شؤمًا عليه، ومن آثر غيره عليه لم يُبارك له فيه، ومن أرضى غيره بسخطه أسخطه عليه ولا بد»[(٢)].

عذابات فوق عذابات، وآلام وحسرات في الدنيا وفي القبر وفي النار!! قال ابن القيم: «فكل من أحب شيئًا غير الله عُذِّب به ثلاث مرات في هذه الدار، فهو يُعذَّب به قبل حصوله حتى يحصل، فإذا حصل عُذِّب به حال حصوله بالخوف من سلبه وفواته، فإذا سُلِبه اشتد عذابه عليه، فهذه ثلاثة أنواع من العذاب في هذه الدار.

وأما في البرزخ فعذاب يقارنه ألم الفراق الذي لا يُرجى عوده، وألم فوات ما فاته من النعيم العظيم باشتغاله بضده، وألم الحجاب عن الله، وألم الحسرة التي تقطع الأكباد، فالهم والغم والحسرة والحزن تعمل في نفوسهم نظير ما تعمل الهوام والديدان في أبدانهم، بل عملها في النفوس دائم مستمر حتى يردها الله إلى أجسادها، فحينئذ ينتقل العذاب إلى نوع هو أدهى وأمر»[(٣)].

ولو فكَّر العاشق المسكين في مصير من عشقه وخاتمة من أحب لتاب من فوره وزهد في وصله كما قال المتنبي:

لو فكَّـــر العاشـــق في منتهى ... حُسْـــن الذي يسبيه لم يسبه

وأكَّد آخر نفس المعنى فقال:

وان سبتك الدُّمى فانظر بفكرك ... ما تغدو اليه الدُّمى في ظلمة القبر

---

(١) إغاثة اللهفان ٢/ ١٤٧.
(٢) الوابل الصيب ١/ ١٥.
(٣) الداء والدواء ١/ ٥١.

لكن أين حال هؤلاء من أحياء القلوب وأرباب العقول الذين يتدبرون ويعتبرون، ويقرؤون ما وراء الأحداث فيرشدون، ومن سادات هؤلاء ابن **الجوزي** الذي علّمنا في إحدى كنوزه الرائقة:

«تأملتُ حالة أزعجتني، وهو أن الرجل قد يفعل مع امرأته كل جميل وهي لا تحبه، وكذا يفعل مع صديقه والصديق يبغضه، وقد يتقرَّب إلى السلطان بكل ما يقدر عليه والسلطان لا يؤثره، فيبقى متحيِّرًا يقول: ما حيلتي؟! فخفتُ أن تكون هذه حالتي مع الخالق سبحانه، أتقرَّب إليه وهو لا يريدني، وربما يكون قد كتبني شقيًّا في الأزل»(١).

5 شهوة حب الأهل والولد:

وقد ورد التحذير من هذه الشهوة في أكثر من آية من كتاب الله عز وجل، ولعل أخطرها وأعظمها وقعًا على القلب قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾

[التغابن: ١٤، ١٥].

قال الإمام **البغوي** عند تفسير هذه الآية: «وقال **عطاء بن يسار**: نزلت في **عوف بن مالك الأشجعي**: كان ذا أهل وولد، وكان إذا أراد الغزو بكوا إليه ورققوه، وقالوا: إلى من تدعنا؟ فيرِقُّ لهم ويقيم، فأنزل الله: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ﴾ بحملهم إياكم على ترك الطاعة، فاحذروهم أن تقبلوا منهم».

وتأمَّلوا: لما ذكر الله العداوة أدخل ﴿مِن﴾ للتبعيض، فقال: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ﴾، لأن ليس كل الأهل أعداء، ولم يذكر ﴿مِن﴾ في قوله: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ لأنه لا تخلو الزوجة والولد من الفتنة واشتغال القلب بها.

وقد تآخت هذه الآية مع حديث **بريدة** ﷺ تأكيدًا لمعناها وشرحًا لفحواها حيث قال:

---

(١) صيد الخاطر ص ١٩٦ – ط دار الفكر.

«كان رسول الله ﷺ يخطب فجاء الحسن والحسين وعليهما قميصان أحمران، يمشيان ويعثران، فنزل رسول الله ﷺ من المنبر، فحملهما، فوضعهما بين يديه، ثم قال: «صدق الله: ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران، فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما»[1].

ويعلق سيد قطب - رحمه الله تعالى- على آية التغابن هذه فيقول:

«ولكن النص القرآني أشمل من الحادث الجزئي، وأبعد مدى وأطول أمدًا؛ فهذا التحذير من الأزواج والأولاد كالتحذير الذي في الآية التالية من الأموال والأولاد معا: ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾.

والتنبيه إلى أن من الأزواج والأولاد من يكون عدوًّا، إن هذا يشير إلى حقيقة عميقة في الحياة البشرية؛ ويمس وشائج متشابكة ودقيقة في التركيب العاطفي، وفي ملابسات الحياة سواء، فالأزواج والأولاد قد يكونون مشغلة وملهاة عن ذكر الله، كما أنهم قد يكونون دافعًا للتقصير في تبعات الإيمان، اتقاء للمتاعب التي تحيط بهم لو قام المؤمن بواجبه، فلقي ما يلقاه المجاهد في سبيل الله! والمجاهد في سبيل الله يتعرض لخسارة الكثير، وتضحية الكثير.

كما يتعرض هو وأهله للعنت، وقد يحتمل العنت في نفسه ولا يحتمله في زوجه وولده، فيبخل ويجبن ليوفر لهم الأمن والقرار، أو المتاع والمال، فيكونون عدوا له؛ لأنهم صدوه عن الخير، وعوَّقوه عن تحقيق غاية وجوده الإنساني العليا.

كما أنهم قد يقفون له في الطريق يمنعونه من النهوض بواجبه؛ اتقاء لما يصيبهم من جرائه، أو لأنهم قد يكونون في طريق غير طريقه، ويعجز هو عن المفاصلة بينه وبينهم والتجرد لله، وهي كذلك صور من العداوة متفاوتة الدرجات، وهذه وتلك مما يقع في حياة المؤمن في كل آن، ومن ثم اقتضت هذه الحال المعقدة المتشابكة: التحذير من الله، لإثارة اليقظة في قلوب الذين آمنوا، والحذر من تسلل هذه المشاعر، وضغط هذه المؤثرات، ثم كرر هذا التحذير في صورة أخرى من فتنة الأموال والأولاد، وكلمة فتنة تحتمل معنيين:

---

(١) صحيح : رواه أبوداود والترمذي عن بريدة كما في ص ج ص رقم : ٣٧٥٧.

الأول: أن الله يفتنكم بالأموال والأولاد بمعنى يختبركم، فانتبهوا لهذا، وحاذروا وكونوا أبدًا يقظين لتنجحوا في الابتلاء، وتخلصوا وتتجردوا لله، كما يفتن الصائغ الذهب بالنار ليخلصه من الشوائب!

والثاني: أن هذه الأموال والأولاد فتنة لكم توقعكم بفتنتها في المخالفة والمعصية، فاحذروا هذه الفتنة لا تجرفكم وتبعدكم عن الله».

والمعنى الثاني من كلام **سيد قطب** يبين أن الأولاد قد يشغلون عن الله وعن ذكره ومرضاته وقربه كما دلَّ على ذلك قوله تعالى:﴿**يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ**﴾ [المنافقون: ٩].

وهي آية من سورة المنافقين التي سردت صفات المنافقين وأحوالهم، ثم تحذير المؤمنين من الوقوع في ما وقعوا فيه من الانشغال بها عن الآخرة والتفريط في صالح الأعمال، وأخذ المال من حل وحرمة؛ تحت ذريعة توفير الراحة والسعادة للأهل والأولاد. قال **الزجاج**:

«أعلمهم الله عز وجل أن الأموال والأولاد مما يُفتنون به؛ وهذا عام في جميع الأولاد، فإن الإنسان مفتون بولده؛ لأنه ربما عصى الله تعالى بسببه، وتناول الحرام لأجله، ووقع في العظائم إلا من عصمه الله تعالى»[(١)].

ثمرتا الجبن والبخل

ومن آثار هذه الشهوة إذا طغت وخرجت عن حدود الفطرة السوية: الوقوع في صفتين ذميمتين هما: البخل والجبن، مما سبق وأن نبَّه عليه الرسول ﷺ بقوله:«**إن الولد مبخلة مجبنة**»[(٢)].

والجبن والبخل يصدان عن القيام بواجب الدعوة والجهاد؛ وقد يحتمل الداعية الأذى والعنت على نفسه في سبيل الله عز وجل، لكن القليل هو من يحتمله في أهله وأولاده؛ خاصة

---

(١) إغاثة اللهفان ١/ ١٦٠.

(٢) صحيح: رواه ابن ماجة كما في في صحيح ابن ماجه رقم: ٢٩٥٧.

إذا تعرض لما يبعده عنهم كالسجن والتشريد.

يقول **سيد قطب** رحمه الله تعالى: «هناك فتنة الأهل والأحباء الذين يخشى عليهم أن يصيبهم الأذى بسببه، وهو لا يملك عنهم دفعًا وقد يهتفون به ليسالم أو ليستسلم، وينادونه باسم الحب والقرابة، واتقاء الله في الرحم التي يعرضها للأذى أو الهلاك».

وفي هذا فتنة واختبار أيما اختبار، وهل خُلِقت الشهوات إلا للاختبار؟! ولا يثبت إلا من ثبته الله عز وجل وعصمه بصدق التوكل عليه وحسن الظن به والوثوق برحمته وحفظه.

لكن ماذا إذا ربَّى الإنسان أولاده ليكونوا له عونًا على مشاق الطريق، وعامل ثبات لا فتنة، وقوة تقدم لا تقهقر، كما سبق وفعل **عاصم بن علي** مع بناته اللاتي صرن أساتذة الرجال في مدارس الثبات، فقد روى **محمد بن سويد الطحان**:

«كنا عند **عاصم** بن **علي** ومعنا **أبو عبيد، وإبراهيم** بن **أبي الليث** وجماعة، **وأحمد** بن **حنبل** يضرب، فجعل **عاصم** يقول: ألا رجل يقوم معي، فنأتي هذا الرجل، فنكلمه؟ قال: فما يجيبه أحد، ثم قال **ابن أبي الليث**: أنا أقوم معك يا أبا الحسين.. يا أبا الحسين.. أَبلغُ إلى بناتي، فأوصيهم، فظننا أنه ذهب يتكفن ويتحنط، ثم جاء، فقال: إني ذهبت إليهن، فبكين. قال: وجاء كتاب ابنتي **عاصم** من واسط: يا أبانا! إنه بلغنا أن هذا الرجل أخذ **أحمد بن حنبل**، فضربه على أن يقول: القرآن مخلوق، فاتق الله، ولا تُجِبه، فوالله لأن يأتينا نعيك أحب إلينا من أن يأتينا أنك أجبت!!»[1].

(١) سير أعلام النبلاء ٩/٢٤٤.

ثانياً: مرض الشبهات:

قال ابن القيِّم: «وإنما سُمِّيت الشبهة شبهة لاشتباه الحق بالباطل فيها، فإنها تلبس ثوب الحق على جسم الباطل، وأكثر الناس أصحاب حسن ظاهر، فينظر الناظر فيما ألبسته من اللباس فيعتقد صحتها، وأما صاحب العلم واليقين، فإنه لا يغتر بذلك بل يجاوز نظره إلى باطنها وما تحت لباسها، فينكشف له حقيقتها، ومثال هذا: الدرهم الزائف، فإنه يغتر به الجاهل بالنقد نظرًا إلى ما عليه من لباس الفضة، والناقد البصير يجاوز نظره إلى ما وراء ذلك، فيطلع على زيفه، فاللفظ الحسن الفصيح هو للشبهة بمنزلة اللباس من الفضة على الدرهم الزائف»(١).

قال الشيخ **علي الطنطاوي** وهو يشرح في براعة الطبيب وحكمة المربي وخبرة العالم الفارق بين الشبهات والشهوات:

«والشبهات أخطر بنتائجها لأنها تؤدِّي إلى الكفر، ولكن الشهوات أشد بطبيعتها، إذ إن الشبان لا يستجيب منهم للشبهة إلا قليل، أما ما يثير الغرائز ويحرِّك الرغبات فيلقى الاستجابة عند الجميع، وإن كان منهم من يصبر ويقاوم، ويطوي جوانحه على مثل النار الآكلة ابتغاء ثواب الله وخوفًا من عقابه، الأولى كالمرض الذي يقتل ولكن عداوته بطيئة، والوقاية منه ممكنة، والثانية كالمرض الذي يضني وإن كان لا يُفني، ويُضعف وإن كان لا يُميت، والتوقي منه أصعب»(٢).

وعن السلوك الذي يجب على المسلم أن يسلكه مع الشبهات قال **ابن القيِّم** مهديًا إلينا نصيحة شيخه شيخ الإسلام **ابن تيمية**:

«وقال لي شيخ الإسلام – رضي الله عنه– وقد جعلت أورد عليه إيرادًا بعد إيراد: لا تجعل قلبك للإيرادات والشبهات مثل السفنجة، فيتشرَّبها فلا ينضح إلا بها، ولكن اجعله كالزجاجة المصمتة تمر الشبهات بظاهرها ولا تستقر فيها، فيراها بصفائه ويدفعها بصلابته، وإلا فإذا أشربت قلبك كل شبهة تمُر عليها صار مقرًّا للشبهات، فما أعلم أني انتفعت بوصية في دفع الشبهات كانتفاعي بذلك»(٣).

---

(١) مفتاح دار السعادة ص ١٤٠، ١٤١.

(٢) فصول إسلامية ص ٩٥، ٩٦ – ط دار المنارة – الطبعة الثانية – ١٤٠٩هـ – ١٩٨٩م.

(٣) مفتاح دار السعادة ص ١٤٠.

- **فمن الشبهات**: تدخل العقل في ما لا يطيق، وخوضه في ما لا طاقة له به، ومن ذلك ما أخبر عنه النبي ﷺ في قوله: «**يأتي الشيطان أحدكم فيقول: من خلق كذا؟! من خلق كذا؟! حتى يقول: من خلق ربك؟ فإذا بلغه فليستعذ بالله ولينته**»[١].

والدواء بالإضافة إلى الاستعاذة جاء كذلك على لسان **عبد الله بن عمر** - رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ قال: «**تفكَّروا في آلاء الله، ولا تفكَّروا في الله عز وجل**»[٢].

ومما لا يطيقه العقل: الخوض في مجازات وكنايات أوهم ظاهرها معاني لا تليق في جنب الله تعالى مثل: ﴿ **فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا** ﴾ [الطور: ٤٨]، ﴿ **وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيدٍ** ﴾ [الذاريات: ٤٧]، ﴿ **وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ** ﴾ [الرحمن: ٢٧]، والنجاة في أن نُمِرَّها كما جاءت ولا نقف على الكيفية بل نفوِّض الكيف إلى الله كما فعل روى ذلك **جعفر ابن عبد الله** قال: «كنا عند **مالك بن أنس** فجاءه رجل فقال: يا أبا عبد الله!! الرحمن على العرش استوى كيف استوى؟! فما وجد **مالك** من شيء ما وجد من مسألته، فنظر إلى الأرض وجعل ينكت بعود في يده حتى علاه الرحضاء يعني العرق، ثم رفع رأسه ورمى بالعود وقال: الكيف منه غير معقول، والاستواء منه غير مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وأظنك صاحب بدعة وأمر به فأُخرِج»[٣].

- **ومن الشبهات**: الخوض في دقائق العقائد دون داعٍ شرعي، وهو ما لا ينسجم مع منهج السلف القائم على البساطة، وتجنب الخوض في جدليات تحت دعوى أنها من علم العقيدة، وما هي في حقيقتها إلا بقايا علم الكلام الذي نُهينا عن الخوض فيه، وهذا ما دفع الإمام **أحمد بن حنبل** لهجر **الحارث المحاسبي** على الرغم من صلاحه وتقواه لخوضه في هذا العلم الجدلي المورث للشك.

عن **عائشة** - رضي الله عنها- قالت: تلا رسول الله ﷺ: ﴿ **هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ**

---

(١) صحيح: رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع حديث رقم: ٧٩٩٣.
(٢) حسن: رواه الطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب كما في صحيح الجامع حديث رقم: ٢٩٧٥.
(٣) حلية الأولياء ٦/ ٣٢٥، ٣٢٦.

يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾. قالت: قال رسول الله ﷺ: «**فإذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سماهم الله فاحذروهم**»(١).

وكثيرًا من الخلافات والنزاعات اليوم تقوم على هذه الأمور، والتي صار بعضها للأسف سيفا في يد البعض يكفِّر به غيره ويُفسِّق الآخرين، واسمعوا إلى آخر ما كان من **أبي الحسن الأشعري** في ما رواه عنه **الإمام الذهبي**. قال **أبو حازم العبدوي**: سمعت **زاهر بن أحمد** يقول: لما قرب حضور أجل **أبي الحسن الأشعري** في داري ببغداد أتيته فقال: «اشهد على أني لا أكفِّر أحدا من أهل القبلة لأن الكل يشيرون إلى معبود واحد، وإنما هذا كله اختلاف العبارات»(٢).

وتأمل معي.. كيف يُفني البعض عمره في معارك ثم يتوصل أواخر أيام حياته إلى أنها لم تكن سوى اختلاف عبارات، ولا ينتبه إلى المتاهة التي وضع فيها نفسه وأرشد إليها غيره بل أضله، ولا حلَّ إلا بالرجوع إلى ما كان عليه السلف من البساطة وعدم التكلف والاكتفاء من العقائد بالجمل، وتسخير الأوقات للعمل، والاهتمام بدراسة العقيدة كأثر وسعي لا جدل ولغو، والعمل بالعقيدة بدلاً من الجدل بالعقيدة، فإن العقيدة قرينة العمل، والإيمان يكون بالأعمال لا الأقوال فقط.

وهنا لا بد من التمييز بين كليات العقيدة التي لا اجتهاد فيها، لقطعية الأدلة فيها ثبوتًا ودلالة، وبين جزئياتها التي جاءت النصوص فيها محتملة، وللخلاف فيها متسع، والانشغال بها لا يؤدي إلى الحسم فيها علميا، ولا يترتب عليه أي ثمرة عمليًّا، فقد اختلف الصحابة -رضي الله عنهم- في بعض جزئيات العقيدة، مثل رؤية النبي ﷺ ربه - عز وجل- ليلة الإسراء، وهل كان الإسراء بالجسد أم بالروح، وتكليم النبي ﷺ لقتلى المشركين في بدر، وتعذيب الميت ببكاء أهله، ووردت إلينا أقوالهم في ذلك، فكان كل منهم يبدي رأيه بشكل عرَضي، ولا يتوقف طويلاً عند هذه الأمور، ولا يرى لها أهمية كبرى، بينما هو مستغرق في الجهاد لنصرة الدين والتمكين له، فضلا عن أنهم لم يرد عن أي منهم إنكار على مخالفه في مثل هذه الأمور، بل كانت عباراتهم مشحونة بالأدب الجم والدعاء لمخالفيهم، مثل قول **عائشة** رضي الله عنها: «**رحم الله أبا هريرة.. أساء سمعًا فأساء إجابة**».

---

(١) صحيح : اللؤلؤ والمرجان حديث رقم : ١٧٠٥ ، واللفظ لمسلم.
(٢) سير أعلام النبلاء ١٥/ ٨٨- ط مؤسسة الرسالة.

• **ومن الشبهات** التشكيك في كتاب الله وبث الشيطان في القلب عدم التصديق ببعض آياته: ومثال ذلك: ما حكاه **محمد بن علي بن رازم الطائي الكوفي** قال: «كنت بمكة حين كان **الجنابي** زعيم القرامطة بمكة وهم يقاتلون **الحجاج** ويقولون: أليس قال لكم **محمد المكي**: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧] فأي أمن هنا. قال: فقلت له: هذا خرج في صورة الخبر والمراد به الأمر أي: ومن دخله فأمِّنوه كقوله ﴿وَٱلْمُطَلَّقَـٰتُ يَتَرَبَّصْنَ﴾ [البقرة: ٢٢٨]»(١).

• **ومن الشبهات:** تلبيس الشيطان على المرء في الوضوء والطهارة، فيشك الإنسان في نفسه، ويظن أنه أحدث فيعيد الوضوء مرة بعد أخرى؛ حتى يجعل الشيطان الوضوء عليه صعبًا، ويحمِّل الإنسان ما لا يطيق، فيترك الوضوء والصلاة جزعًا.

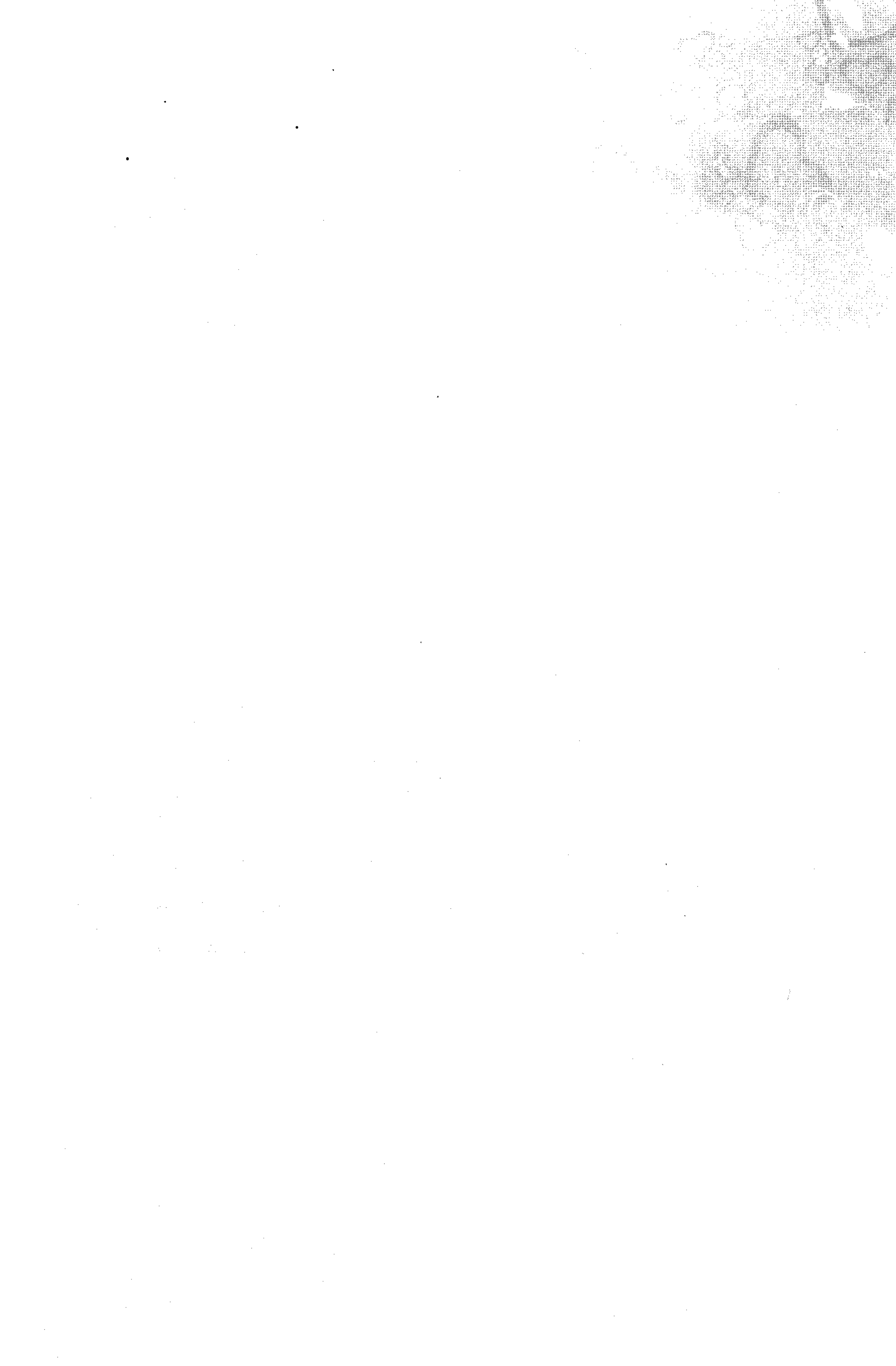
• **ومن الشبهات:** التنازع في القدر، وهل الإنسان مُسيَّر أم مُخيَّر، وهي قضية جدلية قديمة جديدة، لا ينبني عليها عمل، ولا تبعث القلب على الوجل، وقد سبق وأن غضب رسول الله ﷺ غضبًا شديدًا من إثارة هذا الجدل، فعن **أبي هريرة** ﷺ قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نتنازع في القدر، فغضب حتى احمر وجهه حتى كأنما فقئ في وجنتيه الرمان، فقال: «**أبهذا أُمِرتم؟! أم بهذا أُرسِلت إليكم؟! إنما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا في هذا الأمر، عزمتُ عليكم ألا تتنازعوا فيه**»(٢).

• **ومن الشبهات:** التشكيك في صحة المنهج الرباني كفرضية الحجاب وتحكيم الشريعة وصلاحيتها للعمل، وهي قضايا العصر التي تتعرَّض لحملات التشكيك وبث الريب في قلوب ضعاف المؤمنين.

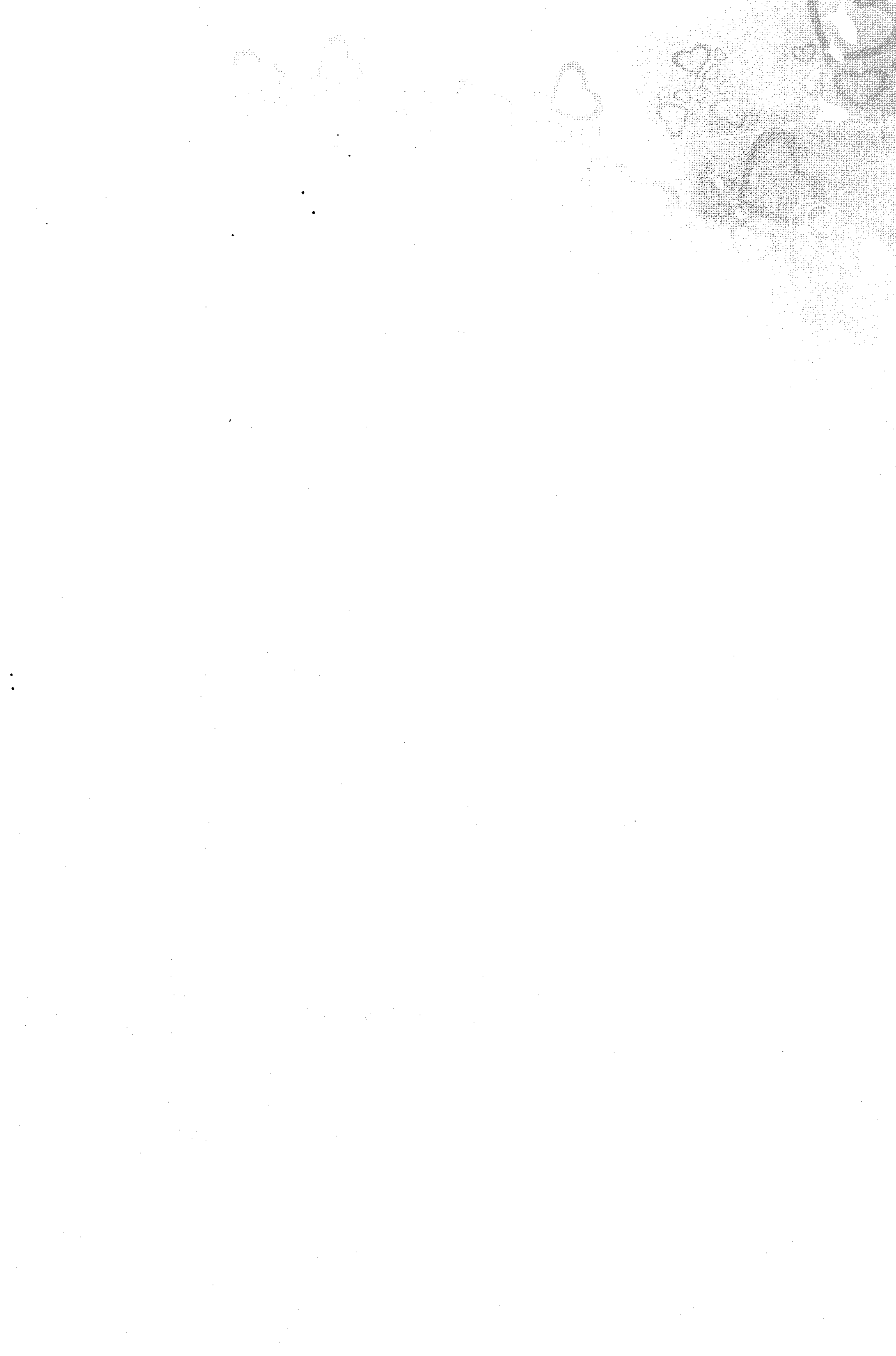
---

(١) التحرير والتنوير.

(٢) حسن: رواه الترمذي في كتاب القدر رقم: ٢١٣٣، والحديث حسَّنه الألباني في صحيح الترمذي رقم: ١٧٣٢.




٣
رحلة سقوط
رُدَّ إليَّ روحي





المعصية والفخ

المعصية فخ، والشيطان صياد، والإنسان طائر، والفخ مستتر والحب ملقى على وجهه؛ فمتى أكبَّ الإنسان على التقاط الحب أوشك أن يخنقه.

ولذا جاء تحذير النبي ﷺ لأقرب الصحابة إلى قلبه وأحبهم إليه وهو **أبو بكر الصديق** ﷺ، فعن **أبي هريرة** ﷺ قال: قال **أبو بكر**: يا رسول الله! مُرني بشيء أقوله إذا أصبحت وإذا أمسيت. قال: «**قل: اللهم عالم الغيب والشهادة، فاطر السماوات والأرض، ربَّ كل شيء ومليكه، أشهد أن لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شر نفسي، ومن شر الشيطان وشركه. قال: قُلْهُ إذا أصبحت وإذا أمسيت وإذا أخذت مضجعك**»(١).

(وشِرْكِه) بكسر الشين وسكون الراء أي ما يدعو إليه الشيطان من الإشراك بالله، ويُروى بفتحتين (وشَرَكِه) أي مصائده وحبائله التي يفتتن بها الناس، إنها ثلاث نوبات حراسة يوصيك بالمحافظة عليها رسولك الحبيب وهو عليك شفيق وبك رفيق؛ واحدة عندما تصبح، والثانية في مساك، والثالثة عند نومك، فيا معشر الأبطال: إياكم أن تفروا أمام العدو، فكم كسا الفرار أهله لباس العار، وقد سمعتم كلام الجبار: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ**﴾ [الأنفال: ١٥]، فاثبتوا في وجهه، وأروه الويل ألوانًا، وأنيروا القلب إيمانًا، ولا تكونوا ممن يصنع له التاج، واسمعوا هذا الحديث لتفهموا معنى الحديث:

قال رسول الله ﷺ: «**إذا أصبح إبليس بث جنوده فيقول: من أضل اليوم مسلمًا ألبسته التاج. قال: فيخرج هذا فيقول: لم أزل به حتى طلَّق امرأته، فيقول: أوشك أن يتزوج، ويجيء هذا فيقول: لم أزل به حتى عقَّ والديه، فيقول: يوشك أن يبرهما، ويجيء هذا فيقول: لم أزل به**

(١) صحيح: الصحيحة حديث رقم: ٢٧٥٣.

حتى أشرك، فيقول: أنت أنت! ويجيء هذا فيقول: لم أزل به حتى قتل فيقول: أنت أنت ويُلبسه التاج»(١).

ولن يُكتب لأحد الشفاء اليوم ما لم يجعل الصخرة التي وضعها الشيطان في طريقه صخرة يعبر عليها نحو العافية، والحبل الذي أراد أن يعرقله به عن بلوغ هدفه حبل المشنقة الذي يخنق به إبليس إن شاء الله.

وقد يخفى على بعض المرضى أن من خطوات الشيطان أن يأتي بوسوسة في صورة خواطر الخير، وذلك إذا علم أن المريض من الذين يتوخون البر والطاعة، وأنه من المستحيل عليه ترويج وسوسته إذا كانت مكشوفة، وقد فطن **الحسن بن صالح** لهذا الفخ الشيطاني فقال لك:

«إن الشيطان ليفتح للعبد تسعة وتسعين بابًا من الخير يريد به بابًا من السوء»(٢).

ومن هذه الأبواب التسعة والتسعين اخترت عشرة أبواب لعلها الأهم وهي أيضًا الأخطر والأكثر شيوعًا، وأول هذه الأبواب باب مكتوب عليه:

1 التشديد المهلك:

لا ينبغي للإنسان أن يُحمِّل بدنه ما لا يطيق، فإن البدن كالراحلة إن لم يرفق بها صاحبها لم تصل به حيث يريد.

وهذه الخدعة أراد الشيطان أن يوقع فيها **عبد الله بن عمرو بن العاص** ﷺ، فدخل عليه من أبواب عبادات ثلاثة: باب الصيام وباب القيام وباب القرآن، وتأمَّل كيف انتهت قصته بتمني الاعتدال والتوسط الذي أرشده إليه في البداية النبي ﷺ، حيث قال **عبد الله بن عمرو بن العاص** ﷺ:

«قال لي رسول الله ﷺ: **«يا عبد الله، ألم أُخْبَرْ أنك تصوم النهار وتقوم الليل»**، فقلتُ: بلى يا رسول الله، قال: **«فلا تفعل، صم وأفطر، وقم ونم، فإن لجسدك عليك حقًّا، وإن لعينك**

(١) صحيح: كما في السلسلة الصحيحة ٣/ ٢٧٤ رقم: ١٢٨٠.
(٢) حلية الأولياء ٧/ ٣٣١.

عليك حقًّا، وإن لزوجك عليك حقًّا، وإن لزورك عليك حقًّا، وإن بحسبك أن تصوم كل شهر ثلاثة أيام، فإن لك بكل حسنة عشر أمثالها فإن ذلك صيام الدهر كله»، [قال عبد الله بن عمرو عن نفسه]: فَشَدَّدْتُ فَشُدِّدَ عَلَيَّ؛ قلتُ: يا رسول الله، إنِّي أَجد قوَّة، قال: «فصم صيام نبي الله داود عليه السلام ولا تزِدْ عليه»، قلتُ: وما كان صيام نبي الله داود عليه السلام؟ قال: «نصف الدهر، فكان عبد الله يقول بعدما كبر: يا ليتني قبلت رخصة النبي ﷺ»[١].

هذا في شأن الصيام، أما في شأن القيام فقد دخل الشيطان على الصالح العابد عبد الله بن عمرو بن العاص مرة ثانية فزيَّن له الإفراط في العبادة ليوقعه؛ لذا حذَّر النبي ﷺ نفس الصحابي عبد الله بن عمرو بن العاص من الانقطاع عن قيام الليل من جراء ذلك، فقال: «يا عبد الله، لا تكن مثل فلان، كان يقوم الليل، فترك قيام الليل»[٢].

أما في شأن قراءة القرآن فلنا عودة مع نفس الصحابي عبد الله بن عمرو الذي عاوده الشيطان مرة ثالثة ليحاول أن يحمِّله ما لا يطيق ليورثه الانقطاع بعد الانتظام. قال عبد الله بن عمرو: قال لي رسول الله ﷺ: اقرأ القرآن في شهر، قلت: إني أجد قوة. حتى قال: «فاقرأه في سبعة، ولا تزِدْ على ذلك»[٣].

المداومة على قليل الدواء تورث الشفاء، وتناول عظيم الجرعة منه ثم الانقطاع لا يُحدِث الأثر المرجو، بل يحقق مبتغى الشيطان وهو انقطاعك وعدم دوامك؛ لذا كان من أسهل ما يوصل عدوك إلى هدفه: الغلو وتحميل نفسك فوق طاقتها والغفلة عن سنة التدرج، وتفاصيل خطة الشيطان وبين ثناياها: إفراط في بداية الطريق يورث التفريط آخره، وهو ما يسميه الأطباء اليوم بظاهرة الانتكاسة، فبعد أن يتناول المريض الدواء زمنًا وتبدو عليه أمارات الشفاء؛ يرتكس وينتكس من جراء ما شدَّد على نفسه في الأول.

وهو ما حذَّر منه من قديم الزمن الحسن البصري حين قال:

«إن هذا الدين دين واصب، وإنه من لا يصبر عليه يدعه، وإن الحق ثقيل، وإن الإنسان

(١) صحيح : رواه البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمرو كما في اللؤلؤ والمرجان رقم : ٧١٥.
(٢) صحيح : رواه البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمرو كما في اللؤلؤ والمرجان رقم : ٧١٧.
(٣) المصدر السابق رقم : ٧١٦.

ضعيف، وكان يُقال: لِيأخذ أحدكم من العمل ما يطيق، فإنه لا يدري ما قدر أجله، وإن العبد إذا ركب بنفسه العنف وكلَّف نفسه ما لا يطيق أوشك أن يسيِّب ذلك كله حتى لعله لا يقيم الفريضة، وإذا ركب نفسه التيسير والتخفيف وكلف نفسه ما تطيق كان أكيس، وكان يُقال: شر السير الحقحقة»[1].

وهذه الكمين سقط ويسقط فيه الكثيرون ممن كانت بداياتهم صادقة مخلصة لكنهم لم يتنبهوا لهذا الفخ فوقعوا فيه، ومنهم من أخبرنا بقصته الأستاذ **فتحي يكن** في كتابه المتساقطون على طريق الدعوة، حيث قال حفظه الله:

«أذكر أن أحد الإخوة أقسم ليحفظن القرآن عن ظهر قلبٍ خلال فصل صيف، ولقد اجتهد في ذلك، ولكنه لم يتمكن فسخط على نفسه سخطاً شديدًا، وصَمَّم لينتقمن منها أبشع انتقام، فما كان منه إلا أن حرم نفسه من كل ما أحل الله له، بدأ بصيام متتابع لا يفطر إلا لمامًا وبقيام متتابع لا ينام إلا سهوًا، ثم انقطع عن دراسته وباع كتبه وأثاث غرفته، ولقد انتهى به الأمر بعد ذلك إلى مستشفي للأمراض العصبية، وإلى غيبته عن الدعوة بالكلية، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم»[2].

فأصبح كالبازي المُنَتَّف ريشه ... يرى حسراتٍ كلما طار طائر
وقد كان دهرًا في الرياض مُنعَّمًا ... على كل ما يهوى من الصيد قادر
إلى أن أصابته من الدهر نكبة ... إذا هو مقصوص الجناحين حاسر

---

(١) الزهد لابن المبارك ٤٦٨/١ بتصرف يسير، والحقحقة: شدة السير وأتعبه للظهر.
(٢) المتساقطون على طريق الدعوة ص ٨٦، ٨٧ - ط ١ - الرسالة ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١م.

2 الرجاء القاتل:

إن الرجاء الصادق مقام جميل لطيف يهوِّن السير على العابدين، ويحث الكسالى على السير السريع، بل لولا الرجاء لما سار إلى الله تعالى أحد، فإن الخوف وحده لا يحرِّك العبد إنما يُزعجه، ثم الحب هو الذي يحرِّكه والرجاء يجذبه، «ولولا روح الرجاء لعُطِّلت عبودية القلب والجوارح، ولما تحرَّكت الجوارح بالطاعة، ولولا ريحه الطيِّبة لما جرت سفن الأعمال في بحر الإرادات»[(١)].

ومن فوائده: إظهار العبد عبوديته إلى ربه وما يرجوه ويستشرفه من إحسانه وبره، وأنه لا يستغني عنه طرفة عين.

ومن فوائده: التلذذ بالعبادة، فشتان ما بين عمل المحب الذي يرجو الثواب ويستلذ بالعمل وعمل الأجير الذي يتمنى الانتهاء من عمله والتخلص في أقرب فرصة مما يكابده فيه من مشاق.

ومن فوائده: أنه سبحانه يحب من عباده أن يرجوه ويسألوه لأنه الملك الجواد، والجواد فوق الكريم في أن أحب ما إلى الجواد: أن يُرجى ويُسأل، وفي الحديث: «**من لم يسأل الله يغضب عليه**»، والسائل راج وطالب، فمن لم يرجُ الله غضب عليه.

ومن فوائده: أن الرجاء يطرح العبد على عتبة المحبة، فإنه كلما اشتد رجاؤه وحصل له ما يرجوه ازداد حبًّا لله تعالى، ثم رضي به وعنه.

ومن فوائده: أنه يبعثه على مقام الشكر الذي هو خلاصة العبودية.

ومن فوائده: أن فيه انتظار دائم وترقب لفضل الله تعالى، وذلك ما يوجب تعلق القلب بذكره ودوام الالتفات إلى أسمائه وصفاته، وتنزه القلب في رياضها الأنيقة، وأخذه بنصيبه من كل اسم وصفة.

---

(١) مدارج السالكين ٢/٤٢ بتصرف.



أنواع الرجاء الثلاثة

لكن الرجاء ليس نوعًا واحدًا إنما هو أنواع ثلاثة: نوعان محمودان ونوع مذموم.

فالأول: رجاء من عمل بطاعة الله فهو يرجو ثوابه.

والثاني: رجاء رجل أذنب ثم تاب واستغفر فهو راجٍ مغفرة الله وعفوه.

والثالث: رجل مُتمادٍ في التفريط والخطايا يرجو رحمة الله بلا عمل فهذا أكذب الرجاء وهو رجاء أهل الإساءة والعصيان.

والرجاء الصادق هو أن تسبح بشدة ذراعيك نحو اليابسة، وأما الأماني والرجاء الكاذب فهو أن تنتظر حتى تسبح اليابسة نحوك.

لذا كانت العلامة الفارقة بين صحيح الرجاء وباطله وهو ما قاله شاه **الكرماني**: «علامة صحة الرجاء: حسن الطاعة»[١].

وعدَّها **أبو عثمان الجيزي** علامة فارقة كذلك بين السعادة والشقاء حين قال: «من علامة السعادة أن تُطيع وتخاف أن لا تقبل، ومن علامة الشقاء أن تعصي وترجو أن تنجو»[٢].

وهو أمر واضح في كتاب الله، لكننا يبدو أننا كثيرًا ما نقرأ كتاب ربنا بعينين عمياوين!! قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٨]، فطوى الله سبحانه بساط الرجاء إلا عن هؤلاء العاملين المجدِّين.

فإذا قالت لك النفس المخادعة: أنا أرجو رحمة الكبير المتعال، فطالبها بالبرهان وقل لها: قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين، ثم أنشِد بصوت عالٍ:

فيا ساهيًا في غمرة الجهل والهوى — صريع الأماني عن قليل ستندم
أفق قد دنا الوقت الذي ليس بعده — سوى جنة أو حر نار تُضرَم

(١) المدارج ٢/٣٥.
(٢) فتح الباري ١١/٣٠١.

زواج الرجاء بالخوف

والرجاء الحقيقي مستلزم للخوف، والرجاء والخوف حالان متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر، فإذا كان رجاء ولا خوف كان الاغترار بالرحمة والعفو فالقعود عن العمل، وإذا كان الخوف ولا رجاء كان اليأس من رحمة الله والقعود أيضًا عن العمل، ومن تلازمهما أن كل راجٍ خائف من فوات ما يرجوه كما أن كل خائف راجٍ أمنه مما يخاف منه.

ولأجل هذا جاء الرجاء في القرآن في موضع الخوف حيث قال تعالى: ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾ [نوح: ١٣] قال كثير من المفسرين: المعنى ما لكم لا تخافون لله عظمة، وقال عز وجل: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ ﴾ [الجاثيه: ١٤]. قالوا في تفسيرها: لا يخافون وقائع الله بهم كوقائعه بمن قبلهم من الأمم، والحال المتوازن بين الخوف والرجاء يعبِّر قول الشاعر:

عــين تُســـر إذا رأتــك وأختهــا   تبكـى لطـول تباعـد وفــراق
فــاحفظ لواحــدة دوام ســـرورها   وعِـــد التي أبكيتَها بتـــلاق

الغارقون في الوهم!!

قال أبو عمرو بن العلاء:

«بلغني أن **الفرزدق** جلس إلى قوم يتذكرون رحمة الله، فكان أوسعهم في الرجاء صدرًا، فقال له: لم تقذف المحصنات؟ فقال: احقروني لو أذنبت إلى ولدي ما أذنبته إلى ربي عز وجل أتراهما كانا يطيبان نفسًا أن يقذفاني في تنور مملوء جمرًا؟! قالوا: لا إنما كانا يرحمانك. قال: فإني أوثق برحمة ربي منهما.

سمع هذا الكلام **ابن الجوزي** ففنَّده وألقى به في نفاية الأفكار بعد أن صرعه بقوله:

«وهذا هو الجهل المحض لأن رحمة الله - عز وجل- ليست برقة طبع، ولو كانت كذلك لما ذُبِح عصفور، ولا أُميت طفل، ولا أُدخِل أحد إلى جهنم»(١).

وقريب من هذا ما حدث مع **أبي نواس** الذي دخلوا عليه في مرض موته فقالوا له: تُب إلى الله عز وجل، فقال: إياي تخوفون؟ حدَّثني **حماد بن سلمة** عن **يزيد الرقاشي** عن **أنس** قال: قال رسول الله ﷺ: «**لكل نبي شفاعة، وإني اختبأت شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي**» أفترى لا أكون أنا منهم؟!

وردَّ **ابن الجوزي** ثانية فقال: «وخطأ هذا الرجل من وجهين: أحدهما أنه نظر إلى جانب الرحمة ولم ينظر إلى جانب العقاب، والثاني أنه نسي أن الرحمة إنما تكون لتائب كما قال الله عز وجل: ﴿ **وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ** ﴾ [طه: ٨٢]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿ **وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ** ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وهذا التلبيس هو الذي أهلك عامة العوام»(٢).

أراك امرءًا ترجو من الله عفوه ... وأنت على ما لا يحبُّ مقيم
فحتَّى متى تعصي ويعفو إلى متى ... تبارك ربِّي إنَّه لرحيم

ومن هذا التلبيس ما ذكره **ابن القيم** في قوله:

---

(١) تلبيس إبليس ص ٤٤٨.
(٢) تلبيس إبليس ص ٤٤٨، ٤٤٩.

«وكثير من الناس يظن أنه لو فعل ما فعل ثم قال أستغفر الله زال أثر الذنب وراح هذا بهذا، وقال لي رجل من المنتسبين إلى الفقه: أنا أفعل ما أفعل ثم أقول سبحان الله وبحمده مائة مرة وقد غفر ذلك أجمعه؛ كما صح عن النبي ﷺ أنه قال: «**من قال في يوم سبحان الله وبحمده مائة مرة حُطَّت خطاياه ولو كانت مثل زبد البحر**»، وقال لي آخر من أهل مكة: نحن أحدنا إذا فعل ما فعل ثم اغتسل وطاف بالبيت أسبوعًا قد محي عنه ذلك، وقال لي آخر قد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «**أذنب عبد ذنبًا فقال: أي رب! أصبت ذنبًا فاغفر لي، فغفر الله ذنبه، ثم مكث ما شاء الله، ثم أذنب ذنبًا آخر، فقال: أي رب أصبت ذنبًا فاغفر لي، فقال الله عز وجل: علم عبدي أن له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ به، قد غفرت لعبدي فليصنع ما شاء**»، وقال: أنا لا أشك أن لي ربًّا يغفر الذنب ويأخذ به، وهذا الضرب من الناس قد تعلق بنصوص من الرجاء واتكل عليها، وإذا عوتب على الخطايا والانهماك فيها سرد لك ما يحفظه من سعة رحمة الله ومغفرته ونصوص الرجاء، وللجُهال من هذا الضرب من الناس في هذا الباب غرائب وعجائب؛ كقول بعضهم:

وكثِّر ما استطعت من الخطايا إذا كان القدوم على كريم

وقول بعضهم: التنزه من الذنوب جهل بسعة عفو الله!! وقال الآخر: ترك الذنوب جراءة على مغفرة الله واستصغار لها، وقال **محمد بن حزم**: «رأيتُ بعض هؤلاء من يقول في دعائه: اللهم اني أعوذ بك من العصمة!!»[١].

وما أجمل هذا المثل العقلي والنموذج الواقعي الذي ضربه لنا **ابن قدامة**، وما نوقش به عاقل إلا اقتنع، ولا مؤمِّل لرحمة الله دون عمل إلا تاب واجتهد. قال رحمه الله:

«فإنَّ من قال: إن الله تعالى كريم، وخزائنه واسعة، ومعصيتي لا تضره، ثم تراه يركب البحار فى طلب الدينار، فلو قيل له : فإذا كان الحق كريمًا فاجلس فى بيتك لعله يرزقك، استجهل قائل هذا وقال : إنما الأرزاق بالكسب، فيُقال له : هكذا النجاة بالتقوى»[٢].

---

(١) الجواب الكافي ص ١١، ١٢.

(٢) مختصر منهاج القاصدين ص ٢٦٣.

3 الدموع الخدَّاعة:

وقد لبَّس إبليس على خلق كثير من المرضى يحضرون مجالس الذكر فيبكون، ويكتفون بذلك ظنًّا منهم أن المقصود هو الدموع وليس الرجوع، ولا يعلم المسكين أنه إذا لم يعمل بما سمع زادت الحجة عليه، وكم من مرضى يحضرون مجالس الخير وختمات القرآن في رمضان منذ سنين فيذرفون الدموع لكنها دموع التماسيح، فلا يتغيَّر حال أحدهم بمقدار شعرة، ولا يدع ما اعتاده من الربا والغش في البيع والغيبة للمسلمين والعقوق للوالدين، بل يرجع إلى ما كان عليه بعد أن فرَّغ الشيطان شحنة إيمانه في دموع عابرة وزفرات متقطِّعة لا يبقى أثرها معه بعدها سوى ساعات فإن طالت فأيام، ثم يرجع المريض إلى ما كان عليه إن لم يكن أسوأ.

كان **سفيان بن عيينة** يقول:

«البكاء من مفاتيح التوبة، ألا ترى أنه يرق فيندم؟»(١).

ومن عجب أن تكون أخي ممن يُفتح لهم باب الهداية ثم لا يدخل، تنظر إلى الداخل فترى السكينة والرضا والنعيم الروحي والدنو من الجنة؛ ثم تكتفي بالنظر لا يغريك ما رأيت ولا تجني ثمرة ما بكيت!! ولو كنت حصيفًا لما غادرت مجلس دموعك حتى تعلن صدق رجوعك، ولأبرمت مع الله العهود والمواثيق على تغيير نفسك وإصلاح قلبك قبل جفاف عينك، ولكنت واضحًا تعلم موضع الخطوة التالية وفي أي اتجاه وإلا جفَّ أمل الهداية مع جفاف آخر قطرة دمع نازلة.

وهذا ما فهمه الصحابة وحرصوا عليه، واسمع ما رواه **العرباض بن سارية** ﷺ حيث قال: «وعظنا رسول الله ﷺ موعظة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون، فقلنا: يا رسول الله!! كأنها موعظة مُودِّع، فأوصنا..».

فانظر نفعك الله كيف اغتنموا نزول الدموع في طلب العمل والتطبيق، والزم طريقهم تنل في الجنة قربهم.

---

(١) الرقة البكاء ١/ ٥٥.

4 اعتياد العبادة:

حين تتحول العبادة إلى عادة تفقد العبادة روحها وتنقلب إلى واجب ثقيل وهم رازح، ودواؤنا وُصِف بأنه روحي فبالروح يتصل، وبها وحدها ينجح أو يفشل، فإذا غابت الروح فمن نعالج؟!

تحول العبادة إلى عادة هو الذي أفقد الصلاة روحها وأضاع معاني المناجاة والاتصال بالقوة التي لا تُغلب، وعرض النفس خمس مرات كل يوم على العليم الخبير، والتهيؤ للحساب قبل يوم الحساب.

تحول العبادة إلى عادة هو الذي أفقد الصدقة معنى مشاركة الفقير وشراء الجنة ومواساة الملهوف وتطهير النفس ومرضاة الرب، فإذا الصدقة واجب لا بد منه، وعبء يُتخلَّص منه، فلا تطهِّر روحًا ولا ترفع درجة.

تحول العبادة إلى عادة هو الذي أفقد الصوم معنى مشاركة الفقير والتصديق بالغيب والسمو بالروح على شهوات الجسد.

قال **ابن القيم** عن هذه الآفة: «شوب العادة وهو أن يمازج العبودية حكم من أحكام عوائد النفس تكون منفذة لها معينة عليها وصاحبها يعتقدها قربة وطاعة، كمن اعتاد الصوم مثلاً وتمرَّن عليه فألفته النفس وصار لها عادة تتقاضاها أشد اقتضاء، فيظن أن هذا التقاضي محض العبودية، وإنما هو تقاضي العادة، وعلامة هذا: أنه إذا عُرض عليها طاعة دون ذلك وأيسر منه وأتم مصلحة: لم تؤثرها إيثارًا لها لما اعتادته وألفته»[1].

ومن آثار هذه الآفة مثلاً: إفراط البعض في الحج الذي قد يفوِّت على المرء عبادات أعظم أجرًا ومنافع أهم وأولى للمسلمين، وقد كان هذا شائعًا في الماضي كما هو منتشر في الحاضر. قال رجل **لبشر الحافي**: أعددت ألفي درهم للحج، فقال: أحججت؟ قال: نعم. قال: اقضِ دين مالك. قال: ما تميل نفسي إلا إلى الحج. قال: «مرادك أن تركب وتجيء، ويُقال فلان حاج»[2].

---

(١) المدارج ٢/ ٩٨، ٩٩.
(٢) تلبيس إبليس ص ٤٥٥.

5 احذر المقدمات:

إن مقدِّمات أي ذنب هي الذنب نفسه، وهل حرَّم الله إطلاق البصر إلا لأنه مقدمة الزنا؟! وهل حذَّر النبي ﷺ من جليس السوء إلا لأنه مقدمة الحرام؟! وهل نُهينا عن قليل المسكر إلا لأنه مقدمة الكثير؟! من سار مع قافلة الغافلين وصل إلى ديار الهالكين؛ لأن آخر طريق اليمن يمن، ومن رمى نفسه في الماء أصابه البلل، ولن يستطيع الشيطان أن يمتطي ظهرك يومًا دون أن تمد له يدًا وتحني له ظهرًا.

ولذا كانت قاعدة سد الذرائع من أهم وأثمن وأحكم القواعد الشرعية التي تمثِّل الوقاية الصارمة ضد هذه المكيدة، وكانت من علامات عظمة هذه الشريعة ومن أمارات رحمة الله الواسعة. قال **ابن القيِّم**:

«فإذا حرَّم الرب تعالى شيئًا وله طرق ووسائل تُفضي إليه، فإنه يُحرِّمها ويمنع منها، تحقيقًا لتحريمه، وتثبيتًا له، ومنعًا من أن يقرب حماه، ولو أباح الوسائل والذرائع المُفضية إليه لكان ذلك نقضًا للتحريم وإغراءً للنفوس به»[(١)].

وقال في موضع آخر:

«وإذا تدبرت الشريعة وجدتها قد أتت بسد الذرائع إلى المحرَّمات، فنهى الله تعالى عن سب آلهة المشركين لكونه ذريعة إلى أن يسبوا الله سبحانه وتعالى عدوًا وكفرًا.

وأمسك ﷺ عن قتل المنافقين مع ما فيه من المصلحة لكونه ذريعة إلى التنفير وقول الناس: إن محمدًا يقتل أصحابه.

وحرَّم القطرة من الخمر وإن لم تحصل بها مفسدة لكون قليلها ذريعة إلى شرب كثيرها.

وحرَّم الخلوة بالمرأة الأجنبية والسفر بها والنظر إليها لغير حاجة حسمًا للمادة وسدًّا للذريعة.

ومنع النساء إذا خرجن إلى المسجد من الطيب والبخور.

---

(١) إعلام الموقعين ٣/ ١٣٥.

ومنعهن من التسبيح فى الصلاة لنائبة تنوب؛ بل جعل لهن التصفيق.

ونهى المرأة أن تصف لزوجها امرأة غيرها حتى كأنه ينظر إليها.

ونهى عن بناء المساجد على القبور ولعن فاعله، ونهى عن تعلية القبور وتشريفها، ونهى عن البناء عليها وتجصيصها والكتابة عليها والصلاة إليها وعندها وإيقاد المصابيح عليها؛ كل ذلك سدًّا لذريعة اتخاذها أوثانًا، ونهى الله سبحانه وتعالى النساء أن ﴿ يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ﴾ [النور: ٣١]، فلما كان الضرب بالرِّجل ذريعة إلى ظهور صوت الخلخال الذي هو ذريعة إلى ميل الرجال إليهن نهاهن عنه.

وأمر الله سبحانه الرجال والنساء بغض أبصارهم لما كان النظر ذريعة إلى الميل والمحبة التي هي ذريعة إلى مواقعة المحظور.

وحرَّم الجمع بين المرأة وعمتها وبين المرأة وخالتها لكونه ذريعة إلى قطيعة الرحم»[1].

وهذه المقدمة ليست مقدمة إلى استشراء المرض على النطاق الفردي فحسب، بل على نطاق الأمة وعبر عهود من الزمن وأجيال من الأمم، وقد تأمل أحد هذه القواعد الأستاذ **محمد قطب** حين قبس من حديث «**ما أسكر قليله فكثيره حرام**» قبسة عكس أشعتها علينا، ثم قال كعالم اجتماع حاذق عاش دهورًا من الزمن يرصد الانحراف وإن دق ويشخِّص الأعراض وإن خفيت:

«تبدأ الجريمة بسيطة خفيفة لطيفة.. اختلاط بريء تحت إشراف الآباء أو غيرهم من المشرفين.. ونزهات لطيفة أو نواد ظريفة، ولا بأس من إتاحة شيء من الخلوة «البريئة» بين شاب وفتاة، وما الذي يمكن أن يحدث في خلوة كهذه بريئة وعين الرقيب على بعد خطوات.. أو حجرات؟!

ابتسامة من هنا وكلمة إعجاب من هناك؟ وضمة خاطفة في غفلة من الرقيب؟ وقبلة طائرة تطفئ الغلة أو تشعل اللهيب؟

---

(١) إغاثة اللهفان ١/ ٣٧٥-٣٨٠ بتصرف.



ثم يحدث ما يحدث في الخمر..

الإدمان..

الكأس الأولى تصبح بعد حين تافهة ضئيلة المفعول. لابد من كأس ثانية.

والقبلة الأولى تغري دائمًا بالمزيد، لا يمكن أن تتوقف، ليس ذلك من طبائع الأشياء.

ولكن الجيل الأول مع مع ذلك لا يسرف في الجريمة، ولا يصل إلى الإدمان المجنون.

هنالك الشخص الواقف في داخل النفس بالمرصاد، ومعه العصا ينذر ويحذِّر ويهدد بعظائم الأمور، وهنالك التقاليد التي تربط المجتمع ولا يسهل الخروج عليها دفعة واحدة، ومن ثم لا تحدث الجريمة الكاملة في أول جيل، وإنما «يتبحبح» الناس قليلاً ويفكون القيود.

ويمضي المجتمع في طريقه منتشيًا لا يحس بالخطر، ولا خطر حتى الآن هناك.

ويظن المجتمع – نظريًّا – أنه قادر على ذلك إلى غير نهاية، قادر على أن يفك القيود ومع ذلك لا يقع في الجريمة أو لا يصل إلى الإسراف المعيب، وهو مخلص في عقيدته تلك الضالة لأنه يقيس على نفسه ويغفل حقيقة الأمور، يغفل الضوابط الخفية التي أنشأها في أعماق نفسه الجيل السابق المتحفِّظ، والتي لن يخلِّفها هو للجيل المقبل لأنه غير مؤمن بها، يظنها تشددًا بلا ضرورة ولا لزوم!

ينسى الرجل أنه قد رأى أمه متحفِّظة لا تختلط بالرجال، ورآها مكتسية لا يتعرَّى من جسدها شيء، ومن ثم تقاومه هذه الصورة على غير وعي منه وهو يدعو فتاة غريبة إلى الاختلاط به، ويدعوها إلى تعرية نفسها أو جسدها ليستمتع به، ثم تقاومه حتى وهو مندفع بالشهوة، فلا يسرف ولا يتبجَّح بالإثم.

والفتاة التي رأت أمها محتشمة وزرعت في نفسها النفور من العري – النفسي والجسدي – تتحفَّظ كذلك – بوعي منها وبغير وعي – حتى وهي تُهِم بالانزلاق، فلا تسرف ولا تتبجَّح بالإثم.

ثم يتراجع هذا الجيل..

ويجيء جيل جديد تربية الأم التي ذاقت في شبابها «متعة» التحلل البسيط من القيود، والأب كذلك.

الأم والأب اللذان ذاقا شيئًا من المتعة ولم يسقطا السقوط الكامل – والأم خاصة – لن ينظرا إلى التقاليد «المتزمتة» بعين الاحترام.

علام التشدد؟! ألم ينفلتا هما من هذا التشدد ولم يحدث شيء؟ «فليتبحبح» الأولاد «قليلاً» ولا ضير! ومن ثم ينشأ الجيل الجديد وقد ضعف الشخص الواقف في داخل النفس بالمرصاد، ولانت العصا فلم تترك أثرًا في الضمير، وتفككت التقاليد فلم تعد تمنع المحظور، ويتراجع هذا الجيل.

ويأتي جيل يرى أمه قد تعرَّت من شيء من الثياب وشيء مماثل من الفضيلة (والجسم والنفس صنوان في هذه الأمور!) الولد الذي يرى أمه عارية لا تثور في نفسه نخوة الرجولة والحرص على الأعراض، فقد زالت في نفسه حرمة الجسد، وصار نهبًا يباح للعيون، وبعد ذلك لما هو أكثر من العيون، والبنت التي ترى أمها عارية لا تؤمن بالقيد، ويلتقي هؤلاء الأولاد والبنات، يلتقون على شهوة الجسد الفائرة، ويلتقون بلا ضابط ولا حدود، وتتم الدورة المحتومة، والهاوية في آخر الطريق»(١).

لذا كان لا بد من إقامة **خط الدفاع**، وهو ما أرشدنا إليه قائدنا ورسولنا **محمد** ﷺ: **«اجعلوا بينكم وبين الحرام سترًا من الحلال، من فعل ذلك استبرأ لعرضه ودينه، ومن أرتع فيه كان كالمرتع إلى جنب الحمى يوشك أن يقع فيه»**(٢).

وكل من تجاوز هذا الستر وعبر هذه المقدِّمات فقد أعطى نسخة من مفتاح قلبه للشيطان، ثم يشكو في النهاية دخول الشيطان عليه ووسوسته إليه!!

المباح عقبة بين العبد وبين الحرام، فمن استكثر من المباح تطرَّق إلى المكروه، ومن استكثر من المكروه تطرّق إلى الحرام، ومن هنا حذَّر الصالحون من الإسراف في المباح. قال **ابن القيم**:

«وقال لي يومًا شيخ الإسلام **ابن تيمية** قدَّس الله روحه في شيء من المباح: هذا ينافي المراتب العالية وإن لم يكن تركه شرطًا في النجاة أو نحو هذا من الكلام، فالعارف يترك كثيرًا من المباح

---

(١) قبسات من الرسول ص١٣١-١٣٤ – محمد قطب – الطبعة الشرعية الثانية عشرة ١٤١٥-١٩٩٥.
(٢) صحيح: رواه كما في ص ج ص رقم: ١٥٢.

إبقاء على صيانته، ولا سيما إذا كان ذلك المباح برزخًا بين الحلال والحرام، فإن بينهما برزخًا»[(١)].

السرف في إطلاق البصر سيجره ولا بد إلى وقوعه على الحرام، والسرف في الكلام سيجره ولا بد إلى زلات اللسان وآفات الكلام، والسرف في الطعام يؤدي إلى السمنة وضخامة البدن وسيطرة الشهوات، ومنها إلى التثاقل والكسل والتراخي، إن لم يكن الانقطاع و القعود عن فضائل الأعمال، ولعل ذلك هو السر في نهي الله وتحذيره من السرف: ﴿ يَـٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴾ [الأعراف: ٣١]، وهو ما وصل إليه أمير المؤمنين **عمر بن الخطاب** ﷺ:

«إياكم والبطنة في الطعام والشراب؛ فإنها مفسدة للجسد، مورثة للسقم، مكسلة عن الصلاة، وعليكم بالقصد فيهما؛ فإنه أصلح للجسد، وأبعد من السرف، وإن الله تعالى ليبغض الحبر السمين، وإن الرجل لن يهلك حتى يؤثر شهوته على دينه»[(٢)].

6 اليأس:

وأنا أورد مزيلات القنوط وناسفات اليأس هذه حتى لا يدفعك تكرار السقوط يومًا إلى ترك محاولة الاستشفاء وطلب الدواء، فخذها مني عشر جرعات رجاء شافيات من تناولها انقشعت عنه سحب دخان القنوط المتصاعد من وسط ركام الذنوب، لتهب على قلبه نسائم الرجاء الجميل، فترجع القلوب بيضاء نقية لا يحجبها عن الله شيء.

إنها لغة الاستجداء ليس يُفهم غيرها في ساحة العفو، لجأ إليها **الحسن** فقال في لهجة صادقة وعبارة صريحة حين وقف على قبر **وكيع بن أبي الأسود** ثم قال: «اللهم ارحم وكيعًا فإن رحمتك لن تعجز عن وكيع»[(٣)].

نفس اللهجة نطق بها لسان كاتب الوحي **معاوية بن أبي سفيان** رضي الله عنه حين تمثَّل عند الموت قول القائل:

---

(١) المدارج ٢/ ٢٦.
(٢) كنز العمال ٤١٧١٣.
(٣) حسن الظن بالله ١/ ١٠١.

هو الموت لا منجا من الموت والذي   نحاذر بعد الموت أدهى وأفظع

ثم قال: اللهم فأقل العثرة، وعاف من الزلة، وجُد بحلمك على جهل من لم يرجُ غيرك، ولم يثق إلا بك، فإنك واسع المغفرة ليس لذي خطيئة مهرب إلا أنت، فبلغ هذا القول **سعيد بن المسيب** - رحمه الله- فقال: «لقد رغب إلى من لا مرغوب إليه مثله، وإني لأرجو ألا يعذِّبه»(١).

وهو درس مهم نتعلمه هنا لنعمل به؛ حيث لابد للرجاء من تدريب عليه في الدنيا حتى يصير عادة يسهل استجلابها عند الموت حين يكون حسن الظن ضرورة ولا ينفع وقتها الخوف، وإذا لم تجرِّب الرجاء الآن وأنت في صحتك ورخائك فلن تستطيع استجلابه عند موتك واحتضارك؟!

ويبشِّرك **بالثالثة** شعرًا **محمود الوراق** فيقول:

حسن ظني بحسن عفوك يا   ربُّ جميلٌ وأنت مالك أمري

صُنتُ سري عن القرابة والأهل   جميعًا وكنتَ موضع سري

ثقةً بالذي لديك من الستر   فلا تُخزِني يوم نشري

يوم هتك الستور عن حجب الغيب   فلا تهتكن للناس ستري

لقِّني حُجَّتي وإن لم تكن يا رب   لي حجة ولا وجه عذر(٢)

ويأتيك **بالرابعة** دعاءً **عمر بن ذر** لما حجَّ اجتمع الناس إليه؛ فقالوا: يا أبا ذر!! ادعُ بدعوة، فقال: «نعم.. اللهم ارحم قومًا لم يزالوا مذ خلقتهم على مثل ما كانت عليه السحرة يوم رحمتهم»(٣).

وبالخامسة تدبرًا من كتاب الله **عون بن عبد الله** حين قال: «ما كان الله لينقذنا من شيء ثم يعيدنا فيه ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾، وما كان الله ليجمع أهل

---

(١) حسن الظن بالله ١/ ١١٦.
(٢) المصدر السابق نفسه.
(٣) المصدر السابق ١/ ٢٧.



قسمين في النار: ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ﴾، ونحن نقسم بالله جهد أيمانا ليبعثن الله من يموت»[1].

وبالسادسة حكمة من حكم **ابن عطاء** وهو يكتب بقلم الروحانية عباراته الحانية ليهز المشاعر القاسية:

«من استغرب أن يُنقِذه الله من شهوته، وأن يُخرِجه من وجود غفلته، فقد استعجز القدرة الإلهية، وكان الله على كل شيء مقتدرًا»[2].

وبالسابعة مواجهة لنفسك وتشخيصًا لعيب من عيوبها الخفية على لسان **ابن عطاء** أيضًا: «من علامة الاعتماد على العمل: نقصان الرجاء عند وجود الزلل»[3].

والاعتماد على العمل الصالح معناه أن تصلي وتتصدق وتصوم عادة لا لذكر الله تعالى الذي شُرِعت لأجله هذه العبادات، فلا حال لقلبك ولا حلاوة لروحك وأنت تطيع ربك، ومن ثم فلا حلاوة لعبادة، وهو ما سماه البعض عبادة العبادة، والتخلص من الاعتماد على العمل يكون بتجريب مقياس دقيق من صنع ابن عطاء، ليسلط الأضواء الكاشفة على حالنا مع الله.

وبالثامنة بكاء ممتزجًا بحرقة **الحسن بن الحسن بن علي**، فقد روى **الأصمعي**: دخلتُ في الطواف عند السحر؛ فإذا أنا بغلام شاب حسن الوجه حسن القامة عليه شملة[4] وله ذؤابتان وهو متعلق بأستار الكعبة يقول:

ألا أيها المأمول في كل ساعة ... شكوتُ إليك الضر فارحم شكايتي

ألا يا رجائي أنت كاشف كربتي ... وهب لي ذنوبي كلها واقض حاجتي

فزادي قليل ما أراه مُبلِّغي ... أللزاد أبكي أم لبعد مسافتي

أتيت بأعمال قباح رديئة ... فما في الورى خلقٌ جنى كجنايتي

---

(١) حلية الأولياء ٤/ ٢٦٣.

(٢) شروح الحكم العطائية ص ٣١٠.

(٣) الحكم العطائية ص ٥ – دار السلام.

(٤) الشملة: كساء دون القطيفة يشتمل به.

اتحـرقـنـي بالنـار يا غايــة المنـى　　فأيـــن رجائي ثم أيــن مخـــافتـــي

قال: فتقدمتُ إليه وكشفتُ عن وجهه؛ فإذا به **الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب** عليهم السلام، فقلت: يا سيدي مثلك من يقول هذه المقالة وأنت من أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة. قال: «هيهات يا **أصمعي**.. إن الله خلق الجنة لمن أطاعه وإن كان عبدًا حبشيًّا، وخلق النار لمن عصاه وإن كان ولدًا قرشيًّا. أما سمعت قول الله عز وجل: ﴿ **فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ** ﴾ [المؤمنون: ١٠٢]»(١).

وبالتاسعة طمعًا لذيذًا ورغبة جارفة من **يحيى بن معاذ** وهو يقول: «إن قال لي يوم القيامة: عبدي ما غرَّك بي؟ قلت: إلهي برُّك بي»(٢).

وبالعاشرة رؤيا منام رآها **أبو العباس بن سريج** رحمه الله، حيث رأى خلال مرض موته في منامه كأن القيامة قد قامت، وإذا الجبار سبحانه يقول: أين العلماء؟ قال: فجاءوا، ثم قال: ماذا عملتم فيما علمتم؟ قال: فقلنا يا رب قصَّرنا وأسأنا. قال: فأعاد السؤال كأنه لم يرض بالجواب وأراد جوابًا غيره، فقلت: أما أنا فليس في صحيفتي الشرك، وقد وعدت أن تغفر ما دونه، فقال: اذهبوا به فقد غفرت لكم، ومات بعد ذلك بثلاث ليال!!(٣).

فاللهم ارزقنا قبل موتنا بشارة كهذه، وأعطنا قبل رحيلنا إشارة على فوزنا ونجاحنا، حتى نتهيأ لرقدة القبور والسرور ملء قلوبنا، وأزيدكم كرمًا فوق العشرة بشارتين رائعتين تنعشان القلب الحزين وتجلوان عن مرآته صدأ اليأس المريع:

البشارة الأولى للكريم صاحب العطايا الربانية **ابن عطاء** يقول فيها: «لا صغيرة إذا قابلك عدله(٤)، ولا كبيرة إذا واجهك فضله».

---

(١) تاريخ دمشق.

(٢) صفة الصفوة ٤/ ٩٥.

(٣) إحياء علوم الدين ٤/ ١٥٤.

(٤) أي لا صغيرة من ذنوبك إذا قابلك عدل ربك بل كلها كبائر، وحتى حسناتك التي عملتها لا يُنسب الفضل فيها إليك، فإذا افتخرت بصدقتك وجدت أن المال منه، وإذا انتشيت بطاعتك فهو الذي حبَّب إليك الإيمان وزيَّنه في قلبك، وإذا اغتررت بصلاحك وسط عصبة الفاسدين صدح فيك قول ربك: ﴿**وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا**﴾، فإن صفة العدل إذا ظهرت على من كرهه الله تلاشت حسناته وعادت صغائره كبائر لأن الله سيُعذِّبه على أصغر ذنب.



وموضع البشارة هنا أنه لا كبيرة لك إذا واجهك فضله، والفضل هو إعطاء الشيء بغير عوض، فإن صفة الفضل إذا ظهرت لمن أحبه الله اضمحلَّت سيئاته وبُدِّلت حسنات، فاللهم اجعلنا ممن تحبهم وترضى عنهم.

والبشارة الثانية لعلم الزهد يحيى بن معاذ الذي ذاق طعم الرجاء ووجد أثره بعد سيئاته أكثر مما وجده بعد طاعاته، وأبان سبب ذلك في بعض مناجاته:

«يكاد رجائي لك من الذنوب يغلب رجائي إليك مع الأعمال؛ لأني أعتمد في الأعمال على الإخلاص وكيف أُحرِزُها وأنا بالآفة معروف؟! وأجدني في الذنوب أعتمد على عفوك وكيف لا تغفرها وأنت بالجود موصوف؟!»(١).

واسمعوا معشر اليائسين مسك الختام وأصل الكلام متمثِّلًا في البشارة القرآنية لتطرب آذانكم وتهدأ قلوبكم: ﴿ **ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** ﴾ [الحديد: ١٧].

فكما يحيي الله هذه الأرض الميتة بعد هلاكها كذلك يهدي الإنسان الضال عن الحق إلى الحق، فيوفِّقه ويُسدِّده للإيمان حتى يرجع مؤمنًا من بعد كفره، ومهتديًا من بعد ضلاله.

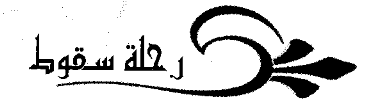
7 عبادات مفضولة:

فقد يدفع الشيطان العبد إلى طاعة مفضولة قاصدًا أن يفوِّت عليه طاعة أفضل منها، والأحاديث التي تحذِّر من ذلك كثيرة، فعن أفضلية الجهاد روى أبو هريرة ﷺ: أن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ مرَّ بشِعْب فيه عيينة ماء عذب، فأعجبه طيبه، فقال: لو أقمت في هذا الشعب فاعتزلت الناس، ولا أفعل حتى أستأمر رسول الله ﷺ، فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: «**لا تفعل؛ فإن مقام أحدكم في سبيل الله خير من صلاة ستين عامًا خاليًا؛ ألا تحبون أن يغفر الله لكم ويدخلكم الجنة؟ اغزوا في سبيل الله؛ من قاتل في سبيل الله فواق ناقة وجبت له الجنة**»(٢).

---

(١) إحياء علوم الدين ٤/ ١٥٣.

(٢) صحيح لغيره: كما في الصحيحة رقم: ٩٠٢.



وقد روى **عبد الله بن عمرو** ﷺ قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فاستأذنه في الجهاد فقال: «**أحي والداك؟**» قال: نعم، قال: «**ففيهما فجاهد**». متفق عليه، وفي رواية: «**فارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما**».

ولذا ما كان **الحسن البصري** مبالغًا ولا مغاليًا حين قال -رحمه الله- لرجل: تعشَّ العشاء مع أمك تقرُّ به عينُها أحبُّ إليَّ من حجة تطوُّعًا.

وقد سئل **الفضيل بن عياض** عمن يترك الطيبات من اللحم والخبيص للزهد، فقال: «ما للزهد وأكل الخبيص!! ليتك تأكل وتتقي الله، إن الله لا يكره أن تأكل الحلال إذا اتقيت الحرام، انظر كيف برك بوالديك، وصلتك للرحم، وكيف عطفك على الجار، وكيف رحمتك للمسلمين، وكيف كظمك للغيظ، وكيف عفوك عمن ظلمك، وكيف إحسانك إلى من أساء إليك، وكيف صبرك واحتمالك للأذى، أنت إلى أحكام هذا أحوج من ترك الخبيص»[١].

وقد أشار إلى أفضلية كسب الحلال وأولوية إطابة المطعم إذا تعارض مع القيام والصيام **إبراهيم بن أدهم** فقال: «أطب مطعمك، ولا عليك أن لا تقوم بالليل وتصوم بالنهار»[٢].

وقد رصد **ابن عطاء** كل هذا في حكمة من حكمه الغالية التي جاء فيها:

«من علامات اتباع الهوى المسارعة إلى نوافل الخيرات والتكاسل عن القيام بالواجبات»[٣].

8 الإلحاح وعدم اليأس:

قال **ابن القيم**:

«ولما كانت الوسوسة كلامًا يكرره الموسوس ويؤكد عند من يلقيه إليه كرروا لفظها بإزاء تكرير معناها، فقالوا: وسوس وسوسة؛ فراعوا تكرير اللفظ ليفهم منه تكرير مسماه، ونظير هذا ما تقدم من متابعتهم حركة اللفظ بإزاء متابعة حركة معناه كالدوران والغليان والنزوان

(١) المستطرف ١/ ٣٨٤ والخبيص حلوى عبارة عن خليط من التمر والسمن.
(٢) الحلية ٨/ ٣١.
(٣) شروح الحكم العطائية ص ٣٠٨.

وبابه، ونظير ذلك زلزل ودكدك وقلقل وكبكب الشيء؛ لأن الزلزلة حركة متكررة وكذلك الدكدكة والقلقلة، وكذلك كبكب الشيء إذا كبَّه في مكان بعيد، فهو يكب فيه كبًّا بعد كب، كقوله: ﴿ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴾ [الشعراء: ٩٤]، ومثله رضرضه إذا كرر رضه مرة بعد مرة، ومثله: ذرذره إذا ذره شيئا بعد شيء، ومثله: صرصر الباب إذا تكرر صريره، ومثله: مطمط الكلام إذا مطه شيئًا بعد شيء، ومثله: كفكف الشيء إذا كرر كفَّه وهو كثير»[١].

والوسواس يتضاعف أثره عند مرض القلب، ويقل بل قد ينعدم عند أحياء القلوب، ولذا لما سئل **يحيى بن معاذ** عن الوسوسة قال: «إن كانت الدنيا سجنك كان جسدك لها سجنًا، وإن كانت الدنيا روضتك كان جسدك لها بستانًا»[٢].

فالدنيا للمؤمن سجن يحبس نفسه فيه عن كثير من الحرام والشبهات؛ لذا تنحبس وساوسه تحت قبضته، ولا يسمح لها أن تنال منه وذلك بفضل قوة إيمانه وطُهر قلبه، أما الكافر والمنافق فالدنيا روضتهما يرتعان فيها؛ ولذا تكثر وساوسهما وتؤذيهما حتى الهلاك.

قال ابن القيِّم:

«واعلم أن الخطرات والوساوس تؤدي متعلقاتها إلى الفكر، فيأخذها الفكر فيؤديها إلى التذكر، فيأخذها الذكر فيؤديها إلى الإرادة، فتأخذها الإرادة فتؤديها إلى الجوارح والعمل، فتستحكم فتصير عادة، فردُّها من مبادئها أسهل من قطعها بعد قوتها وتمامها»[٣].

وحين يتعوَّد شيطانك على الطرد مرة بعد مرة، وإغلاق الباب في وجهه طويلا ييأس حتى قيل إن بعض المريدين سأل بعض المشايخ فقال: أيها الشيخ.. بأي شيء تدفع إبليس إذا قصدك بالوسوسة؟! فقال الشيخ: «إني لا أعرف إبليس فأحتاج إلى دفعه!! نحن قوم صرفنا همَمَنا إلى الله فكفانا ما دونه!!»[٤].

---

(١) بدائع الفوائد ٢/ ٤٧٤.
(٢) حلية الأولياء ١٠/ ٥٧.
(٣) الفوائد ص ١٧٤.
(٤) طريق الهجرتين ص٣٤٧.

9 الرياء:

عمل المرائين قشر لا لب فيه، واللب وحده هو الذي يثقل كفة الميزان في ساحة الحشر لا القشر، وإن كان حظ النفس في المعصية ظاهرًا جليًّا؛ فإن حظها في الطاعة باطن خفي، ومداواة ما خفي من الأمراض أصعب.

المرائي يزوِّر توقيع العابدين المخلصين ليقبض في الدنيا الثمن: الشهرة وعلو المكانة، ولن يجني في الآخرة غير العذاب ومرير المهانة.

ثوب الرياء يشفُّ عما تحته فإذا اشتملت به فإنك عاري

وهو عيب يقدح أول ما يقدح في صدق العبودية لله كما قال **ابن عطاء**:

«**استشرافك أن يعلم الخلق بخصوصيتك دليل على عدم صدقك في عبوديتك**».

وليس أشد غيرة من الله؛ لذا يعاقب من خدش حمى العبودية بأن يتعثَّر ويسقط في منتصف الطريق. قال **ابن الجوزي**: «وإنما يتعثَّر من لم يُخلِص»(١).

وهو ما كان يتعلَّمه الصالحون حتى صاروا أساتذة فيه كما قال **يوسف بن أسباط**: «تعلَّموا صحة العمل من سُقْمه، فإني تعلَّمته في اثنتين وعشرين سنة»(٢).

واسمعوا العجب العجاب من الإمام **مالك** الذي قال: «جلستُ الى **ابن هرمز** ثلاث عشرة سنة، وكنت قد اتخذت في الشتاء سراويل محشوًّا، كنا نجلس معه في الصحن في الشتاء، فاستحلفني أن لا أذكر اسمه في الحديث!!»(٣).

وهذا شيخ الإسلام **طلحة بن مصرف** - رحمه الله- اشتُهِر بالقراءة حتى سُمِّي سيد القراء، فلما علم إجماع أهل الكوفة على أنه أقرأ من فيها، ذهب ليقرأ على **الأعمش** ليسلخ هذا الاسم عنه، و لتنزل رتبته في أعين الناس، و يأبى الله إلا أن يرفع ذكره في العالمين!!

---

(١) صيد الخاطر ١/ ٣٥٨.
(٢) حلية الأولياء ٨/ ٢٤٤.
(٣) تاريخ الإسلام.

وهذا إمام أهل السنة يقول **ابن القيم** رحمه الله: «وكان بها إمام أهل السنة على الإطلاق **أحمد بن حنبل** الذي ملأ الأرض علمًا وحديثًا وسنة حتى إن أئمة الحديث والسنة بعده هم أتباعه إلى يوم القيامة، وكان - رضي الله عنه- شديد الكراهة لتصنيف الكتب، وكان يحب تجريد الحديث، ويكره أن يُكتب كلامه، ويشتد عليه جدًّا، فعلم الله حسن نيته وقصده، فكُتِب من كلامه وفتواه أكثر من ثلاثين سِفرًا، ومنَّ الله سبحانه علينا بأكثرها، فلم يفتنا منها إلا القليل، وجمع **الخلال** نصوصه في الجامع الكبير، فبلغ نحو عشرين سفرًا أو أكثر»(١).

وكما في أرض الحجاز كان هناك عبد آخر في أقصى الغرب يتحدَّث نفس اللغة الإيمانية وينبض نفس النبض وهو **أبو عبد الله محمد بن عتاب القرطبي**، وكان قد خلَّف صندوقًا مقفلاً قد أوصى ألا يُفتح إلا بعد موته، فلما مات فُتِح، فإذا فيه أربعة كتب من أربعة رؤساء: **ابن عباد وابن الأفطس وابن صمادح وابن هود**، كل منهم يدعوه إلى نفسه وتقلَّد القضاء ببلده، وقد كُتب على كل كتاب منها: تركتُ هذا لله!!

وقاهر آخر للشيطان هو الإمام **الشافعي** حيث قال **الربيع بن سليمان** عنه: «دخلتُ على **الشافعي** وهو عليل، فسأل عن أصحابنا وقال: يا بني.. لوددت أن الخلق كلهم تعلموا - يريد كتبه - ولا يُنسب إليَّ منه شيء»(٢).

واسمعوا خبر من يفرح إذا لم يُفسح له في مجلس، ويُسرُّ إذا لم يبجَّل ويُعطى مكانته اللائقة؟! وهو ما حدث مع **عبد الله بن المبارك** يومًا حين أتى سقاية والناس يشربون منها، فدنا منها ليشرب، ولم يعرفه الناس فزاحموه ودفعوه، فلما خرج قال: «ما العيش إلا هكذا يعني حيث لم نعرف ولم نوقَّر»(٣).

والرياء شبكة يحاول الشيطان أن يلقيها على كل من اقترب من ساحة الشهرة؛ لذا قال **الفضيل**:

«لا يترك الشيطان الإنسان حتى يحتال له بكل وجه، فيستخرج منه ما يخبر به من عمله،

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين ١/ ٢٨.
(٢) حلية الأولياء ٩/ ١١٨.
(٣) صفة الصفوة ٤/ ١٣٥.

لعله يكون كثير الطواف فيقول: ما كان أحلى الطواف الليلة، أو يكون صائمًا فيقول: ما أثقل السحور أو ما أشد العطش، فإن استطعت أن لا تكون محدِّثا ولا متكلِّما ولا قارئًا، إن كنت بليغًا قالوا: ما أبلغه وأحسن حديثه وأحسن صوته، فيعجبك ذلك فتنتفخ، وإن لم تكن بليغًا ولا حسن الصوت قالوا: ليس يحسن يُحدِّث وليس صوته بحسن؛ أحزنك وشقَّ عليك فتكون مرائيًا، وإذا جلست فتكلمت ولم تبال من ذمَّك ومن مدحك فتكلم»[(١)].

ما أخفى رياء هؤلاء!!

ومن الرياء الخفي تشوُّف البعض إلى إبراز عبادته لغيره، «فإذا دُعي إلى طعام قال: اليوم الخميس ولو قال أنا صائم كانت محنة، وإنما قوله اليوم الخميس معناه أني أصوم كل خميس، وفي هؤلاء من يرى الناس بعين الاحتقار لكونه صائمًا وهم مفطرون، ومنهم من يُلازم الصوم ولا يبالي على ماذا أفطر، ولا يتحاشى في صومه عن غيبة ولا عن نظرة ولا عن فضول كلمة، وقد خَيَّل له إبليس أن صومه يدفع إثمه، وكل هذا من التلبيس»[(٢)].

ومن الرياء الخفي تحسين الدعاة عملهم أمام الناس بقصد أن يقتدي بهم الخلق، «فيأتيه الشيطان في معرض الخير ويقول: أنت متبوع ومُقتدى بك ومنظور إليك وما تفعله يؤثر عنك ويتأسى بك غيرك، فيكون لك ثواب أعمالهم إن أحسنت، وعليك الوزر إن أسأت، فأحسن عملك بين يديه، فعساه يقتدي بك في الخشوع وتحسين العبادة، وهو أيضًا عين الرياء ومُبطل للإخلاص، فإنه إن كان يرى الخشوع وحسن العبادة خيرًا لا يرضى لغيره تركه، فلِمَ لم يرْتضِ لنفسه ذلك في الخلوة، ولا يمكن أن تكون نفس غيره أعز عليه من نفسه»[(٣)].

ومن الرياء الخفي المبالغة في اتهام النفس بالرياء، فيذم الإنسان نفسه من حيث يريد أن يمدحها، ويرفع قدرها بين الناس وهو يبدو أنه يضعها.

---

(١) الحلية ٨/ ٩١.
(٢) تلبيس إبليس ص ١٧٧.
(٣) الإحياء ٤/ ٣٨٢.

ومن الرياء الخفي ما قصده **ابن عطاء** في قوله: «ربما دخل الرياء عليك من حيث لا ينظر الخلق إليك».

بمعنى أن الرياء كما يتسلل إلى عملك إذا عملته بحضرة الناس وهو الرياء الجلي؛ فإنه قد يدخل عليك إذا عملته وحدك وهو الرياء الخفي، وذلك بأن تقصد بعملك الصالح وعبادتك توقير الناس لك ومسارعتهم إلى قضاء حوائجك، وأن تغضب على من قصَّر في حقك، فمن شاهد من نفسه شيئًا من هذا العلامات فليعلم أنه مرائي بعمله وإن أخفاه عن سائر المخلوقات.

النجاة!!

والنجاة من هذا الفخ جزء منها نظري وجزء عملي، فأما النظري فيقول عنه **أبو حامد الغزالي**:

«لا بد في رد الرياء من ثلاثة أمور: المعرفة والكراهة والإباء، فلا فائدة إلا في اجتماع الثلاث، فالإباء ثمرة الكراهة، والكراهة ثمرة المعرفة، وقوة المعرفة بحسب قوة الإيمان ونور العلم، وضعف المعرفة بحسب الغفلة وحب الدنيا ونسيان الآخرة وقلة التفكر في آفات الدنيا وعظيم نعيم الآخرة.

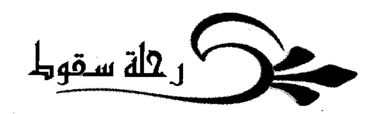
ومن المعرفة معرفة آفات الرياء وآثاره المهلكة مما يثير كراهة له تقاوم شهوة النفس في إطلاع الناس على عملها ورغبتها في الرياء؛ فيتصارع في العبد قوتان: الشهوة التي تدعوه إلى الرياء، وقوة المعرفة التي تدعوه إلى الكراهة ومن ثم إلى الإباء، والنفس تطاوع لا محالة أقوى القوتين وأغلبهما»(١).

وأما الجزء العملي من العلاج، فيكمله **أبو حامد** قائلاً:

«فلا دواء للرياء مثل الإخفاء، وذلك يشق في بداية المجاهدة، وإذا صبر عليه مدة بالتكلف سقط عنه ثقله وهان عليه ذلك، وما يُمِدُّ به عباده من حسن التوفيق والتأييد

---

(١) الإحياء ٣/ ٣١٣ بتصرف واختصار.



والتسديد، وإن الله لا يُغيِّر ما بقوم حتى يُغيِّروا ما بأنفسهم، فمن العبد المجاهدة ومن الله الهداية، ومن العبد قرع الباب ومن الله فتح الباب، والله لا يضيع أجر المحسنين، وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرًا عظيمًا»(١).

10 الخوف من الرياء:

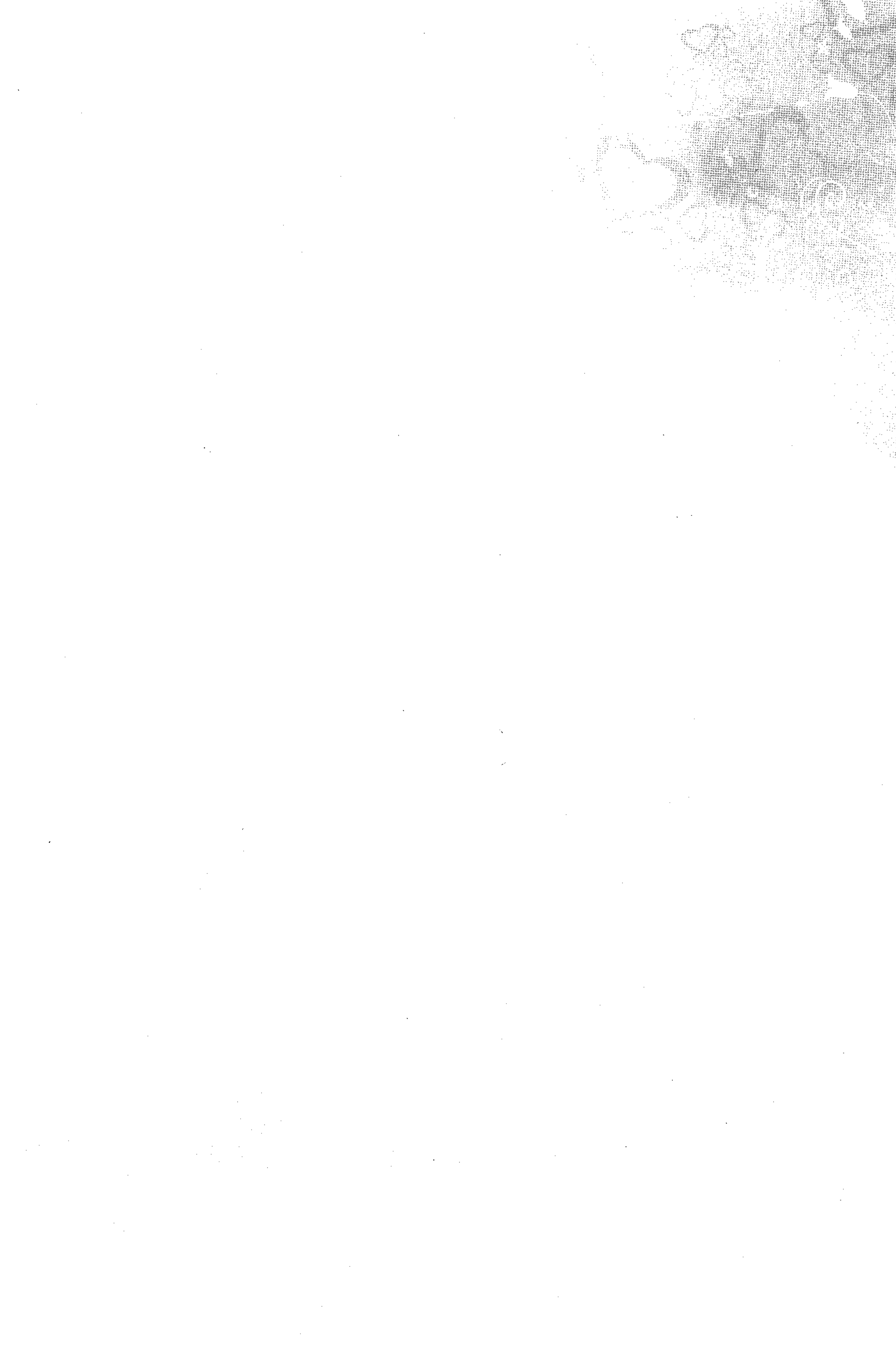
وهو عكس الكمين السابق، ذلك أن الأمر إذا زاد عن حدِّه انقلب ضده، والشمس تنشر نورًا، لكنها تقتل حرًّا، والماء يروي لكنه أيضًا يُغرِق، والشيطان لا يبالي بأي حيلة ظفر بك؛ بإفراط أو تفريط، فالساقط في هذا الفخ كمن هرب من عقرب وفزع إلى ثعبان.

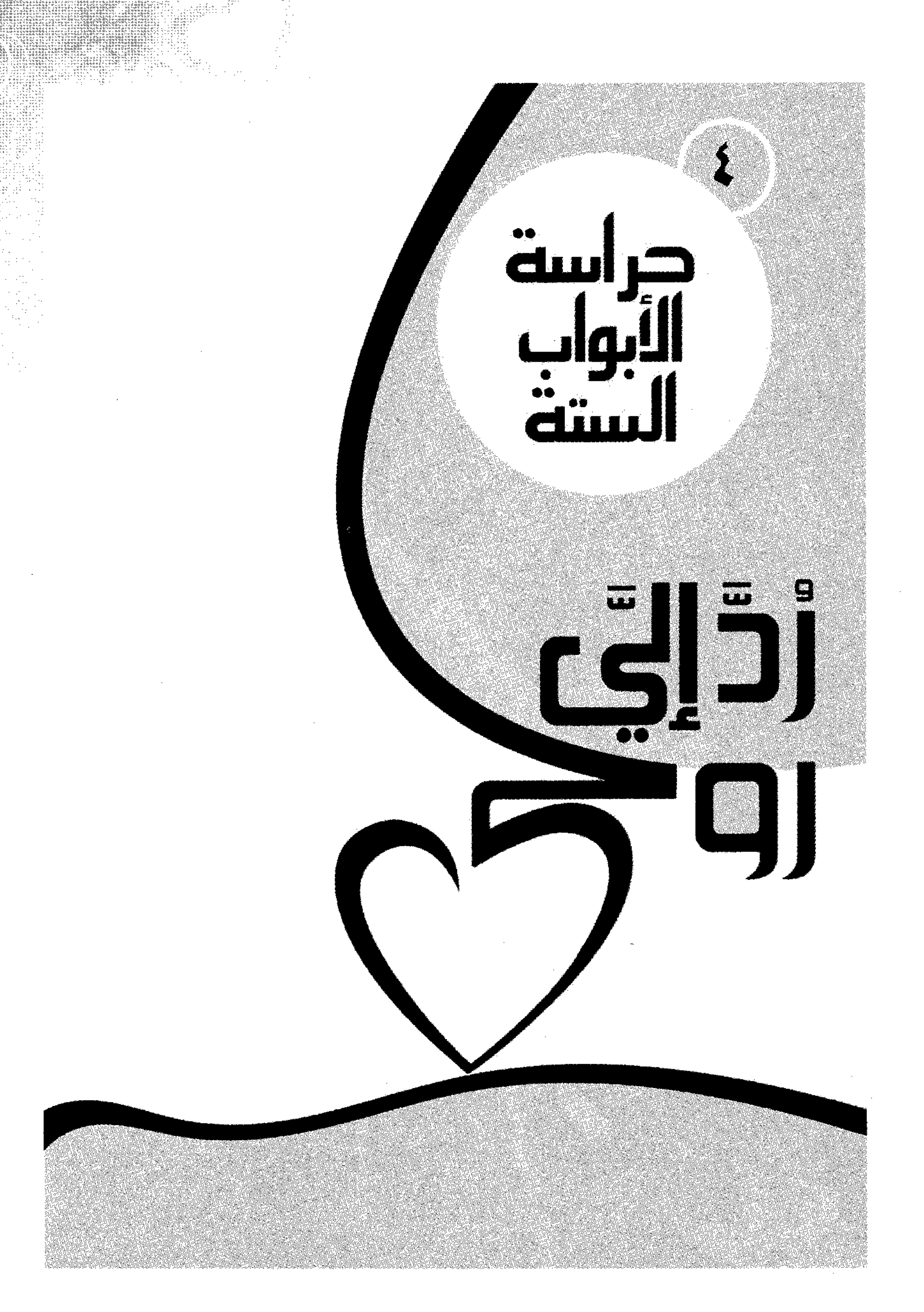
وهو كمين خفي من كمائن الشيطان يدفع المريض إلى التوقف عن كثير من الطاعات خوفًا من الرياء، حتى يصاب المسكين بالوسوسة قائلا: هل أنا مخلص أم مراءٍ؟! أخاف أن لا يقبل الله لي عملاً؟! وينتهي الأمر بعذابات نفسية وقلق واضطراب مع قعود عن كثير من صالح العمل، وليس هذا من التقوى في شيء، بل الأمر كما قال **الفضيل بن عياض**: «ترك العمل لأجل الناس رياء، والعمل لأجل الناس شرك، والإخلاص أن يعافيَك الله منهما»(٢).

وعلى الرغم من الخوف من الرياء شعور محمود حيث المؤمن صاحب نفس لوامة حتى قال **عبدة بن أبي لبابة الكوفي**: «أقرب الناس من الرياء آمنهم منه»(٣)، لكن الاعتدال مطلوب، لأن الخوف إذا زاد عن حدِّه انقلب جزعًا وهلعًا، والخوف سوط دافع إلى العمل فإذا أقعد عن العمل فليس أضر منه.

---

(١) الإحياء ٣/ ٣١٢.
(٢) الأذكار ١/ ١٨.
(٣) حلية الأولياء ٦/ ١١٣.




٤
حراسة
الأبواب
الستة
رُدّ إليّ روحي



على عتبة هذا الباب:

يقول ابن القيم وهو يشير إلى أهمية الوقاية في مدارج السالكين:

«فمتى خلصت الأبدان من الحرام وأدناس البشرية التي ينهى عنها العقل والدين والمروءة، وطهرت الأنفس من علائق الدنيا، زكت أرض الخلق فقبلت بذر العلوم والمعارف»[١].

لابد إذن من حملة تعقيم أولي وتطهير قلبي مبدئي، وقطع أنابيب التغذية الشيطانية قبل توصيل أنابيب التغذية الإيمانية؛ حتى إذا ما بدأنا مرحلة العلاج كان القلب نقيًّا مستعدًّا لتلقي كل خير، ووافق الدواء موضع الشفاء بإذن الله، ولا بد من انتفاء موانع الانتفاع بالخير ليُحدِث الخير أثره في القلب.

قال ابن الجوزي:

«اعلم أن الجوارح كالسواقي توصل إلى القلب الصافي والكدر، فمن كفَّها عن الشر جلت معدة القلب بما فيها من الأخلاط، فأذابتها وكفى بذلك حمية، فإذا جاء الدواء صادف محلاً قابلاً، ومن أطلقها في الذنوب أوصلت إلى القلب وسخ الخطايا وظلم المعاصي، فلما وُضِع الدواء كان بينه وبين القلب حجاب»[٢].

وتأثير الذنوب تأثير تراكمي مثل تأثير السموم في جسم الإنسان، إذ لم يصب الإنسان بالسرطان إلا بعد تعرضه بالتراكم لكميات المواد الضارة التي تتراكم مع الزمن ولا تظهر

---

(١) مدارج السالكين ٢/ ٤٧٣.

(٢) التبصرة ٢/ ٢٢٦ – ابن الجوزي.

أعراضها المدمرة إلا بعد مدة قد تصل لسنوات طويلة؛ لذا أوصى **المقدسي** كل المرضى قائلاً: «فالذي علينا: تفريغ المحل، والانتظار لنزول الرحمة؛ كالذي يُصلح الأرض وينقيها من الحشيش، ويضع فيها البذر، وكل ذلك لا ينفع إلا بمطر، ولا يدري متى يُقدِّر الله أسباب المطر، إلا أنه يثق بفضل الله تعالى أنه لا يخلِّي سنة من مطر، وكذلك قلما تخلو سنة وشهر ويوم عن جذبة من الجذبات ونفحة من النفحات، فينبغي أن يكون العبد قد طهَّر القلب من حشيش الشهوات، وبذر الإرادة والإخلاص، وعرَّضه لمهاب ريح الرحمة، وكما يقوى انتظار الأمطار في أوقات الربيع عند ظهور الغيم؛ كذلك انتظار تلك النفحات في الأوقات الشريفة، وعند اجتماع الهم ونشاط القلوب كيوم عرفة ويوم الجمعة وفي رمضان»(١).

وهو ما دفع كذلك **ابن القيم** أن يورد فائدة من فوائده بعنوان: **قبول المحل لما يوضع فيه مشروط بتفريغه من ضده**، فاللسان إذا اشتغل بالكلام الذي لا ينفع لم يتمكن صاحبه من النطق بما ينفع إلا إذا فرَّغ لسانه من النطق بالباطل، وكذلك الجوارح إذا اشتغلت بغير الطاعة لم يمكنها الشغل بالطاعة، فالعين لا يمكن أن تنظر إلى القرآن وجمال الكون تفكرًا وتأملاً إلا إذا امتنعت عن النظر المحرَّم، والقدم لا يمكنها أن تمشي إلى مكانين في آن واحد، ولابد لها لكي تمشي إلى المسجد أن تنصرف عن الملهى، واليد التي يستعملها صاحبها في الشر لن تجد للخير وقتًا، والأذن الممتلئة بالغناء تأنف من سماع الذكر، والخلاصة أن لا حركة للجوارح في خدمة الله إلا إذا فرَّغها صاحبها من خدمة غير الله.

نزِّه فؤادك عن سوانا والقنا … فجنابنا حِلٌّ لكل مُنَزَّه
والصبر طِلسمٌ لكنز وصالنا … من حَلَّ ذا الطلسم فاز بكنزه

يا أهل الرباط!!

قال بعض الحكماء:

«مثل القلب مثل بيت له ستة أبواب، ثم قيل لك: احذر أن يدخل عليك من أحد الأبواب شيء، فيفسد عليك البيت، فالقلب هو البيت، والأبواب: اللسان، والبصر، والسمع، والشم،

(١) مختصر منهاج القاصدين ص ٢٧٦.

واليدان، والرجلان، فمتى انفتح باب من هذه الأبواب بغير علم ضاع البيت!»[(١)].

ولذا كان من حرس قلبه من أعظم الخلق وأزكاهم، وكان عمله هذا نوعًا من أنواع المرابطة في رأي **ابن القيِّم** الذي عرَّف المرابطة بقوله:

«وهي لزوم ثغر القلب وحراسته لئلا يدخل منه العدو ولزوم ثغر العين والأذن واللسان والبطن واليد والرجل، فهذه الثغور يدخل منه العدو، فيجوس خلال الديار، ويفسد ما قُدِّر عليه فالمرابطة لزوم هذه الثغور، ولا يخلي مكانها، فيصادف العدو والثغر خاليًا، فيدخل منها»[(٢)].

أخي..

قد أقبل عليك الشيطان بخيله ورجله، فوجد قلبك متربِّعًا على عرش الجسد، وأمره نافذ في جميع جنده، قد تحصن بهم يدافعون عنه ويحمون حماه، فلم يتمكنوا من الهجوم عليه إلا بخيانة بعض جنده، فإن ملكوا ثغر العين أو الأذن أو اللسان أو اليد أو الرجل رابطوا عليه، ومنعوا الخير من الدخول، وأغروا كل قبيح بالاقتحام، لتمسي قلوب العباد بين قتيل وأسير وجريح.

وهذه المرابطة حكمها الشرعي أنها فرض عين على كل مسلم؛ كما أوضح ذلك **أبو حامد الغزالي** فقال: «فحماية القلب عن وسواس الشيطان واجبة، وهو فرض عين على كل عبد مُكلَّف، وما لا يُتوصَّل إلى الواجب إلا به فهو أيضًا واجب، ولا يُتوصَّل إلى دفع الشيطان إلا بمعرفة مداخله، فصارت معرفة مداخله واجبة»[(٣)].

الشيطان أخطر سارق

قال **أبو حازم سلمة بن دينار**: «قد رضيت من أحدكم أن يُبقي على دينه كما يبقي على نعليه»[(٤)].

---

(١) رسالة المسترشدين ص ١٧٥.
(٢) الجواب الكافي ص ٦٦.
(٣) إحياء علوم الدين ٣/ ٣٢.
(٤) حلية الأولياء ٣/ ٢٣٩.

وهي كلمة قاسية، ولعله يعني بها أن أحدنا إذا دخل المسجد ومعه حذاؤه؛ خاف عليه اللصوص، فوضعه أمامه مخافة أن يُسرق، حتى لا يخرج من المسجد حافي القدمين، فإن حدث ونسي ووضع حذاءه وراء ظهره تشتت ذهنه في صلاته، وضاع خشوعه من أجل حذاء! وكان أول ما يفعل بعد التسليم: أن يلتفت بسرعة إلى مكان الحذاء يطمئن عليه!! وإن حدث وسُرِق حذاؤه وكان غالي الثمن؛ ظل حزينًا مكروبًا أياما عدة حزنا لعل لم يحزن مثله قط لضياع صلاة أو أكل حرام!!

والشيطان سارق الإيمان، فكيف لا يخاف الإنسان على إيمانه؟! وكيف لا يحذر أعدى أعدائه؟! وقد يترك إيمانه وراء ظهره؛ يسرق منه الشيطان ما يريد، وينهب منه كلما شاء، فيا أخي.. إيمانك أم حذاؤك؟! دينك أم نعلك؟! آخرتك أم أحقر ما في دنياك؟!

ثم إنك لو ورثت مالا كثيرًا أو كنزًا ثمينًا، وأودعته بيتك؛ فهل تنسى باب بيتك مفتوحا؟!أم تجعل عليه الأقفال الشداد؟! فهذا كنز إيمانك عبثت به أيدي الغفلة والبطالة وأتباع الشياطين وأنت لم تضع عليه أي قفل؟! أليس أولى بالحراسة وأجدر بالحماية؟!

علم الخير يرفرف

ومع هذا نقول: إن محاولات الشيطان الدائمة للسطو على قلبك واقتحام قلعته هي شهادة لك لا عليك، واعتراف عملي بامتلاء قلبك بالخير واحتوائه على كل غال أغرى الشيطان بالهجوم عليه.

قال رجل للعلاء بن زياد:

إذا صليت وحدي لم أعقل صلاتي. قال: «أبشر!! فإن هذا علم الخير، أما رأيت اللصوص إذا مروا بالبيت الخرب لم يلووا عليه، وإذا مروا بالبيت الذي رأوا فيه المتاع زاولوه حتى يصيبوا منه شيئًا»[1].

والآن مع أول هذه الأبواب وأهمها....

---

(١) حلية الأولياء ٢/ ٢٤٥.



الباب الأول
اللسان

أسهل باب يتسلل منه الشيطان إلى القلب، بل هو أكثر باب يرتاده الشيطان ويمر خلاله كل يوم، وذلك لأنه أكثر الأعضاء عملاً وأسهلها شغلاً وأقلها تعبًا عندما يعمل، فمن غفل عن حراسة لسانه تسلل الشيطان منه إلى قلبه وسيطر على كيانه، وبعدها ساقه إلى شفا جرف هار.

قال ﷺ: «**أكثر خطايا ابن آدم في لسانه**»(١)؛ لذا وجب حراسة هذا الثغر من أخطائه وزلاته كمًّا وكيفًا.

فاللسان إذن بوابة دخول؛ يدخل إلى القلب عبر اللسان ما يُطهِّره أو ما يدنِّسه، لذا قال ﷺ: «**لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه...**»(٢).

ومعنى الحديث: مهما داوم القلب على القربات وتعرَّض لشتى أنواع الأدوية والعلاجات، فلن يطهر أبدًا حتى يزيل ما علق بلسانه من أوساخ، وإلا كانت الجوارح تبني واللسان يهدم؛ لذا تتوسل الأعضاء كل صباح إلى القلب حتى لا يضيع مجهودها سدى وتعبها في سبيل الحق هباء منثورًا، وحتى لا تؤاخذ بجريرة غيرها. قال ﷺ: «**إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تُكفِّر اللسان، فتقول: اتق الله فينا، فإنما نحن بك، فإن استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا**»(٣).

ومعنى تكفِّر أي تتذلل وتتواضع له من التكفير؛ وهو أن ينحني الإنسان ويطأطيء رأسه قريبًا من الركوع كما يفعل من يريد تعظيم أحد، والمعنى أن نطق اللسان يؤثر في أعضاء الإنسان بالتوفيق والخذلان، لأن اللسان أشد الأعضاء جموحًا وطغيانًا وأكثرها فسادًا

---

(١) حسن: رواه الطبراني والبيهقي عن ابن مسعود كما في ص ج ص رقم: ١٢٠١.
(٢) صحيح: رواه أحمد وابن أبي الدنيا في الصمت كلاهما من رواية علي بن مسعدة كما في صحيح الترغيب والترهيب حديث رقم: ٢٥٥٤.
(٣) حسن: رواه الترمذي وابن خزيمة والبيهقي عن أبي سعيد كما في ص ج ص رقم: ٣٥١.

وعدوانًا، ويؤكد هذا المعنى قول الزاهد البصري **أبو يحيى مالك بن دينار**: «إذا رأيت قساوة في قلبك ووهنًا في بدنك وحرمانًا في رزقك؛ فاعلم أنك تكلمت فيما لا يعنيك»(١).

اختبار القلب

واللسان بوابة خروج كذلك، فيخرج من القلب عبر اللسان ما هو ساكن في القلب ومُحْتَبَس فيه، وما اللسان إلا مغرفة ينقل ما في القلب إلى الخلق، وما أجمل قول **يحيى بن معاذ**:

«القلوب كالقدور في الصدور تغلي بما فيها ومغارفها ألسنتها، فانتظر الرجل حتى يتكلم، فإن لسانه يغترف لك ما في قلبه من بين حلو وحامض وعذب وأجاج؛ يُخبرك عن طعم قلبه: اغتراف لسانه»(٢).

بوابة الدخول والخروج هي التسمية التي أطلقها **يحيى بن معاذ الرازي** على اللسان حيث قال: «القلب باب السكينة، واللسان باب القلب، فإذا ضاع الباب؛ دخل من أراد وخرج من أراد»(٣).

وكأن وجهه يُطِل عليك عبر القرون ومن وراء السطور، ليهتك أستار خلوتك ويقول لك: حاسب نفسك وأحصِ قولك وراقب كل كلمة تخرج من فؤادك قبل لسانك لتتعرف على هويتك!! لذا وصف عز وجل المنافقين بقوله: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠].

فإن دلالة الكلام على قصد قائله وضميره أظهر من أي علامة مرئية، فمهما حاولوا التستر والاختباء والهروب من المواجهة والكيد في خفاء فلسانهم أول فاضح وأوضح الملامح، لامتلاء قلوبهم بالدنس الذي سرى إلى ألسنتهم؛ ولذا قال **ابن عطاء**:

«كل كلام يبرز وعليه كسوة القلب الذي منه برز».

---

(١) فيض القدير ١/ ٢٨٦.
(٢) حلية الأولياء ١٠/ ٦٣.
(٣) شعب الإيمان ٤/ ٢٧٣.

من هنا كان اختبار القلب أولى خطوات العلاج وعلى قمة أولويات خطة الاستشفاء، وتكشف نتيجة الاختبار إما عن قلب يمثل خزانة الخير العامرة أو هو مستودع الشر العاتي:

1 خزانة الخير العامرة:

وانظروا إلى **يوسف** - عليه السلام- وروعة طهارة قلب نبي، وكيف انعكس ذلك على لسانه وحلاوة نطقه وعذوبة كلامه، فقد رمته امرأة العزيز في عرضه زورًا وبهتانًا، واتهم بأشنع تهمة تنال من سمعة المرء وتستهدف شرفه، لكن اسمعوا أطهر قلب وهو يرد على أكذب ادعاء بأسمى رد وأوجز بيان؛ ليس بعريضة دفاع مطولة بل بأربع كلمات فحسب لا غير: ﴿ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ﴾[يوسف: ٢٦]، وكان الاختصار والإيجاز هنا لأن الأمر متعلق بشخصه، أما حين تعلق الأمر بربه لما دخل السجن وخاض غمار الدعوة إلى الله؛ انطلق لسانه في طلاقة وإسهاب داعيًا صاحبيه في السجن:

﴿ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ۚ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

[يوسف: ٣٧-٤٠].

ومرة ثالثة يعلِّمنا أطهر قلب كيف يعف اللسان ويسمو عاليًا فوق السحاب، فبعد أن رماه إخوته في البئر وحاولوا قتله في وحشية نادرة، ما جرحهم بلسانه وما آذاهم بلفظ؛ بل ألقى بالتهمة على الشيطان لائمًا حين قال:

﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ﴾[يوسف: ١٠٠].



والمراد أن طهارة القلب تجعله يرسل إلى اللسان أجمل الكلم وأطيب الجمل، فيطهر اللسان بعد القلب ليكون صاحبهما أفضل الناس بشهادة النبي ﷺ:

«**أفضل الناس كل مخموم القلب صدوق اللسان**»[(١)].

فلابد لبلوغ الأفضلية إذن وإدراك المثالية من طهارة اللسان علامة على طهارة القلب، ويشهد لهذا دعاء النبي ﷺ **لعلي، فعن علي بن أبي طالب** ﷺ [ت: ٤٠] قال: «بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن فقلت: يا رسول الله.. تبعثني وأنا شاب أقضي بينهم ولا أدري ما القضاء!! قال: فضرب بيده في صدري، ثم قال: «**اللهم اهد قلبه وثبِّت لسانه**». قال: فما شككت بعد في قضاء بين اثنين»[(٢)].

فانظر كيف لم يكتفِ النبي ﷺ بالدعاء له بهداية القلب حتى ذكر اللسان، وبيَّن أن ثبات اللسان هو قرين هداية القلب أو نتاجها، وظلت هذه الدعوات مباركات وبقي أثرها مع علي ﷺ حتى قال في من قاتلوه ورموه بالكفر من الخوارج: إخواننا بغوا علينا!!

---

(١) صحيح: رواه ابن ماجة عن ابن عمرو كما في الصحيحة رقم: ٩٤٨، وتتمة الحديث: قالوا: صدوق اللسان نعرفه؛ فما مخموم القلب؟ قال: «**التقي النقي؛ لا إثم فيه ولا بغي ولا غل ولا حسد**»، وفي لسان العرب لابن منظور بتصرف ١٢/ ١٨٩ مادة خمم: خَمَّ البيتَ والبئرَ يَخُمُّهما خَمًّا واختمَّهما: كنسهما، والاخْتِمامُ مثله، والمِخمَّة: المِكْنَسَةُ، وخُمامَةُ البيت والبئر: ما كُسِحَ عنه من التراب فأُلقِيَ بعضُه على بعض؛ والخُمامَةُ والقُمامة: الكُناسة وما يُخَمُّ من تراب البئر، وخُمامةُ المائدة: ما ينتثرُ من الطعام فيؤكل ويُرْجَى عليه الثواب، وقلب مَخْموم أي نقي من الغِلِّ والحسد، ورجل مخموم القلب: نَقِي من الغش والدَّغَلِ.

(٢) صحيح: الإرواء حديث رقم: ٢٥٠٠.

2 مستودع الشر العاتي:

وقد يكون القلب مستودع الشر فلا يخرج من القلب عبر اللسان إلا ما يغضب الرب ويصرف الملك ويجلب الأبالسة، وقد سبق وأن حذَّرنا النبي ﷺ من قلب كهذا فقال: «**لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحًا يَرِيَه، خيرٌ من أن يمتلئ شعرًا**»[(١)].

وتأمَّل: فالذي يمتلئ هو الجوف أي القلب، وما اللسان إلا رسول مغلوب على أمره ينقل ما يأمره به القلب ويحمل ما يُكلَّف به، أفيُلام الرسول ولا يُلام المُرسل؟ أو يعاقب الجندي والمسئولية في عنق القائد؟!

ومناسبة مبالغة النبي ﷺ في ذم الشعر أن الذين خوطبوا بذلك كانوا في غاية الإقبال عليه والاشتغال به، فزجرهم عنه ليقبلوا على القرآن وعلى ذكر الله، ومن بين هؤلاء **نابغة بني شيبان** الذي كان إذا أنشد الشعر قبض على لسانه، ثم قال: «لأسلِطنَّ عليك اليوم ما يسوؤك: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر»[(٢)]، ولكم في ذلك ومضة اقتداء يا عشاق الغناء.

وأنت يا أخي تستطيع في ضوء ما سبق أن تقيِّم حالة قلبك الآن، وأن تحكم عليه وعلى محتواه حياة أو موتًا، وصلاحًا أو فسادًا، وخيرًا أو شرًّا، وقربًا أو بعدًا وكل هذا عن طريق لفظات لسانك، وإذا كان قلبك ليس على ما يرام أو كان من النوع الثاني أي مستودع الشر، فليس لك خلاص ولا عندك مهرب إلا إذا فهمت العبارة التالية ووضعتها موضع التنفيذ:

{ الحراسة النوعية في ظل التهديد المرعب من الكلمة القاتلة أو السكوت المهلك بالتوازي مع طهارة القلب بكلمة. }

---

(١) صحيح : رواه الشيخان عن أبي هريرة كما في اللؤلؤ والمرجان رقم : ١٤٥٥. قال النووي : «المراد أن يكون الشعر غالبًا عليه مستوليًا عليه بحيث يشغله عن القرآن وغيره من العلوم الشرعية وذكر الله تعالى، وهذا مذموم من أي شعر كان فأما إذا كان القرآن والحديث وغيرهما من العلوم الشرعية هو الغالب عليه ، فلا يضر حفظ اليسير من الشعر مع هذا لأن جوفه ليس ممتلئًا شعرًا». المنهاج ١٥/ ١٤، ومعنى «يريه»: يأكل جوفه ويفسده.

(٢) شعب الإيمان ١/ ٤٣٦.



الحراسة النوعية في ظل التهديد المرعب من الكلمة القاتلة أو السكوت المهلك بالتوازي مع طهارة القلب بكلمة.

الحراسة النوعية في ظل التهديد المرعب من الكلمة القاتلة أو السكوت المهلك بالتوازي مع طهارة القلب بكلمة.

وتكرار العبارة السابقة مقصود، لكي تُكررها نطقًا فتحفظها فهمًا وعملاً، حتى تكبير خطها المتدرِّج متعمد، لأنك كلما قرأتها مرة من بعد مرة زاد فهمك لها ومن بعدها امتثالك وعملك بها، وإليك شرح مفرداتها بالتفصيل:

الحراسة النوعية

واجب هو حراسة ثغر اللسان من فداحة أخطائه أي من زلاته كيفًا، فللسان خطورة تؤدي بصاحبه إلى الهلاك من جراء كلمة واحدة دون أن يشعر!! نعم كلمة واحدة، فرُبَّ حتوف في حروف، وكم من إنسان أهلكه لسان، وكم من كلمة صرخت في وجه صاحبها: لا تقُلني، وفي الحديث: «**إن رجلاً قال: والله لا يغفر الله لفلان. قال الله: من ذا الذي يتألى عليّ أن لا أغفر لفلان؟! فإني قد غفرت لفلان وأحبطت عملك**»(١)، وفي رواية تفصيلية لنفس الحديث على لسان أبي هريرة ﷺ قال:

سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**كان رجلان في بني إسرائيل متواخيين، فكان أحدهما يذنب، والآخر مجتهد في العبادة، فكان لا يزال المجتهد يرى الآخر على الذنب، فيقول: أقصر، فوجده يومًا على ذنب، فقال له: أقصر، قال: خلِّني وربي، أَبُعثت عليَّ رقيبًا؟ قال: والله لا يغفر الله لك، أو لا**

---

(١) صحيح: رواه مسلم عن جندب البجلي كما في ص ج ص رقم: ٢٠٧٥.

يدخلك الله الجنة، فقبض الله أرواحهما، فاجتمعا عند رب العالمين، فقال لهذا المجتهد: أكنت بي عالمًا؟ أو كنت على ما في يدي قادرًا؟ وقال للمذنب: اذهب فادخل الجنة برحمتي، وقال للآخر: اذهبوا به إلى النار». قال أبو هريرة: «والذي نفسي بيده، لتكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته»(١).

والحديث كما ترى يجمع الترغيب والترهيب في سلة واحدة، فالترغيب يشع من بين ثنايا أن الله غفر للآثم وأحبط عمل من استبعد على رحمة الله أن تسعه، والترهيب في أن الله أحبط سائر عمل رجل بكلمة واحدة.

التهديد المرعب

إن اللسان المعوج قد يحبط صالح العمل ويذهب بسوالف الخير التي كان يعملها صاحبه، بل ويهوي بصاحبه من أعلى منزلة عند الله إلى أن يُطرد من رحمة الله!! واسأل نفسك معي: من الذي يهدَّد في هذه الآية؟

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ [الحجرات: ٢].

نزلت هذه الآية في الصحابيين الجليلين **أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب** -رضي الله عنهما- عندما رفعا صوتيهما عند رسول الله ﷺ، فقد روى **البخاري عن عبد الله بن الزبير** ﷺ أنه (قدم ركب من تميم على النبي ﷺ فقال **أبو بكر**: أمِّر **القعقاع بن معبد بن زرارة**، فقال **عمر**: بل أمِّر **الأقرع بن حابس**، فقال **أبو بكر**: ما أردت إلا خلافي، قال **عمر**: ما أردت خلافك، فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما، فنزلت في ذلك: **﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾** [الحجرات: ١] حتى انقضت)(٢).

إنه التهديد المخيف لخير أصحاب النبي ﷺ على الإطلاق، وأول المبشَّرين بالجنة، ومن

---

(١) حسن: رواه أبو دواد في الأدب، وحسنه الألباني في شرح الطحاوية ص ٣١٩.
(٢) صحيح: رواه البخاري (٩/ ١٤٧ فتح).

قال عنهما ﷺ: «**هذان السمع والبصر**»(١)، بل إن أحدهما هو من قال عنه النبي ﷺ: «**لو كنت متخذًا خليلاً من أمتي لاتخذت أبا بكر**»(٢).

والثاني من قال عنه عليه الصلاة والسلام: «**والذي نفسي بيده!! ما لقيك الشيطان قط سالكًا فجًّا إلا سلك فجًّا غير فجك**»(٣).

ومع ذلك فلا مجاملة على حساب الدين، وتأمَّل قوله تعالى في هذه الآية: ﴿ **وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ** ﴾ لأن عمل الإنسان قد يحبط وهو لا يشعر، وكم من كلمة أودت بصاحبها من حيث لا يدري.

إنها كذلك لغة التهديد التي طالت أحب الخلق إلى النبي ﷺ **عائشة** رضي الله عنها، وذلك لما قالت كلمة عن **صفية** فيها لمسة ازدراء تعيِّرها أنها قصيرة؛ فعرَّفها النبي ﷺ خطورة الكلمة الواحدة وقدرتها على تعكير بحار زاخرة من الأعمال الصالحة، فقال لها: «**لقد قلتِ كلمة لو مُزِجت بماء البحر لمزجته**»(٤).

لذا قُذِف الرعب في قلب **عبدالله بن أبي زكريا** من أن تنسف حسناته من جرَّاء كلماته، وتحبط كل أعمال جوارحه بعمل جارحة واحدة، فكابد وجاهد لسانه عشرين عامًا حتى وصل إلى بر الأمان وحرس لسانه بجند الإيمان؛ حتى صار أفضل أهل الشام. شهد له بذلك شيخ الإسلام وعالم أهل الشام الإمام **الأوزاعي** لما قال: «لم يكن بالشام رجل يفضل على **ابن أبي زكريا**. قال: عالجتُ لساني عشرين سنة قبل أن يستقيم لي»(٥).

إن هذا التهديد جزء أساسي من علاج اللسان الذي يقذف بسيئ الكلم وفاحش القول صباح مساء، فلابد له من خوف يملؤ القلب ليردعه عن غيه، ويحول بينه وبين إطلاق قذائف الباطل من لسانه.

---

(١) صحيح: رواه الترمذي والحاكم عن عبد الله بن حنطب كما في ص ج ص رقم: ٧٠٠٤.
(٢) صحيح: رواه الشيخان عن أبي سعيد الخدري كما في اللؤلؤ والمرجان رقم: ١٥٤١.
(٣) صحيح: رواه الشيخان عن سعد بن أبي وقاص كما في اللؤلؤ والمرجان رقم: ١٥٥٢.
(٤) صحيح: رواه أبوداود والترمذي عن عائشة كما في ص ج ص رقم: ٥١٤٠.
(٥) الحلية ٥/ ١٤٩.

الكلمة القاتلة

قال رسول الله ﷺ: «**إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يرى بها بأسًا يهوي بها سبعين خريفًا في النار**»(١).

إنها رحلة السقوط في الجهنم؛ رحلة تستغرق سبعين عامًا!! نعم سبعين عامًا من السقوط المريع إلى قاع النار من جرَّاء كلمة واحدة!! والحديث هنا لم يحدد ما هي هذه الكلمة ليظل القلب دومًا في يقظة، ويحاسب نفسه قبل كل كلمة منكرة، ويراجع سجل كلماته الماضية ليلجم نفسه عن نطق أي كلمة يؤدي إلى المشاركة في الرحلة الجهنمية ذات الأعوام السبعين، واسمعوا كيف فهم التابعي الكبير **علقمة بن وقاص** هذا المعنى فحذر من يحب من حصائد ألسنتهم، وذلك لما مر به رجل له شرف، فقال له **علقمة**: «إن لك رحمًا، وإن لك حقًّا، وإني رأيتك تدخل على هؤلاء الأمراء، وتتكلم عندهم بما شاء الله أن تتكلم به، وإني سمعت **بلال بن الحارث المزني** صاحب رسول الله ﷺ يقول: قال رسول الله ﷺ:

«**إن أحدكم ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت، فيكتب الله عز وجل له بها من رضوانه إلى يوم القيامة، وإن أحدكم ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت فيكتب الله عز وجل عليه بها من سخطه إلى يوم يلقاه**». قال **علقمة**: «فانظر ويحك ما تقول، وماذا تكلم به، فرُب كلام قد منعني أن أتكلم به ما سمعت من **بلال بن الحارث**»(٢).

ولعل الكلمة التي عناها **علقمة** هنا: كلمة نفاق أو موافقة على باطل أو تزيين لمنكر أو إعطاء ختم الموافقة الشرعية على سلسلة جرائم طاغية، وما أكثر ما نرى هذا في زمانِنا اليوم وكل يوم.

والقرآن زاخر بنماذج من الكلمات القاتلة كأنها رسالة تحذير وصيحة نذير:

- أحد المنافقين دفعه نفاقه إلى قول: ﴿ **ٱئۡذَن لِّي وَلَا تَفۡتِنِّيٓ** ﴾ [التوبة: ٤٩]، فأتاه الإذن بالهلاك على الفور: ﴿ **أَلَا فِي ٱلۡفِتۡنَةِ سَقَطُواْ** ﴾ [التوبة: ٤٩].

---

(١) صحيح: رواه أحمد والترمذي عن سليمان بن صرد، وأحمد وأبوداود والترمذي عن معاذ كما في ص ج ص رقم: ٢٤٩١.
(٢) صحيح: رواه ابن ماجة عن بلال بن الحارث كما في صحيح ابن ماجة ٢/ ٣٥٨ والصحيحة رقم: ٨٨٨.

- فرعون لما نطق بكلمته المتكبِّرة: ﴿ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ﴾[الزخرف: ٥١]؛ كان عقابه أن أجراها الله من فوق رأسه غريقًا مدحورًا.

- اليهود لما نْطقوا كفرًا وقالوا: ﴿ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾[المائدة: ٦٤]؛ توعَّدهم الله وطردهم من رحمته بقوله: ﴿ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ﴾[المائدة: ٦٤].

أو السكوت المهلك

لكن الحراسة المشددة ليست على الكلام فحسب، بل على الصمت كذلك إذا كان في موضع يتعيَّن فيه الكلام، لذا يأمر الشيطان جنده بأمرين اثنين لا يبالي بأيهما أهلك القلب، فيقول: «قوموا على ثغر اللسان، فإنه الثغر الأعظم وهو قبالة الملك، فأجروا عليه من الكلام ما يضرُّه ولا ينفعه، وامنعوه أن يجري عليه شيء مما ينفعه من ذكر الله واستغفاره وتلاوة كتابه ونصيحته عباده أو التكلم بالعلم النافع، ويكون لكم في هذا الثغر أثران عظيمان لا تبالون بأيهما ظفرتم؛

أحدهما: التكلم بالباطل، فإنما المتكلم بالباطل أخ من إخوانكم ومن أكبر جندكم وأعوانكم.

الثاني: السكوت عن الحق، فإن الساكت عن الحق أخ لكم أخرس كما أن الأول أخ لكم ناطق، وربما كان الأخ الثاني أنفع إخوانكم لكم»(١).

طهارة القلب بكلمة!

ولأن رحلة التغيير والتطهير تبدأ من اللسان رأينا **عبد الله بن عمر** ﷺ يرتِّب أولويات حملة التطهير الشاملة فيقول:

«أحقُّ ما طهَّر العبد: لسانه»(٢).

إن الكلمة الواحدة لها أعظم الأثر في شفاء القلب من أمراضه، نعم كلمة واحدة وحدها

---

(١) الجواب الكافي ٦٩.

(٢) حلية الأولياء ١/ ٣٠٧.

قد تشفي وتكفي؛ لذا أرشد النبي ﷺ رجلاً يغلي قلبه ويقذف الحمم على من حوله في ثورة غضب عارمة، فقال: «**إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد؛ لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ذهب عنه ما يجد**»(١).

فانظر حفظك الله كيف تصنع الكلمة في القلب وتطهِّره وتشفيه، فكل من اختبر قلبه فوجد ما يكره، فعليه سلوك طريق الاستدراك عن طريق لسانه، فيلهج بالقرآن والذكر والاستغفار وليتناول الأدوية اللسانية التي سنعرض لبعضها في فصل: جرعات الدواء.

ليس دواء القلب إذن في الصمت، إنما دواؤه في التكلم بكلمات الخير، والكلمات الخبيثة في القلب المتسللة عبر اللسان لا تزيحها سوى كلمات الخير، ولسانك على ما عوَّدته.

عوِّد لسانك نطق الخير تحظ به	إن اللسان لما عوَّدتَ معتاد
مُوَكَّل بتقاضي ما سننتَ له	فاختر لنفسك وانظر كيف ترتاد

لكن ما هي كلمات الخير؟! أهي كلمات القرآن والذكر وحدها تشفي الصدور؟!

كلا.. إنها كذلك أي كلمة تفصل بين متنازعين، أو تُصلِح بين اثنين، أو تكشف حقًّا، أو ترد جائرًا، أو تُسكن غاضبًا، أو تُرشد حائرًا، أو تهدي عاصيًا، أو تثبت مؤمنًا، أو تواسي مكروبًا، أو تنصر مظلومًا.

وقد ترتقي هذه الكلمة بصاحبها لتبلغ به أعلى عليين، وترفع صاحبها إلى أعلى مقام، وهو مقام لم يُر النبي ﷺ باكيًا على أحد كبكائه على صاحب هذا المقام، إنه **حمزة بن عبد المطلب** ﷺ الذي قال عنه ﷺ: «**سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله**»(٢).

فكلمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هي التي رفعت صاحبها إلى هذا المقام، بل ورفع النبي ﷺ قدر كلمة الحق إلى أن جعلها أحب جهاد إلى الله: «**أحب الجهاد إلى الله: كلمة**

(١) صحيح: رواه أحمد والترمذي عن سليمان بن صرد، وأحمد وأبوداود والترمذي عن معاذ كما في ص ج ص رقم: ٢٤٩١.
(٢) حسن: رواه الضياء عن جابر كما في ص ج ص رقم: ٣٦٧٥.

حق تُقال لإمام جائر»(١)، وكلمة الحق أيضًا هي التي هوت بتاركها إلى أن ألحقته بزمرة الشياطين، فالساكت عن الحق شيطان أخرس.

وهي الكلمة التي كادت تنجي صاحبها من الخلود في النار إن قالها ولكنه أبى، فقد مر **عمر** ﷺ **بطلحة** بعد وفاة رسول الله ﷺ فقال: ما لك كئيبًا؟ أساءتك إمرة ابن عمك؟! قال: لا ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إني لأعلم كلمة لا يقولها أحد عند موته إلا كانت نورًا لصحيفته، وإن جسده وروحه ليجدان لها روحًا عند الموت**»، فلم أسأله حتى تُوفي. قال: أنا أعلمها.. هي التي أراد عمه عليها، ولو علم أن شيئًا أنجى له منها لأمره(٢).

---

(١) حسن: رواه أحمد والطبراني عن أبي أمامة كما في ص ج ص رقم: ١٦٨.

(٢) صحيح: صحيح ابن ماجة ٢/ ٣١٨، وإمرة ابن عمك يعني بها خلافة أبي بكر.



السمع أولاً أم البصر؟!

قال بعض العلماء: السمع أفضل من البصر لأنه عز وعلا حين ذكرهما قدَّم السمع على البصر، فقال عز وجل: ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ ﴾ [البقرة: ٧]، وقال: ﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمۡعَكُمۡ وَأَبۡصَٰرَكُمۡ ﴾ [الأنعام: ٤٦] وقال: ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ ﴾ [السجدة: ٩].

وسبب ثانٍ لتفضيل السمع وهو أن الله يحاسب عليه قبل البصر. قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ﴾ [الإسراء: ٣٦].

وسبب ثالث وهو سبب علمي: أن السمع ينشط في الوليد قبل بصره، ولعل هذا من إعجاز السنة النبوية أن توصي بأن يُؤذَّن في أذن المولود اليمنى ويقام في اليسرى فور ولادته ليكون أول ما يدخل سمعه أطهر الكلام وأشرفه.

وسبب رابع هو سبب عقلي: أن السمع يُدرَك به من الجهات الست وفي النور والظلمة، ولا يُدرَك بالبصر إلا من الجهة المقابلة له، وبواسطة من ضياء وشعاع.

لكن شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية - قدَّس الله روحه ونوَّر ضريحه- حسم الأمر والنزاع بين السمع والبصر في إيجاز بليغ وتوضيح مبين فقال:

«وفصل الخطاب أن إدراك السمع أعم وأشمل، وإدراك البصر أتم وأكمل، فهذا له التمام

والكمال، وذاك له العموم والشمول، فقد ترجَّح كل منهما على الآخر بما اختُصَّ به»[١].

ما هي الحراسة؟!

والسمع هو ثاني ثغر من حيث الخطورة بعد ثغر اللسان، فهو الثاني في تأثيره على القلب وتحكمه فيه؛ ولذا قال **الحارث المحاسبي**: «وليس من جارحة أشد ضررًا على العبد بعد لسانه من سمعه، لأنه أسرع رسول إلى القلب، وأقرب وقوعًا في الفتنة»[٢].

وحراسة السمع هي باختصار: حراسته من أن يدخل فيه كل ما حُرِّم قوله، قال **سعد القصير**: «نظر إليَّ **عمرو بن عتبة** ورجل يشتم رجلاً بين يدي، فقال لي: ويلا [illegible] ا قال لي ويلك قبلها - نزِّه سمعك عن استماع الخنا كما تنزِّه لسانك عن الـ [illegible] شريك القائل، وإنه عمد إلى شر ما في وعائه فأفرغه في وعائك، ولو رُدَّت كلمة جاهل [illegible] في فيه لسعِد رادُّها كما شقي قائلها»[٣].

ومما أنشدوه في هذا:

وَسَمْعَكَ صُنْ عن سماعِ القبيحِ ... كصَوْنِ اللسانِ عن النُّطْقِ بِهْ
فإنَّكَ عندَ سماعِ القبيحِ ... شريكٌ لقائِلِهِ فانتبهْ

سماع الإشاعة

وممن جعلت على سمعها جندًا ذا بأس شديد ووضعت عليه حراسة مشدَّدة **زينب بنت جحش** رضي الله عنها، واسمع خبرها من أم المؤمنين **عائشة** وهي تروي حادثة الإفك:

قالت **عائشة** رضي الله عنها: «سأل رسول الله ﷺ **زينب بنت جحش** عن أمري: ما علمت؟ أو ما رأيت؟ فقالت: يا رسول الله أحمي سمعي وبصري، والله ما علمت إلا خيرًا.

---

(١) بدائع الفوائد ١/ ٧٨.
(٢) رسالة المسترشدين ص ١٨١ - دار السلام- الطبعة العاشرة ١٤٢١هـ -٢٠٠٠م.
(٣) العقد الفريد ٢/ ٢١٠.

قالت عائشة: وهي التي كانت تُساميني من أزواج النبي ﷺ، فعصمها الله بالورع، قالت: وطفقت أختها حمنة تُحارِب لها، فهلكت فيمن هلك»(١).

ومعنى تُساميني: تعاليني من السمو، وهو العلو والارتفاع، أي تطلب من العلو والرفعة والحظوة عند النبي ﷺ ما أطلب، أو تعتقد أن الذي لها عنده مثل الذي لي عنده، فانظر إليها رحمك الله مع ما كان بينها وبين عائشة من الغيرة والمنافسة وشدة التسابق نيلاً للحظوة عند رسول الله، لكنها تقية حمت سمعها وبصرها من كل سوء، وأبت أن تطلب مكانة عالية بعمل دنيء ، أما أختها حمنة فأخذت تردد ما قاله أهل الإفك لتنخفض منزلة عائشة وتعلو مكانة أختها زينب، فهلكت بإثمها واستحقت إقامة حد القذف عليها.

إن سماع الإشاعة ثم نقل الأخبار دون تثبت هو الذي أدَّى بحمنة إلى جلدها ثمانين جلدة، وإن النفس تميل بطبيعتها إلى حب سماع الأخبار وتلتذ بذلك، وهو ما يجب أن يدفع صاحب الكلمة إلى الحذر الشديد من صحتها قبل أن النطق بها؛ لأن جيشًا من البشر سيسمع ما قال وينقل عنه؛ ليتضاعف بلاء المتكلم إن كان كاذبا، وقد نجحت زينب فيما فشلت فيه أختها، وهل عُذِّب مروِّج الإشاعة في قبره إلا لأن غيره سمع ثم نقل؟! ففي الحديث الذي وصف عذاب القبر: «**فإذا رجل جالس ورجل قائم على رأسه بيده كلوب من حديد، فيُدخله في شدقه فيشقه حتى يخرجه من قفاه، ثم يُخرجه فيُدخله في شدقه الآخر، ويلتئم هذا الشِّدق فهو يفعل ذلك به**»، فلما سأل عن ذلك قالا: «**أما الرجل الأول الذي رأيت فإنه رجل كذَّاب يكذب الكذبة، فتُحمل عنه في الآفاق، فهو يُصنع به ما رأيت إلى يوم القيامة، ثم يصنع الله تعالى به ما شاء**»(٢).

فكل مجلس يدعوك لحرام أو مقدِّمات حرام أو يتعرَّض فيه سمعك لغيبة أو نميمة، أو يُذبح فيه الإيمان على موائد الغفلة؛ فاعلم أنه ما هو إلا مؤامرة كبرى من الشيطان يستهدف بها غزو قلبك عن طريق ثغر السمع وأنت من الغافلين، والمطلوب منك على وجه السرعة أن ترصد الباب أمامه، فإن لم تقو على ذلك؛ فغادر مسرح الجريمة في الحال، وانجُ بقلبك.

(١) صحيح : رواه البخاري ومسلم كما في اللؤلؤ والمرجان رقم : ١٧٦٣.
(٢) صحيح : رواه الشيخان وأحمد عن سمرة كما في ص ج ص رقم : ٣٤٦٢.

حين ينام الحرَّاس!!

وفوق ذلك أن الله سوَّى بين مستمع الكذب وآكل السحت، فقال تعالى: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾ [المائدة: ٤٢]، وقال: ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ﴾ [المائدة: ٦٢]، والسر في شدة التحذير من عاقبة سماع السوء هو أن الكلمة تنغرس في القلب باستماعها حتى إنها لتنبعث أثناء الصلاة أو الذكر من حيث لا يدري العبد أو يحتسب، فوقوع الأقوال في الأسماع أشبه بوقوع البذور في الأرض؛ لا بد أن تنبت وتتفرع عروقها وأغصانها ولو بعد حين.

وفي ذلك يقول شيخنا **علي الطنطاوي**:

«وكذلك كل ما تسمعه لا سيما إن سمعته في الصغر، إنه بذرة خير أو بذرة شر، إذا وجدت الظرف المناسب وضَعَتك على طريق الجنة أو سبيل النار، فانتبهوا - يا أيها القراء - لما تنظرون فيه من كتب ومجلات، وما تسمعونه من مسلسلات ومسرحيات، ولا تظنوا أن أثر ذلك يذهب مع إكمال الكتاب، أو انتهاء المحاضرة، أو إسدال الستار على المسرحية، إن بعضه يبقى ما بقيت الحياة»(١).

وصدق رحمه الله، إن الكلمات طيبة كانت أم خبيثة يبقى بعضها مع الإنسان حتى يموت، فكم من كلمة طيبة وموعظة هادية سمعها المرء منا وظل يذكرها طوال حياته، فانتشلته في ساعة غفلة، وعصمته من غشيان خطيئة، وأنقذته من الوقوع في كبيرة في وقت كان أحوج ما يكون فيه إلى الوقاية والحفظ، فكان سماع هذه الكلمة له: طوق النجاة وإكسير الحياة.

ومن أمثال هذه الكلمات المنجيات الهاديات الباقيات ما سبق وانطلق من لسان **علي بن أبي طالب** ﷺ فأصاب قلب **الفرزدق** الشاعر في لحظة صفاء عن طريق أذنه، وذلك حين وفد **الفرزدق** على **علي بن أبي طالب** ﷺ ومعه ابنه، فقال له **علي**: يا أبا الأخطل!! من هذا الذي معك؟! قال: ابني وهو شاعر. قال: علِّمه القرآن فهو خير له من الشعر، فكان ذلك في نفس **الفرزدق** حتى قيَّد

(١) ذكريات الشيخ علي الطنطاوي ١/ ٧٤ – ط ٢ – دار المنارة ١٤٠٩ هـ/ ١٩٨٩ م.

نفسه، وآلى على نفسه أن لا يحلَّ قيده حتى يحفظ القرآن، فحفظه في سنة!![1].

وهو ما يُشعل نار الغيرة في قلب كل داعية ويستفزه لئلا يبخل بأي كلمة طيبة فلعل فيها الفتوح، وفي المقابل قد يكون سهم الكلمة الخبيثة قد رشق في القلب، وصار مؤثرًا باقيًا ناشرًا سمه طوال الحياة وحتى الممات، مما قد يؤدي والعياذ بالله إلى سوء الخاتمة، وإن السُمَّ في الطعام ربما بقي أثره زمنًا ثم يزول، وقد يرفضه الجسم بقيء ونحوه، بل وقد يتناول الإنسان من الدواء ما يزيل أثره في الجسم، أما الكلام فربما لا يزول أثره مهما فعلت، واسمع القصة من **ابن القيِّم** وهو يحكي قصة محتضر:

«وقيل لآخر: قل لا إله إلا الله، فجعل يقول: أين الطريق إلى حمام منجاب؟! وهذا الكلام له قصة، وذلك أن رجلاً كان واقفًا بإزاء داره، وكان بابها يشبه باب هذا الحمام فمرت به جارية لها منظر، فقالت: أين الطريق إلى حمام منجاب؟! فقال: هذا حمام منجاب، فدخلت الدار ودخل وراءها، فلما رأت نفسها في داره وعلمت أنه قد خدعها أظهرت له البشر والفرح باجتماعها معه، وقالت خدعة منها له وتحيُّلاً لتتخلص مما أوقعها فيه وخوفًا من فعل الفاحشة: يصلح أن يكون معنا ما يطيب به عيشنا وتقر به عيوننا، فقال لها: الساعة آتيك بكل ما تريدين وتشتهين، وخرج وتركها في الدار ولم يغلقها، فأخذ ما يصلح ورجع، فوجدها قد خرجت وذهبت ولم تخنه في شيء، فهام الرجل وأكثر الذكر لها، وجعل يمشي في الطرق والأزقة، ويقول:

يارب قائلة يومًا وقد تعبت ... أين الطريق إلى حمام منجاب

فبينا يقول ذلك وإذا بجاريته أجابته:

هلا جعلت سريعًا إذ ظفرت بها ... حِرزًا على الدار أو قفلاً على الباب

فازداد هيمانه واشتد هيجانه، ولم يزل كذلك حتى كان هذا البيت آخر كلامه من الدنيا»[2].

---

(١) المستطرف ١/ ٤٢، ٤٣.
(٢) الجواب الكافي ص ١١٧.



الهجوم المبارك أو سماع الحق

والمقصود به أن تفتح سمعك لآيات القرآن، وبركات الذكر، وفيوض المواعظ الربانية، وسلسبيل الأحاديث النبوية، فتطرب أذنك حين تسمع كلمة تدل على هدى أو تعصم من ردى، لكن القلوب مع سماع الحق ليست على درجة واحدة، بل إن سماع القلوب للحق «على ثلاثة أنواع:

سماع إدراك بحاسة الأذن، **وسماع فهم وعقل**، **وسماع إجابة وقبول**، والثلاثة في القرآن

فأما **سماع الإدراك**: ففي قوله تعالى حكاية عن مؤمني الجن قولهم: ﴿**إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا**﴾ [الجن: ١٢]، وقولهم: ﴿ **يَـٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَـٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ** ﴾ [الأحقاف: ٣٠]، فهذا سماع إدراك اتصل به الإيمان والإجابة.

وأما **سماع الفهم**: فهو المنفي عن أهل الإعراض والغفلة بقوله تعالى: ﴿ **فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ** ﴾[الروم:٥٢]، وقوله: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ**﴾[فاطر:٢٢]، فالتخصيص هنا لإسماع الفهم والعقل؛ ومنه قوله تعالى: ﴿ **وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ** ﴾ [الأنفال: ٢٣] أي لو علم الله في هؤلاء الكفار قبولاً وانقيادًا لأفهمهم، وإلا فهم قد سمعوا سمع الإدراك، ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون أي ولو أفهمهم لما انقادوا ولا انتفعوا بما فهموا؛ لأن في قلبهم من داعي التولي والإعراض ما يمنعهم من الانتفاع بما سمعوه.

وأما **سماع القبول والإجابة**: ففي قوله تعالى حكاية عن عباده المؤمنين أنهم قالوا: ﴿**سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا**﴾ [النور: ٥١]، فإن هذا سماع قبول وإجابة مثمر للطاعة»[1].

وسماع القبول والإجابة يشمل النوعين اللذين قبله وهما سماع الإدراك وسماع الفهم،

(١) مدارج السالكين ١/ ٤٨٣-٤٨٤ بتصرف.

وليس سماع الإدراك بشيء فإن البهائم تسمع والكفار يسمعون، وليس سماع الفهم وحده بشيء فإن قساة القلب يفهمون لكن لا يعملون، لكن سماع القبول والإجابة وحده هو ما يثقِّل الميزان ويدل على حياة قلبك واستمرار سريان النبض فيه، ويأتي سماع القبول والإجابة عندما تصادف الكلمة المسموعة لحظة خشوع أو حالة إنابة أو موقف انكسار من ذنب أو حتى مجرَّد توفيق إلهي خفي أو لطف جلي مُسبَّبًا أو غير مسبَّب، وعندها تجد مسام القلب مفتوحة، فيحدث أعظم الأثر، وتتغيَّر أحوال هذا القلب كليًّا من الموت إلى الحياة، ومن الرمم إلى القمم، ويبدو ذلك جليًّا في توبة الإمام **الفضيل بن عياض** إذ كان شاطرًا يقطع الطريق، وكان سبب توبته أنه عشق جارية فبينما هو يرتقي الجدران إليها إذ سمع تاليًا يتلو قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ**﴾ [الحديد: ١٦] فلما سمعها قال: بلى يا رب! قد آن، فرجع فآواه الليل إلى خربة، فإذا فيها قافلة فقال بعضهم: نرحل، وقال بعضهم: حتى نصبح؛ فإن فضيلاً على الطريق يقطع علينا، قال: «ففكرت وقلت أنا أسعى بالليل في المعاصي، وقوم من المسلمين هاهنا يخافونني، وما أرى الله ساقني إليهم إلا لأرتدع، اللهم إني تُبت إليك وجعلتُ توبتي مجاورة البيت الحرام»[1].

وهذا هو الذي كان يدفع سلفنا الصالح إلى سماع النصح وغَرَس فيهم حسن الإصغاء وعدم مقاطعة أحد في حديثه؛ ولو كانوا يحفظون ما يقول لعلهم به ينتفعون وبنوره يستبصرون، فقد ورد عن **عطاء بن رباح** أنه قال:

«إن الشاب ليحدثني حديثًا فأستمع له كأني لم أسمعه، وقد سمعته قبل أن تلده أمه».

ومثله في الأدب **سفيان الثوري** الذي قال: «إن الرجل ليُحدِّثني بالحديث قد سمعته قبل أن تلده أمه، فيحملني حسن الأدب أن أنصت وأستمع له».

وبدون هذا لا تكون ذكرى ولا انتفاع ولا تجدي نصيحة ولا خطب: ﴿**إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ**﴾ [ق: ٣٧].

---

(١) نزهة الفضلاء ٢/ ٦٠٠.



والهجوم المضاد أو سماع الباطل

وفي مواجهة الحراسة المشدَّدة لا يسكت الشيطان بل يُستفزُّ ليقظتك، ويُعِدُّ للهجمة المضادة والهجوم المعاكس، ولن تجد مثله عدوًّا متربصًا وهو ليس أي عدو بل أعدى أعدائك، وعلى هلاكك حريص، وفي إغوائك مثابر؛ لذا يوصي جنده قبل كل معركة وفي كل جولة من جولات الصراع قائلاً:

«امنعوا ثغر الأذن أن يدخل عليه ما يفسد عليكم الأمر، فاجتهدوا أن لا تُدخِلوا منه إلا الباطل، فإنه خفيف على النفس تستحليه وتستملحه، وتخيَّروا له أعذاب الالفاظ وأسحرها للألباب، امزجوه بما تهوي النفس مزجًا، وألقوا الكلمة، فإن رأيتم منه إصغاءً إليها؛ فزيدوه بإخوانها، فكلما صادفتهم منه استحسان شيء فالهجوا له بذكره، وإياكم أن يدخل من هذا الثغر شيء من كلام الله أو كلام رسوله أو كلام النصحاء، فإن غُلبتم على ذلك ودخل شيء من ذلك، فحولوا بينه وبين فهمه وتدبره والتفكر فيه والعظة به، إما بإدخال ضده عليه، وإما بتهويل ذلك وتعظيمه، وإفهامه أن هذا أمر قد حيل بين النفوس وبينه فلا سبيل لها إليه»[(١)].

وهو مع هذا يسلك سلوك المراوغة والحيل وليس واضحًا في كيده. قال الله تعالى:

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ [الأنعام: ١١٢]، فسمَّاه ربنا زخرفًا وهو القول الباطل الذي يزخرفه صاحبه ويزينه ما استطاع، ثم يلقيه إلى سمع المغرور فيغتر به، وأكثر الناس تنطلي عليهم الحيل، فيردون الشيء بلفظ ويقبلونه نفسه إذا لبس ثوب لفظ آخر؛ يرفضون الربا ويقبلونه فائدة، ويرفضون الرشوة ويقبلونها هدية، ويرفضون الغيبة ويقعون فيها باسم الموضوعية، ويرفضون الكفر ويغشون حدوده تحت راية حرية الفكر والتجديد.

(١) الجواب الكافي ٦٧، ٦٨.

الحرب على جبهتين

ويدخل الشيطان ثغر السمع من طريقين يؤديان إليه، وهما: الشهوة والشبهة، فهما أصل كل فتنة كما قال ابن القيِّم، فكل من لم يوصد باب سمعه اليوم بقفل ثقيل، وترك بابه مفتوحًا أو أغلقه دون إحكام، فقد اشترك مع الشيطان في جريمته وهي سرقة إيمانه عن طريق شهوة أو شبهة، فسرعان ما يغتنم العدو الفرصة فيتسلل مستغلاً هذه الثغرة، ثم تجد بعدها من يشكو أن قلبه لا يخشع في مجالس الذكر، ولا يبكي لما يبكي له غيره!!

وهذان الطريقان لابد لنا من إلقاء مزيد من الضوء عليهما ليظهرا لكل ناشدٍ للصحة والعافية فيحذرهما، وهما:

1 أولا: الشهوة

يا أيها العاشق سمعه قبل طرفه فإن الأذن تعشق قبل العين أحيانًا، وجيش العشق قد يدخل القلب من باب السمع قبل أن يدخلها من باب البصر.

قال بشار بن برد:

يا قوم أُذْني لبعض الحيِّ عاشِقَةٌ والأذن تَعشَقُ قبل العين أحيانًا

وأنا أزيد فأقول: والوصف يحرك من الشوق أغصانًا وأفنانًا؛ لذا قال غيره:

ما كنت أعلم والضمائر تُصدِّق أن المسامع كالنواظر تعشق

وهل اشتاق المؤمنون إلى الجنة وما رأوها إلا لأنهم سمعوا عن جمالها وغاية نعيمها؟! وهل ذابت قلوب المحرومين من زيارة الديار المقدَّسة شوقًا إلى رؤية البيت الحرام إلا لأنهم سمعوا أوصافه ممن رآه وعاينه؟!

ولارتباط السمع بفتنة الشهوة نهى الله نساء النبي ﷺ عن الخضوع بالقول فقال: ﴿ إِنِ

ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [الأحزاب: ٣٢]، والخضوع حقيقته التذلل، وأُطلق هنا على رقة القول واللين والتكسر فيه لمشابهته إياه.

قال **الألوسي**: «لذا رُوي عن بعض أمهات المؤمنين أنها كانت تضع يدها على فمها إذا كلمت أجنبيًّا تغير صوتها بذلك خوفًا من أن يسمع رخيمًا لينًا، وعُدَّ إغلاظ القول لغير الزوج من جملة محاسن خصال النساء جاهلية وإسلامًا»(١).

وقد أرشد الله زوجات نبيه ﷺ إلى هذا الخلق دلالة على تفضيلهن وإعلاء قدرهن؛ بإرشادهن إلى دقائق الأخلاق التي قد تمنع الغفلة من مراعاتها لخفاء الشعور بآثارها، فإن في كلام النساء رقة طبيعية، وقد يكون لبعضهن من اللطافة والحسن والجمال ما إذا انضم إلى لينها الطبيعي الخلقي تضاعف البلاء ضعفين، وكان كلامها أقتل من السيف، وظن من يحادثها من الرجال أنها تميل إليه وتتودد له، فعشقها من صوتها، وهواها من كلامها، وربما اجترأت نفسه على مغازلتها، وبدرت منه بادرة تخدش حرمة المرأة المسلمة، فكيف بأزواج النبي ﷺ وهن أمهات المؤمنين.

ولارتباط السمع بفتنة الشهوة نهي النبي ﷺ: «**لا تباشر المرأة المرأة فتنعتها لزوجها كأنه ينظر إليها**»(٢)، والمباشرة هي الاطلاع على بدنها مما يجوز للمرأة أن تراه ولا يجوز أن يراه الرجل، وقوله «**كأنه ينظر إليها**» دلالة على دقة الوصف وكثرة الإيضاح.

وهذا باب عظيم وأصل أصيل في سد الذرائع، فإن الحكمة من هذا النهي خشية أن يُعجِب الزوج الوصفَ المذكور، فيُؤدي ذلك إلى تطليق الواصفة أو الافتتان بالموصوفة، وذلك من جرَّاء السماع فقط وقبل الرؤية.

ولارتباط السمع بفتنة الشهوة حرَّم الله سماع الغناء الذي يؤجج الشهوة ويجلب الحسرة، وحتى الاستماع للأناشيد والكلمات التي لا فحش فيها ولا سوء؛ إذا جاوز حده حتى انشغل بها صاحبها وصار الترنم بها في خلواته بديلاً عن الترنم بآيات القرآن؛ أضرَّت في هذه الحالة وأدَّت

---

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ٢٢/ ٥.

(٢) صحيح: رواه البخاري وأحمد وأبوداود والترمذي عن ابن مسعود كما في ص ج ص رقم: ٧١٧٩.

عكس المطلوب منها، وقد أجمع علماء القلوب أن طول الاستماع إلى الباطل يطفئ حلاوة الطاعة من القلب؛ ولذا يعمد الشيطان دومًا إلى أن يُلقِي في قلب المريض حب الغناء وترديده والتعلق به ليصرف عنه أنوار القرآن وحلاوة الذكر، ومن هنا قرَّر **عبد الله بن مسعود** ﷺ في وضوح: «الغناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل»(١).

قال عدو الغناء المحرَّم الإمام **ابن القيِّم**:

«للغناء خواص لها تأثير في صبغ القلب بالنفاق ونباته فيه كنبات الزرع بالماء، فمن خواصه: أنه يُلهي القلب ويصده عن فهم القرآن وتدبره والعمل بما فيه، فإن القرآن والغناء لا يجتمعان في القلب أبدًا لما بينهما من التضاد، فإن القرآن ينهى عن اتباع الهوى ويأمر بالعفة ومجانبة شهوات النفوس وأسباب الغي وينهى عن اتباع خطوات الشيطان، والغناء يأمر بضد ذلك كله، ويُحسِّنه ويُهيِّج النفوس إلى شهوات الغي، فيثير كامنها ويزعج قاطنها ويُحرِّكها إلى كل قبيح، ويسوقها إلى وصل كل مليحة ومليح، فهو والخمر رضيعا لبان، وفي تهييجهما على القبائح فرسا رهان، فإنه صنو الخمر ورضيعه ونائبه وحليفه وخدينه وصديقه، عَقَد الشيطان بينهما عقد الإخاء الذي لا يُفسخ، وأحكم بينهما شريعة الوفاء التي لا تُنسخ.

وهو جاسوس القلب وسارق المروءة وسوس العقل، يتغلغل في مكامن القلوب، ويطلع على سرائر الأفئدة، ويدب إلى محل التخيل، فيثير ما فيه من الهوى والشهوة والسخافة والرقاعة والرعونة والحماقة، فبينا ترى الرجل وعليه سمة الوقار وبهاء العقل وبهجة الإيمان ووقار الإسلام وحلاوة القرآن؛ فإذا استمع الغناء ومال إليه نقص عقله وقلَّ حياؤه وذهبت مروءته وفارقه بهاؤه وتخلى عنه وقاره وفرح به شيطانه وشكا إلى الله تعالى إيمانه وثقل عليه قرآنه، وقال: يارب لا تجمع بيني وبين قرآن عدوك في صدر واحد، فاستحسن ما كان قبل السماع يستقبحه، وأبدى من سره ما كان يكتمه، وانتقل من الوقار والسكينة إلى كثرة الكلام والكذب»(٢).

---

(١) العلل ومعرفة الرجال ٢/ ٧٦.
(٢) إغاثة اللهفان ١/ ٢٤٨، ٢٤٩.



2 ثانيًا: الشبهة

روى أبو هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

«يوشك الناس يتساءلون حتى يقول قائلهم: هذا الله خلق الخلق، فمن خلق الله؟ فإذا قالوا ذلك فقولوا: هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد، ثم ليتفُل عن يساره ثلاثًا، وليستعذ من الشيطان»[١].

قال **أبو هريرة**: «فوالله إني لجالس يومًا إذ قال لي رجل من أهل العراق: هذا الله خلقنا فمن خلق الله. قال **أبو هريرة**: «فجعلت أصبعي في أذني، ثم صحت: صدق رسول الله.. الله الواحد الأحد الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد»[٢].

ولذا حذَّرنا السلف المبارك من نقل أي بدعة تثير غبار الشبهات في سماء القلب الصافي، فقال **سفيان الثوري**: «من سمع بدعة فلا يحكها لجلسائه لا يلقيها في قلوبهم»[٣].

وتواصوا جميعًا بذلك فلم يشذ منهم واحد، فهذا **طاووس** وكان جالسًا وعنده ابنه، فجاء رجل من المعتزلة، فتكلم في شيء، فأدخل **طاووس** أصبعيه في أذنيه حتى لا يسمع، وقال: يا بني.. أدخل أصبعك في أذنيك حتى لا تسمع من قوله شيئا، فإن هذا القلب ضعيف، ثم قال: أي بني!! اسدد، فما زال يقول اسدد حتى قام الآخر[٤].

وسدُّ الأذن كان من هؤلاء العلماء الأجلاء مع ما كانوا فيه من حياة القلب وقوة الإيمان وعمق اليقين، فكيف بمن هو دونهم في العلم والتقوى والاجتهاد؟!

إن من الخطورة البالغة أن يعطي المرء سمعه للشبهات التي تنسف الدين وتدع الحليم حيران، وتعلَّم الدرس أخي المبتدي الذي يريد أن يهتدي من **محمد بن سيرين** وهو أورع أهل زمانه الذي قيل فيه: ما رأينا رجلاً أفقه في ورعه، ولا أورع في فقهه من **محمد بن سيرين**؛ ولذا كان من تمام فقهه وورعه معًا أنه لما جاءه رجل، فذكر له شيئًا من القدر، فقال **محمد**: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ**

---

(١) حسن: رواه أبو داود عن أبي هريرة كما في ص ج ص رقم: ٨١٨٢.
(٢) تلبيس إبليس ص ٤٤٥.
(٣) الحلية ٧/ ٣٤.
(٤) تلبيس إبليس ص ٢٩.

يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]. قال: ووضع إصبعي يديه في أذنيه، وقال: إما أن تخرج عني وإما أن أخرج عنك. قال: فخرج الرجل. قال: فقال **محمد**: «إن قلبي ليس بيدي، وإني خفت أن ينفث في قلبي شيئًا، فلا أقدر على أن أخرجه منه، فكان أحب إلي أن لا أسمع كلامه»(١).

وسواء كان الشيطان قائدًا في طريق الشهوات أو طريق الشبهات، فكلاهما داخل في حديث النبي ﷺ:

«والأذنان زناهما: الاستماع»(٢).

(١) الطبقات الكبرى ٧/ ١٩٧.
(٢) صحيح: رواه أبو داود عن أبي هريرة كما في ص ج ص رقم: ٥١٦١.





الباب الثالث
القدمان

قلّد طريقة مشيه؟!

كان من صفات مشيه ﷺ أنه (كان يمشي مشيًا يُعرَف فيه أنه ليس بعاجز ولا كسلان)[(١)].

تعلم كيف كان يمشي ﷺ؟!

ومن صفات مشيه أنه (كان إذا مشى تقلَّع كأنما ينحدر من صبب)[(٢)]، أي من موضع منحدر من الأرض، فهو يرفع رجله عن قوة وجلد، والمراد به مشي السرعة والهمة والنشاط، وليس أي مشي، فالماشي قد يكون متباطئًا أو مترددًا، لكن مشي قمة أولي العزم من الرسل كان من نوع آخر، فهو مشي العزم الذي لا يعرف الوهن، والثقة في صحة الوجهة والطريق التي لا يعتريها أدنى شك، والتصميم على بلوغ الهدف الذي لا يهدأ حتى يبلغ الغاية، فلا تواني ولا توقف بل ولا حتى التفات: (كان إذا مشى لم يلتفت)[(٣)] لأن من يلتفت لا بد له من توقف ولو أدنى توقف، وطاقة العزم النبوي لا تقبل مثل هذا ولو في مشيها.

أخي.. إن قدمك هي مركبك الذي تركبه ليسير بك نحو الخير أو الشر، أو السفينة التي تبحر بها في بحر الحياة المتلاطم الأمواج لترجع محملاً ببضائع الصالحين أو سلع البطالين، فيا ساعيا بقدمه إلى ما حرَّم الله: أفهم أن يسافر الإنسان في تجارة يرجو ربحها ويخشى كسادها، أما أن يسافر في رحلة خسارتها معروفة قبل أن تبدأ، فما هذا بتاجر، إنما غِرٌّ لا يعلم فن التجارة، أو أحمق وضعوا بين يديه كومة ذهب وطلبوا إليه التخلص منها!!

(١) حسن : السلسلة الصحيحة رقم : ٢١٤٠.
(٢) صحيح : السلسلة الصحيحة رقم : ٢٠٨٣.
(٣) صحيح : رواه الحاكم عن جابر كما في ص ج ص رقم : ٤٧٨٦.



ثماني خطوات باليمين

وهي الخطوات التي تمشي بها قدمك نحو الخير، وما أكثر سبل الخير التي تستطيع أن تسلكها قدمك..

☑ **فهي تمشي** في حاجة مسلم واقعة تحت إغراء الثواب في قول رسول الله ﷺ:

«**ومن مشى مع أخيه المسلم في حاجته حتى يثبتها له أثبت الله تعالى قدمه يوم تَزِلُّ الأقدام**»(١)، فلما حرَّك قدمه في قضاء حاجة هذا العاجز جازاه الله بمثلها وهو ثباتها على الصراط يوم تزل الأقدام، وقد حذَّر بعض السلف من التأخر عن هذا الفضل وهدَّدوا بأن (من امتنع أن يمشي مع أخيه خطوات فى حاجته أمشاه الله تعالى أكثر منها فى غير طاعته)(٢).

☑ **أو تمشي** في عيادة مسلم لتجد الله عنده، فتسأله ما تشاء وتنال منه الكرامة والثواب، وتنهمر عليك من الرحمات فوق ما يخطر ببالك. قال ﷺ: «**إذا عاد الرجل أخاه المسلم مشى في خرافة الجنة حتى يجلس، فإذا جلس غمرته الرحمة، فإن كان غدوة صلى عليه سبعون ألف ملك حتى يمسي، وإن كان عشيًّا صلى عليه سبعون ألف ملك حتى يصبح**»(٣).

☑ **أو تمشي** في أعقاب جنازة لتخشع وتتعظ. قال ﷺ: «**من تبع جنازة حتى يصلي عليها كان له من الأجر قيراط، ومن مشى مع الجنازة حتى تُدفن كان له من الأجر قيراطان، والقيراط مثل أحد**»(٤).

☑ **أو تمشي** إلى مسجد ويا حبذا لو كان بعيدًا لتكثر الخطى وتتتابع، واحدة تحط خطيئة، والأخرى ترفع درجة، لتجد كل ذنوبك قد نُسفت مع أول خطوة تطأ بها عتبة بيت الله. قال ﷺ: «**من توضأ للصلاة فأسبغ الوضوء، ثم مشى إلى الصلاة المكتوبة، فصلاها مع الناس غفر الله له ذنوبه**»(٥)، وكلما زادت المسافات تكاثرت الحسنات:«**أعظم الناس أجرًا في**

---

(١) حسن : رواه الطبراني وابن أبي الدنيا عن ابن عمر كما في ص ج ص رقم : ١٧٦.
(٢) إغاثة اللهفان ٢/ ١٩٥.
(٣) صحيح : رواه أحمد والبيهقي عن علي كما في ص ج ص رقم : ٦٨٢.
(٤) صحيح: رواه أحمد والنسائي عن البراء ومسلم وابن ماجة عن ثوبان كما في ص ج ص رقم : ٦١٣٤.
(٥) صحيح : رواه أحمد ومسلم والنسائي عن عثمان كما في ص ج ص رقم : ٦١٧٣.

الصلاة أبعدهم إليها ممشى»[١].

هذا في صلاة الفرض، فماذا عن النافلة؟! اسمع واطرب: قال ﷺ: «**من مشى إلى صلاة مكتوبة في الجماعة فهي كحجة، ومن مشى إلى صلاة تطوع فهي كعمرة نافلة**»[٢].

☑ **أو تمشي** المشية الأسبوعية المباركة التي تضاعف أجرك فوق الخيال، وهي مشيك إلى صلاة الجمعة، والخطوة منها بعبادة سنة!! قال ﷺ:

«**من غسَّل يوم الجمعة واغتسل، ثم بكَّر وابتكر، ومشى ولم يركب، ودنا من الإمام، واستمع وأنصت ولم يلغُ؛ كان له بكل خطوة يخطوها من بيته إلى المسجد عمل سنة أجر صيامها وقيامها**»[٣].

☑ **أو تمشي** في زيارة أخ لك في الله لتأنس به وتتواصى معه بالحق والصبر طامعا في جائزة هذا الحديث: «**زار رجل أخًا له في قرية، فأرصد الله له ملكًا على مدرجته، فقال: أين تريد؟ قال: أخًا لي في هذه القرية، فقال: هل له عليك من نعمة تربها؟ قال: لا إلا أني أحبه في الله. قال: فإني رسول الله إليك أن الله أحبك كما أحببته**»[٤].

☑ **أو تمشي** في دعوة الخلق وهداية الناس حتى تكل قدماك ويبلى حذاؤك!! واسمع تفتيش أستاذنا **الراشد** على كتيبة الدعاة في ابتداء سيرهم في طريق الدعوة، فقال حفظه الله:

«وقد كنت في الأيام الخوالي ألاطف إخواني فأفتِّش على أحذيتهم! ليس على نظافتها وصبغها ورونقها كالتفتيش العسكري، بل على استهلاكها وتقطِّعها والغبار الذي عليها، وأقلبها فأرى النعل، فمن كان أسفل حذاؤه مهترئًا تالفًا فهو الناجح، وأقول له: شاهدك معك: حذاؤك يشهد لك أنك تعمل وتغدو في مصالح الدعوة وتروح، وتطبِّق قاعدة:

---

(١) صحيح: رواه الشيخان عن أبي موسى وابن ماجة عن أبي هريرة كما في ص ج ص رقم: ١٠٦٥.

(٢) حسن: رواه الطبراني عن أبي أمامة كما في ص ج ص رقم: ٦٥٥٦.

(٣) صحيح: رواه أحمد وابن حبان والأربعة عن أوس بن أوس كما في ص ج ص رقم: ٦٤٠٥.

(٤) صحيح: رواه البخاري في الأدب ومسلم وأحمد عن أبي هريرة كما في ص ج ص رقم: ٣٥٦٧. قال **الغزالي**: زيارة الإخوان في الله من جواهر عبادة الله وفيها الزلفة الكريمة إلى الله مع ما فيها من ضروب الفوائد وصلاح القلب لكن بشرطين: أحدهما: أن لا يخرج إلى الإكثار والإفراط. الثاني: أن يحفظ حق ذلك بالتجنب عن الرياء والتزين وقول اللغو والغيبة ونحو ذلك. فيض القدير ٤/ ٦١.



﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [يس: ٢٠]، وبكثرة حركتك تلِف حذاؤك، فأنت المجتاز المرضي عندي»[١].

☑ **أو تمشي** لترتقي ذروة سنام الإسلام جهادًا في سبيل الله. قال ﷺ: «**ما اغبرَّت قدما عبد في سبيل الله إلا حرَّم الله عليه النار**»[٢]، وعندما صدَّق الناس هذا الحديث وترجموه إلى فعال رأينا إيثار التعب على الراحة واختيار التلذذ بالمشقة والمنافسة في سكب العرق لأن فيه وداع النار وفراق اللهب إلى الأبد. قال **أبو المصبح المقرائي** قال: «بينما نحن نسير بأرض الروم في طائفة عليها **مالك بن عبد الله الخثعمي** إذ مرَّ **مالك بجابر بن عبد الله** وهو يمشي يقود بغلا له فقال له **مالك**: أي أبا عبد الله!! اركب فقد حملك الله، فقال **جابر**: أصلح دابتي وأستغني عن قومي وسمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من اغبرَّت قدماه في سبيل الله حرَّمه الله على النار**»، فأعجب **مالكا** قوله، فسار حتى إذا كان حيث يسمعه الصوت ناداه بأعلى صوته: يا أبا عبد الله!! اركب فقد حملك الله، فعرف **جابر** الذي أراد برفع صوته وقال: أُصلِح دابتي وأستغني عن قومي وسمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من اغبرَّت قدماه في سبيل الله حرَّمه الله على النار**» ، فوثب الناس عن دوابهم، فما رأينا يومًا أكثر ماشيًا منه»[٣].

ولذا حرص رسول الله ﷺ على عدم التأخر عن هذا الخير والمبادرة إليه بنفسه، وهو أن يعفِّر قدمه الشريف في تراب المعركة رافضًا أن ينوب عنه في هذا الشرف أحد، فعن **عبد الله بن مسعود** ﷺ قال: كنا يوم بدر كل ثلاثة على بعير كان **أبو لبابة وعلي** زميلي رسول الله ﷺ، فكانت عقبة رسول الله ﷺ فقالا: نحن نمشي عنك، فقال: ما أنتما بأقوى مني ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما.

وفوات هذا الخير وضياع هذا المشي المبارك هو وحده الذي أبكى **يونس بن عبيد** عند موته لأن الحياة تدب في قلبه، فقد نظر رحمه الله إلى قدميه عند موته فبكى، فقيل له: ما يبكيك يا أبا عبد الله؟! قال: «قدماي لم تغبرا في سبيل الله عز وجل»[٤].

---

(١) صناعة الحياة.

(٢) صحيح : رواه الأربعة عن مالك بن عبدالله الخثعمي كما في ص ج ص رقم : ٥٥٤٣.

(٣) صحيح : صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان ١٠/ ٤٣٦. قال : شعيب الأرناؤوط : حديث صحيح.

(٤) صفة الصفوة ٣/ ٣٠٤.

☑ **أو تجري** بقدميك تتدرَّب بهذا على الجهاد وجولات الكرِّ والفرِّ، ولو كان هذا التدريب بلعب الكرة أو سباق الخيل، بشرط أن تصاحبك نية صالحة كما كان يفعل **نور الدين محمود زنكي** رحمه الله. قال ابن **الأثير**:

«وكان رحمه الله لا يفعل فعلاً إلا بنية حسنة، وكان بالجزيرة رجل من الصالحين كثير العبادة والورع شديد الانقطاع عن الناس، وكان **نور الدين** يكاتبه ويراسله ويرجع إلى قوله ويعتقد فيه اعتقادًا حسنًا، فبلغه أن **نور الدين** يدمن اللعب بالكرة، فكتب إليه يقول: ما كنتُ أظنك تلهو وتلعب وتعذِّب الخيل لغير فائدة دينية، فكتب إليه **نور الدين** بخط يده يقول: والله ما يحملني على اللعب بالكرة اللهو والبطر، إنما نحن في ثغر العدو قريب منا، وبينما نحن جلوس إذ يقع صوت؛ فنركب في الطلب، ولا يمكننا أيضًا ملازمة الجهاد ليلاً ونهارًا شتاء وصيفًا؛ إذ لابد من الراحة للجند، ومتى تركنا الخيل على مرابطها صارت جمامًا لا قدرة لها على إدمان السير في الطلب، ولا معرفة لها أيضا بسرعة الانعطاف في الكرِّ والفرِّ في المعركة، فنحن نركبها ونروِّضها بهذا اللعب، فيذهب جمامها، وتتعود سرعة الانعطاف والطاعة لراكبها في الحرب، فهذا والله الذي بعثني على اللعب بالكرة»(١).

مع أربع وقفات!!

فإن لم تقو قدماك على هذا المشي وعجزت عنه كان الوقوف بديلاً عن المشي، والوقوف نوعان: **نوع سلبي ونوع إيجابي**، أو نوع وقائي ونوع علاجي، فأما **النوع الأول** فهو **السلبي أو الوقائي** فهو الوقوف عن المشي الحرام الذي يقود إلى أماكن السوء ومواطن المعصية، فقدماك قد تقودانك إلى الهاوية دون أن تشعر حين تسلك بك مسالك الشر، وتمضي بك مع صحبة السوء وأهل الغفلة، وتجعلك تتبع خطوات الشيطان حتى تصل إلى البؤرة الفاسدة، وعندها تنهار حراسة بقية الثغور بعد اقتحام ثغر القدم، فالعين تنظر إلى الحرام، واللسان يذكر كل شيء إلا الله، والسمع يصغي إلى كل سوء، والبداية: القدم التي زلت بالجسم وهوت به، وأنت السبب: أطعت قدمك فأهلكْتَ جسدك وتعدَّت آثار الدمار إلى قلبك، ثم

(١) الروضتين في أخبار الدولتين ص ٣٥.

ترقيت أقصد هويت لتأخذ مكانك بين جند إبليس دون أن تقصد؛ ذلك أن كل من رآك تأثَّر بك ولعله قلَّدك أو نافسك، وهذا ما فهمه مقاتل من قوله تعالى: ﴿ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾ [الإسراء: ٦٤] حيث قال رحمه الله: «استعن عليهم بركبان جندك ومشاتهم، فكل راكب وماش في معصية الله فهو من جند إبليس»[١].

وأما **النوع الثاني** من الوقوف فهو **الوقوف الإيجابي أو العلاجي**، وهو ثلاثة أنواع:

☑ **الأول**: أن تقف وقوفًا تؤدي به واجب الشكر الذي سبق وأن أداه رسول الله ﷺ حين نالت قدماه الشريفتان شرف هذه المهمة، حين قام من الليل حتى تفطرت قدماه ممتثلاً أمر ربه: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ﴾ [الشرح: ٧]، ففهم أن المراد منه: إذا فرغت في النهار من الدعوة والجهاد فانصب قدميك في الليل بالقيام.

☑ **الثاني**: أن تقف وقوفًا من نوع آخر أكثر صعوبة وأشد وطأة في ميدان قتال وساحة جهاد، ولذلك فهو أعظم أجرا من قيام الليل ولو كان قيام ليلة القدر وفي أطهر بقعة!! قال ﷺ: «**موقف ساعة في سبيل الله خير من قيام ليلة القدر عند الحجر الأسود**»[٢].

☑ **الثالث**: أن تقف بقدميك ثباتًا في المعركة لا تتراجع تحت وطأة هجوم عدو وزحفه مستحضرًا قول ربك على لسان المؤمنين وهم يدعون بتثبيت الأقدام: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٧]، مستأنسا بقول نبيك ﷺ: «**ثلاثة يحبهم الله ويضحك إليهم ويستبشر بهم: الذي إذا انكشفت فئة قاتل وراءها بنفسه لله عز وجل، فإما أن يقتل؛ وإما أن ينصره الله عز وجل ويكفيه، فيقول: انظروا إلى عبدي هذا!! كيف صبر لي بنفسه؟...**»[٣].

---

(١) مدارج السالكين ١/ ١٢٠.
(٢) صحيح : رواه أحمد والبيهقي عن أبي هريرة كما في ص ج ص رقم : ٦٦٣٦.
(٣) حسن : رواه الطبراني عن أبي الدرداء كما في صحيح الترغيب والترهيب رقم : ٦٢٩.



الباب الرابع
اليـــدان

أخـي.. تستطيع أن تصنع بيدك مفتاح الجنة أو القفل الموضوع على أبوابها ليحول بينك وبين دخولها، وتستطيع أن تنسج بيدك ثوبك الحريري من سندس وإستبرق في الجنة أو ثياب شقوتك من النار، ألا إن أنامل يدك عاملة عاملة، لكن من العمل ما ينفع صاحبه ومنه ما يقتل صاحبه، ويدك هي بداية كل أعمالك ومفتاح كل جوارحك وأعضائك، فهي التي تطعمك رزقك حلالاً كان أو حرامًا، وهي التي تكسوك ثيابك حلالاً كانت أو حرامًا، وهي التي تلبسك حذاءك لتقصد به وجهتك ومرادك حلالاً كان أو حرامًا؛ لذا فهي شريكك في أعمال الخير والشر.

اثنتا عشرة يدٍ عليا

والمقصود باليد العليا هنا هي اليد التي تعمل الصالحات، والمشغولة دومًا في حرث الخير، والتي تعرف طريق الجنة جيدا، وتشهد لك يوم العرض، وتنبري تنافح عنك يوم الحساب.

أخـي.. لم لا تجعل ثغر اليد مفتاحًا لكل خير، وتُدخِل منها كل بر، لتنعم بعدها وتتفيأ ظلال مكافأة: «**ما من مسلم يغرس غرسًا إلا كان ما أكل منه له صدقة، وما سُرِق منه صدقة، وما أكل السبع فهو له صدقة، وما أكلت الطيور فهو له صدقة، ولا يرزؤه أحد كان له صدقة**»[(١)].

لم لا تحاول كل زوجة دخول الجنة عن طريق يدها وهو أمر يسير سهل، فما عليها إلا أن تعمل بهذا الوصية: «**ألا أخبركم بنسائكم من أهل الجنة؟ الودود الولود العئود التي إذا**

(١) صحيح: رواه مسلم عن جابر كما في صحيح مسلم ٣/ ١١٨٨.

ظُلِمت قالت: **هذه يدي في يدك؛ لا أذوق غمضًا حتى ترضى**»[١].

لم لا يحاول كل زوج أن يربح زوجته عن طريق يده، فيناولها اللقمة ويضعها في فمها برقة متناهية ومشاعر متسامية، وهي وصية خير البشر لأهله ﷺ: «**وإنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أُجِرت بها، حتى ما تجعل في فِيِّ امرأتك**»[٢].

أو هي اليد التي ترحم وتعطف وتحنو وترِقُّ، فتسري رقتها إلى القلب الذي يلين ويخشع؛ لذا قال ﷺ: «**إن أردت أن يلين قلبك فأطعم المسكين، وامسح رأس اليتيم**»[٣].

لم لا تعمل أخي بكلتا يديك في سبيل رزقك، وتتعب حتى تحصِّل أطيب الكسب وألذ الطعام يدفعك إلى ذلك شهادة نبيك الطيبة: «**أطيب الكسب عمل الرجل بيده**»[٤]، لكن لابد مع التعب من إتقان وبراعة، ووفاء بحق الصنعة، وعدم غشٍّ لمسلم أو غير مسلم، وهو معنى قول النبي ﷺ: «**خير الكسب كسب يد العامل إذا نصح**»[٥].

واسمع خبر **علي بن أبي طالب** ﷺ حين روى عنه **مجاهد** فقال: «خرج علينا **علي بن أبي طالب** يومًا معتجرًا فقال: جعت مرة بالمدينة جوعًا شديدًا، فخرجت أطلب العمل في عوالي المدينة، فإذا أنا بامرأة قد جمعت مدرًا تريد بلَّه، فأتيتها فقاطعتها كل ذنوب على تمرة، فمددت ستة عشر ذنوبًا حتى مجلت[٦] يداي، ثم أتيت الماء، فأصبت منه، ثم أتيتها، فقلت بكفي هكذا بين يديها، وبسط **إسماعيل** يديه، وجمعهما فعدَّت لي ستة عشر تمرة، فأتيت النبي ﷺ فأخبرته فأكل معي منها»[٧].

أخي.. لم لا تكتب بيدك كتاب خير، ومن كتب كتاب خير نال أجره وأجر من قرأه في حياته وبعد مماته؛ ولذا قيل: كتاب المرء ولده المخلَّد، وتأمل مؤلفات علمائنا، وكيف كابدوا المشاق في كتابتها التماسًا لثوابها، وأنهكوا أيديهم

(١) حسن: رواه الطبراني عن كعب بن عجرة كما في ص ج ص رقم: ٢٦٠٤.
(٢) صحيح: رواه الشيخان عن سعد بن أبي وقاص كما في اللؤلؤ والمرجان رقم: ١٠٥٣.
(٣) حسن: رواه الطبراني في مكارم الأخلاق عن أبي هريرة كما في ص ج ص رقم: ١٤١٠.
(٤) صحيح: رواه أحمد والطبراني عن رافع بن خديج كما في ص ج ص رقم: ١٠٣٣.
(٥) حسن: رواه أحمد عن أبي هريرة كما في ص ج ص رقم: ٣٢٨٣.
(٦) مجلت يده: إذا ثخن جلدها وظهر فيها ما يشبه البثور من شدة العمل.
(٧) حلية الأولياء ١/ ٧١.

كتابة وأرهقوها حتى وصلنا هذا الخير حتى قال **أبو المظفر سبط ابن الجوزي**: «سمعتُ جدي يقول على المنبر في آخر عمره: كتبت بإصبعيَّ هاتين ألفي مجلَّد»، وقال **يحيى بن معين**: «كتبتُ بيدي ألف ألف حديث».

وصدق من قال منشدًا:

وما مـن كاتب إلا سيبلى ... ويُبقي الدهر ما كتبت يداه

فلا تكتب يداك كتاب شرٍّ ... يسوؤك في القيامة أن تراه

أخي.. تستطيع كذلك أن تتصدق بيدك ولتكن اليمين، ويتضاعف أجرك أيها الهمام إذا قامت يدك بمهمة أخرى بعد أن حازت شرف التصدق وهي مهمة التخفي! نعم التخفي عن أعين الناس طلبًا لرضا رب الناس، بل والمبالغة في ذلك حتى لا تكاد شمالك تعلم كم أنفقت أختها، وقد توصلك يدك إلى مصافِّ سادة الكرم وأرباب الجود الذين وصفهم الشاعر أحدهم فقال:

فتى جُبلت يداه على العطايا ... كما جُبل اللسان على الكلام

أخي.. لم لا ترفع بيدك راية الجهاد في سبيل الله إن استطعت؟! وتذكَّر كيف ضحَّت ذراعًا **جعفر بن أبي طالب** ﷺ يوم مؤتة، وقد حمل الراية بيمينه، فقُطِعت فقامت شماله بالمهمة، فقُطِعت، فتناول الراية بعضديه استبسالاً واستماتة حتى استشهد ﷺ، فكافأه الله بما جاء في النشرة الإخبارية النبوية التي أذيعت على جمهور الصحابة على الهواء مباشرة وفي التو واللحظة: **«إن الله قد جعل لجعفر جناحين مضرجين بالدم يطير بهما مع الملائكة»**(١).

أو هي اليد التي ترمي في سبيل الله، فلعلها إن فَعَلت دخل صاحبها في دعاء النبي ﷺ **لسعد بن أبي وقاص** ﷺ: **«ارم فداك أبي وأمي»**، وقد رمى **سعد** في غزوة أحد ألف سهم في سبيل الله، فعن علي ﷺ قال: ما رأيت رسول الله ﷺ جمع أبويه لأحد غير **سعد بن مالك**، فإنه قال له يوم أحد: **«ارم سعد فداك أبي وأمي»**(٢).

---

(١) صحيح: رواه الدار قطني والحاكم عن البراء كما في ص ج ص رقم: ١٧٩٢.

(٢) صحيح: رواه مسلم عن علي كما في ص ج ص رقم: ٥٧٦٨.

لذا حرص على عبادة الرمي العالم الزاهد **إبراهيم بن أدهم**، وإن لم يُنقل عنه في كتب السير إلا خطب الوعظ وكلمات النصائح، فإن موعظته الأخيرة كانت موعظة عملية جهادية، وذلك حين حضرته الوفاة سنة ١٦٢هـ، (وذكروا أنه تُوُفِّي في جزيرة من جزائر الروم وهو مرابط،... فلما كانت غشية الموت قال: أوتروا لي قوسي، فأوتروه، فقبض عليه فمات وهو قابض عليه؛ يريد الرمي به إلى العدو)(١).

وكأنه - رحمه الله- أراد إلقاء معنى الجهاد في نفوس الناظرين، بل وفي نفوس أفراد كل جيل مؤمن تبلغه قصة احتضاره وحكايته.

ولعلها تكون رمية مباركة تصيب من العدو مقتلاً، ويتضاعف بها الأثر والنكاية، فيتضاعف الأجر تبعًا لذلك كما حدث للصحابي **أبي الغادية** الذي رمى بيده سهمًا واحدًا فقتل به ثلاثمائة رومي مرة واحدة!! قال **عثمان بن أبي العاتكة**: «رمى العدو الناس بالنِّفط، فقال **معاوية**: أما إذ فعلوها فافعلوا، فكان يترامون بها، فتهيَّأ رومي لرمي سفينة **أبي الغادية** في طنجير(٢)، فرماه **أبو الغادية** بسهم، فقتله، وخرَّ الطنجير في سفينتهم، فاحترقت بأهلها، وكانوا ثلاثمائة، فكان يقال: رمية **أبي الغادية** قتلت ثلاثمائة نفس»(٣).

وليس الرمي رمي السهام فحسب، وإنما كل ما يُحدِث أثر السهام في قلوب الأعداء وينصر الأمة في أي ميدان، ولعل إتقان العمل وجودة الصناعة والتفاني في مختبرات العلم لا يقل أجرًا اليوم عن رمية سهم في نحور العدو.

والمجاهد في سبيل الله بكل شيء يؤجر وبأدنى عمل يؤجر، ولو كان إطعام فرسه بيده أو تزويد معداته بالوقود بلغة عصرنا هذا، وفي ذلك يبشِّر النبي ﷺ كل مجاهد: «**من ارتبط فرسًا في سبيل الله، ثم عالج علفه بيده كان له بكل حبة حسنة**»(٤).

أخي.. لم لا تميط عن الطريق الأذى بيديك، فتكون أخا لرجل رآه النبي ﷺ في الجنة، فقال مبيِّنًا عمله وموضِّحًا جزاءه وجزاء كل من عمل بعمله من

---

(١) البداية والنهاية ١٠/ ١٤٥، ١٤٦.

(٢) الطنجير: قِدر نحاسي.

(٣) سير أعلام النبلاء ٢/ ٥٤٥.

(٤) صحيح: رواه ابن ماجة وابن حبان عن تميم الداري كما في ص ج ص رقم: ٦٠٠٨.

بعده، فقال: «**لقد رأيتُ رجلاً يتقلب في الجنة في شجرة قطعها من ظهر الطريق كانت تؤذي الناس**»(١).

إنها كذلك اليد التي تصافح المؤمنين لتتناثر الذنوب مع المصافحة، وتتصافح القلوب وتتعانق مع تصافح الأيدي وتشابكها: «**إن المؤمن إذا لقي المؤمن فسلَّم عليه وأخذ بيده فصافحه؛ تناثرت خطاياهما كما يتناثر ورق الشجر**»(٢).

أو هي اليد التي تبايع رسول الله وتمدُّ يدها في صدق ووفاء مستشعرة أنها تبايع الله وتعقد معه سبحانه المواثيق: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ**﴾ [الفتح: ١٠]، ولهذا لما بعث النبي ﷺ **عثمان بن عفان** ﷺ إلى مكة رسولاً إلى المشركين، وتغيَّب عن بيعة الرضوان أصر النبي ﷺ على أن لا يحرم يد **عثمان** من هذا الشرف، فقال رسول الله ﷺ بيده اليمنى: «**هذه يد عثمان**»، وضرب بها على يده قائلاً: «**هذه لعثمان**».

وإن فاتنا شرف لمس كف رسول الله ﷺ، إلا أن هذه البيعة باقية وتبعاتها نافذة، وإن كانت بيعة الرضوان بيعة على الموت في سبيل الله، فإن بيعتنا اليوم هي بيعة على الحياة في سبيل الله، ولعلها الأصعب والأشق.

وعشر أيادٍ في السافلين

واليد السفلى هي العابثة في المعاصي المشغولة في حرث الشر التائهة عن طريق الجنة، ولابد للمرء أن يجني ما زرعت يداه.

- فمن استخدم يديه في التخلص من حياته أذاقه الله من نفس الكأس، وأعاد معه جريمته وبنفس **الطريقة** مالا يُحصى من المرات لكن في الآخرة وطوال مدة مكثه في النار. قال ﷺ: «**الذي يخنق نفسه يخنقها في النار، والذي يطعنها يطعنها في النار**»(٣).

---

(١) صحيح: رواه مسلم عن أبي هريرة كما في ص ج ص رقم: ٥١٣٤.
(٢) صحيح: الصحيحة رقم: ٥٢٦.
(٣) صحيح: رواه البخاري عن أبي هريرة كما في ص ج ص رقم: ٥٤٩٤.

- والذي يخطُّ بيده حرفا في عقد ربا يغضب عليه ربه ويطرده من رحمته ولو كان مجرد شاهد أو كاتب. قال ﷺ: «**لعن الله آكل الربا وموكله وشاهده وكاتبه**»(١).

- والذي يُشهر بيده السلاح في وجه أخيه أصابه أم لم يصبه ملعون حتى يخفض سلاحه: «**إذا شهر المسلم على أخيه سلاحا؛ فلا تزال ملائكة الله تلعنه حتى يشيمه عنه**»(٢).

- والذي يقدِّم بيده مالا لرشوة، والذي يقبل هذه الرشوة كلاهما تظل تطاردهما لعنة الله حتى يتوبا إلى الله ويُقلعا: «**لعنة الله على الراشي والمرتشي**»(٣).

ولذا حرص أصحاب النبي ﷺ على تطهير اليد السارقة بإقامة الحد عليها، حتى سارع من سرق منهم إلى التخلص من يده التي اعتدت، والتبرؤ منها وكأنها ليست منه قبل أن تُدخله النار غدًا، ففي حديث ضعيف الرواية لكنه قوي المعنى عن **عبد الرحمن بن ثعلبة الأنصاري عن أبيه** ﷺ **أن عمرو بن سمرة ابن حبيب بن عبد شمس** أنه جاء إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله!! إني سرقتُ جملاً لبني فلان، فطهِّرني، فأرسل إليهم النبي ﷺ، فقالوا: إنا افتقدنا جملاً لنا، فأمر به النبي ﷺ، فقُطِعت يده، قال **ثعلبة**: «أنا أنظر إليه حين وقعت يده؛ وهو يقول: الحمد لله الذي طهَّرَني منكِ.. أردتِ أن تدخلي جسدي النار»(٤).

- وأما الخمر، فإن تسع أيادٍ ملعونة بسببها لأنها شاركت من قريب أو من بعيد في هذه الجريمة، واليد وحدها كانت سبب طرد صاحبها من رحمة الله. قال ﷺ: «**لعن الله الخمر، وشاربها، وساقيها، وبائعها، ومبتاعها، وعاصرها، ومعتصرها، وحاملها، والمحمولة إليه، وآكل ثمنها**»(٥).

- وأما المرأة فإن أغراها الشيطان، ونفخ فيها من سحره، فمدَّت يدها لتتزين بما حرَّم الله، فقد طردت نفسها بنفسها من رحمة ربها. قال ﷺ: «**لعن الله الواشمات والمستوشمات،**

---

(١) صحيح: رواه أحمد وأبو داود والترمذي عن ابن مسعود كما في ص ج ص رقم: ٥٠٨٩.
(٢) حسن: رواه البزار عن أبي بكرة كما في ص ج ص رقم: ٦٣٥.
(٣) صحيح: رواه أحمد وابن ماجة والترمذي عن ابن عمرو كما في ص ج ص رقم: ٥١١٤.
(٤) ضعيف: رواه ابن ماجة عن ثعلبة الأنصاري كما في ضعيف ابن ماجة رقم: ٥١٠.
(٥) صحيح: رواه أبو داود والحاكم عن ابن عمر كما في ص ج ص رقم: ٥٠٩١.

والنامصات والمتنمصات، والمتفلجات للحُسن، المغيِّرات خلق الله»[(١)].

- ولو أن شيخًا أو شابًّا أراد اللهو فامتدت يداه إلى النَّرد فقد ظلم نفسه لأنه عصى ربه: «**من لعب بالنَّرد فقد عصى الله ورسوله**»[(٢)]، وارتكب بذلك أقبح الجرم الذي وصفه النبي ﷺ وصفًا ينفِّر كل سويِّ الفطرة سليم العقل، ففي رواية مسلم: «**من لعب بالنردشير فكأنما صبغ يده في لحم خنزير ودمه**».

- ولو أن كاتبًا كتب بيده كتابًا يثير فيه شهوة ويشعل فيه غريزة، أو يبث شبهة ويزلزل عقيدة، فستظل صحيفة سيئاته تتلقى يوميًّا وعلى مدار الساعة أكوامًا من السيئات كلما قرأ كتابه قارئ أو وقع في شِراكه غافل، ولا سيما إن كسب هذا الكاتب عليه مالاً: ﴿**فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ**﴾ [البقرة: ٧٩].

إن الكلمة المكتوبة قد تفعل في القلب ما لا يفعله الحسام؛ ولذا قال **حبيب بن أوس الطائي**:

ولضربة من كاتب ببنانه أمضى وأقطع من رقيق حسام
قوم إذا عزموا عداوة حاسد سفكوا الدما بأسنة الأقلام

- يا زناة الأيادي.. ألا تعلمون ما هو زناكم وما خطورة جرائمكم؟! اسمعوا رسول الله ﷺ يقول: «**واليد زناها اللمس**»، وإن كان **معن بن أوس** قد قال:

لعمرك ما أهويتُ كفي لريبة ولا حملتني نحو فاحشة رجلي

فإن رسول الله ﷺ كان أطهر منه وأطهر من السحاب نفسه؛ لذا فما مست يده يد امرأة لا تحل له قط.

- وقال ﷺ في موضع آخر يصف نوعًا آخر من الزنا لِيُحذِّرنا منه: «**واليد زناها البطش**»، وفي هذه أيضًا بلغ ﷺ القمة فروى عنه **أنس بن مالك** ﷺ أنه: «**ما ضرب ﷺ بيده خادمًا قط ولا امرأة، ولا ضرب رسول الله ﷺ بيده شيئًا قط؛ إلا أن يجاهد في سبيل الله**»[(٣)]، ولك في حبيبك خير أسوة يا ناشد الكمال وعاشق الجمال.

---

(١) صحيح: رواه أحمد والأربعة عن ابن مسعود كما في ص ج ص رقم: ٥١٠٤.
(٢) حسن: رواه أحمد وأبوداود وابن ماجة عن أبي موسى كما في ص ج ص رقم: ٦٥٢٩.
(٣) صحيح: رواه أحمد عن عائشة كما في الصحيحة رقم: ٥٠٧.



الباب الخامس
البصـــر

أربع نظرات حرام

1 النظرة الأولى: النظرة المتطلِّعة

قال تعالى آمرًا نبيه: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [طه: ١٣١].

جاء في سبب نزول هذه الآية عن أبي رافع صاحب النبي ﷺ قال: «ضاف النبي ﷺ ضيفًا، ولم يكن عند النبي ﷺ شيء يصلحه، فأرسل إلى رجل من اليهود: «**يقول لك محمد رسول الله: أسلفني دقيقًا إلى هلال رجب**». قال: لا إلا بِرَهْن، فأتيت النبي ﷺ، فأخبرته فقال: «**أما والله إني لأمين من في السماء وأمين من في الأرض، ولئن أسلفني أو باعني لأؤدين إليه**»، فلما خرجتُ من عنده نزلت هذه الاية: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ إلى آخر الآية؛ كأنه يُعزِّيه عن الدنيا»(١).

ومعنى الآية أي لا تطمح ببصرك إلى زخارف الدنيا طموح رغبة وتمني، وأزواجًا منهم أي أصنافًا من الكفرة وقرناء منهم، فإن ما في الدنيا من أصناف الأموال والذخائر بالنسبة إلى ما أوتيته مستحقر لا يُعبأ به أصلا، ولا يكون الرجل مادًّا عينيه إلى الشيء إلا إذا أدام النظر نحوه، وإدامة النظر إليه تدل على استحسانه وتمني نواله.

وامتثل النبي ﷺ أمر ربه، ونصح أمته بما عمل به وسار عليه، فقال رسول الله ﷺ:

(١) ابن كثير ٢/ ٧٣٤.

«انظروا إلى من هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم»(١).

ويالها من وصية شاملة جامعة مانعة، كلماتها قليلة، وفوائدها غزيرة. قال **ابن بطال**:

«هذا الحديث جامع لمعاني الخير؛ لأن المرء لا يكون بحال تتعلق بالدين من عبادة ربه مجتهدًا فيها إلا وجد من هو فوقه، فمتى طلبت نفسه اللحاق به استقصر حاله، فيكون أبدا في زيادة تقربه من ربه.

ولا يكون على حال خسيسة من الدنيا إلا وجد من أهلها من هو أخس حالا منه، فإذا تفكَّر في ذلك علم أن نعمة الله وصلت إليه دون كثير ممن فُضِّل عليه بذلك من غير أمر أوجبه، فيُلزم نفسه الشكر، فيعظم اغتباطه بذلك في معاده.

وقال غيره: في هذا الحديث دواء الداء لأن الشخص إذا نظر إلى من هو فوقه لم يأمن أن يؤثر ذلك فيه حسدًا، ودواؤه أن ينظر إلى من هو أسفل منه ليكون ذلك داعيًا إلى الشكر»(٢).

وامتثل **عروة بن الزبير** ﷺ ما أمر الله به نبيه وما أمر النبي به أمته، فاستراح، فكان إذا رأى شيئًا من أخبار السلاطين وأحوالهم بادر إلى منزله فدخله وهو يقرأ: ﴿ **وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا** ﴾ [طه: ١٣١، ١٣٢]، ثم ينادي بالصلاة: «الصلاة يرحمكم الله»(٣).

الحسرة والخطأ والغزو

وحين خالف ابن عون هذه الوصية ونظر إلى من هو أعلى منه دنيا؛ صنع حسرته بنفسه وأورد نفسه موارد ندمه، فقال رحمه الله: «صحبتُ الأغنياء فلم أر أحدًا أكثر همًّا مني، أرى دابة خيرًا من دابتي، وثوبًا خيرًا من ثوبي، وصحبتُ الفقراء فاسترحت»(٤).

---

(١) صحيح : رواه أحمد ومسلم والترمذي وابن ماجة عن أبي هريرة كما في ص ج ص رقم : ١٥٠٧.
(٢) فتح الباري ١١/ ٣٢٣.
(٣) القرطبي ١١/ ٢٣٣.
(٤) فيض القدير ٢/ ٧٣.



وفوق الحسرة والندامة يكون الإثم والخطأ إذا كان المنظور إليه على خطأ ومعصية ولم تنكر عليه، فهذا **سفيان الثوري** وكان قاعدًا بالبصرة يومًا فقيل له: هذا **مساور بن سوار** يَمُرُّ، وكان على شرطة **محمد بن سليمان**، فوثب فدخل داره، وقال: «أكره أن أرى من يعصي الله ولا أستطيع أن أغيِّر عليه»(١)، وتبعه على الدرب **الفضيل بن عياض** الذي أصدر أمرًا صريحًا لمن أحب ممن يعرف وممن لا يعرف:

«لا تنظروا إلى مراكبهم، فإن النظر إليها يطفئ نور الإنكار عليهم»(٢).

وفوق الإثم والخطأ كذلك تكون الثالثة، وهي أن الدنيا تغزو قلبك ويزيح همها همَّ الآخرة من صدرك على إثر إدامة النظر إلى من هو أغنى منك، فلا يبقى للآخرة في القلب متنفس أو موضع قدم، وهو ما قرَّره **أبو سليمان الداراني** حين قال:

«إذا جاءت الدنيا إلى القلب ترحَّلت الآخرة منه، وإذا كانت الدنيا في القلب لم تجئ الآخرة تزحمها؛ لأن الدنيا لئيمة والآخرة عزيزة»(٣).

العدوى تنتشر!!

واسمعوا كيف يفسد الخليل خليله، ويُعدي الصاحب صاحبه في هذا الشأن:

عن **عثمان بن عطاء** عن أبيه قال: «كان **أبو مسلم الخولاني** إذا انصرف إلى منزله من المسجد كبَّر على باب منزله فتُكبِّر امرأته، فإذا كان في صحن داره كبَّر فتجيبه امرأته، وإذا بلغ باب بيته كبَّر فتُجيبه امرأته، فانصرف ذات ليلة فكبَّر عند باب داره فلم يُجبه أحد، فلما كان في الصحن كبَّر فلم يُجبه أحد، فلما كان عند باب بيته كبَّر فلم يُجبه أحد، وكان إذا دخل بيته أخذت امرأته رداءه ونعليه ثم أتته بطعامه. قال: فدخل البيت، فإذا البيت ليس فيه سراج، وإذا امرأته جالسة في البيت منكسة تنكت بعود معها، فقال لها: مالك؟! قالت: أنت لك منزلة من معاوية وليس لنا خادم فلو سألته فأخدمنا وأعطاك، فقال: اللهم من أفسد عليَّ

---

(١) الورع ص ٦٧.
(٢) الورع ١/ ٦٧، ٦٨.
(٣) حلية الأولياء ٩/ ٢٦٠.

امرأتي فأعمِ بصرها. قال: وقد جاءتها امرأة قبل ذلك، فقالت لها: زوجك له منزلة من معاوية، فلو قلت له يسأل معاوية يخدمه ويعطيه عشتم. قال: فبينا تلك المرأة جالسة في بيتها إذ أنكرت بصرها، فقالت: ما لسراجكم طُفِئ؟ قالوا: لا فعرفت ذنبها، فأقبلت إلى أبي مسلم تبكي وتسأله أن يدعو الله عز وجل لها أن يرد عليها بصرها. قال: فرحمها أبو مسلم، فدعا الله لها، فردَّ عليها بصرها»(١).

2 النظرة الثانية: النظرة الخائنة

لما كان يوم فتح مكة أمن رسول الله ﷺ الناس إلا أربعة نفر وامرأتين وقال اقتلوهم وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة، وكان منهم **عبد الله بن سعد بن أبي سرح**(٢)، فإنه اختبأ عند **عثمان بن عفان** ﷺ، فلما دعا النبي ﷺ الناس إلى البيعة جاء به حتى أوقفه على النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله.. بايع **عبد الله**، فرفع رأسه، فنظر إليه ثلاثًا كل ذلك يأبى، فبايعه بعد ثلاث، ثم أقبل على أصحابه، فقال: أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حين رآني كففت يدي عن بيعته فيقتله، فقالوا: ما يدرينا يا رسول الله ما في نفسك؟! ألا أومأت إلينا بعينك، فقال: «**إنه لا ينبغي لنبي أن تكون له خائنة أعين**»(٣).

وخائنة العين هو أن يُضمر الإنسان في قلبه غير ما يُظهر للناس، فإذا كفَّ أحد لسانه وأومأ بعينه بخلاف ذلك فقد خان، وإذا أطلق لسانه بحلو الحديث عن أحد وأومأ بعينه بعكس ذلك من ورائه فقد خان، فلابد للعين من أن تُوافق القلب وإلا كانت خائنة.

---

(١) حلية الأولياء ٢/ ١٢٩، ١٣٠.

(٢) عبد الله بن سعد بن أبي سرح القرشي العامري أبو يحيى أخو عثمان من الرضاعة، ولاه عثمان مصر، وكان بطلاً شجاعًا مذكورًا، وكان أمير غزوة ذات الصواري من أرض الروم غزاها في البحر، فالتقى الروم وكانوا في ألف مركب فتلهم مقتلة عظيمة لم يقتلوا مثلها، ولما احتضر قال: اللهم اجعل آخر عملي صلاة الصبح، فلما طلع الفجر توضأ وصلى، فلما ذهب يسلِّم عن يساره فاضت نفسه. تاريخ الإسلام بتصرف.

(٣) التمهيد ٦/ ١٧٦.

3 النظرة الثالثة: النظرة المتلصصة

قال ﷺ: **«من اطلع في بيت قوم بغير إذن ففقؤوا عينه فلا دية له ولا قصاص»**[(١)].

لقد حرَّم النبي ﷺ الاطلاع على بيت المسلم دون إذنه حماية لثغر عينك من أن تغزوه النظرة المهلكة، إنها الحماية الثنائية المتبادلة للناظر والمنظور إليه، حماية الناظر من فساد قلبه، وحماية المنظور إليه من خرق حرمته وخصوصيته؛ ولذا شرع الله الاستئذان. قال تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾ [النور: ٢٧].

يقول شهيد القرآن **سيد قطب**:

«لقد جعل الله البيوت سكنًا، يفيء إليها الناس، فتسكن أرواحهم، وتطمئن نفوسهم، ويأمنون على عوراتهم وحرماتهم، ويلقون أعباء الحذر والحرص المرهقة للأعصاب!

والبيوت لا تكون كذلك إلا حين تكون حرمًا آمنًا لا يستبيحه أحد إلا بعلم أهله وإذنهم، وفي الوقت الذي يريدون، وعلى الحالة التي يحبون أن يلقوا عليها الناس.

ذلك إلى أن استباحة حرمة البيت من الداخلين دون استئذان، يجعل أعينهم تقع على عورات، وتلتقي بمفاتن تثير الشهوات، وتهيئ الفرصة للغواية، الناشئة من اللقاءات العابرة والنظرات الطائرة، التي قد تتكرر فتتحول إلى نظرات قاصدة، تحركها الميول التي أيقظتها اللقاءات الأولى على غير قصد ولا انتظار، وتحوِّلها إلى علاقات آثمة بعد بضع خطوات أو إلى شهوات محرومة تنشأ عنها العقد النفسية والانحرافات.

ولقد كانوا في الجاهلية يهجمون هجومًا، فيدخل الزائر البيت، ثم يقول: لقد دخلت! وكان يقع أن يكون صاحب الدار مع أهله في الحالة التي لا يجوز أن يراهما عليها أحد، وكان يقع أن تكون المرأة عارية أو مكشوفة العورة، هي أو الرجل، وكان ذلك يؤذي ويجرح، ويحرم البيوت أمنها وسكينتها؛ كما يعرض النفوس من هنا ومن هناك للفتنة، حين تقع العين على ما يثير.

---

(١) صحيح: رواه أحمد والنسائي عن أبي هريرة كما في ص ج ص رقم: ٦٠٤٦.

من أجل هذا وذلك أدب الله المسلمين بهذا الأدب العالي، أدب الاستئذان على البيوت، والسلام على أهلها لإيناسهم، وإزالة الوحشة من نفوسهم قبل الدخول».

4 النظرة الرابعة: النظرة الجائعة:

وهي نظرة الرجل إلى المرأة الأجنبية بشهوة، ونظرة المرأة إلى الرجل الأجنبي بشهوة، وهؤلاء هم..

الشاربون من البحر!!

قد لا تلمح ما تفعله النظرة في قلب صاحبها في التو، لكنها تزرع النار في الفؤاد لتأتي عليه آخر الليل لتحيله رمادًا في رماد، وما أشبهها بعقرب الساعة تراه في الصباح ثابتًا فإذا عدت إليه آخر النهار وجدته قد انتقل من مكانه، فهو يمشي وإن لم تر مشيه، ويعمل وأنت لا تشعر أنه يعمل.

إن إطلاق البصر يؤدي إلى كثرة عرض الصور المنقوشة في الذهن والمحفورة في القلب، سواء أكانت حية في واقعية أو مطبوعة في مجلة أو متحركة على شاشة، ولا شك أن تكرار النظر يؤدي إلى سهولة استدعاء هذه الصور عند مفارقتها، وسهولة استدعائها تؤدي ولابد إلى تخيلها بوضع مثير مما يؤدي إلى مضاعفات المرض وزيادة آلامه، وبهذا يتعذب صاحب القلب المسكين.

تولّع بالعشق حتى عشق ... فلما استقل به لم يُطق
رأى لجة ظنها موجة ... فلما تمكّن منها غرق
ولما رأى أدمعًا تستهلُّ ... وأبصر أحشاءه تحترق
تمنى الإفاقة من سُكره ... فلم يستطعه ولم يستفق

ومن خطورة هذا المرض أنه لا يقتصر على صورة معينة ولا يقف عند حد، فإذا نظر المريض إلى امرأة استرسل بصره إلى غيرها، الواحدة بعد الأخرى والصورة بعد الصورة، دون أن يشفي غليله أو يطفئ لهيبه، فكان كالذي يشرب من ماء البحر.. لا البحر ينفد ولا هو يرتوي.

ومن خطورته كذلك أنه بريد الزنا. قال **سيد قطب**:

«وحفظ الفرج هو الثمرة الطبيعية لغض البصر، أو هو الخطوة التالية لتحكيم الإرادة



ويقظة الرقابة، والاستعلاء على الرغبة في مراحلها الأولى، ومن ثم يجمع بينهما في آية واحدة بوصفهما سببًا ونتيجة، أو باعتبارهما خطوتين متواليتين في عالم الضمير وعالم الواقع، كلتاهما قريب من قريب»[(١)].

قصة النظرات الثلاث!!

وهذا صحابي ينظر إلى امرأة ويدقق النظر إليها وهو في صحبة من؟! في صحبة خير الخلق وسيد الرسل رسول الله ﷺ، وأين؟ في أرض المناسك والبلد الحرام، ومتى؟ يوم النحر وهو يوم الحج الأكبر أعظم الأيام عند الله.

واسمعوا القصة:

أن امرأة من خثعم استفتت رسول الله ﷺ في حجة الوداع [يوم النحر]، **والفضل بن العباس** رديف رسول الله ﷺ، وكان **الفضل** رجلاً وضيئًا، فوقف النبي ﷺ للناس يفتيهم، فأخذ **الفضل بن العباس** يلتفت إليها وكانت امرأة حسناء (وفي رواية: وضيئة) (وفي رواية: فطفق **الفضل** ينظر إليها وأعجبه حسنها) وتنظر إليه، فأخذ رسول الله ﷺ بذقن **الفضل** فحوَّل وجهه من الشق الآخر.

وفي رواية **الفضل** نفسه: «فكنت أنظر إليها فنظر إلي النبي ﷺ فقلب وجهي عن وجهها، ثم أعدت النظر فقلب وجهي عن وجهها حتى فعل ذلك ثلاثًا وأنا لا أنتهي».

وكان **العباس** حاضرًا هذا الموقف فقال: يا رسول الله لم لويت عنق ابن عمك؟ قال: **«رأيت شابًّا وشابة فلم آمن الشيطان عليهما»** [(٢)].

فما علاج العشق إذا وقع بأول نظرة؟

مبدئيًّا.. ليس أجهل من طبيب يداوي سكران في وقت سكره، لن يكون للسكران دواءٌ حتى يفيق؛ لذا كانت إرادة المريض ورغبته في الشفاء شرطًا أساسيًّا لحدوث الشفاء.

---

(١) في ظلال القرآن ص ٢٥١٢.

(٢) صحيح: رواه الشيخان وأحمد والترمذي كما في ص ج ص رقم: ٥٥٩٧.

حين أخذنا هذا السؤال وانطلقنا إلى عيادة أقرب طبيب فإذا به **ابن الجوزي**، فحمدنا الله وسألناه فوصف لنا سطرين من كتابه (**ذم الهوى**) من قرأهما وعمل بما فيهما حصل له الشفاء بإذن الله، فاقرأ معي لتشفى:

«علاجه الإعراض عن النظر، فإن النظر مثل الحبة تُلقى في الأرض، فإذا لم يُلتفت إليها يبست، وإن سُقيت نبتت، فكذلك النظرة إذا ألحقت بمثلها»[1].

العاشق.. كلما أراد التوبة فشل، وكلما نوى الرجوع أبت عليه نفسه، وكلما دعاه للخير داعٍ جذبه إلى الهوى عشرة، ويظل هكذا يحاول ويفشل، وينهض ويسقط حتى ينهار في النهاية ويرفع الراية البيضاء ويترك المحاولة وعندها.. الهلاك.

العاشق.. مطلق بصره ومهمل عينه قد بعث قلبه في تأمل آثار الجمال فماذا جنى؟! لم يشعر بنفسه إلا وهو أسير الأغلال، وما أقلع عن النظرات حتى خرَّ صريع الحسرات، وما برحت سهام الفاتنات ترمي قلبه حتى سقط بينهن قتيلاً، وما زالت تفعل فيه ما لا تفعله السيوف حتى هلك.

مسكين.. سافر بعينيه إلى محاسن المنظور إليه فلم يجنِ إلا وعثاء السفر والحسرة والندم، وأهلك نفسه بالاشتراك في هذه الرحلة، وما درى أن المسافر فيها على شفا جرف هار، وما أخطره من سفر؛ لا يستطيع المسافر فيه الرجوع إلى ما كان عليه من الفطرة السليمة والسكينة الإيمانية، ولا يصل إلى ما ظنه المتعة الأبدية والسعادة السرمدية، رأى من بعيد ما ظنه برد الشراب فلما جاءه وجد أليم العذاب وسريع الحساب.

العاشق.. وعَدَك الشيطان فأخلف، أغراك بسراب السعادة، وغرَّك بخادع الأمل، ثم تركك في نهاية المشوار فريسة للوعات الحسرة وزفرات الندم وطبقات النار وألسنة اللهب فماذا ربحت؟! يا هاجرًا جنة السعادة إلى نار العذاب.. يا من باع فرح ساعة لا شهر بغم سنة بل دهر: ما فائدة طعام لذيذ لكنه مسموم؟! ما العائد من شيء أوله لذة وآخره موت!!

العاشق.. أمتَّ قلبًا كان حيًّا فأحسن الله عزاك؟! والله لو نطقت عينك لاشتكتك،

---

(١) ذم الهوى ص ٤٤٠ – ط دار الكتب العلمية.

فواجه نفسك ولا تكن كالنعامة تخفي رأسها في التراب؛ لتواري جسدها من سنان الحراب!! واعلم أنه كم من نظرة تحلو في العاجلة لكن مرارتها في الآخرة لا تُطاق.

أعـان طرفي على قلبي وأعضائي ... بنظـرة وقفت جسمي على دائـي
وكنتُ غِرًّا مما يجني على بدني ... لا علم لي أن بعضي بعض أعدائي

مضاعفات المرض

يجب على كل عاقل أن يحترز من كل ما يضاعف أثر النظرة الجائعة:

☒ الفراغ:

فى أحضان الفراغ تولد آلاف الرذائل، وتَختمر جراثيمُ الشهوات والجرائم، وإذا كانت الدنيا غراسًا للآخرة؛ فإن الفارغين يُحشرون يوم القيامة مفلسين لا حصاد لهم غير الندم والخسران.

اقتله قبل أن يقتلك!!

قال ابن القيِّم: «وعشق الصور إنما تبتلى به القلوب الفارغة من محبة الله تعالى المعرضة عنه المتعوِّضة بغيره عنه، فإذا امتلأ القلب من محبة الله والشوق إلى لقائه، دفع ذلك عنه مرض عشق الصور ولهذا قال تعالى في حق يوسف ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ فدلَّ على أن الإخلاص سبب لدفع العشق وما يترتب عليه من السوء والفحشاء التي هي ثمرته ونتيجته، فصَرْف المُسَبِّب صَرْف لسببه ولهذا قال بعض السلف العشق حركة قلب فارغ يعني فارغًا مما سوى معشوقه»(١).

فإن الفراغ أشد ما يكون فتكًا بصاحبه، وقد ذكر ابن حزم رحمه الله أنه قرأ في سير ملوك السودان أن الملك يُوَكِّل ثقةً له بنسائه يلقي عليهن ضريبة من غزل الصوف يشتغلن بها أبد الدهر، لأنهم يقولون: إن المرأة إذا بقيت بغير شغل إنما تشتاق إلى الرجال، وتحِنُّ إلى النكاح(٢).

---

(١) زاد المعاد ٤/ ٢٦٨ ط. الرسالة.
(٢) طوق الحمامة ص ١٤٠ – منشورات مكتبة دار الحياة.

⊠ السير منفردًا متاهة:

جاء في الحديث أنّ النبي ﷺ (**نهى عن الوحدة: أن يبيت الرجل وحده**)(١).

وذلك من حرص الحبيب علينا؛ حتى لا يقع المريض فريسة للشيطان، فيسهل على العدو التسلل إلى قلبه في غيبة الإخوان، فيرمي إليه بذور الهوى ويشعل فيه نار الشهوة عن طريق الخواطر الشهوانية والرغبات الأرضية، مستعينًا في ذلك بغياب الرقيب وانعدام النصح.

⊠ غياب الحجر الصحي:

إنما يوصف الدواء لمن يقبل الدواء، أما المخلِّط فإن الدواء يضيع عنده، فإن صحَّ عزمك على استعمال دوائي فاسمع أصف:

البعد عن مواطن الوباء والنفوذ الشيطاني التي نشر الشيطان فيها جنده فسادوا حتى صارت بؤرة للفتن، مثل الشواطئ والأسواق، فواجبٌ على كل من يأمل في الشفاء أن يجتنب هذه الأماكن قدر استطاعه ولا يدخلها إلا لحاجة، وهي وصية استشاري قلوب المؤمنين **أبي الفرج ابن الجوزي**:

«فاحذر رحمك الله من أن تتعرض بسبب البلاء فبعيد أن يسلم مقارب الفتنة منها، وكما أن الحذر مقرون بالنجاة فالتعرض بالفتنة مقرون بالعطب، ونذُر من يسلم من الفتنة مع مقاربتها»(٢).

وإن كان هذا كلامه وقد عاش في القرن السادس فما نقول نحن في هذا الزمان؟ فاجتنب أماكن الاختلاط إلا لحاجة، وأما الفتنة التي تناديك في السواحل والشواطئ على لسان الأجساد العارية، وفي المكتبات على لسان الجرائد المصورة والروايات الخليعة، وفي المدرسة والجامعة على لسان أصحاب الاستهتار والفجور، وفي برامج التلفاز العابثة والقنوات الفضائية الماجنة وصفحات الإنترنت الفاسدة، ففر من المجذوم فرارك من الأسد، والموعد الجنة يا خاطب الحور.

⊠ الاختلاط بريد الزنا:

واسمع إلى خبر **هند بنت الخس** وهي إحدى أميرات العرب في الجاهلية، وكانت مشهورة

---

(١) صحيح: رواه أحمد عن ابن عمر كما في ص ج ص رقم: ٦٩١٩.
(٢) ذم الهوى ص ١٢٦ – ط دار الكتب العلمية– ط ٢.

بالعقل والذكاء والفصاحة والحكمة، وذُكر أنها زنت مع عبد لها فقيل لها: ما حملك على الزنا مع عقلك ورأيك؟! فقالت: **قرب الوِساد وطول السَّواد**، أي قرب مضجع الرجل مني وطول مسارَّته لي، والسواد: المسارَّة، وساوده: إذا سارَّه، وأصله من السواد وهو الشخص، وذلك أن المُسارَّ يُدني شخصه من شخص من يُساره فيُقال: ساوده؛ أي أدنى سواده من سواده[١].

والناظر في أي جريمة زنا يرى في الاختلاط أس المشاكل وأصل البلاء ومضاعف المرض، وليست المعاينة كالسماع، فنظرة واحدة في أحوال الغارقين في الوحل تغني عن آلاف الخطب والمواعظ وصيحات التحذير، ومن لم تنفعه عينه لم تنفعه أذناه. قال **يحيى بن معاذ**: «من لم يعتبر بالمعاينة لم يتعظ بالموعظة، ومن اعتبر بالمعاينة استغنى عن الموعظة»[٢].

المتوالية المهلكة !!

ولا أحد يعلم طبيعة النفوس البشرية كخالقها سبحانه ﴿ **أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ** ﴾؛ لذا فقد قامت فلسفة الإسلام في مكافحة الشهوة ورحمته بأبنائه على الحد من الاختلاط عن طريق عدد من الإجراءات الاحتياطية والخطوات الوقائية التي تنزع فتيل الشهوات، لأن أي اختلاط يستمر وقتًا من الزمن، وأي علاقة بين الجنسين تمتد وتطول لابد وأن تؤدي إلى نوع من الارتباط بين الرجل والمرأة لينقلب إلى عاطفة متصاعدة شئنا أم أبينا، ثم تنقلب حبًّا، ومن بعد الحب العشق والهيام، ومن ثم خوف الفتاة المستمر من ترك الحبيب لها أو الانحدار معه نحو الهاوية، وقد تتعرض لصدمة نفسية ومحنة كبيرة واضطرابات عصبية ونفسية في حال الفراق، وتواجه المشاكل الدائمة مع أسرتها، فضلاً عن خسارتها لعلاقتها بربها[٣].

---

(١) كتاب جمهرة الأمثال ٢/ ١٢٧ – أبو هلال العسكري – ط دار الفكر – الطبعة الثانية.
(٢) طبقات الصوفية ص ١١٣.
(٣) من كتابي (ونطق الحجاب).



الباب السادس

الشم

وهذا هو آخر ثغر يوصل إلى القلب، وقد يدخل منه الحرام البيِّن كشمٍّ المرأة الأجنبية، لذا عرف الصحابة خطورة هذا الثغر حتى قرَّر **أبو موسى الأشعري** ﷺ:

«لأن يمتلئ منخراي من ريح جيفة أحب إليَّ من أن يمتلئا من ريح امرأة»(١).

واتفق معه في ذلك وأقرَّه عليه الصحابي ابن الإسلام **أبو عبد الله سلمان الخير** ﷺ الذي ردَّد نفس المعنى قائلا:

«لأن أُزاحم جملا قد هُيِّئ بالقطران أحب إليّ من أن أُزاحم امرأة عطِرة»(٢).

وما ذلك إلا لأنهما تعلما من نبيه ﷺ الذي شدَّد على كل امرأة تعطَّرت أن لا تخرج من بيتها ولو لأطهر مكان وهو المسجد لأداء أسمى عبادة وهي الصلاة، فقال: «**لا تُقبل صلاة لامرأة تتطيب لهذا المسجد حتى ترجع فتغتسل غسلها من الجنابة**»(٣)، بل ووصفها بوصف غاية في الشدة لينفِّر كل امرأة منه فقال:

«**إذا استعطرت المرأة فمرَّت على القوم ليجدوا ريحها فهي زانية**»(٤).

لكن لماذا هذا الوصف المريع: زانية؟!

والجواب: لأنها هيَّجت شهوة الرجال بعطرها، وحملتهم على النظر إليها، فالشم هنا قام مقام النظر حيث قاد إليه، وكل من نظر إليها فقد زنى بعينه؛ وتشوَّش قلبه، ووهن إيمانه.

وقد تنافس في حراسة هذا الثغر أبطال أفذاذ حتى لا يدخل منه أي ما يُعكِّر صفو القلب، ولو كان مباحًا ولكنه الورع؛ كما روى **يونس بن أبي الفرات: أن عمر بن عبد العزيز** – رحمه

(١) من كتابي (ونطق الحجاب) ص ٧٤.
(٢) نثر الدر ١/ ١٢٢، هو سلمان الفارسي ﷺ وسبب تسميته ابن الإسلام أنه سئل عن نسبه فقال: أنا سلمان ابن الإسلام. أسد الغابة ١/ ٤٦٢.
(٣) صحيح: رواه أبو داود عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ٧٣٨٥.
(٤) صحيح: رواه أبو داود والترمذي والنسائي عن أبي موسى كما في ص ج ص رقم: ٣٢٣.

الله- أُتي بغنائم مسك، فأخذ بأنفه، فقالوا: يا أمير المؤمنين!! تأخذ بأنفك لهذا. قال: «إنما ينتفع من هذا بريحه، فأكره أن أجد ريحه دون المسلمين»[١].

وأما الشم المستحب، فشم ما يعينك على طاعة الله ويقوي حواسك على ذلك، ويبسط النفس إلى العلم والعمل، ولهذا كان مما حُبِّب إلى نبينا ﷺ من دنيانا الطيب، وكان هديه في الريحان أن لا يرده إذا أُهدي إليه، ففي صحيح مسلم عن النبي ﷺ:

«من عُرِض عليه ريحان فلا يرده، فإنه طيب الريح خفيف المحمل»[٢].

ومن الشم المستحب شم الزوج لعطر زوجته والزوجة لعطر زوجها، وعندما يجد كل منهما الريح الطيب والعطر الشذي من زوجه يزداد له حبًّا وألفة وارتباطًا وقربى.

---

(١) الورع ص ٧٤.

(٢) صحيح : رواه مسلم وأبوداود عن أبي هريرة كما في ص ج ص رقم : ٦٣٩٢.





محتويات الكتاب

الموضـــــــوع	الصفحة

1 موضع الإصابة

2 بأي قلب نلقاه؟!

3 رحلة سقوط

4 حراسة الأبواب الستة



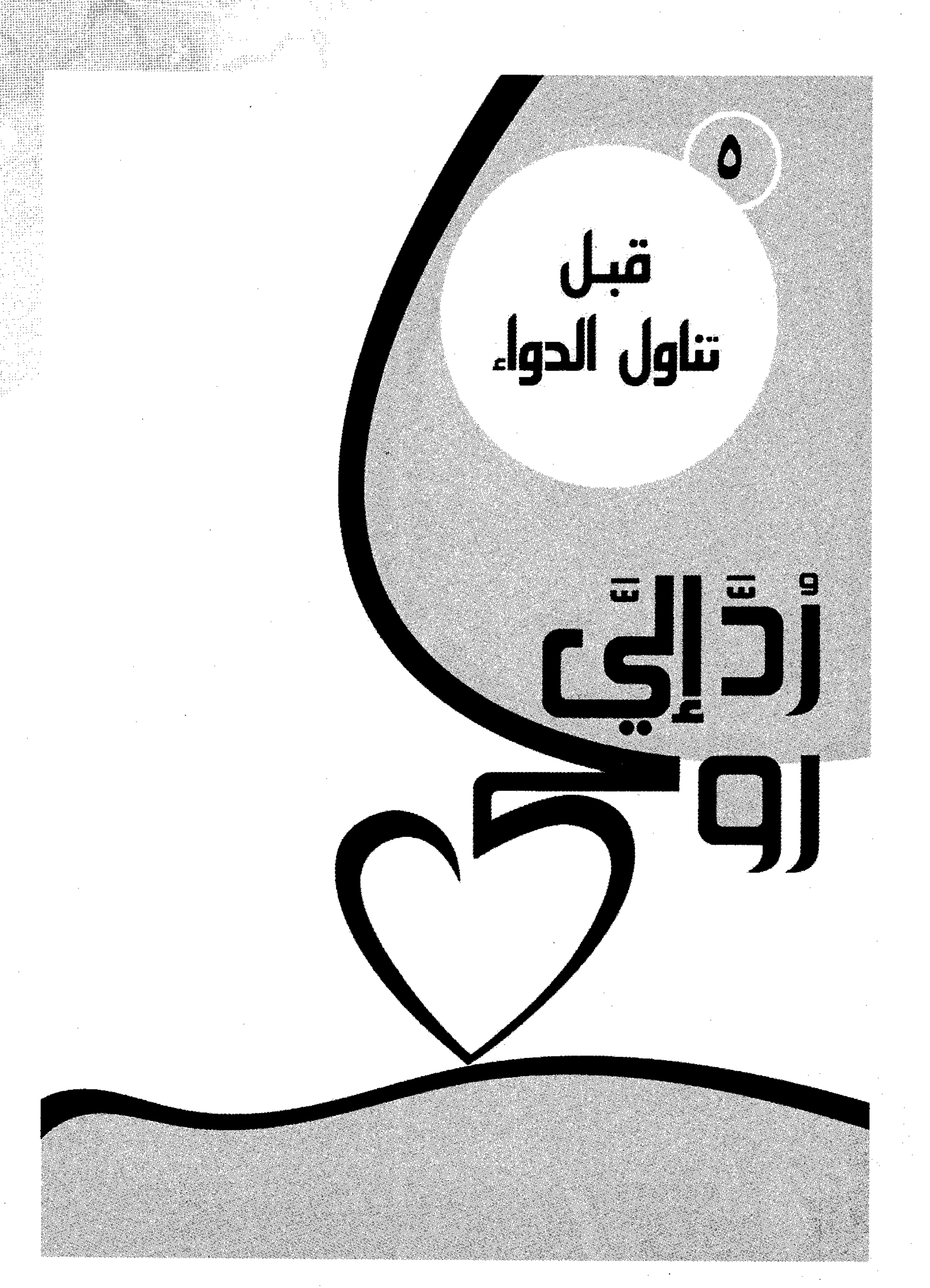
رُدَّ إليَّ روحي

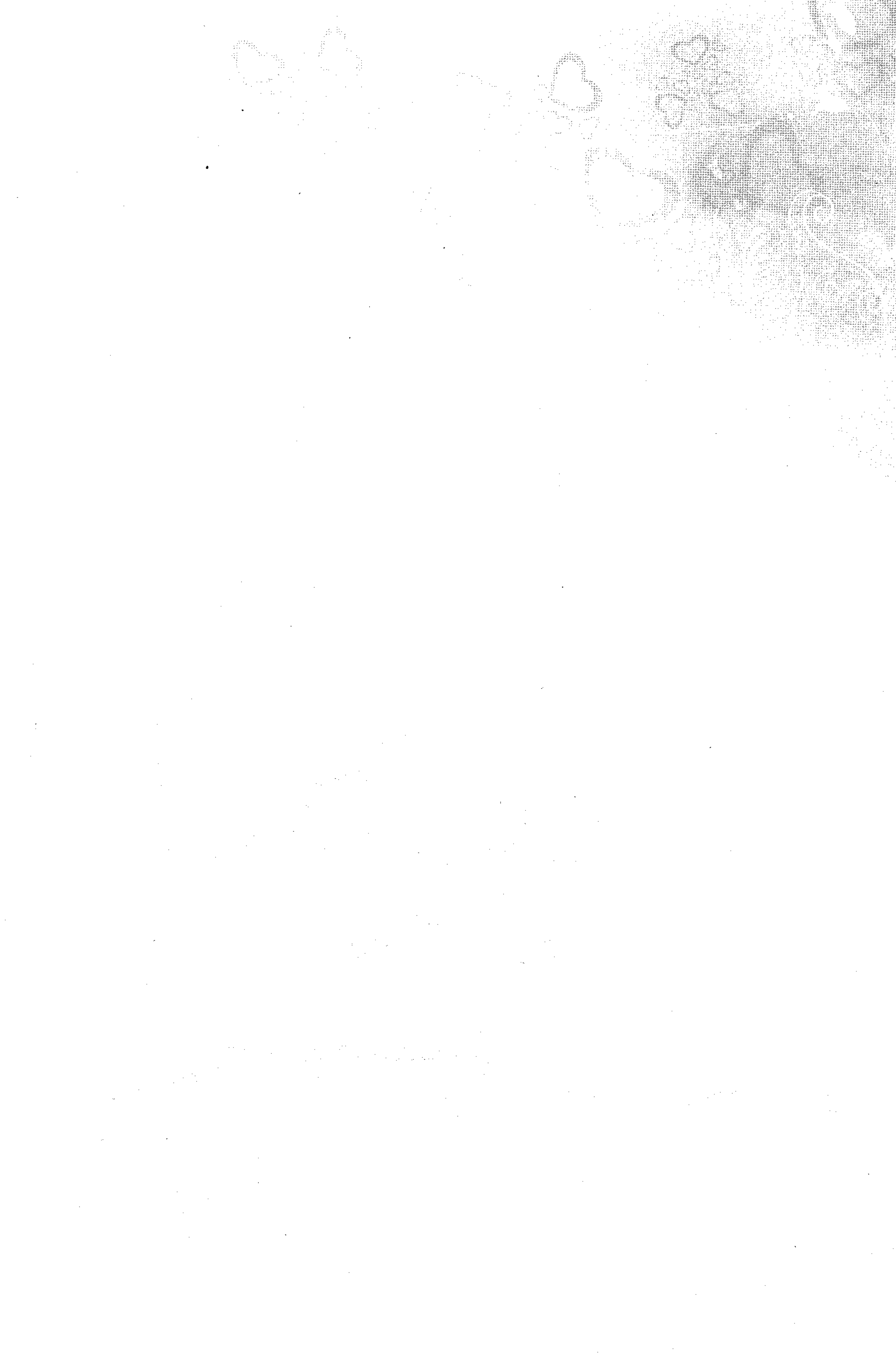
(٢)

جرعات الدواء

د. خالد أبو شادي




٥
قبل
تناول الدواء



المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران:١٠٢].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء:١]، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب:٧٠، ٧١] أما بعد:

فهذا هو كتاب «**جرعات الدواء**» وهو الكتاب الثاني من موسوعة «**رُدَّ إليَّ روحي**»، وإن كان الكتاب الأول هو مقدمة الموسوعة فإن الكتاب الثاني هو أصل هذه الموسوعة، فالكتاب الأول أساس والكتاب الثاني هو البناء المرتفع فوق هذا الأساس، الكتاب السابق باب البستان وهذا الكتاب هو البستان نفسه برياحينه وورده وأزهاره وشذاه.

بمعنى آخر.. الكتاب الأول يغطي الجانب النظري لعودة الروح، وهذا الكتاب يترجم الكتاب الأول إلى واقع عملي وبرنامج واقعي وليس مجرد حروف في سطور وكتل في صفحات، فهلم هلم إلى العمل والبذل والنشاط يا أصحاب الهمم العالية والنفوس الصافية.

وأنا واثق أن أثر هذا الكتاب سيكون رائعًا مباركًا ليس بسببي وبسبب جهدي، بل

بسبب ما سبق وقاله الجنيد بن محمد: «لو أن العلم الذي أتكلم به من عندي لفني، ولكنه من حق بدأ وإلى الحق يعود»(١).

تباركت ربي!! ما أشذى نسيم السير إليك!! ما أبرد شعور الرضا عنك!! ما ألذ القرب منك!!

اللهم اجبر كل كسر منا بنظرة نعيش عليها طوال حياتنا في جنابك، اللهم لا تجعلنا ممن نتجرَّع مُرَّ العيش من بعد حلوه، ونتعوَّض من الإكرام بالهوان.. اللهم آمين.

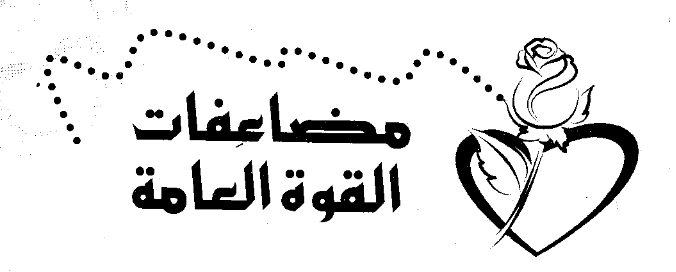
وعن أحمد بن محمد الزيادي قال: سمعت أبا سعيد الخراز يقول: العافية سترت البر والفاجر فإذا جاءت البلوى يتبين عندها الرجال.(٢)

من كلام إبراهيم التيمي أنه يقول: أي حسرة أكبر على امرئ من أن يرى عبدًا كان له خوَّله الله إياه في الدنيا هو أفضل منزلة منه عند الله يوم القيامة، وأي حسرة على امرئ أكبر من أن يصيب مالاً فيرثه غيره فيعمل فيه بطاعة الله تعالى فيصير وزره عليه وأجره لغيره، وأي حسرة على امرىء أكبر من أن يرى من كان مكفوف البصر ففتح له عن بصره يوم القيامة وعمي هو.(٣)

قال جعفر بن برقان: قلت لميمون بن مهران: إن فلانا يستبطئ نفسه في زيارتك. قال: إذا ثبتت المودة فلا بأس وإن طال المكث.(٤)

---

(١) حلية الأولياء ١٠/ ٢٦٣.
(٢) صفة الصفوة ٢/ ٤٣٨.
(٣) حلية الأولياء ٤/ ٢١٤.
(٤) حلية الأولياء ٤/ ٩١.



على عتبة هذا الباب:

هي خمسة عشر قرصًا سهلة البلع عظيمة النفع تُمِدُّ القلب بالقوة وتُعِدُّه للعلاج قبل تلقي جرعات الدواء ودورات الاستشفاء، سمِّها إن شئت **مضاعِفات القوة العامة**، وهي غير مضاعفات القوة الخاصة بكل جرعة والتي سأتعرَّض لها عند التحدُّث عن جرعات الدواء، وإياك إياك أن تبخل على نفسك بها، فإن أشد درجات البخل أن يبخل الإنسان على نفسه مع الحاجة، فيمرض أشد المرض ولا يتداوى، ولو أن مريضًا تناول الدواء دون أن يأخذ وصايا الطبيب في الاعتبار لما أفلح دواؤه ولا تم شفاؤه، والآن مع أولى الوصايا:

1 لا تردَّ الدواء أو تتهاون فيه:

قال ابن القيم:

«حذارِ حذارِ من أمرين لهما عواقب سوء: أحدهما: ردُّ الحق لمخالفته هواك، فإنك تُعاقب بتقليب القلب، وردِّ ما يَرِدُ عليك من الحق رأسًا ولا تقبله إلا إذا برز في قالب هواك. قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]، فعاقبهم على ردِّ الحق أول مرة بأن قلَّب أفئدتهم وأبصارهم بعد ذلك.

والثاني: التهاون بالأمر إذا حضر وقته، فإنك إن تهاونت به ثبَّطك الله وأقعدك عن مراضيه وأوامره عقوبة لك. قال تعالى: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ﴾ [التوبة: ٨٣]، فمن سلم من هاتين الآفتين والبليتين العظيمتين فليهنه السلامة»(١).

---

(١) بدائع الفوائد ٣/ ١٨٠.

وهذا ما أبكى أبا الدرداء ﷺ عند موته وهو أشهر من عُرِف عنه التفكر وطول التدبر من صحابة النبي ﷺ، حيث ظلَّت آية واحدة عالقة في ذهنه لا تفارقه لحظة حتى عند موته، وكان مما هداه إليه تدبره: أن هذه الآية هي من أهم ما قرأ؛ فما تذكر غيرها عند الوفاة، فعن أم الدرداء أن أبا الدرداء لما احتضر جعل يقول:

«من يعمل لمثل يومي هذا؟! من يعمل لمثل ساعتي هذه؟! من يعمل لمثل مضجعي هذا؟! ثم يقول: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠]»(١).

وكأنه ﷺ خشي أن يكون قد قصَّر في قبول الحق من نبينا ﷺ حين عرضه عليه أول مرة، وظن أنه لم يأخذه كما ينبغي بأقصى قوة وعزم وبأسرع استجابة من أول لحظة، فعاتب نفسه على ذلك حتى علا النحيب قبل الرحيل.

وردُّ الدواء يتمثل في عدم تناوله عمدًا أو سهوًا، أو تناوله مع عدم المواظبة عليه، أو الانصراف إلى غيره والتماس الشفاء في ما عداه، أو الاستخفاف بمفعوله وأثره، وأي من هذه الآفات كفيل بأن يحول بينك وبين شفائك واستعادة عافيتك الإيمانية.

ولعل مما يعينك على تنفيذ هذه الوصية أن تُنزِل نفسك بمنزلة مريض عُرِض عليه أن يتناول الدواء أيامًا معدودة لينال عافية الدهر؛ فهو بمنزلة كسير عليه أن يحتمل مرارة الدواء حينًا لتحصل له الصحة الأبدية، أو بمنزلة الغريق الذي أُلقي إليه طوق النجاة فإن تشبَّث به وإلا صار طعام السمك في قاع البحر، ويدفعك إلى ذلك دفعًا ويذكِّرك به كلما نسيت: بكاء أبي الدرداء ساعة الاحتضار!!

2 أيقن بفاعلية الدواء:

عن أبي سعيد الخدري ﷺ أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: أخي يشتكي بطنه، فقال ﷺ: اسقه عسلاً، ثم أتى الثانية فقال: اسقه عسلاً، ثم أتى الثالثة فقال: اسقه عسلاً، ثم أتاه فقال: فعلت، فقال ﷺ: «صدق الله وكذب بطن أخيك... اسقه عسلاً»، فسقاه فبرأ(٢).

---

(١) حلية الأولياء ١/ ٢١٧.

(٢) صحيح: رواه الشيخان عن أبي سعيد الخدري كما في اللؤلؤ والمرجان رقم: ١٤٣٢.

وإن كان للصحة النفسية دور أساسي في شفاء أي مريض، فإن الصحة النفسية الإيمانية هنا هي الاطمئنان إلى فاعلية الدواء والتأكد من أنه سيجلب الشفاء، فكلما نزل الدواء على قلب أكثر يقينًا وأكمل ثقة كلما كان أثره أعظم والشفاء أقرب، وكلما امتلأ القلب بالشك والرِّيَب كان نزول الدواء عليه كنزول الماء بأرض قيعان لا تُمسك الماء ولا تُنبت الكلأ.

لكن لماذا لا نوقن والله سبحانه هو الذي أرشدنا إلى الدواء وحثَّنا عليه؟! وكيف لا نوقن والدواء جرَّبه ملايين الصالحين من قبلنا فوجدوا أعظم الأثر ووصلوا إلى ما ينشدون؟! وحتى متى لا نوقن والوعد وعد رسول الله وهل أوفى من رسول الله؟! والبشارة بالشفاء جاءتنا على لسانه ولا أصدق؟! فوالله لو أيقنتم بشفائكم لاستكثرتم من دوائكم، ولو انتبهتم من رقادكم لوصلتم إلى مرادكم، فأعطوا أنفسكم من دوائها ما ستقرؤونه يعطِكم ربكم من شفائه ما طلبتموه، وإلا تجرَّعتم جرعات الندم على موائد الأسف، حين ترون أثر الدواء في الدنيا ومفعوله في الآخرة، وتندمون ندامة **الكُسَعِيِّ**(١) حين رأت عيناه ما صنعت يداه.

3 داوِم تصل:

طالب الشفاء اليوم لا ينال مراده بعبادة يوم وليلة، بل لابد من مداومة، وقد تبين في حديث العسل أن المريض لم يجد أثر الدواء حتى تناول ثلاث جرعات، وليس ذلك في أمراض الأبدان فحسب بل في أمراض القلوب كذلك، فالنفس لا تقبل أثر الطاعة ولا تتشرب فائدتها إلا بعد مدة ومواظبة عليها، وهو ما أفتى به فقهاء القلوب على مر العصور؛ حين أبانوا أثر عدم المواظبة على الدواء في تدهور حالة القلب، فهذا **أبو سليمان الداراني** يوصي **أحمد بن أبي الحواري**:

---

(١) اسمه محارب بن قيس اتخذ قوسًا وأتى على موارد الحمر، فمر به قطيع منها، فرمى عيرًا فأمخطه السهم أي جازه وأصاب الجبل، فأورى نارًا، فظن أنه أخطأ، ومر به قطيع آخر فصنع صنيعة الأول، ثم مرَّ قطيع آخر ففعل فعله الأول حتى رمى خمس مرات، ثم عمد بها فكسرها على حجر، فلما أصبح رأى الأعيار الخمسة مصرعة حوله فندم وقال:

ندمت ندامة لو أن نفسي ... تطاوعني بها لقطعت خمسي

تبين لي سفاه الرأى مني ... لعمر أبيك حين كسرت قوسي

وصارت بعد ذلك مثلاً سائرًا:

ندمت ندامة الكُسَعِي لما ... رأت عيناه ما صنعت يداه

كتاب جمهرة الأمثال ٢/ ٣٢٤ بتصرف يسير.

« لِترك الشهوات ثواب ، وللمداومة ثواب ، وإنما أنا وأنت ممن يقوم ليلة وينام ليلتين ، ويصوم يوما ويُفطر يومين ، وليس تستنير القلوب على هذا »(١).

ذلك أن **عقبة البدء كؤود**، يصعِّبها الشيطان عليك، ويضع أمامك الحواجز والمثبطات، لكن مع البدء وبداية تسلل الإيمان إلى القلب، وانتشار حلاوته في الروح، تلين القلوب للطاعة ويستنير الصدر للإنابة، وصدق **ابن الجوزي** حين قال:

«إذا استقام للجواد الشوط لم يُحوِج راكبه إلى السوط»(٢).

وضرب لنا **أبو حامد الغزالي** مثلاً ليقنع كل يائس من الشفاء بجدوى المحاولة وحتمية الشفاء إذا جدَّ في السعي، وقلَّد الصالحين الذين جاهدوا (وفعلوا بها ما يُفعل بالبازي إذا قُصِد تأديبه ونقله من التوثُّب والاستيحاش إلى الانقياد والتأديب، فإنه يُحبس أولاً في بيت مظلم، وتُخاط عيناه حتى يحصل به الفطام عن الطيران في جو الهواء، وينسى ما قد كان أَلِفه من طبع الاسترسال، ثم يرفق باللحم حتى يأنس بصاحبه ويألفه إلفًا، إذا دعاه أجابه، ومهما سمع صوته رجع إليه، فكذلك النفس لا تألف ربها، ولا تأنس بذكره إلا إذا فُطِمت عن عادتها بالخلوة والعزلة أولاً؛ ليحفظ السمع والبصر عن المألوفات، ثم عُوِّدت الثناء والذكر والدعاء ثانيا في الخلوة حتى يغلب عليها الأنس بذكر الله - عز وجل- عوضًا عن الأنس بالدنيا وسائر الشهوات، وذلك يثقل على المريد في البداية، ثم يتنعَّم به في النهاية؛ كالصبي يفطم عن الثدي، وهو شديد عليه إذا كان لا يصبر عنه ساعة، فلذلك يشتد بكاؤه وجزعه عند الفطام، ويشتد نفوره عن الطعام الذي يُقدَّم إليه بدلاً عن اللبن، ولكنه إذا مُنِع اللبن رأسًا يومًا فيومًا وعظم تعبه في الصبر عليه وغلبه الجوع تناول الطعام تكلفًا، ثم يصير له طبعًا، فلو رُدَّ بعد ذلك إلى الثدي لم يرجع إليه، فيهجر الثدي، ويعاف اللبن، ويألف الطعام، وكذلك الدابة في الابتداء: تنفر عن السَّرج واللجام والركوب؛ فتُحمل على ذلك قهرًا، وتُمنَع عن السرج الذي ألفته بالسلاسل والقيود أولا، ثم تأنس به بحيث تترك في موضعها، فتقف فيه من غير قيد، فكذلك تُؤدَّب النفس كما تؤدَّب الطير والدواب)(٣).

---

(١) حلية الأولياء ٤/ ١٧٩
(٢) المدهش ص ٢٩٩.
(٣) الإحياء ٣/ ٦٨.

إن النفس إذا وجدت لذة العبادة، وأحست بأثر جرعات الدواء بدد فيها نور اليقين ظلام المادة، وأطفأ برد العفو نار الذنب، كالرضيع الذي يستغني عن اللبن بألوان الأطعمة المختلفة ليزهد بعدها في ثدي أمه.

والمعنى أنك كلما تناولت جرعة دواء زادت سرعة سيرك، وانتفض قلبك وكأنما نشط من عقال؛ ذلك أن المسافر إذا عاين البلد التي يريد دخولها أسرع واستحث دابته على السير بغير ما كانت عليه عند بدايات سفره والهدف عنه غائب، وكذلك القلب إذا ذاق حلاوة الإيمان ووجد أثر العافية صار أقوى عزمًا وأشد قوة لقربه من غايته وتلمح قلبه لأنوار ما سعى إليه.

4 لحظة التأخير القاتلة:

تأخير المحاولة ليس في صالحك، وتأجيل جرعة الدواء عن ميعادها يزيد المرض رسوخًا، والمقاومة انهيارًا، والنفس إلفًا لما يضرها، وبغضًا لما ينفعها، لأن التأخير يمنح الفرصة للسم بأن يسري إلى القلب ويتمكن منه، والقلب منبع الحياة، فينشأ عن ذلك أبشع الأثر، وبتأخُّرك عن تناول الجرعة المقررة مرة بعد مرة ستصل يومًا حتمًا إلى الجرعة الحرجة التي لو لم تتناولها لمات قلبك في الحال، ولا عزاء في القلوب الغافلة!!

أخي..: التسويف سُم الأعمال وعدو الكمال، ومن ترك المبادرة اليوم وارتمى في أحضان (سوف) وقع فريسة لأسدين عظيمين: أحدهما: تراكم ظلمة المعصية على قلبه حتى تصير رينا وطبعًا وأقفالاً يستحيل معها الشفاء، والثاني: أن يباغته الموت فتضيع فرصة للنجاة، لذا صاح فيك **الصاحب شرف الدين الأنصاري**:

دع التسويفَ وامضِ إلى المعالي ... بعزمٍ من ذبابِ السيفِ أمضى
وخذْ في الجدِّ وارفضْ من أباهُ ... من الأهلين والإخوانِ رَفْضا
وأصغِ لما أشرتُ به فإني ... صحبتُك منه كأسَ النصحِ مَحْضا

أخي المريض:

لا تشغل نفسك كثيرًا بسؤال: كيف حال قلبي الآن، وليكن همك الأول: هل بدأت رحلة العلاج أم ليس بعد، فإن هذا الطريق من مشى فيه خطوة تلقّفته أيادي الرحمة الإلهية والعناية الربانية لتوصله إلى ألذ نهاية وفي سرعة البرق.

يا من اشتكى قلبه..

أوجع الألم حرقة الندم، ومن راقه طعم الأماني فاته أسمى المعالي، ومن أقلقه خوف الهلاك هجَرَ أرجو وسوف وعسى، ومن أيقن أن الأماني تُنقِص العقل عافت نفسه كل تأخير؛ وعلم أن المرء كلما كبر صعبت عليه المحاولة، ذلك أنه ليس أشد من فطام الكبير، ومن العناء رياضة الهَرِم.

أخي طالب الشفاء: «إحالتك الأعمال على وجود الفراغ من رعونات النفس»(١).

هكذا قالها **ابن عطاء** وصدق، فإن كنت تظن أن الشيطان سيعطيك مهلة للتوبة، أو سيمنحك الفرصة لتلتقط أنفاسك، أو سيتركك فارغًا لتراجع نفسك وتتعافى، فاعلم أنك واهم، فالعجل العجل.. والبدار البدار، واذكر أن الكسل آفة أعجز المرضى، وما بسقت فروع ندم إلا من بذرة كسل، ومن ملَّ الحركة حُرِم البركة، ومن أضاع الفرصة تجرَّع الغُصة، فخاطب نفسك بقولك: إن كان لك في الشفاء نصيب فالآن وإلا فهيهات، فإن من أجَّل أمره إلى الغد لم يفلح إلى الأبد، وفي المقابل: ما حُرِم مبادِر إلا فى النادر، فهيا!! الآن.. وفي التو واللحظة.. ليس الأمر شاقًّا.. ووالله ما هي إلا سفرة قلب وأنت على الفراش.. دون أن تفارق مكانك.. كل المطلوب منك أن تُشهِد ربك على إرادة الشفاء، وأن تبرم العقد معه على شراء العفو، وتقطع تذاكر الرجوع إليه، فإن فعلت.. فاجعل دون الوفاء بعهدك الموت!!

وسر عن قريب واستجب واجتنب (غدًا)	**وشمّر عن الساق اجتهادا بنهضةِ**
وكن صارمًا كالسيف فالموت في(عسى)	**وإياك (مهلا) فهي أخطر علةِ**

---

(١) شروح الحكم العطائية ص ١٥٢.

وجُـدَّ بسـيف العـزم (سـوف) فـإن تجُـدْ   تجِدْ خيرًا فالنفس إن جُدْتَ جَدَّتِ

كم عمرك الآن؟!

وفي ضوء نشاطك أو كسلك، ومبادرتك أو تقاعسك،وانتباهتك أو غفلتك تستطيع أن تحدِّد عمرك الحقيقي اليوم، وأعني بذلك عمرك المحسوب بميزان الإيمان لا بذاكرة الأيام، وبحساب الكرام البررة لا بسجلات موظَّف الحي الذي تسكنه، وهو ما يقلب كثيرًا من الرجال أطفالاً، ويرفع بعض الأطفال إلى مقام الرجولة ، والسبب : الأعمال ، وهو ما فطن إليه الشاعر العاقل حين قال :

إذا لم يكـن مـرُّ السـنين   عـن الفضـل في الإنسـان سمِّيتـه
ومـا تنفـع الأيـام حـين تعُـدُّها   ولم يَسْتَفِد فيهنَّ عِلمًا ولا فضلا

وهو ما قال به **ابن القيم**:

«فما كان من وقته لله وبالله فهو حياته وعمره، وغير ذلك ليس محسوبًا في حياته وإن عاش عيش البهائم، فإذا قطع وقته في الغفلة والسهو والأماني الباطلة، وكان خير ما قطعه به النوم والبطالة، فموت هذا خير له من حياته، وإذا كان العبد – وهو في الصلاة – ليس له من صلاته إلا ما عقل منها، فليس له من عمره إلا ما كان فيه بالله ولله»[1].

تزوَّجت البطالة بالتواني   فأولدهـا غلامًـا مع غلامة
فأما الابـن سمَّوْه بفقـر   وأما البنـت سمَّوْها ندامـة

5 اختر دواءك بنفسك:

هذه نصيحة أهداها إليك **عبد الله بن مسعود** ﷺ فأمسكها بكلتا يديك وعضَّ عليها بناجزيك، فقد كان **ابن مسعود** قليل الصوم، وكان يقول :

(١) الجواب الكافي ص ١٠٩.

«إذا صمت ضعفت عن الصلاة؛ وأنا أختار الصلاة على الصوم»[١].

وكان بعضهم إذا صام ضعف عن قراءة القرآن، فكان يكثر الفطر حتى يقدر على التلاوة، وكل إنسان أعلم بحاله وما يُصلحه.

كل منا مريض في جانب من الجوانب، وكلنا يحتاج إلى الدواء، لكن نوع الدواء الشافي يختلف من مريض إلى آخر؛ لأن النفوس تتباين وتختلف اختلافا شاسعا، وبالتالي فليس كل دواء يُحدِث نفس الأثر في جميع النفوس.

قد تشكو قسوة قلبك وتفقد حلاوة القرب منه، فلا يكون هناك دواء أفضل لحالتك من ركعتين في جوف الليل تغتسل فيهما بالدموع، وربما كان أفضل دواء في حق غيرك أن يخرج من ماله صدقة لله، وثالث يُشفى بعبرة في خلوة، ورابع بمسح رأس يتيم، وخامس بإطعام مسكين، وسادس بمجالسة صالح، وسابع بدعاء خاشع أمام مقبرة أو تشييع ميت وحمل نعش، وثامن بصيام تطوع وإلا قسا قلبه وساءت حاله، وكلٌّ أدرى بدوائه وأعلم بحاله، ولابد لك أن تُجرِّب سائر الأدوية لتعرف أيها أنسب لك، ومداوٍ لحالتك.

قال **ابن القيِّم** شارحًا:

«ومراضيه متعددة متنوعة بحسب الأزمان والأماكن والأشخاص والأحوال، وكلها طرق مرضاته، فهذه التي جعلها الله لرحمته وحكمته كثيرة متنوعة جدًّا لاختلاف استعدادات العباد وقوابلهم، ولو جعلها نوعًا واحدًا مع اختلاف الأذهان والعقول وقوة الاستعدادات وضعفها لم يسلكها إلا واحد بعد واحد، ولكن لما اختلفت الاستعدادات تنوَّعت الطرق؛ ليسلك كل امرئ إلى ربه طريقًا يقتضيها استعداده وقوته وقبوله»[٢].

و**ابن القيم** بذلك يُثبِت أنه قد تعلَّم الدرس جيدًا من أستاذ الأساتذة **ابن تيمية** الذي قال: «الناس يتفاضلون في الإيمان كتفاضلهم في شعبه، وكل إنسان يطلب ما يمكنه طلبه، ويُقدِّم ما يقدر على تقديمه من الفاضل، والناس يتفاضلون في هذا الباب، فمنهم من يكون العلم أيسر عليه

(١) مختصر منهاج القاصدين ص ٤٥ – ط دار التراث.
(٢) طريق الهجرتين ١/ ٢٨٤.

من الزهد، ومنهم من يكون الزهد أيسر عليه، ومنهم من تكون العبادة أيسر عليه منها، فالمشروع لكل إنسان أن يفعل ما يقدر عليه من الخير كما قال تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾، وإذا ازدحمت شعب الايمان قدَّم ما كان أرضى لله وهو عليه أقدر، فقد يكون على المفضول أقدر منه على الفاضل، ويحصل له أفضل مما يحصل من الفاضل، فالأفضل لهذا أن يطلب ما هو أنفع له وهو فى حقه أفضل، ولا يطلب ما هو أفضل مطلقًا إذا كان متعذِّرًا في حقه أو متعسرًا يفوته ما هو أفضل له وأنفع؛ كمن يقرأ القرآن بالليل فيتدبره وينتفع بتلاوته والصلاة تثقل عليه ولا ينتفع منها بعمل، أو ينتفع بالذكر أعظم مما ينتفع بالقراءة، فأي عمل كان له أنفع ولله أطوع أفضل في حقه مِن تكلف عمل لا يأتي به على وجهه، بل على وجه ناقص، ويفوته به ما هو أنفع له»(١).

ومن ذلك ما فعله **جعفر بن سليمان** حين عرف أنسب دواء له وجرَّبه فوجده أجدى ما يكون فانطلق يحكي:

«كنتُ إذا وجدت من قلبي قسوة نظرت إلى وجه **محمد بن واسع** نظرة، وكنت إذا رأيت وجه **محمد بن واسع** حسبت أن وجهه وجه ثكلى»(٢).

أخي.. **إذا أحسست بنفسك تسبح منك نحو ساحل الفتور، ولمست قلبك فأحسست بقساوته، وطلبت عينك فوجدتها جافة من قلة الدمع، وبحثت عن روحك فوجدتها سارحة في ما يُغضب الله؛ فهرول مسرِعًا إلى أسرع ما يشفيك وأعظم ما يُحدِث أثره فيك، لتغرف منه وتشرب فترتوي وتهتدي بإذن باريك.**

6 شدِّد ثم أرخِ:

البداية القوية تضمن النهاية السعيدة، والعزمة الفتية تكفل دوام الصحة أعوامًا مديدة، فلا بد من عزمة وقرار حاسم ووقفة محورية تعترف فيها ليس فقط أنك مريض؛ بل وتعلن أنك في أمس الحاجة للدواء، ويُرى ذلك في شدة انطلاقتك وحماستك، وبدون هذه البداية تتعثَّر في النهاية بل قبل

(١) الفتاوى ٧/ ٦٥١، ٦٥٢.
(٢) حلية الأولياء ٢/ ٣٤٧.

النهاية، وصدق الشاعر إذ يقول:

فقسا ليزدجروا ومن يكُ حازمًا　　فليقْسُ أحيانا على من يرحم

قد يقسو الأب على ابنه وهو صغير في سن التنشئة ليقيمه على الجادة، ويغرس في نفسه منذ الصغر ما يجهل الطفل حكمته في صغره ولن يعرف قيمته إلا عند كبره، وهذه القسوة هي عين الرحمة، وهذه الغلظة من ورائها أرق المشاعر، وإلا شاب الولد على ما شبَّ عليه، وما شبَّ عليه ليس فيه من الأدب والذوق والأخلاق شيء، أليس كذلك؟

فإن قلت: بلى؛ سألتك: وهل أحد أحق بالرحمة من نفسك التي بين جنبيك؟! وهل أولى بالشفقة من روحك التي هي سِر حياتك؟ فما بالك تؤدِّب ولدك وتهمل نفسك؟! وتعِظ غيرك وتنسى قلبك؟!

ومن التشديد: صفاء الابتداء وقوة الانطلاق من أول خطوة. قال أبو عثمان الحيري: «من لم تصح إرادته ابتداء؛ فإنه لا يزيده مرور الأيام عليه إلا إدبارًا»[(١)].

ومن التشديد: أخذ النفس بالعزم، وعدم إرخاء الحبل لها والسماح لها بالتفلت والهرب، وذلك بإلزامها من الطاعات ما يهذِّب سلوكها ويلين طبعها، والإكثار عليها من النوافل حتى تذل طبيعتها الأمارة بالسوء وتستسلم للخير، وهذا فعل الله وتشريعه، ومثال ذلك: أن الله أمر الصحابة بصبر الواحد منهم إلى العشرة ثم خفَّف عنهم ذلك إلى الاثنين، ومن ذلك أنه حرَّم على المسلمين الأوائل في الصيام إذا نام أحدهم أن يأكل بعد ذلك أو يجامع حتى اعتادته النفوس ثم خفَّف عنهم، ومن ذلك أنه أوجب عليهم تقديم الصدقة بين يدي مناجاة رسوله فلما وطَّنوا على أمر الله خفَّفه عنهم، ومن ذلك أنه فرض قيام الليل عامًا كاملة لتعتاده النفس ثم نزلت آية التخفيف بجعله نافلة. قال ابن القيِّم: «وقد يفعل الملوك ببعض رعاياهم قريبًا من هذا، وقد يفعل بعض الحمَّالين قريبًا من هذا فيزيدون على الحمل شيئًا لا يحتاجون

---

(١) مدارج السالكين ٢/ ٣٦٥.

إليه، ثم يحطُّ تلك الأشياء فيسهل حمل الباقي عليهم»(١).

ومن التشديد: قضاء الطاعة إذا فاتتك حتى لا تسترسل النفس في ترك الطاعة والتقصير، فتعتاده ويصعب عليها المواظبة من بعد.

ومن التشديد: تلقي الأمر للتنفيذ لأن لغة المواعظ وحدها لا تنفع، بل لا بد من مزجها بصيغة الأمر والنهي، واستقبال جرعات الشفاء بالامتثال والتسليم، والحفاوة بها حفاوتك بمن طال غيابه عنك ثم أقبل لزيارتك؛ لذا كان على سالك طريق الشفاء اليوم أن يتحلى بجوهرتين ثمينتين هما الجِدُّ والعزم، (والفرق بين الجِدِّ والعزم: أن العزم صدق الإرادة واستجماعها، والجد صدق العمل وبذل الجهد فيه، وقد أمر الله سبحانه وتعالى بتلقي أوامره بالعزم والجد فقال: ﴿ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ [البقرة: ٦٣]، وقال: ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ [الأعراف: ١٤٥]، وقال: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم: ١٢]، أي بجد واجتهاد وعزم لا كمن يأخذ ما أُمر به بتردد وفتور)(٢).

وقد يكون الأمر صعبًا أن تجمع بين الجد والفهم كما جاء في شعر المتنبي:

وما الجمع بين الماء والنار في يدي … بأصعب من أن أجمع الجدَّ والفهما

لكنه يسير على من يسَّره الله عليه، قريب إلى من سعى إليه.

الهــول المفــزع !!

ومن هذا التشديد الشافي والتكليف المعافي ما رواه الحاكم في المستدرك من حديث بشير بن الخصاصية ﷺ قال: أتيت رسول الله ﷺ لأبايعه على الإسلام فاشترط عليَّ: «**تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، وتصلي الخمس، وتصوم رمضان، وتؤدي الزكاة، وتحج**

---

(١) بدائع الفوائد ٣/ ٧٠٢.
(٢) المدارج ١/ ٤٧٠.

البيت وتجاهد في سبيل الله».

قال: قلت: يا رسول الله.. أما اثنتان فلا أطيقهما!! أما الزكاة فما لي إلا عشر «ذُوْد» - أي: عشر رؤوس من الإبل - هُنَّ رسل أهلي وحمولتهم!! وأما الجهاد فيزعمون أنه من ولَّى - أي هرب من المعركة - فقد باء بغضب من الله، فأخاف إذا حضرني قتال كرهت الموت وخشعت نفسي. قال: فقبض رسول الله ﷺ يده ثم حرَّكها، ثم قال: «**لا صدقة ولا جهاد فبم تدخل الجنة؟!**».

قال بشير: ثم قلت: يا رسول الله.. أبايعك فبايعني عليهن كلهن(١).

والفائدة: لابد من جهد.. لابد من عطاء، ولابد من بذل.. لابد من فداء، إنها شروط النجاة لا شروط سُكنى الفراديس، وسمات المسلم العامي لا المسلم المجاهد، إنها أساسيات الدين ومتطلبات العقيدة ونفقات دخول الجنة، ولو كنت تعيش في زمن النبي ﷺ وواجهك هذه المواجهة لصدمك رده عليك كما سبق وصدم **بشيرًا** وهزه، لكنها صدمة لازمة وهزة شافية ووقفة مؤلمة تدفعك إلى مراجعة شريط حياتك لتنظر ما دفعت من ثمن لتشتري الجنة، فبين جنبات هذا الحديث جرعة مهمة من جرعات الدواء ولمحة من لمحات الشفاء.

أخي.. افهمني!! السلعة واحدة، والثمن واحد، وما كان الله ليحابي قومًا على حساب آخرين، فتكون السلعة رخيصة لنا غالية على غيرنا.

يرحمك الله!!

ولأن ديننا دين العزم والقوة ولا مجال فيه للكسل روى أبو هريرة عن النبي ﷺ قال:

«**إن الله يحب العطاس ويكره التثاؤب، فإذا عطس أحدكم وحمد الله كان حقًّا على كل مسلم سمعه أن يقول: يرحمك الله، فأما التثاؤب فإنما هو من الشيطان؛ فإذا تثاءب أحدكم فليرُدَّه ما استطاع، فإن أحدكم إذا تثاءب ضحك منه الشيطان**». رواه البخاري، وفي رواية لمسلم: «**فإن أحدكم إذا قال: ها.. ضحك الشيطان منه**»(٢).

---

(١) صحيح: المستدرك على الصحيحين ٢/ ٨٩. قال الحاكم: حديث صحيح ووافقه الذهبي.
(٢) صحيح: مشكاة المصابيح ٣/ ٢٤ حديث رقم: ٤٧٣٢.

لما كان التثاؤب مما يُرضي الشيطان؛ أراد النبي ﷺ أن ينفِّرك منه قدر المستطاع ويحذرك من الوقوع فريسة لمثبِّطات العزم ومقدِّماته، وأما العطاس فعلى العكس من ذلك؛ هو نعمة ربانية جاءت لتوقظك وتنشِّطك إلى العمل؛ لذا كان على العاطس أن يحمد الله، وكان حقًّا على من كل سمعه من المسلمين أن يشاركه الفرحة بهذه الصحوة التي جاءته من غير سعي منه أو ترتيب، فيدعو له بالرحمة.

همة هِرَّة!!

رأى **الجنيد** هرة تسعى وراء فأر؛ فدخل الفأر جحره وبقيت هي أمام الجحر ترقَّب، وكل شعرة من جسدها واقفة تعلن النفير، مستحضرة أعلى درجات العزم والتوثب، فخطر **للجنيد** خاطر استحال خاطرة جاء فيها:

«يا مسكين.. ألم تحصِّل في الهمّة درجة هرة؟! وإذا حصَّلت.. أيكون مطلوبك كمطلوبها؟!».

أنت طالب جنة وهي طالبة لقمة وهمتها أعلى من همتك!! أنت طالب شفاء وهي طالبة عناء ومع ذلك عزمها أشد وأصدق!! أنت تسعى لباقٍ وهي تسعى لفانٍ ومع هذا تغلبك!! قطة هجرت الكسل وهبَّت إلى العمل وأنت نائم في بيتك يا بطل؟!

7 أرخِ ثم شدِّد:

وهي طريقة التشريع الإلهي أيضًا في بعض ملامحه يصفها **ابن القيم** فيقُول:

« فينقل عباده بالتدريج من اليسير إلى ما هو أشد منه لئلا يفجأ هذا التشديد بغتة فلا تتحمله ولا تنقاد له، وهذا كتدريجهم في الشرائع شيئًا بعد شيء دون أن يؤمروا بها كلها وهلة واحدة، وكذلك المحرمات.

ومن هذا أنهم أمروا بالصلاة أولاً ركعتين ركعتين؛ فلما ألفوها زيد فيها ركعتين أخريين في الحضر.

ومن هذا أنهم أُمروا أولاً بالصيام وخُيِّروا فيه بين الصوم عينًا وبين التخيير بينه وبين



الفدية؛ فلما ألِفوه أُمروا بالصوم عينًا.

ومن هذا أنهم أُذِن لهم بالجهاد أولاً من غير أن يوجبه عليهم؛ فلما توطَّنت عليه نفوسهم وباشروا حسن عاقبته وثمرته أُمِروا به فرضًا.

وحكمة هذا التدريج: التربية على قبول الأحكام والإذعان لها والانقياد لها شيئًا فشيئًا، وكذلك يقع مثل هذا في قضائه وقدره مقدر على عبده بل لا بد منه اقتضاه حمده وحكمته، يبتليه بالأخف أولاً ثم يرقيه إلى ما هو فوقه حتى يستكمل ما كتب عليه منه»[(١)].

والمشاهد أن كثيرًا من المرضى يشاهدون من منِّ الله عليهم بالعافية والسمو في آفاق المتعة الإيمانية، فيسعون في إدراكهم، ويحاولون مطاولة النجم في علاه بقفزة واحدة، وعندما يفشلون يرجعون خائبين تاركين المحاولة ويائسين من الشفاء، ولو أنهم صعدوا السلَّم درجة درجة، وبدؤوا بالانتهاء عن ما حرَّم الله، ثم ساروا إلى الفرائض فأتموها، وأتبعوا ذلك بالنوافل التي لا تشق عليهم، لوجدوا في نهاية الطريق ما وجد هؤلاء، ولكنكم قوم تستعجلون.

أيها المتعجّلون!! أنتم لا ترون سوى قمة الهرم ولكنكم لا تلمحون ما بُذِل فيه من عرق وجهد، أنتم لا تبصرون إلا اللمحة الأخيرة واللقطة المبهجة والمشهد السعيد، أما المسلسل الطويل من المجاهدة والصراع والمثابرة والكفاح فما خطر ببالكم قط؛ لذا طمعتم في نيل العلا برقدة في الفراش والغرق في أماني الحالمين، وهذا محال في سوق الآخرة.

ولعل هذا ما قصده كلٌّ من **ثابت البناني وعتبة الغلام** وهما يرويان قصة كفاحهما المتشابه بل المتطابقة؛ حتى عبَّر كلاهما عنها بنفس الكلمات تمامًا، فقال كل منهما على حدة دون سابق اتفاق:

«كابدتُ الصلاة عشرين سنة، وتنعَّمت بها عشرين سنة»[(٢)].

وهذه اللذة والتنعم بالخدمة إنما تحصل بالمصابرة والتعب أولاً، فإذا صبر المريض

---

(١) بدائع الفوائد ٣/ ١٨٣، ١٨٤.

(٢) حلية الأولياء ٢/ ٣٢١ وخبر عتبة في الحلية ١٠/ ١٠.

وصدق في صبره أفضى به صبره إلى اللذة كما قال أبو زيد: «ما زلت أسوق نفسي إلى الله وهي تبكي حتى سقتها وهي تضحك»(١).

8 نقطة الضعف المدمِّرة:

لكل منا نقطة ضعفه التي يتسلل منها الشيطان إلى قلبه لينقل إليه العدوى ويبث النجوى، وهي تختلف من مريض لآخر، لكن الحاذق اليوم هو من عرف نقطة ضعفه(٢)، وابتعد عن كل ما يوصل إليها، فإن كانت نقطة ضعفه النساء سعى في شغل فراغه وتجنَّب أماكن الاختلاط والتبرج.

وإن كان انهياره في الخلوة في مواجهة الذنوب؛ حرص على الذوبان في مجتمع الصالحين وعدم التفرد ما استطاع إلى أن تقوى مناعته.

وإن كانت نقطة ضعفه شرهه في جمع المال زار من هو أفقر منه وعاد أصحاب الأمراض المستعصية حتى يعتبر، وبهذا يغلق الباب أمام تفاقم المرض، بل يُشفى منه بمرور الوقت بإذن الله.

إن معرفة نقطة الضعف هي نصف الطريق إلى الشفاء؛ ولذا كان من جميل الدعاء:

«اللهم أرنا الحق حقًّا وارزقنا اتباعه».

فالمشاكل العويصة تُحلُّ بمعرفة الحق أولاً، ثم بامتلاك الطاقة النفسية والقوة الروحية لاتباع هذا الحق، فإن عرفت نقطة ضعفك فقد قطعت شوطًا طويلاً في طريق العلاج، وكثير

---

(١) المدهش ص ٤٦٣.

(٢) قال ابن قدامة وهو يرشدك إلى كيفية التعرف على نقطة ضعفك:

« فمن أراد الوقوف على عيب نفسه فله في ذلك أربع طرق:

الطريقة الأولى: أن يجلس بين يدي شيخ بصير بعيوب النفس، يعرف عيوب نفسه وطرق علاجها، وهذا قد عزَّ في هذا الزمان وجوده، فمن وقع به فقد وقع بالطبيب الحاذق فلا ينبغي أن يفارقه.

الطريقة الثانية: أن يطلب صديقًا صدوقًا بصيرًا متدينًا، وينصبه رقيبًا على نفسه لينبِّهه على المكروه من أخلاقه وأفعاله.

الطريقة الثالثة: أن يستفيد معرفة نفسه من ألسنة أعدائه، فإن عين السخط تبدي المساوئ، وانتفاع الإنسان بعدو مشاجر يذكر عيوبه أكثر من انتفاعه بصديق مداهن يُخفي عنه عيوبه.

عـداتي لهم فضل علـي ومـنة ... فـلا أبعد الرحمن عني الأعاديا
همـوا بحثـوا عن زلتي فاجتنبتها ... وهم نافسوني فاكتسبت المعاليا

الطريقة الرابعة: أن يخالط الناس، فكل ما يراه مذمومًا فيما بينهم، يجتنبه». مختصر منهاج القاصدين من ربع المهلكات بتصرف.

من الناس لا يعرف عيبه، ومنهم من يعرف ويجادل عنه أو ينفيه وكأنه تهمة، وليس هذا من سمات المؤمنين في شيء، فإن صاحب القلب الحي يفرح بمن أهدى إليه عيوبه، ويتخذ صاحبًا يُحصي عليه، ويُلِحُّ على من يخالطه في أن يرشده إلى نقائصه.

وقد يقوى المرء في جانب ويضعف في آخر، وقد يعرف نقطة ضعفه وقد لا يعرفها، وليس غير التجربة خير برهان، ولذلك لما اختلف الناس في أيهما أزهد **عمر ابن عبد العزيز** أم **أويس القرني**؟ قال **أبو سليمان الداراني**: «كان **عمر بن عبد العزيز** أزهد من **أويس القرني**، لأن **عمر** ملك الدنيا بحذافيرها وزَهَد فيها، ولا ندري حال **أويس** لو ملك ما ملكه **عمر** كيف يكون؟ ليس من جرَّب كمن لم يُجرِّب»[1].

ونفس الرأي نطق به **مالك بن دينار**:

«يقولون **مالك** زاهد، أي زهد عند مالك وله جبة وكساء، إنما الزاهد **عمر بن عبد العزيز** أتته الدنيا فاغرة فاها فتركها»[2].

يوم العرض على القلب

وقد سبق وأن أرشدك نبيك ﷺ إلى أهمية معرفة نقطة الضعف حين قال:

«تُعرَض الفتن على القلوب عرض الحصير عودًا عودًا، فأي قلب أُشْرِبَهَا نكت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها نُكِت فيه نكتة بيضاء؛ حتى يصير القلب أبيض مثل الصفا لا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض، والآخر أسود مُرْبَادًّا كالكوز مُجَخِّيًا لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا إلا ما أُشْرِبَ من هواه»[3].

والإتيان بالفعل «**تُعرض**» بصيغة المضارع دلالة على أن العرض مستمر طيلة الحياة لا ينتهي حتى تنتهي أنت إلى قبرك، لكن الفتن تختلف؛ ففتنة الشباب غير فتنة الشيوخ؛ لأن شهوة النساء مثلاً في قلوب الشباب أقوى، وطول الأمل والحرص في قلوب الشيوخ أبقى،

---

(١) البداية والنهاية ٩/ ٢٠٨.

(٢) الزهد للبيهقي ص ٧٢ – مؤسسة الكتب الثقافية ودار الجنان.

(٣) صحيح : رواه مسلم وأحمد عن حذيفة كما في حديث رقم : ٢٩٦٠ في صحيح الجامع.

فلكل عمر فتْنَتُه، وقد يصمد الرجل أمام فتنة سنين؛ فإذا كان آخر عمره هوى فيها، بل ولكل جنس أيضا فتْنَتُه، ففتن الرجال غير فتن النساء، بل لكل زمن فتن، والشيطان في كل الأحوال ملحاح لا يدع المحاولة مع أي أحد وفي أي عمر كان.

ومعنى «**عُودًا عُودًا**» أى تُعاد وتكرَّر مرة بعد مرة؛ لذا أوردها **النووي** في رواية بلفظ «**عَوْدا عَوْدا**»، ومعنى عرض الحصير أي كما يُنسج الحصير عودًا عودًا، وذلك أن ناسج الحصير عند العرب كلما صنع عودًا أخذ آخر ونسجه، فشبَّه عرض الفتن على القلوب واحدة بعد أخرى بعرض قضبان الحصير على صانعها واحدًا بعد واحد، فمن القلوب من يُشرَب هذه الفتنة، ومعنى أُشربها أي استسلم لها حتى دخلت فيه دخولاً تامًّا وحلت منه محل الشراب، ومنه قوله تعالى ﴿ **وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ** ﴾ [البقرة: ٩٣] أي حب العجل.

يا تائها عن معرفة نقطة ضعفه: أما عرفت قصتك؟! أما دريت خبرك؟! أنت الذي 'كانت' له الفتنة لقلبه كحصان طروادة، استخدمها الشيطان ليتسلل بها إلى قلعته، ويجتاز كافة حراسات القلب وجنوده؛ حتى إذا دخل وتمكّن استمر الزحف، فانهارت المناعة واستسلمت القلعة!!

وأمام هذا السيل المنهمر الذي تتابع على القلب يسودُّ القلب، ويظل يهوي وينتكس ويذوي ويرتكس حتى يصبح كالكوز مُجَخِّيًا أي مقلوبًا، وهل يبقى في الكوب المقلوب شيء؟ وكذلك هو لا يبقى ولا يثبت فيه أي خير، ومعنى آخر لقوله «**منكوسًا**» أي تنقلب عنده حقائق الأمور، فيرى الباطل حقًّا والحق باطلاً، والهلاك نجاة والنجاة هلاكًا، والحامض حلوًا والسكر ملحًا، وهذه عاقبة كل من استسلم لضعفه وركع لهواه.

ومن يك ذا فمٍ مُرٍّ مريضٍ يجد مُرًّا به الماءَ الزلالا

وتأمَّل قوله: «**مُربادًا**» أي يحمل بقايا بياض فى عموم سواد، وهذا دلالة على أنه ما كان أسود يوم خلقه الله، بل كان أبيض ناصع بياض الفطرة ليحمل الخير ويدوم عليه؛ لكنه اختار بإرادته الذي هو أدنى، وقدَّم الخبيث على الطيب، وطرد خيره مؤثرًا شرَّه، وأحيا فجوره وأمات بِرَّه، فلم يبق من البياض والفطرة والإيمان إلا بقع من البياض الغارقة في

لجة الخطيئة وطوفان السواد.

والحديث في مجمله يبث الرعب فينا ليدفعنا بقوة إلى ضرورة مراجعة النفس لاكتشاف نقطة الضعف التي يتسلل منها الشيطان ليحوِّل صاحب القلب الحي في النهاية إلى صاحب قلب منكوس، وما ذاك إلا من تهاونه في معرفة عيب نفسه في البدء، وعدم سدِّ هذا المنفذ على الشيطان بسد فولاذي الإيمان وسعيه الحثيث في العلاج، نعم نقطة ضعف واحدة ليس غير كفيلة أن تؤدي إلى انتكاسة قلبك وانقلاب روحك، وأنت السبب إذ لم تسمع وصية الحبيب، أو سمعتها ورميتها وراء ظهرك، ثم تبكي!!

وما مثلك بنقطة ضعفك مع شيطانك إلا كحامل قطعة لحم وحوله كلب جائع، فلا يزال الكلب ملازمًا لك حتى ترمي عنك قطعة اللحم، فإن رميتها ثم زجرته انصرف عنك، وإلا ظل يحوم حولك يطمع في لحظة غفلة أو سِنة نوم ليهجم!!

وفي المقابل ينتصب القلب الحي صخرة شامخة تتكسر عليها أمواج الفتن، وهذا سِرُّ تشبيهه بالصفا. قال **القاضي عياض** رحمه الله: «ليس تشبيهه بالصفا بيانًا لبياضه، لكن صفة أخرى لشدته على عقد الايمان وسلامته من الخلل، وأن الفتن لم تلصق به ولم تؤثِّر فيه كالصفا، وهو الحجر الأملس الذي لا يعلق به شيء»(١).

ومن هذه القلوب الحية قلب علم الأولياء **عبد القادر الجيلاني** الذي محى نقطة ضعفه قبل أن تظهر، وأزالها من أرض قلبه حتى قبل أن تبرز، وانظروا إليه وإلى شدة عزمة وقوة بأسه وهو يقول: «إذا وُلِد لي ولد أخذته على يدي، فأُخرِجه من قلبي، فإذا مات لم يؤثِّر عندي موته شيئًا!!»(٢).

---

(١) شرح النووي على مسلم ٢/ ١٧٢.
(٢) نزهة الفضلاء ٤/ ١٥٧٥.

9 أغلى ذرة جهد:

إذا حرمك الله المال فلا تبتئس، فما هي إلا فرصة لمضاعفة أجرك وسرعة شفائك، وإذا كنت غارقًا في أعباء عملك الدنيوي ولو لم يكن عندك وقت لطول القيام؛ فجاهدتَ نفسك في قيام ركعتين قبل الفجر انتزعتهما من وقت نومك الذي تحتاج إليه بشدة فما ذلك إلا علامة البطولة، واسمع بشارة **ابن القيِّم** لك:

«ليس العجب من صحيح فارغ واقف مع الخدمة، إنما العجب من ضعيف سقيم تعتوره الأشغال وتختلف عليه الأحوال؛ وقلبه واقف في الخدمة غير متخلِّف بما يقدر عليه»[(١)].

لا أريدك بعد اليوم أن تشكو قلة مال أو ضيق وقت أو وطأة حرمان أو شدة فقر، فإنك إن علمت قيمة هذا الكنز الذي بين يديك لشكرت الله على عطائه لك وإن كان في صورة منع، ولَحَرصت على إخفائه بعيدًا عن أعين الناس خوفًا من أن يحسدوك، وعرفت أن الله لم يحرمك بل أغناك، وما منعك بل واساك، فإن أجود الجود أن تبذل الموجود، وأعظم الطاعات ما كان رغم ضيق ذات اليد.

وهو ما ردَّ به **عثمان بن عفان** ﷺ على من قال له: ذهبتم يا أصحاب الأموال بالخير، تتصدقون وتُعتقون وتحجون وتنفقون، فقال **عثمان**:

«وإنكم لتغبطوننا وإنا لنغبطكم، فوالله لدرهم ينفقه أحد من جهد خير من عشرة آلاف درهم غيض من فيض»[(٢)].

10 لذة التفرد الدافعة:

عدم وجود الأعوان والتفرُّد بالإحسان رغم تفشي الداء، والجهر بالعبادة بين الغثاء، ومقاومة تيار الغفلة والشقاء، والوقوف بقوة في وجه الإعصار ولو كنت وحدك، والتمسك بالنوافل المهجورة والناس تجترئ على الكبائر، كل ذلك يساوي عند الله اليوم الكثير؛ ولذا ما

(١) كتاب الفوائد ص ٢٢١ - دار النفائس.
(٢) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ص ١٤٦.

كان **عبد الله بن عمرو بن العاص** -رضي الله عنهما- مبالغًا حين قال:

«لخيرٌ أعمله اليوم أحب إلي من مثليه مع رسول الله ﷺ، لأنا كنا مع رسول الله ﷺ يهمنا الآخرة ولا تهمنا الدنيا، وإن اليوم مالت بنا الدنيا»[(١)].

وهذا في زمان كان يزدحم فيه الصحابة والتابعون، فكيف بزماننا هذا؟! فليبتسم قلبك، ولتضحك روحك وأنت تسمع هذه البشارة:

«**إنَّ من ورائكم أيام الصَّبر؛ الصبر فيه مثل قبْضٍ على الجمر، للعامل فيهم مثل أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عمله**». قيل: يا رسول الله.. أجر خمسين منهم؟! قال: «**أجر خمسين منكم**»[(٢)].

فلينشرح صدرك كذلك، ولتقر عينًا وأنت تسمع رسول الله ﷺ يقول: «**طوبى للغرباء: أناس صالحون في أناس سوء كثير من يعصيهم أكثر ممن يُطيعهم**»[(٣)].

11 مواسم الاستشفاء:

ومواسم الاستشفاء هي الأزمنة التي طرح الله فيها البركة وألقى في ثناياها الرحمة؛ فالشفاء فيها أسهل، والهداية أقرب، والمغفرة أرجى، وطلب الأمن من صاحب الأمان أوقع، والرحمات تنهمر بحيث لو كُشِف الحجاب عن الأبصار لعاينت تنزل الرحمات كالأمطار الغزار، فكم لله فيها عين حُرِّمت على النار، وكم وُضِع فيها من ثقل الأوزار، وكم أُعطي سائلٌ سؤله، وراغبٌ أمله، لذا تغتاظ الشياطين، وتُسرُّ الملائكة، وتنخذل النفس الأمارة بالسوء أمام زحف قوات التقوى، ويجيب داعي الخير الكثيرَ من الخلق ومن أول كلمة، فاغتنم مواسم الأرباح هذه فقد دنا رحيلها، وادخل من أبواب التوبة قبل موعد إغلاقها، وبادر شمس المنية قد لاح إشراقها، وبالله!! لا تترك هذه الفرصة فتندم!!

ويدخل في هذا: الانغماس في أجواء الاستشفاء فترة من الزمن، والتعرض لسيل مكثف

---

(١) حلية الأولياء ١/ ٢٨٧.

(٢) صحيح: رواه ابن ماجه رقم: ٤٠١٤ وصححه الألباني في الصحيحة رقم: ٤٩٤٠.

(٣) صحيح: رواه أحمد عن ابن عمرو كما في ص ج ص رقم: ٣٩٢١.

من نفحات الحق أثناء موسم من مواسم الخير المنهمر كشهر رمضان كل عام، أو عشر ذي الحجة، أو فترة أقصر كيوم الجمعة من كل أسبوع، وكل هذا يعظِّم مفعول الدواء فيعجِّل بتطهير القلب ويُسرِّع بشفائه ببركة هذه الأزمنة المباركة والنفحات الطيبة.

الأزمنة الكريمة عند الله مثل السنين المخصصة للزارعين تكثر بركتها ويفيض نتاجها ويعم خيرها، وكالليالي المقمرة للمسافرين تُطوى لهم فيها الأرض وتُقطع المسافات ويدنو الوصول ويلوح الهدف، فكذلك العامل لله في الأوقات الشريفة تزكو أعماله فيها أضعاف ما تزكو فيما سواها، لأنه سبحانه اصطفاها لعباده من بين غيرها، وهو سبحانه يعطي ما يشاء من يشاء ومتى يشاء.

أخي.. مدَّت مواسما لخير أمواجها بأشهى الفوائد وأنت ما رميتَ شبكتك تصطاد!! فبالله عليك ماذا تصنع موسم القحط؟! إليك تشير وصية العقلاء:

«إن فاتك زمن المدِّ، فمدُّ اليد للسؤال حيلة المفلس»(١).

وليس الأمر مقصورًا على المواسم الفاضلة فحسب، بل يتعدَّاه ليشمل كل ساعات **المد الروحي** التي تمر بها لتغتنمها في غمر ما مات من أنحاء قلبك وثنايا روحك، وهذه الساعات هي أي ساعة أشرقت عليك فيها أنوار قربه ولذائذ عفوه، واغتنامها بأن تغسل فيها بمياه الخشية ذنبك، وتستنصر الله على من بغى عليك من هواك، و يا الله.. صرخة معناها: ما أسرع نصرته إلى المستنجدين، فمدَّ يديك لتستقي سحُب رحمته، وتتقلَّب في رضوانه، وادع الله أن يُديم عليك النعمة الزائرة ويثبِّت الهداية العابرة، ويُركِّزها في القلب، واسمع وصية العرب تقول:

«اسْرِ وَقَمَرٌ لَكَ»(٢)

أي اغتنم طلوع القمر؛ فسِر في ضوئه ما دام طالعًا قبل أن يغيب فتخبط الظلمة وتضلَّ الطريق، وأنت كذلك اغتنم شروق شمس الهداية في قلبك وبادر غروبها بذلاً وعملاً وجدًّا واجتهادًا قبل أن تُدلي ظلمة الأهواء أستارها.

---

(١) المدهش ص ٢١٨.
(٢) المستقصى في أمثال العرب ١/ ١٥٩.

بادر الفرصة واحذر فوتها ... فبلوغ العز في نيل الفرص
فابتدر مسعاك واعلم أنَّ مَنْ ... بادر الصيد مع الفجر قنص

12 السر الدفين:

وهي وصية النبي ﷺ:

«من استطاع منكم أن يكون له خبيء من عمل صالح فليفعل»(١).

فلابد -نعم لابد- لكل مريض أن يكون له عبادة سرية مع الله لا يعلم بها أحد سواه، إنه دواء فوق الدواء، وضمانٌ للشفاء، وتكثيرٌ للحسنات، ودليل الإخلاص ونقاء النيات، وقد حثَّنا الله ورسوله عليه في كل عبادة:

- **ففي الذكر**: **«ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه»**، وقول ربنا في الحديث القدسي: **«عبدي.. إذا ذكرتني خاليًا ذكرتك خاليًا، وإن ذكرتني في ملأ ذكرتك في ملأ خير منهم وأكبر»**(٢).
- **وفي الصدقة**: **«ورجل تصدق بصدقة حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه»**. عن **محمد بن واسع** قال: «لقد أدركت رجالاً كان الرجل يكون رأسه مع رأس امرأته على وسادة واحدة قد بل ما تحت خده من دموعه لا تشعر به امرأته، ولقد أدركت رجالاً يقوم أحدهم في الصف فتسيل دموعه على خده ولا يشعر به الذي إلى جانبه».
- **وفي الدعاء**: قول ربنا: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ﴾ [الأعراف: ٥٥]، وقال **عقبة بن عبد الغافر**: «دعوة في السر أفضل من سبعين في العلانية، وإذا عمل العبد في العلانية عملاً حسنًا وعمل في السر مثله قال الله لملائكته: هذا عبدي حقًّا»(٣).

---

(١) صحيح: رواه الضياء عن الزبير كما في صحيح الجامع رقم: ٦٠١٨.
(٢) صحيح: رواه البيهقي عن ابن عباس كما في صحيح الجامع رقم: ٤٣٢٤.
(٣) حلية الأولياء ٢/ ٢٦١.

- وفي الصوم: قال عيسى ابن مريم عليه السلام: «إذا كان يوم يصوم أحدكم؛ فليدهن لحيته، ويمسح شفتيه، وليخرج إلى الناس حتى كأنه ليس بصائم»(١).
- وفي الصلاة: **«صلاة الرجل تطوعًا حيث لا يراه الناس تعدل صلاته على أعين الناس خمسًا وعشرين»**(٢)، وقال: **«تطوع الرجل في بيته يزيد على تطوعه عند الناس، كفضل صلاة الرجل في جماعة على صلاته وحده»**(٣).

الخلوة سلاح ذو حدين

ومن لوازم عبادة السر وجود الخلوة، فالمطلوب منك كي تضاعف أثر دوائك أن تخفيه، وذلك في خلوة من الناس، فإن قضيت خلوتك في معصية الله؛ فقد حوَّلت الدواء إلى وباء، وجعلت من العسل علقمًا.

أخـــي..

سمكة قوية بين يدي صياد ضعيف ، ماذا تتوقع؟! تهرب السمكة وتخطف معها الشبكة!!

والمعنى : الخلوة باب من أبواب الخير ؛ لكنها مع الضعيف ثغرة يتسلل منها شيطانه إلى قلبه ، فيقلب المكسب إلى أعظم خسارة.

والله الذي يطلع على الأسرار يفضح من يفعل ذلك من الأبرار والفجار. قال حكيم زمانه وواعظ عصره **يحيى بن معاذ الرازي**:

«من خان الله في السر هتك سره في العلانية»(٤).

يا كاتم السر ومخفيه أين من الله تُواريه
بارزت بالعصيان رب العُلا وأنت من جارك تُخفيه

---

(١) شعب الإيمان ٥/ ٣٥١.
(٢) صحيح : رواه ابن عدي عن صهيب كما في صحيح الجامع رقم : ٣٨٢١.
(٣) صحيح : رواه ابن أبي شيبة عن رجل كما في صحيح الجامع رقم : ٢٩٥٣.
(٤) شعب الإيمان ٥/ ٤٦٠.

يقول الإمام ابن القيم في تفسير قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ [الطارق:٩].

«في التعبير عن الأعمال بالسر لطيفة، وهو أنَّ الأعمال نتائج السرائر الباطنة، فمن كانت سريرته صالحة، كان عمله صالحًا، فتبدو سريرته على وجهه نورًا وإشراقًا وحياء، ومن كانت سريرته فاسدة، كان عمله تابعًا لسريرته، لا اعتبارًا بصورته، فتبدو سريرته على وجهه سوادًا وظلمة وشينًا، وإن كان الذي يبدو عليه في الدنيا إنما هو عمله لا سريرته، فيوم القيامة تبدو عليه سريرته، ويكون الحكم والظهور لها»(١).

وفي المقابل ينشر الله المسك والريحان والنور والإيمان لكل من أطاعه في السر، واسمع خبر **محمد بن أسلم**:

«وقيل **لأحمد بن نصر**: يا أبا عبد الله!! صلى عليه ألف ألف من الناس قال بعضهم: ألف ألف ومائة ألف من الناس؛ يقول صالحهم وطالحهم: لم نعرف لهذا الرجل نظيرًا، فقال أحمد بن نصر: «يا قوم أصلحوا سرائركم بينكم وبين الله، ألا ترون رجلاً دخل بيته بطوس فأصلح سره بينه وبين الله، ثم نقله الله إلينا فأصلح الله على يديه ألف ألف ومائة ألف من الناس»(٢).

وخبر **معروف** في هذا الشأن معروف؛ قال عنه **ابن الجوزي**:

«**فهذا معروف**؛ كان منفردًا بربه، طيِّب العيش معه، لذيذ الخلوة به، ثم قد مات منذ نحو أربعمائة سنة، فما يخلو أن يُهدى إليه كل يوم ما تقدير مجموعة أجزاء من القرآن، وأقله من يقف على قبره فيقرأ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ ويُهديها له، والسلاطين تقف بين يدي قبره ذليلة؛ هذا بعد الموت، ويوم الحشر تُنشر الكرامات التي لا توصف»(٣).

ويشرح **وهب بن منبِّه** العلاقة الوطيدة بين السر والعلانية؛ والصلة الخفية بين الخلوة والجلوة، ويبيِّن قدر كل منهما ودرجته بالنسبة إلى أخيه في قوله:

«ولا تظن أن العلانية هي أنجح من السريرة، فإنَّ مثل العلانية مع السريرة، كمثل ورق الشجر مع عرقها، العلانية ورقها، والسريرة عرقها، إن نُخِر العرق هلكت الشجرة كلها، ورقها وعودها،

---

(١) التبيان في أقسام القرآن ١/ ٦٤.
(٢) حلية الاولياء ٩/ ٢٤٠، ٢٤١.
(٣) صيد الخاطر ص ٢٨٦.

وإن صلحت صلحت الشجرة كلها، ثمرها وورقها، فلا يزال ما ظهر من الشجرة في خير ما كان عرقها مستخفيًا، لا يُرى منه شيء، كذلك الدين لا يزال صالحًا ما كان له سريرة صالحة، يصدق الله بها علانيته، فإن العلانية تنفع مع السريرة الصالحة، كما ينفع عرق الشجرة صلاح فرعها، وإن كانت حياتها من قبل عرقها، فإن فرعها زينتها وجمالها، وإن كانت السريرة هي ملاك الدين، فإنَّ العلانية معها تزيِّن الدين وتجمِّله، إذا عملها مؤمن لا يريد بها إلا رضاء ربه عز وجل»[(١)].

للخلوة ست فوائد

والخلوة من أنجع الوسائل في رؤية عيوب النفس ومعرفة آفاتها. قال **ابن الجوزي**:

«فعليك بالعزلة والذكر والنظر في العلم، فإن العزلة حمية، والفكر والعلم أدوية، والدواء مع التخليط لا ينفع، وقد تمكنت منك أخلاط المخالطة للخلق والتخليط في الأفعال، فليس لك دواء إلا ما وصفت لك، فأما إذا خالطت الخلق وتعرَّضت للشهوات، ثم رُمْت صلاح القلب رُمتَ الممتنع»[(٢)].

والخلوة تكون بذلك بابًا من أبواب التوبة، وقد لمح هذا المدخل مقتفي الأثر الماهر **أبو الفرج ابن الجوزي** حيث أدهشنا في كتابه المدهش **(المدهش)** بهذا الفضل فقال:

«خُلِق قلبك صافيًا في الأصل، وإنما كدَّرته الخطايا، وفي الخلوة يركد الكدر»[(٣)].

ولذا جعلها **يحيى بن معاذ** من أبرز علامات التوبة الصادقة والمميزة لها عن التوبة الكاذبة، فقال: «وعلامة التائب: إسبال الدمعة، وحب الخلوة، والمحاسبة للنفس عند كل همة»[(٤)].

وأوصى بها وريث الأنبياء ودرة الأتقياء **الحسن البصري** آمرًا كل تائب: «وابكِ في ساعات

---

(١) الحلية ٤/ ٧٠.
(٢) صيد الخاطر، ص ٣٩.
(٣) المدهش ص ٢٠٧، ٢٠٨.
(٤) صفة الصفوة ٤/ ٩٠.



الخلوة لعل مولاك يطلع عليك، فيرحم عبرتك، فتكون من الفائزين»[(١)].

- **والخلوة** وسيلة إلى اقتناص خواطر الخير وصيد الأفكار الجيدة التي لا ترد في الزحام وبين الناس؛ كما حكى تجربته في ذلك الإمام أبو سليمان الخطابي فقال:

إذا خلوتُ صفا ذهني وعارضني   خواطرٌ كطراز البرق في الظلم
وإن توالى صياح الناعقين على   أذني عرتني منه لكنة العجم[(٢)]

وكما قال آخر:

وأطيب أوقاتي من الدهر خلوة   يقرُّ بها قلبي ويصفو بها ذهني
ويأخذ لي من سورة الفكر نشوة   فأخرج من فنٍّ وأدخل في فنٍّ
ويفهم ما قد قال عقلي تصوري   فنقلي عن أذني وسمعي بها مني
وأسمع من نجوى الدفاتر طُرفة   أزيل بها همي وأجلو بها حُزني
يسامرني قوم لديَّ حديثهم   فما غاب منهم غير شخصهم عني

- **والخلوة** ميزان دقيق يقيس به العبد إيمانه ويعرف صدقه وإخلاصه. قال ابن القيم: «من فقد أنسه بالله بين الناس ووجده في الوحدة فهو صادق ضعيف، ومن وجده بين الناس وفقده في الخلوة فهو معلول، ومن فقده بين الناس وفي الخلوة فهو ميت مطرود، ومن وجده في الخلوة وفي الناس فهو المحب الصادق القوي في حاله»[(٣)].

- **والخلوة** طريق موصل إلى محبة الله كما قال ذلك ابن القيِّم في الوسيلة الثامنة من أصل عشرة لنيل هذا الشرف:

«الثامن: الخلوة به وقت النزول الإلهي لمناجاته وتلاوة كلامه والوقوف بالقلب والتأدب بأدب العبودية بين يديه، ثم ختم ذلك بالاستغفار والتوبة»[(٤)].

ونصيب كل منا من هذا الحب حسب مقدار خلوته وإخلاص نيته، وفي ذلك فليتنافس

---

(١) الرقة والبكاء ص ٥٥.
(٢) الإمام الخطابي رائد شرَّاح البخاري ص٢٥ - ملحق مجلة الأزهر عدد ذي الحجة ١٤١٣هـ.
(٣) الفوائد ص ٤٣.
(٤) مدارج السالكين ٣/ ١٧.

المحبون. قال **ابن الجوزي**:

«الخلوة شرك لصيد المؤانسة، فأخفى الصيادين شخصًا وأقلهم حركة أكثرهم التقاطًا للصيد، ما صاد هرًّا صاح»(١).

- **والخلوة** عند بعض أطباء القلوب من بعض ثمن الجنة، فقد قال **يحيى بن معاذ** وقد سُئل يومًا: ما العبادة؟! فقال: «حرفة حانوتها الخلوة وربحها الجنة»(٢).

- **والخلوة** تكون أسهل في اعتكاف رمضان أو رحلة عمرة أو حج، لكنها تحتاج إلى مجاهدة أشد واهتمام أكبر في أي وقت غير هذا؛ لأنك عندها تنتزع نفسك من وسط أعبائك واهتماماتك وأموالك وعيالك لتجمع همك على الله وحده، وقد يمل الإنسان الخلوة، وهو ما نقله العلامة **الخطابي** عن أحد الحكماء وهو يشرح لماذا يمل الإنسان من الجلوس وحده، فقال:

«قال بعض الحكماء: إنما يستوحش الإنسان بالوحدة لخلاء ذاته، وعدم الأفضلية من نفسه؛ فيتكثر حينئذٍ بملاقاة الناس، ويطرد الوحشة عن نفسه بالكون معهم، فإذا كانت ذاته فاضلة طلب الوحدة ليستعين بها على الفكرة، ويتفرَّغ لاستخراج الحكمة»(٣).

ابتداء وانتهاء

فإذا حصَّلت الخلوة وتلذَّذت بها ارتقيت ولابد إلى مرتبة أخرى!! إليها أشار **أبو سليمان الداراني** حين قال له **أحمد بن أبي الحوارى** : صليتُ في الخلوة ، فاستلذذت بها لأنه لم يطلع عليَّ أحد ، فقال له **أبو سليمان** : إنك لضعيف حيث خطر ببالك غيره.

ولذا كان أكمل الأحوال أن يكون الإنسان والجدار عندك سواء ، وأما من كان في حالة الابتداء فكتمان العبادات له أنفع لأنه لم تتهذب له نفسه بعد ، ولهذا أشار **أبو سليمان** إلى تلميذه بأنه ضعيف.

---

(١) المدهش ص ٥٢٣.
(٢) صفة الصفوة ٤/ ٩٧.
(٣) العزلة ص١٧.



13 أنفق يُنفق عليك:

إن كل دواء سيأتي ذكره في باب (جرعات الدواء) إذا صاحب تعاطيك له دعوة غيرك إلى تناوله والأخذ به؛ كان ذلك عاملاً مساعدًا على تعظيم أثر الدواء على قلبك أيها الداعي ومضاعفة أثره ومفعوله، فإذا وفَّقك الله لطاعته، وحفظك من مواطن الزلل، فاعلم أن لهذه النعمة تبعات، وهذه التبعات هي شكر هذه النعمة، وهذا الشكر يتمثل في دعوة الآخرين للنجاة، أما كفر هذه النعمة فهو: الاغترار بحالك، وعدم الاكتراث بنجاة من حولك، وعندها قد تنزع منك نعمة الهداية، فرُبَّ جيد لا يليق به العقد فيُخلع، ورُبَّ أرض أجدبت بعد الزرع فتُهجر!!

الدعوة كذلك تزيد مناعة الجسم الإيمانية وتحميه من السقوط في المستقبل، فيدعو الداعية نفسه وهو يدعو غيره، ويعظ قلبه مع قلوب مستمعيه، بل إن من أصابه المرض فترة تصبح فرصته أكبر في شفاء غيره وهدايته، وكيف لا وقد عرف الداء بنفسه وعانى منه بقلبه، ثم حافظ على جرعات الدواء ومرَّ بكل مراحل الشفاء حتى برئ. قال **ابن القيِّم** مبرهنًا ومؤكِّدًا:

«يصير كالطبيب ينتفع به المرضى في علاجهم ودوائهم، والطبيب الذي عرف المرض مباشرة وعرف دواءه وعلاجه أحذق وأخبر من الطبيب الذي إنما عرفه وصفا؛ هذا في أمراض الأبدان وكذلك في أمراض القلوب وأدوائها، وهذا معنى قول بعض الصوفية: أعرف الناس بالآفات أكثرهم آفات، وقال **عمر بن الخطاب**: إنما تُنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية، ولهذا كان الصحابة أعرف الأمة بالإسلام وتفاصيله وأبوابه وطرقه، وأشد الناس رغبة فيه ومحبة له وجهادًا لأعدائه، وتحذيرًا من خلافه لكمال علمهم بضده، والمقصود أن من بُلي بالآفات صار من أعرف الناس بطرقها، وأمكنه أن يسدَّها على نفسه وعلى من استنصحه من الناس ومن لم يستنصحه»[(١)].

والتائب من الذنب أصدق لهجة في الدعوة وأقوى حجة في الإقناع لأن من ذاق الحلاوة كره المرارة، بل حذَّر غاية التحذير منها لأنه سبق واكتوى بنارها من قبل؛ فصار يصيح في

---

(١) مفتاح دار السعادة ص٣٣٦ – الجزء الأول – ط دار الحديث بتصرف.

الطرقات يحذِّر الغافلين وينذر المغترين، وصدق **سهل بن عبد الله** حين جزم قاطعًا بأنه:

«لا يعرف الرياء إلا مخلص، ولا يعرف النفاق إلا مؤمن، ولا يعرف الجهل إلا عالم، ولا يعرف المعصية إلا مطيع»(١).

العدو الصديق!!

يا صاحب المروءة.. يا أبيًّا لا يقبل الضيم.. يا من استزله الشيطان ببعض ما كسب:

ساعَدَك شيطانك من حيث أراد أن يغويك، وهداك من حيث أراد أن يضلك، وثقَّل ميزان حسناتك من حيث قصد إثقال كفة السيئات، فإن «القلب يكون ذاهلا عن عدوه معرضًا عنه مشتغلاً ببعض مهماته؛ فإذا أصابه سهم من عدوه استجمعت له قوته وحاسته وحميته، وطلب بثأره إن كان قلبه حرًّا كريمًا؛ كالرجل الشجاع إذا جُرِح فإنه لا يقوم له شيء، بل تراه بعدها هائجًا طالبًا مقدامًا، والقلب الجبان المهين إذا جُرِح كالرجل الضعيف المهين إذا جُرِح ولى هاربًا والجراحات في أكتافه، وكذلك الأسد إذا جُرِح فإنه لا يطاق، فلا خير فيمن لا مروءة له يطلب أخذ ثاره من أعدى عدوه، فما شيء أشفى للقلب من أخذه بثأره من عدوه، ولا عدو أعدى له من الشيطان، فإن كان قلبه من قلوب الرجال المتسابقين في حلبة المجد جدَّ في أخذ الثأر، وغاظ عدوه كل الغيظ وأضناه»(٢).

وصدق **محمد إقبال** وهو يخلب الألباب بعباراته، ويُدمي القلوب بإشاراته قائلاً:

كم عدوٍّ لك في الحق صديق　　　أنت بالأعداء ذو غصن وريق

يوقِظ الخصم قواك الهاجدة　　　مثل ما تُحيي المواتَ الراعدة(٣)

ومن هنا أتوجه بهذه النصيحة للكل: المرضى والأصحاء، والضعفاء قبل الأقوياء، والسائرين في بداية الطريق والبالغين منتهاه، والمتمتعين بالعافية الإيمانية واللذين لا يزالون

(١) شعب الإيمان ٥/ ٣٤٩.

(٢) مفتاح دار السعادة ص ٢٩٥.

(٣) ديوان الرموز والأسرار ص٤٧.

يتعثرون في حبائل الشيطان، وأدعوهم جميعًا للبذل والعطاء والكرم والسخاء، وآمرهم بما أمرهم به **ابن عطاء الله السكندري** حين قال:

«لينفق ذو سعة من سعته: الواصلون إليه، ومن قُدِر عليه رزقه: السائرون إليه»(١).

رحم الله **ابن عطاء**، فكلماته كالقمر في الضياء، لكن الشمس أضوأ، والشمس هنا هي حديث رسولنا ﷺ: «**بلِّغوا عني ولو آية**»(٢).

أخي.. كن ذكيًّا وأقبل على ما ينفعك واعتبر هذه الوصية دعوة إلى تكثير أجرائك من إخوانك اليوم، ليعملوا لك ولحسابك لتحصد أنت من ورائهم الخير والثواب والربح والجنة. قال أحمد بن حرب: «مثل الذي يعلِّم الناس الخير ويُرشدهم إليه مثل من استأجر أجراء يعملون له بأبدانهم وأموالهم الليل والنهار في حياته وبعد مماته»(٣).

وهل تاجر أخروي ورابح رباني مثل العالم المجاهد **عبد الله بن المبارك**؟! الذي لم يضيِّع لحظة واحدة في غير خير وبر، ولا خير مثل الدعوة إلى الله، ولا بر أبرَّ من إنقاذ الناس من الضلال، وذلك لما حضرت الوفاة **عبد الله بن المبارك** جعل رجل يُلقِّنه: قل: لا إله إلا الله، فأكثر عليه، فقال: «إنك ليس تُحسن، وأخاف أن تؤذي بها رجلاً مسلمًا بعدي، إذا لقنتني فقلتُ: لا إله إلا الله، ثم لم أُحدِث كلامًا بعدها فدعني، فإذا أحدثتُ كلامًا بعدها فلقِّنِّي حتى تكون آخر كلامي»(٤).

وتذكر أنك إن لم تُزِل الفخ سقطت فيه

---

(١) شروح الحكم العطائية ص ١٦٦.

(٢) صحيح: رواه أحمد والبخاري والترمذي عن ابن عمرو كما في صحيح الجامع رقم: ٢٨٣٧. قال **المعافى النهرواني** في كتاب الجليس: «الآية في اللغة تطلق على ثلاثة معانٍ: العلامة الفاصلة والأعجوبة الحاصلة والبلية النازلة، فمن الأول: قوله تعالى: ﴿ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾، ومن الثاني: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾، ومن الثالث: جعل الأمير فلانًا اليوم آية، ويجمع بين هذه المعاني الثلاثة أنه قيل لها آية لدلالتها وفصلها وإبانتها». فتح الباري ٦/ ٤٩٨.

(٣) تنبيه المغترين ص٤٨.

(٤) مختصر تاريخ دمشق ١٤/ ٣٠ - ط دار الفكر عام ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م - تحقيق سكينة الشهابي.

بمعنى أنك إن لم تُزِل أسباب التعثر وقعت، وإن لم تقطع أسباب الهلاك هلكت، وإن لم تسعَ في القضاء على موارد العَطَب.. أُخِذتَ، وإن سمحت للمنكرات أن تنتشر حولك فسيعم الوباء الذي سينالك رذاذه يومًا ما ولابد.

14 دواء الملول:

وذلك أن النفس بطبيعتها ملولة لا تستطيع الإقامة على دواء واحد دون تغير؛ لذا كان من رحمة الله بنا أن يسَّر لنا ألوانا من العبادات تتقلَّب بينها النفس المؤمنة، فلا يفتر عزمها، ولا يكلُّ سعيها، كما أدرك ذلك **ابن عطاء** فأرشدنا إليه في قوله:

«لما علم الحق منك وجود الملل؛ لوَّن لك الطاعات»(١).

والنفوس ليست نسخًا متشابهة، وكما تختلف البصمات تختلف أيضًا الملكات والميول والرغبات، ولنتعلم من الإمام **مالك** الذي كتب إليه **عبد الله القمري** العابد الزاهد يحضه على الانفراد والتفرُّغ للعبادة فكتب إليه الإمام بحنكة الخبير وتجارب الحكيم قائلاً:

«إن الله قسم الأعمال كما قسم الأرزاق، فرُبَّ رجل فُتِح له في الصلاة، ولم يُفتح له في الصوم، وآخر فُتِح له في الصدقة، ولم يُفتَح له في الصوم، وآخر فُتِح له في الجهاد، فنشر العلم أفضل أعمال البر، وقد رضيتُ بما فُتِح لي فيه، وما أظن ما أنا فيه بدون ما أنت فيه، وأرجو أن يكون كلانا على خير وبر»(٢).

واسمع إلى فقه **محمد بن المنكدر** وسلوكه طريق التنويع واسلكه كما سلكه ثم أخبرك بما وجده في النهاية قائلاً:

«بات أخي **عمر** يصلي، وبِتُّ أغمِّز قدم أمي، وما أُحِبُّ أن ليلتي بليلته»(٣).

وليس التنويع مطلوبًا في ميدان الأعمال فحسب بل يتعدَّاه إلى ميدان العلوم كذلك،

---

(١) شروح الحكم العطائية ص ٢٥٠.
(٢) سير أعلام النبلاء ٨/ ١١٤.
(٣) سير أعلام النبلاء ٥/ ٣٥٩.

وصدق الشاعر إذ يقول:

احرص على كل علم تبلغ الأملا ... ولا تواصل لعلم واحد كسلا
النحل لما رعت من كل فاكهة ... أبدت لنا الجوهرين: الشمع والعسلا
الشمع بالليل نور يُستضاء به ... والشهد يُبري بإذن البارئ العللا[(١)]

ودواء الملول إما أن يكون تناول دواء آخر وعدم التركيز على دواء واحد فحسب، وإما بالترفيه عن النفس بشيء من المباح مستصحبًا معه نية صالحة، فأما **الدواء الأول** فلابد أن يكون لديك دومًا خطة إنقاذ بديلة تلجأ إليها عند استخدامك لدواء وتكرارك له مع فشلك في الانتفاع به، وعندها يكون اللجوء إلى دواء ثانٍ وثالث هو الحل السريع.

وأما **الدواء الثاني** للملل فهو من قبيل ما ورد عن **كعب بن عجرة** قال: مرَّ على النبي ﷺ رجلٌ، فرأى أصحاب النبي ﷺ من جلَده ونشاطه ما أعجبهم، فقالوا: يا رسول الله.. لو كان هذا في سبيل الله، فقال رسول الله ﷺ: «**إن كان خرج يسْعى على وَلَده صغارًا فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على نفسه يُعِفُّها فهو في سبيل لله، وإن كان خرج يسعى رياءً ومُفاخَرَةً فهو في سبيل الشيطان**»[(٢)].

التفاعل مع سنة الفترات

الفتور: انكسار وضعف، إشارة إلى أن هذا الضعف قد سُبق بقوة، وذلك الانكسار تقدمته صلابة، ولهذا قال علماء اللغة: «فتر: أي سكن بعد حِدّة، ولان بعد شِدّة»[(٣)].

ولعل من حكمة وقوع الفتور لك أن تعلم قدر النعمة التي سُلِبت منك، فإذا ما رجعت يومًا إليك احتضنتها بقوة عالما قدرها غير مفرِّط فيها أو مضيِّع. قال **ابن عطاء**:

«رُبَّما وَرَدَت الظُّلم عليك، ليُعرِّفك قدر ما مَنَّ به عليك»[(٤)].

---

(١) درة الحجال ٣/ ٤٩.
(٢) صحيح: رواه الطبراني والبيهقي في شعب الإيمان عن كعب بن عجرة كما في صحيح الجامع حديث رقم: ١٤٢٨.
(٣) لسان العرب ١٠/ ١٧٤.
(٤) الحكم العطائية ص ٧٠ – ط دار السلام – ط الأولى لعام ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.

والآن.. خذوا هذه الكلمات من الإمام ابن القيم وهو يمارس فن الوعظ، ويصوغ الهداية على شكل عبارة، فيدهش العقول ويطمئن القلوب بقوله:

«تخلل الفترات للسالكين أمر لازم لا بد منه، فمن كانت فترته إلى مقاربة وتسديد، ولم تخرجه من فرض، ولم تُدخِله في محرَّم رُجِي له أن يعود خيرًا مما كان»(١).

لكن غيوم الفتور أنواع وهي ليست على درجة واحدة، بل تختلف على حسب درجة الإيمان؛ «منها ما يكون سريع الحصول سريع الزوال، ومنها ما يكون سريع الحصول بطيء الزوال، ومنها ما يكون بطيء الحصول سريع الزوال، ومنها ما يكون بطيء الحصول بطيء الزوال»(٢).

15 ارتدِ العدسة المصغِّرة:

أخي.. سحائب شفائك قد أبرقت، فليكن وابلها سالمًا من صواعق العجب، وقد جُبِلت النفس على إحسان الظن بحالها، وتزكية عملها، والخنفساء تسمي بنتها القمر، ولا يتم شفاء أو يؤثِّر دواء إلا باستصغار عملك الصالح ورؤيته صغيرًا في جنب الله، وقد قيل: الإحساس بالتقصير أولى درجات الكمال.

بل يقرِّر ابن عطاء أن أشفى جرعة دواء وأقربها إلى القبول وإحداث الأثر هي التي مُزِجت بسطور هذه الوصية. قال رحمه الله:

«لا عمل أرجى للقبول من عمل يغيب عنك شهوده، ويُحتَقَر عندك وجوده»(٣).

ومما يعينك على هذه الرؤية الخوف من الاستدراج، وقدوتك في ذلك أحمد ابن حنبل.

قال الخلال: «قلت لأبي عبد الله: ما أكثر الدَّاعي لك!

قال: أخاف أن يكون هذا استدراجًا، بأيِّ شيء هذا؟

وقلت له: قدم رجل من طرسوس، فقال: كنَّا في بلاد الرُّوم في الغزو إذا هدأ الليل،

---

(١) مدارج السالكين ٣/ ١٢٦.

(٢) الفوائد ١/ ١٩٥.

(٣) شرح الحكم العطائية ص ١٨٩.



رفعوا أصواتهم بالدُّعاء، ادعوا لأبي عبدالله، وكنا نمد المنجنيق ونرمي عنه، ولقد رُمي عنه الحجر والعلج على الحصن متترِّس بدرقة فذهب برأسه وبالدرقة، فتغيَّر وجهه وقال: ليته لا يكون استدراجًا، فقلت: كلا»(١).

ومما يعينك على هذه الرؤية رؤية العون الإلهي. جاء في دعاء ابن الجوزي:

«اللهم إنك افترضت علينا ما لا نطيق أداءه إلا بتوفيقك؛ فوفِّقنا لأداء ما افترضته، وحرَّمت علينا ما لا نمتنع من مواقعته إلا بحفظك فاحفظنا عن مواقعة ما حرَّمته؛ فلا نعتمد إلا عليك»(٢).

فوالله لولا الله يُسعد عبده ... بتوفيقه والله بالعبد أرحم

لما ثبت الإيمان يومًا بقلبه ... على هذه العلات والأمر أعظم

ولا طاوعته النفس في ترك شهوة ... مخافة نار جمرها يتضرَّم

ولا خاف يومًا من مقام إلهه ... عليه بحكم القسط إذ ليس يظلم

قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النساء: ٦٩-٧٠]، وتأمَّل قوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِ﴾ مما يفيد الحصر، ومع أن فضل الله أنواع وألوان، ولكن أُريد هنا المبالغة في قوة هذا الفضل بالذات حتى وكأنه الفضل الوحيد لتخشع النفس وتذل ولا تغتر.

هذا الفضل الذي لو غاب لاندثر الخير وانقرض واختفى الهدى من على وجه الأرض واحتضر: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ [النور: ٢١].

أخذ **ابن القيم** الآية السابقة وأسقط معناها على أجل العبادات وأشرفها وهي عبادة الذكر معلنًا أنك ليس لك فيها أدنى فضل إن رُزِقتها بل هو الذي دفعك لذكره واختارك لقربه.

---

(١) تاريخ الإسلام ١١/ ٢١١.

(٢) التذكرة في الوعظ ص ٥٨.

قال رحمه الله: «وذكر العبد لربه محفوف بذكرين من ربه له: ذكر قبله به صار العبد ذاكرًا له، وذكر بعده به صار العبد مذكورًا كما قال تعالى: ﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ ﴾ [البقرة: ١٥٢]»[(١)].

ومما يعينك على هذه الرؤية وضع النفس دومًا في قفص الاتهام، وهو ما سماه ذو النون بإنصاف الرب فقال: طوبى لمن أنصف ربه عز وجل. قيل: وكيف يُنصِف ربه؟ قال: «يُقِرُّ له بالآفات في طاعته، وبالجهل في معصيته، وإن آخذه بذنوبه رأى عدله، وإن غفر له رأى فضله، وإن لم يتقبل منه حسناته لم يره ظالمًا لما معه من الآفات، وإن قبلها رأى إحسانه لما جاد به من الكرامات»[(٢)].

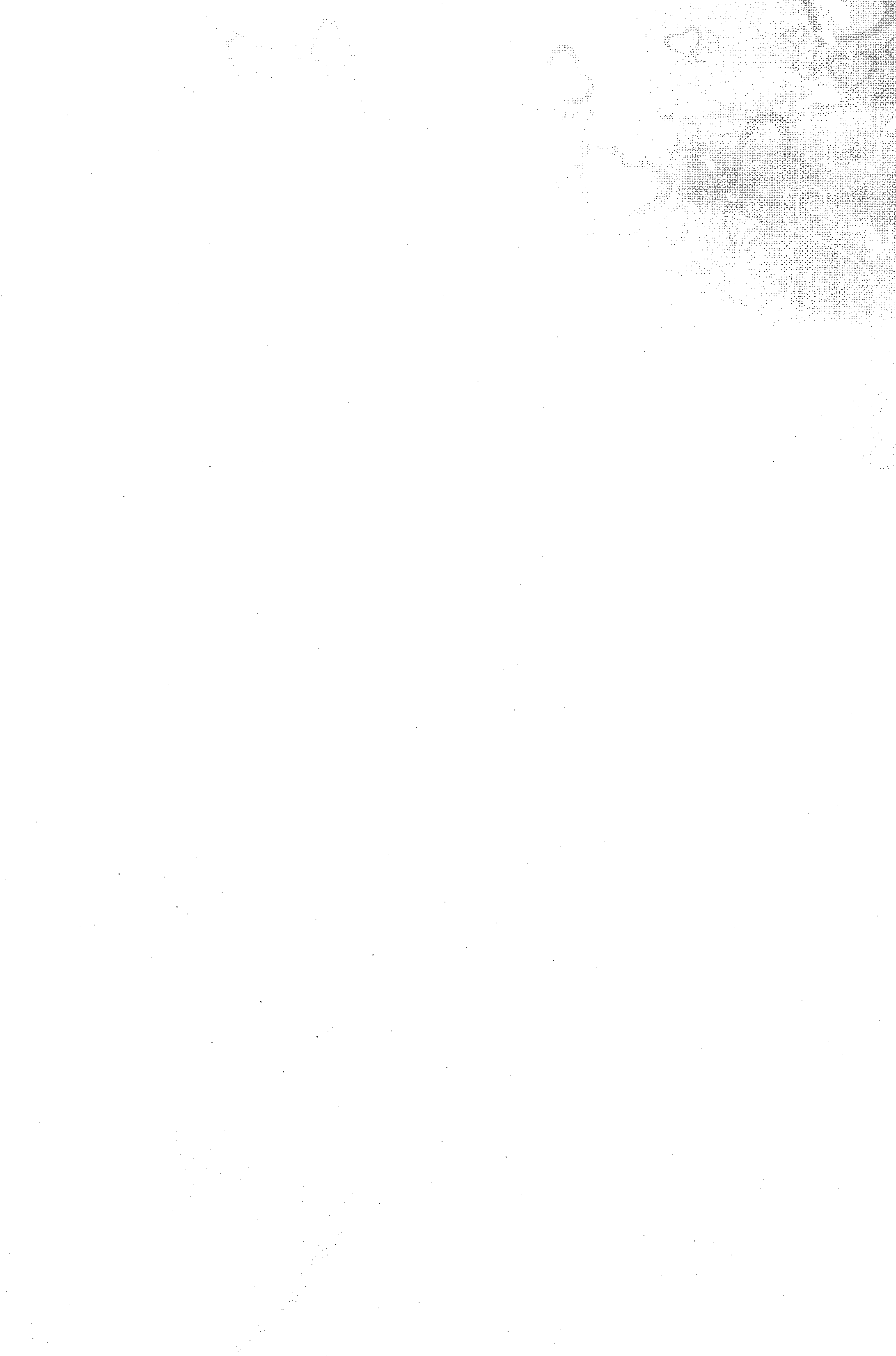
ومما يعينك على هذه الرؤية الخوف من الخاتمة. قال خير النساج: «لا نسب أشرف من نسب من خلقه الله بيده فلم يعصمه، ولا علم أشرف من علم من علَّمه الله الأسماء كلها فلم ينفعه في وقت جريان القدر والقضاء عليه، ولا عبادة أتم ولا أكثر من عبادة إبليس؛ فلم يُنجِه ذلك من المسبوق عليه»[(٣)].

ومما يعينك على هذه الرؤية عقد المقارنة مع السابقين وقراءة قصص الصالحين والتنزه في كتب التراجم والسير، مما يورثك معرفة قد نفسك إن كان قد أوقعك في الغرور طول المكث بين من هو أدنى منك إيمانًا وأقل تقوى.

(١) المدارج ٢/ ٤٣٣ .
(٢) حلية الأولياء ٩/ ٣٦٦
(٣) طبقات الصوفية ص ٣٢٨ – أبو عبد الرحمن السلمي – تحقيق نورالدين شريبة – ط مكتبة الخانجي ط ٢ لعام ١٣٨٩ هـ- ١٩٦٩ م




٦
جرعات
الدواء
رُدَّ إليَّ





غرس الأرض بالخيرات

على عتبة هذا الباب:

- إن كنت قد حرست الأبواب الستة للقلب؛ ووضعت عليها الحراسات المشددة، فإن ذلك وحده ليس كافيًا، فلابد لك بعد التخلية من تحلية، ومن غرس الأرض بالخيرات بعد تطهيرها من الآفات، لأن زكاة القلب معنى زائد على طهارته، والدليل على هذا قوله تعالى: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ [التوبة: ١٠٣]، وزكاة القلب هي مقصودنا وهدفنا في هذا الباب.
- الدواء على الرف، والشفاء في متناول اليد، وما لم يقع السهم في مقتل فالعلاج في الإمكان.
- أنت من تصنع دواءك في البداية، ثم دواؤك هو من يشفيك بإذن الله في النهاية.
- لا يوجد إنسان فاسد، بل يوجد إنسان يجهل مواطن الصلاح فيه.
- كل مريض ليس له هدف مثل سفينة ليس لها رُبَّان كلاهما ينتهي به الأمر إلى القاع.
- احذر: كيف ترجو الشفاء دون أخذ الدواء؟! كيف يدوم اللهب دون حرق الحطب؟! كيف يكون علم دون وجود عمل؟! وهل يُسمَّى العلم في هذه الحالة علمًا؟! قال الحسن في قوله تعالى: ﴿ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ﴾ [الأنعام: ٩١]:

«عُلِّمتم فعلِمْتُم ولم تعملوا، فوالله ما ذلكم بعلم»[1].

- إياك أن تقول حاولت وفشلت، فكلمة المحاولة هنا مرادفة لكلمة الكذب لأنها تبرير للفشل وتقديم للعذر ورفع لراية الاستسلام أمام أول هجمة من هجمات الشيطان.

---

(١) جامع بيان العلم وفضله ص ٧٠٦.

- إن لم تتناول دواء فلا تشرب سمًّا، إن لم تبْنِ فلا تهدم، إن لم تُطِع فلا تعصِ، فإن عصتك نفسك في الطاعة فلم تطاوعك، فاعصها أنت في المعصية ولا تطاوعها.

- ورود الإمداد بحسب الاستعداد: وهي حكمة عطائية تعني أن كل جرعة مقدارها يختلف على حسب استعداد صاحبها، وتهيئته لقلبه، وحالة روحه، ومن قال لا أستطيع تناول جرعة دواء فلن ذلك يستطيع بالفعل؛ لأنه خسر المعركة مع نفسه قبل أن تبدأ معركته مع عدوه، فوفَّر على الشيطان مشقة اللقاء، وأسعده باستعداده الهزيمة.

- المجتمع محراب التعبد، والأصل في المؤمن أن يكون غُدُوه ورواحه لله كما في آية الأنعام: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢]، وعلى هذا فالثواب المترتب على إتقان عمل وقضاء مصالح الخلق ليس بعيدًا عن ثواب أداء عبادة واجبة أو صلاة راتبة.

- مَرَّ رجلٌ على حذيفة بن اليمان ﷺ وحوله فتيانٌ جلوس، فقال: ما لهؤلاء الأحداث حولك؟! فقال: «وهل الخير إلا في الشباب؟! أما سمعت الله تعالى يقول: ﴿ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴾، وقوله: ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ ﴾، وقوله: ﴿ قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا ﴾، وإن الله لم يبعث نبيًّا إلا وهو شاب»[1].

أخي.. قد تُشفى عند كبرك ولكنه شفاء بعد ذهاب الصحة وزوال العافية، وعندها تطلب العمل في موسم الخريف بعد أن تساقطت أوراق العمر وذبلت أزهاره، فلا تسعفك قوتك وتخونك صحتك، فتعرف عندها قيمة شبابك المنقضي، وثمن عمرك الضائع، لتردِّد في توجع قصيدة رثاء مع الشاعر الذي ما تاب إلا بعد ما شاب، وما أفاق حتى بلغت التراق، فقال باكيًا:

---

(١) تنبيه المغترين ص ٤٧ – عبد الوهاب الشعراني – ط مصطفى البابي الحلبي.

مـرَّ الشبــاب فلـم أقــدِر أرجِّعــه ولم أُحيِّـه إلا بعـد مـا انصـرفا
والمـرء يجهـل قـدر الشـيء يُمكِنـه حتـى إذا فاتـه إمكانـه عرفـا

ويحك أخي الشاب.. تقدَّم واعصر عمرك عصرًا، واستخلص منه كل لحظة فارغة، وقدِّم لنفسك من البر ولو ذرة، واذكر أن الأنفاس أمانات وودائع لديك، واعلم كذلك أن اليوم فيه مئات فرص الشفاء وهي تَمُرُّ بك مَرَّ السحاب تنتظر براعة المقتنص ويقظة النبيه، فاربح نفسك اليوم باستغلال جميع أوقاتك وإمكاناتك قبل أن تُنزع غدًا إلى قبرك.

أتُنفِق العمر في الدنيا مجازفةً والمال يُنفق فيها بالموازين



تقديم ابن القيم

قال **ابن القيِّم** وهو يُشرِّفنا بمشاركته في تقديم هذا الباب:

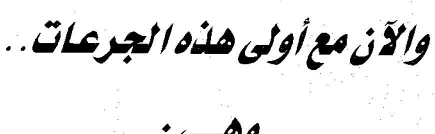
«ها هنا من الأدوية التي تشفي من الأمراض ما لم يهتدِ إليها عقول أكابر الأطباء، ولم تصل إليها علومهم وتجاربهم وأقيستهم من الأدوية القلبية والروحانية، وقوة القلب واعتماده على الله، والتوكل عليه، والالتجاء إليه، والانطراح والانكسار بين يديه، والتذلل له، والصدقة، والدعاء، والتوبة والاستغفار، والإحسان إلى الخلق، وإغاثة الملهوف، والتفريج عن المكروب، فإن هذه الأدوية قد جرَّبتها الأمم على اختلاف أديانها ومللها، فوجدوا لها من التأثير في الشفاء ما لا يصل إليه علم أعلم الأطباء ولا تجربته ولا قياسه، وقد جرَّبنا نحن وغيرنا من هذا أمورا كثيرة، ورأيناها تفعل ما لا تفعل الأدوية الحسية»[١].

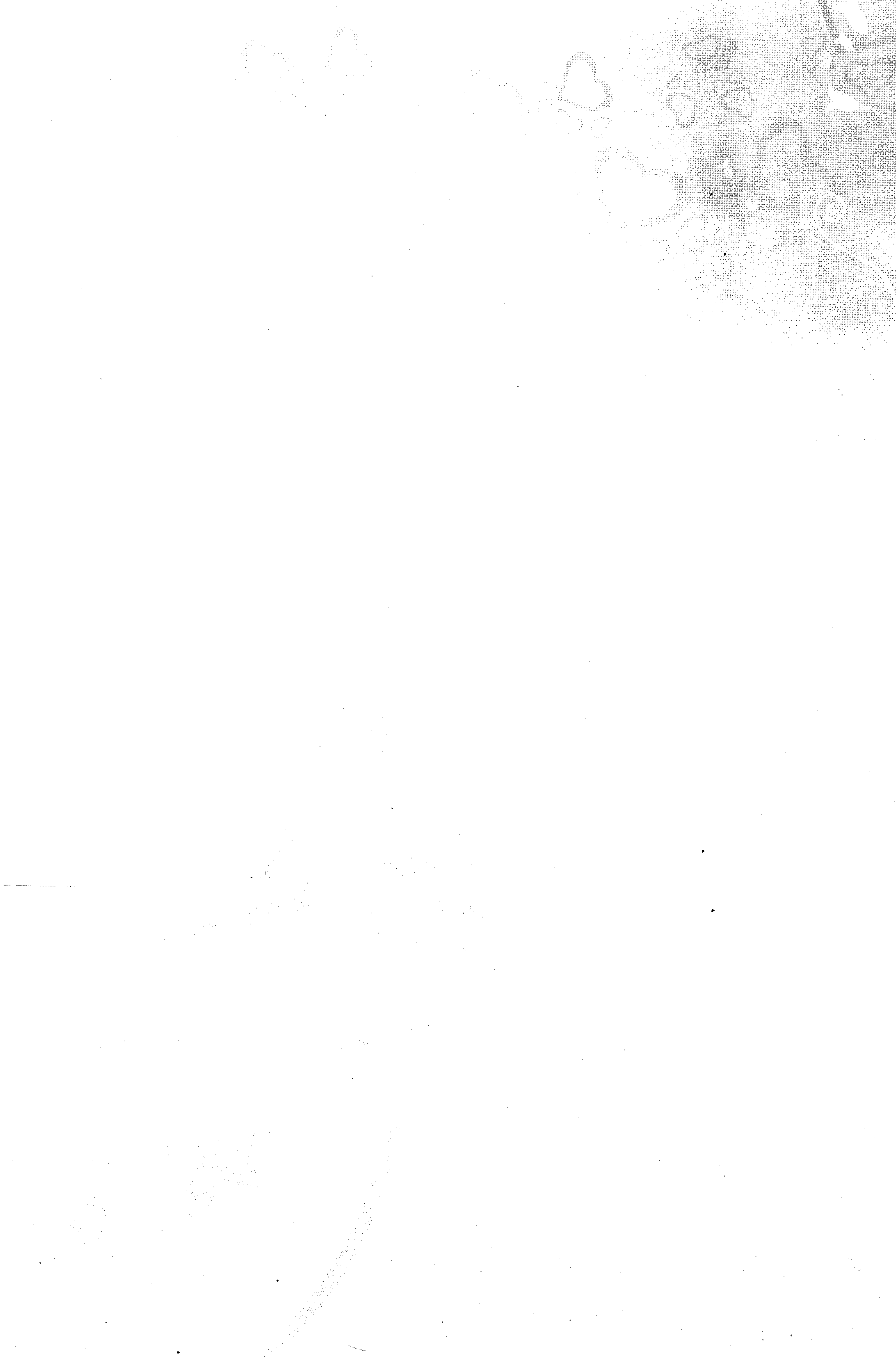
---

(١) زاد المعاد بتصرف ٤/ ٩.



القاعدة هنا: من صبر على مرارة الدواء عوفي، وأمامك الآن عشرة جرعات لا تدري في أيها الشفاء؛ لذا ينصحك الأطباء أن تجرِّبها كلها، ولا خطورة من زيادة أي جرعة بل هي على العكس: مستحبة وأنفع إن شاء الله...







أولا: عشارية القرآن

قال الله عز وجل: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [محمد: ٢٤] إنه الاستفهام التعجبي الاستنكاري من عدم تناول الدواء مع توفره وعظيم أثره وسرعة مفعوله، فلم يكتف الله بإنزال الدواء فحسب بل أنزل هذه الآية لحثِّ الناس على تناوله، ووالله لولا ذلك لكلَّت الألسُن عن تلاوته وغفلت القلوب عن أنواره.. ألا ما أرحم الله بنا وأحرصه علينا.

يقول **سيد قطب** عن هذه الآية:

«ويتساءل في استنكار: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾، وتدبر القرآن يزيل الغشاوة، ويفتح النوافذ، ويسكب النور، ويحرِّك المشاعر، ويستجيش القلوب، ويخلص الضمير، وينشئ حياة للروح تنبض بها وتشرق وتستنير ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ فهي تحول بينها وبين القرآن وبينها وبين النور؟ فإن استغلاق قلوبهم كاستغلاق الأقفال التي لا تسمح بالهواء والنور!»(١).

بل يرى **ابن القيِّم** قراءة القرآن أنفع الأدوية وأنجعها في علاج القلب، فلم ينزل الله سبحانه من السماء شفاء قط أعمَّ ولا أنفع ولا أعظم في إزالة الداء من القرآن، فقال في كلام جليل كأنما أُوحِي به إليه:

«وبالجملة فلا شيء أنفع للقلب من قراءة القرآن بالتدبر والتفكر، فإنه جامع لجميع منازل السائرين وأحوال العاملين ومقامات العارفين، وهو الذي يورث المحبة والشوق والخوف والرجاء والإنابة والتوكل والرضا والتفويض والشكر والصبر وسائر الأحوال التي بها حياة القلب وكماله، وكذلك يزجر عن جميع الصفات والأفعال المذمومة والتي بها فساد القلب وهلاكه»(٢).

---

(١) في ظلال القرآن.

(٢) مفتاح دار السعادة ص ٢٣٠- الجزء الأول - ط دار الحديث.

ويرى **ابن القيم** أيضًا أن كل ما على المسلم أن يفعله لعلاج قسوة قلبه: أن يقبل على القرآن فيقول: «ملاك ذلك كله: أمران: أحدهما: أن تنقل قلبك من وطن الدنيا فتسكنه في وطن الآخرة، ثم تقبل به كله على معاني القرآن واستجلائها، وتدبر وفهم ما يراد منه، وما نزل لأجله، وأخذ نصيبك من كل آياته، تنزلها على داء قلبك، فهذه طريق مختصرة قريبة سهلة موصلة إلى الرفيق الأعلى»[١].

ولأهمية دواء القرآن داوم عليه الصالحون حتى في أحلك الظروف، فلما وقعت في رجل **عروة بن الزبير** الآكلة، فقال له **الوليد بن عبد الملك**: اقطعها. قال: لا، فترقَّت إلى ساقه، فقال **الوليد**: اقطعها وإلا أفسدت جسدك، فقُطعت بالمنشار وهو يسبِّح لم يمسكه أحد، وقال: لقد لقينا من سفرنا هذا نصبًا، ولم يدع وِرْدَه تلك الليلة!![٢]

ولأهمية هذا الدواء حافظوا عليه حتى آخر لحظات الحياة، وتشبثوا به وهم يودِّعون الدنيا، لعلمهم أنه ليس بعدها إلى هذا الدواء سبيل، وليس في الدار المنتقَل إليها قطرة واحدة منه، وهذا ما فهمه **الجنيد** وعمل بمقتضاه. قال **أبو محمد الجريري**: كنتُ واقفًا على رأس **الجنيد** في وقت وفاته، وكان يوم جمعة وهو يقرأ القرآن فقلت: له يا أبا القاسم.. ارفق بنفسك قال: «يا أبا محمد.. ما رأيتُ أحوج إليه مني في هذا الوقت وهو ذا تُطوى صحيفتي»[٣].

أيكم سجد؟!

ويكمل شهيد القرآنِ **سيد قطب** مشاركته في كتابنا ويحكي تأثره بسورة النجم محاولاً معرفة سِر سجود المشركين بعد قراءة الرسول ﷺ لهذه السورة وهم على شركهم كما ورد في الحديث الصحيح فيقول:

«كنت بين رفقة نسمر حينما طرق أسماعنا صوت قارئ للقرآن من قريب يتلو سورة النجم، فانقطع بيننا الحديث لنستمع وننصت للقرآن الكريم، وكان صوت القارئ مؤثرًا

---

(١) مدارج السالكين ٢/ ٢٨.
(٢) الاعتبار والأحزان ص ٥٥.
(٣) تاريخ بغداد ٧/ ٢٤٨.

وهو يرتِّل القرآن ترتيلاً حسنًا.

وشيئًا فشيئًا عشت معه فيما يتلوه؛ عشت مع قلب محمد ﷺ في رحلته إلى الملأ الأعلى.

عشت معه وهو يشهد جبريل - عليه السلام - في صورته الملائكية التي خلقه الله عليها؛ ذلك الحادث العجيب المدهش حين يتدبره الإنسان ويحاول تخيله! وعشت معه وهو في رحلته العلوية الطليقة عند سدرة المنتهى وجنة المأوى.

عشت معه بقدر ما يسعفني خيالي، وتحلق بي رؤاي، وبقدر ما تطيق مشاعري وأحاسيسي، وتابعته في الإحساس بتهافت أساطير المشركين حول الملائكة وعبادتها وبنوتها وأنوثتها إلى آخر هذه الأوهام الخرفة المضحكة، التي تتهاوى عند اللمسة الأولى.

ووقفت أمام الكائن البشري ينشأ من الأرض، وأمام الأجنة في بطون الأمهات، وعلم الله يتابعها ويحيط بها، وارتجف كياني تحت وقع اللمسات المتتابعة في المقطع الأخير من السورة.. الغيب المحجوب لا يراه إلا الله، والعمل المكتوب لا ينِدُّ ولا يغيب عن الحساب والجزاء، والمنتهى إلى الله في نهاية كل طريق يسلكه العبيد، والحشود الضاحكة والحشود الباكية، وحشود الموتى، وحشود الأحياء، والنطفة تهتدي في الظلمات إلى طريقها، وتخطو خطواتها وتبرز أسرارها فإذا هي ذكر أو أنثى، والنشأة الأخرى، ومصارع الغابرين، والمؤتفكة أهوى فغشاها ما غشَّى!

واستمعت إلى صوت النذير الأخير قبل الكارثة الداهمة: ﴿ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾[النجم:٥٦-٥٨].

ثم جاءت الصيحة الأخيرة، واهتز كياني كله أمام التبكيت الرعيب: ﴿ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ﴾[النجم: ٥٩-٦٢].

فلما سمعت: ﴿ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ﴾.. كانت الرجفة قد سرت من قلبي حقًّا إلى أوصالي، واستحالت رجفة عضلية مادية ذات مظهر مادي لم أملك مقاومته؛ فظل جسمي كله يختلج، ولا أتمالك أن أثبته، ولا أن أكفكف دموعًا هاتنة، لا أملك احتباسها مع الجهد

والمحاولة! وأدركت في هذه اللحظة أن حادث السجود صحيح، وأن تعليله قريب؛ إنه كامن في ذلك السلطان العجيب لهذا القرآن، ولهذه الإيقاعات المزلزلة في سياق هذه السورة، لم تكن هذه أول مرة أقرأ فيها سورة النجم أو أسمعها، ولكنها في هذه المرة كان لها هذا الوقع، وكانت مني هذه الاستجابة، وذلك سر القرآن؛ فهناك لحظات خاصة موعودة غير مرقوبة تمس الآية أو السورة فيها موضع الاستجابة، وتقع اللمسة التي تصل القلب بمصدر القوة فيها والتأثير؛ فيكون منها ما يكون!»[1].

قلوب المستمعين ثلاثة

قال ابن القيِّم: «والناس ثلاثة: رجل قلبه ميت فذلك الذي لا قلب له فهذا ليست هذه الآية ذكرى في حقه.

الثاني: رجل له قلب حي مستعد لكنه غير مستمع للآيات المتلوة التي يخبر بها الله عن الآيات المشهودة: إما لعدم ورودها أو لوصولها إليه، ولكن قلبه مشغول عنها بغيرها، فهو غائب القلب ليس حاضرًا، فهذا أيضًا لا تحصل له الذكرى مع استعداده ووجود قلبه.

والثالث: رجل حي القلب مستعد تليت عليه الآيات فأصغى بسمعه وألقى السمع وأحضر قلبه ولم يشغله بغير فهم ما يسمعه، فهو شاهد القلب مُلقِي السمع، فهذا القسم هو الذي ينتفع بالآيات المتلوة والمشهودة.

فالأول: بمنزلة الأعمى الذي لا يُبصر.

والثاني: بمنزلة البصير الطامح ببصره إلى غير جهة المنظور إليه فكلاهما لا يراه، والثالث: بمنزلة البصير الذي قد حدق إلى جهة المنظور وأتبعه بصره وقابله على توسط من البعد والقرب، فهذا هو الذي يراه»[2].

ويكمل بنود هذا المشروع **الإمام الآجري** في كتابه «**آداب حملة القرآن**» ويستعرضها قائلاً:

---

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٤٢٠، ٣٤٢١.

(٢) مدارج السالكين ١/ ٤٤٢.

«فالمؤمن العاقل إذا تلا القرآن استعرض القرآن، فكان كالمرآة يرى بها ما حَسُن من فعله وما قَبُح منه، فما حذَّره مولاه حذِره، وما خوَّفه به من عقابه خافه، وما رغَّب فيه مولاه رغِب فيه ورجاه، فمن كانت هذه صفته أو قارب هذه الصفة فقد تلاه حق تلاوته، ورعاه حق رعايته، وكان له القرآن شاهدًا وشفيعًا وأنيسًا وحِرْزًا، ومن كان هذا وصفه نَفَع نفسه ونَفَع أهله، وعاد على والديه وعلى ولده كلُّ خير في الدنيا والآخرة».

لذا لابد لك أخي المريض أن تُعطي لهذا الكتاب قدره، وتنظر إليه من اليوم نظرة مختلفة، وتعامله بغير ما اعتدت عليه من قبل، وحين ينير الله بصيرتك ويرفع الغشاوة عن قلبك.

عندها فحسب ترى ما رأى محمد إقبال من أن القرآن مفتاح تغيير العالم بأسره، واسمعه حين يقول:

«إنه ليس بكتاب فحسب، إنه أكثر من ذلك، إذا دخل في القلب تغيَّر الإنسان، وإذا تغيَّر الإنسان تغيَّر العالم»(١).

وحين تُحرَم هذه البصيرة تفقد مصدر قوتك وبوصلة هدايتك ويصبح «لا اتصال لك به إلا إذا حضرتك الوفاة، فتُقرأ عليك سورة يس لتموت بسهولة، فواعجبًا! قد أصبح الكتاب الذي أُنزل ليمنحك الحياة والقوة يُتلى الآن لتموت براحة وسهولة»(٢).

1 افهم ما تقرأ:

إن معرفة الهدف من قراءة كتاب الله -عز وجل- هو من أهم شروط العلاج، ونستطيع أن نوجز هذا الهدف في كلمة واحدة ألا وهي التدبر، والتدبر في اللغة هو تأمل دُبُر الأمر أي عاقبته، وتدبر القرآن هو تحديق القلب في معانيه، وجمع الفكر على معرفته وتفهمه، وذوبان معانيه في الروح فتسري في الدم إلى القلب فتشفيه، وهو الغرض من إنزاله. قال تعالى:

---

(١) روائع إقبال ص ١٧٢ - أبو الحسن الندوي - الطبعة الرابعة ١٩٨٣ م - نشر مجلس نشريات الإسلام - كراتشي باكستان.
(٢) روائع إقبال ص ٤٣.

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]، وتدبر القرآن يقف في مقدمة أدوية علاج القلب بلا منازع، كما ينص على ذلك صريح القرآن: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢].

فلو داواك كل طبيب داء　　　بغير كلام ليلى ما شفاكا

والقرآن شفاء لما في الصدور، أي دواء للقلوب من أمراضها التي هي أشد من أمراض الأبدان كالشك والنفاق والحسد والحقد وأمثال ذلك، لكن.. كيف يكون القرآن شفاء ونحن لا نعرف معناه، وهل يحدث به علاج دون فهم فحواه، فمعرفة معاني القرآن إذن هي أول خطوة في الطريق بلا شك.

ولا يُجنى جناه دون معرفة معناه، فكم من الناس يقرأ ولا يزيد إيمانًا ولا يتغير سلوكًا ولا ينصلح بمقدار ذرة، مع أن الآية الواحدة كانت تخلق من الصحابي خلقًا آخر.

> **إنك لتجد عشرات الملايين في رمضان بين أيديهم المصاحف يقرؤون القرآن ويسعون في ختمه مرة بعد مرة، لكن هل تجد عُشرهم أو نصف العشر منهم يفهمون ما يقرؤون أو يتدبرون في ما يؤمرون؟! ولو حدث وأن أعطيت رجلاً جريدة يقرؤها ثم طلبت إليه بعد ساعة أن يُخبرك بأهم عناوين الأخبار، فقال: لا أدري، هل تراه قد قرأ أم تظنه كاذبًا في دعواه؟! وهل قراءة القرآن هي تحريك الألسنة بالأحرف والكلمات أم أنها فهم ما توصي به الأحرف والكلمات؟!**

ولمزيد الفهْمِ لما تقرأ تعلم مناسبة نزول الآيات، وفي ذلك يقول سيد قطب:

«ولا يفهم النصوص القرآنية حق الفهم إلا من يواجه مثل هذه الظروف التي واجهتها أول مرة؛ هنا تتفتح النصوص عن رصيدها المذخور، وتتفتح القلوب لإدراك مضامينها الكاملة، وهنا تتحول تلك النصوص من كلمات وسطور إلى قوى وطاقات، وتنتفض الأحداث والوقائع المصورة فيها؛ تنتفض خلائق حية موحية، دافعة، دافقة، تعمل في واقع الحياة، وتدفع بها إلى حركة حقيقية في عالم الواقع وعالم الضمير»[1].

---

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٨٣٦.

ومعرفة المعاني هي نصيب العقل في المهمة الثلاثية المشتركة بينه وبين اللسان والقلب، والتي تستهدف سبر أغوار كتاب الله والتداوي به، كما سبق ووصف ذلك أبو حامد الغزالي فقال:

«وتلاوة القرآن حق تلاوته هو أن يشترك فيه اللسان والعقل والقلب، فحظُّ اللسان: تصحيح الحروف بالترتيل، وحظُّ العقل: تفسير المعاني، وحظُّ القلب: الاتعاظ والتأثر بالانزجار والائتمار، فاللسان يُرتِّل والعقل يترجم والقلب يتعظ»(١).

الحسن يشتكي أهل زمانه!!

قال الحسن: «إن هذا القرآن قد قرأه عبيدٌ وصبيان لا علم لهم بتأويله، لم يأتوا الأمر من قِبَلِ أوله. قال الله عز وجل: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [ص: ٢٩]، وما تدبر آياته إلا اتباعه، أما والله ما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتى إن أحدهم ليقول:

قد قرأتُ القرآن كله فما أُسْقِط منه حرفًا واحدًا، وقد والله أسقطه كله، ما يرى له القرآن في خلُق ولا عمل، حتى إن أحدهم ليقول:

والله إني لأقرأ السورة في نَفَس، لا والله ما هؤلاء بالقُرَّاءِ ولا بالعلماء ولا الحكماء ولا الورعة، ومتى كانت القراءة هكذا؟! لا أكثر الله في الناس مثل هؤلاء»(٢).

---

(١) إحياء علوم الدين ١/ ٢٨٧.

(٢) الزهد لابن المبارك ص ٢٧٤ – دار الكتب العلمية – تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي.

2 التكرار يورث الاعتبار:

عن **إبراهيم بن الأشعث** قال: «سمعتُ **فضيلا** يقول ذات ليلة وهو يقرأ سورة محمد، وهو يبكي ويردد هذه الآية: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١] وجعل يقول: ونبلو أخباركم، ويردد وتبلو أخبارنا، إن بلوت أخبارنا فضحتنا وهتكت أستارنا، إنك إن بلوت أخبارنا أهلكتنا وعذبتنا، ويبكي»[(١)].

وكانت هذه عادة السلف يُردِّد أحدهم الآية إلى الصبح، فيقرأ القرآن بتفكُّر حتى إذا مرَّ بآية وهو محتاج إليها في شفاء قلبه، كررها ولو مائة مرة، بل ولو استغرق الأمر معك الصلاة كلها، فقراءة آية بتفكُّر وتفهم خير من ختم القرآن كله بغير ذلك، وهذه القراءة أنفع للقلب وأرجى لزوال الداء وحدوث الشفاء، وبالتالي أدعى إلى بلوغ ذروة الإيمان وتذوق حلاوة القرآن.

وتسألني: **لماذا التكرار؟!**

وأقول: لأنك لا تدري متى يُفتح الباب، ومتى ينشرح الصدر والفؤاد، ولعل ساعة رضاه عنك في متناول يدك وأنت لا تشعر، ولعل دموع خشيتك محبوسة تنتظر آية منك تُتلى في خشوع لتنهمر، أو خلوة في وجل لتتفجر، وتسألني متى وأقول: ﴿ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴾، وتطلب مني الرد: في أي ليلة هذا فأقول: ﴿ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ﴾، وتُلِحُّ في السؤال: من المُوَفَّق لذلك فأقول: ﴿ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾

فهم هذا جيدًا **أبو سليمان الداراني** فأوصاني وأوصاك قائلاً: «فإذا وجدت قلبك في القيام فلا تركع، وإذا وجدته في الركوع فلا ترفع»[(٢)].

3 أنت المخاطب:

عن **ثابت البناني** أنه قرأ: ﴿ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴾، فقال: «تأكله إلى فؤاده وهو حي، لقد تبلَّغ فيهم العذاب»، ثم بكى وأبكى من حوله، لكن ألم تسأل نفسك: لم خَصَّ الأفئدة بالذكر؟!

---

(١) التوابين ص ٢٠٨.

(٢) مختصر منهاج القاصدين ص ٦٥.

والجواب: لأن الألم إذا وصل إلى الفؤاد مات صاحبه، أي أنه في حال من يموت من شدة الألم لكن حيل بينه وبين الموت، وهذا هو الذي أبكى ثابتًا، وحرِيٌّ به أن يبكيك.

قال ابن أبي ذئب: «حدَّثني من شهد عمر بن عبد العزيز وهو أمير المدينة وقرأ عنده رجل: ﴿وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ [الفرقان: ١٣]، فبكى عمر حتى غلبه البكاء وعلاه نشيجه، فقام من مجلسه ودخل بيته وتفرَّق الناس»(١).

واسأل نفسك ثانية: لماذا بكى عمر حتى علا نشيجه؟! والجواب: لأنه استشعر أن المخاطب هو عمر، والمُلقى في النار عمر، والداعي في ثبور عمر، والباكي في جهنم عمر، وهذا المكان الضيِّق المذكور في الآية محجوزٌ باسم عمر، بكيتَ يا خامس الخلفاء ودرة الأتقياء من آية ما أبكت أكثرنا، ولو تدبرها المرء منا لتحولِ الضحك فيه إلى بكاء، وامتلأت عينه دمعًا من دماء، ألا ما أعظم العقوبة التي ضُرِب بها القلب القاسي، ألا ما أشد مصيبة غير المتدبِّرين، يحسبون الله يخاطب غيرهم ولعل الله لا يعني بهذه الآية غيرهم.

عن مُزاحِم بن زُفَر قال: «صلى بنا سفيان الثوري المغرب فقرأ حتى بلغ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾(٢)، بكى حتى انقطعت قراءته، ثم عاد فقرأ الحمد لله»(٣).

واسأل نفسك ثالثة: لماذا بكى سفيان؟! ولعلك تعرف ما أبكاه حين تفهم بحق معنى هذه الآية، وتتدبر فيها كما سبق وتدبَّرها ابن القيِّم فقال:

«فأسعد الخلق أهل العبادة والاستعانة والهداية إلى المطلوب، وأشقاهم من عدم الأمور الثلاثة، ومنهم من يكون له نصيب من ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ونصيبه من ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

---

(١) التخويف من النار ص - ابن رجب الحنبلي – ط دار ابن خلدون.

(٢) قال ابن القيِّم: «ثم إن القلب يعرض له مرضان عظيمان إن لم يتداركهما العبد تراميا به إلى التلف ولابد؛ وهما الرياء والكبر، فدواء الرياء: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، ودواء الكبر: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وكثيرًا ما كنت أسمع شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ تدفع الرياء، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ تدفع الكبرياء». بدائع الفوائد ١/ ٥٤.

(٣) حلية الأولياء ٧/ ١٧.

معدوم أو ضعيف، فهذا مخذول مهين حزين، ومنهم من يكون نصيبه من ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ قويا ونصيبه من ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ ضعيفًا أو مفقودًا، فهذا له نفوذ وتسلط وقوة، ولكن لا عاقبة له، بل عاقبته أسوء عاقبة، ومنهم من يكون له نصيب من ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ولكن نصيبه من الهداية إلى المقصود ضعيف جدًّا، كحال كثير من العُبَّاد والزُّهاد، الذين قلَّ علمهم بحقائق ما بعث الله به رسوله ﷺ من الهدى ودين الحق»[1].

يا ليتنا عقلنا عن الله ولو حرفًا.. ليتنا نقترب من الله ولو شعرة.. ليتنا نعيش في أنواره ولو لحظة.

4 تذوق حلاوة المناجاة

وهي وصية النبي ﷺ: «**إن أحدكم إذا قام يصلي إنما يناجي ربه، فلينظر كيف يناجيه؟**»[2].

وهذه الوصية هي العلامة الفارقة بين أبناء الدنيا وأبناء الآخرة كما في توصيف **يحيى بن معاذ**: «أبناء الدنيا يجدون لذة الكلام، وأبناء الآخرة يجدون لذة المعاني»[3].

وسُمِّيت: مناجاة من جهة قيام العبد بالذكر وتلاوة القرآن من جهة، ومن جهة الدعاء وسؤال الله من جهة أخرى، فيُسرُّ العبد إلى ربه بحاجته ويبوح إليه بما أهمه وأحزنه، وقد يأتي الرد من الرب على العبد كلامًا كما في حديث الفاتحة[4]، وقد يأتي أفعالاً: حبًّا ولطفًا، أو هداية وبرًّا، أو فتحًا ويسرًا، أو رزقًا وبركة، أو فرحًا وسعادة لا توصفان، ولهذا سماها **يحيى بن معاذ** بالوليمة حين قال: «كم بين من يريد الوليمة للوليمة وبين من يريد حضور الوليمة ليلتقي الحبيب في الوليمة»[5].

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين ٢/ ١٧٩.
(٢) صحيح: انظر حديث رقم: ١٥٣٨ في صحيح الجامع.
(٣) حلية الأولياء ١٠/ ٦٣، ٦٤.
(٤) إذا قال العبد: الحمد لله رب العالمين يقول الله: حمدني عبدي .. الحديث.
(٥) شعب الإيمان ١/ ٣٧٣.

وقوله «كيف يناجيه» تُلقي في القلب وجوب التعظيم والتبجيل، وموافقة القلب اللسان، والإقبال على الله بالكلية، وتفريغ القلب له ولذكره، وإجلال كلامه عند تلاوته، وضرورة تدبره، فلا يليق لعاقل أن يتلقى شكر هذه النعمة الجليلة التي هي مناجاة ملك الملوك بشغل قلبه بشيء من متاع الدنيا الفاني، فاطلب قلبك قبل الصلاة؛ فإن وجدته فكبِّر وإلا فسلِّم!! وكأن القرآن يصيح فيك ويقول: فرِّغ قلبك من غيري أسكنه.

قال **الطيبي**: «شبَّه العبد وتوجهه إلى الله تعالى في الصلاة وما فيها من القراءة والأذكار وكشف الأسرار واستنزال الرحمة مع الخشوع والخضوع بمن يناجي مولاه ومالكه، فمن شرائط حسن الأدب أن يقف محاذيه، ويُطرق رأسه، ولا يمُدُّ بصره إليه، لأن الآداب الظاهرة والباطنة مرتبط بعضها ببعض»(١).

ويلزم لهذه المناجاة الهدوء والسكون وعدم التشويش؛ لذا أخرج **الإمام أحمد** في مسنده أن رسول الله ﷺ خرج على الناس وهم يصلون وقد علت أصواتهم بالقراءة فقال: «**إن المصلي يُناجي ربه فلينظر بما يُناجيه، ولا يجهر بعضكم على بعض بالقرآن**»(٢).

ويلزم لهذه المناجاة لزوم الأدب واستحضار عظمة الموقف. قال ﷺ: «**إن أحدكم إذا كان في صلاته فإنه يناجي ربه، فلا يبزقن بين يديه ولا عن يمينه، ولكن عن يساره وتحت قدمه**»(٣).

ومن معاني المناجاة كذلك الحب والوداد والقرب والوصال، ومن أنس بمولاه استوحش ممن سواه، لذا قال **عبد الله بن مسعود** رضي الله عنه:

«لا يسأل أحدكم عن نفسه إلا القرآن، فإن كان يُحِب القرآن ويعجبه فهو يحب الله سبحانه ورسوله ﷺ، وإن كان يبغض القرآن فهو يبغض الله سبحانه ورسوله ﷺ»(٤).

ولذا «كان السلف يستشعرون هذا المعنى وهم يقرأون القرآن، حتى أنهم كانوا يتلقونه تلقي الغائب الغريب لرسالة جاءت على شوق من الحبيب»(٥)؛ ولذا كانت الليالي الطوال تمر

---

(١) فيض القدير ٢/ ٤١٦.
(٢) صحيح : انظر حديث رقم : ١٦٠٣ في السلسلة الصحيحة.
(٣) صحيح : انظر حديث رقم : ١٥٤١ في صحيح الجامع.
(٤) الإحياء ١/ ٢٧٣.
(٥) مدارج السالكين ٣/ ١٧.

عليهم دون أن يشعروا، بل كان أكثر ما يزعجهم طلوع الفجر، وما أقصر ليلة مملوءة بالسرور!!.

إن الليـــالي للأنـــام مناهــل   تُطــوى وتُنشَــر دونهــا الأعمــار
فقصــارهن مـع الهمـوم طويلـة   وطــوالهن مــع الســرور قصـــار

ولمثل هذا التعظيم كان عكرمة بن أبي جهل ﷺ إذا نُشِر المصحف غُشِي عليه ويقول: «هو كلام ربي.. هو كلام ربي»(١).

قُبلة الملك

ويلزم لهذه المناجاة تعطير الفم لملاقاة الحبيب ومناجاة الملِك ومقابلة الملَك، وهذا سِرٌّ من أسرار الأمر بالسواك، فعن علي بن أبي طالب ﷺ أنه أمر يومًا بالسواك قائلاً: قال النبي ﷺ: «**إن العبد إذا تسوَّك ثم قام يصلي قام الملك خلفه، فسمع لقراءته، فيدنو منه أو كلمة نحوها حتى يضع فاه على فيه، وما يخرج من فيه شيء من القرآن إلا صار في جوف الملك، فطهِّروا أفواهكم للقرآن**»(٢).

وامتثل قتادة الأمر على نحو عجيب فقال: «ما أكلتُ الكرَّاث منذ قرأت القرآن»(٣).

رِقَّة قلب

قال الأصمعي: «أقبلتُ ذات مرة من مسجد بالبصرة إذ طلع أعرابي جِلف جاف على قعود له متقلِّدًا سيفه وبيده قوسه، فدنا وسلَّم وقال: ممن الرجل؟ قلت: من بني أصمع. قال: أنت الأصمعي؟ قلت: نعم. قال: ومن أين أقبلت؟ قلت: من موضع يُتلى فيه كلام الرحمن. قال: وللرحمن كلام يتلوه الآدميون؟! قلت: نعم. قال: فاتلُ عليَّ منه شيئًا، فقرأت: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا﴾ إلى قوله: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ﴾ فقال: يا أصمعي حسبك، ثم قام إلى

---

(١) الإحياء ١/ ٢٨١.

(٢) صحيح: انظر حديث رقم: ١٢١٣ في السلسلة الصحيحة.

(٣) شعب الإيمان ٢/ ٣٨٢.

ناقته فنحرها وقطَّعها بجلدها، وقال: أعنّي على توزيعها، ففرَّقناها على من أقبل وأدبر، ثم عمد إلى سيفه وقوسه فكسرهما ووضعهما تحت الرَّحل وولَّى إلى البادية وهو يقول: ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾، فمقَتُّ نفسي ولُمتها، ثم حججت مع الرَّشيد، فبينما أنا أطوف إذا أنا بصوتٍ رقيق، فالتفَتُّ فإذا أنا بالأعرابي وهو ناحل مُصفرٌّ، فسلَّم عليَّ وأخذ بيدي فقال: اتلُ عليَّ كلام الرحمن، وأجلسني من وراء المقام فقرأت: ﴿ وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ﴾ حتى وصلتُ إلى قوله تعالى ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾، فقال الأعرابي: لقد وجدنا ما وعدنا ربُّنا حقًّا، وقال: وهل غير هذا؟ قلت: نعم.. يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ ﴾ فصاح الأعرابي وقال: يا سبحان الله.. من الذي أغضب الجليل حتى حلف!! ألم يصدِّقوه في قوله حتى ألجأوه إلى اليمين؟ فقالها ثلاثًا وخرجت بها نفسه»[(١)].

5 الليل أحلى:

قال عمر بن الخطاب ﷺ: قال رسول الله ﷺ: **«من نام عن حزبه أو عن شيء منه؛ فقرأه ما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر كُتِب له كأنما قرأه من الليل»**[(٢)].

> **وفي هذا دلالة على أن الأفضل في قراءة وِرد القرآن قراءته بالليل، وكأن القرآن تعهد أن لا يبوح لأحد بما بين دفتيه من أسرار إلا على ضوء النجوم حين تتفتح الحقائق في غيبة الأهواء الدنيوية والأشغال المعيشية والسموم الشيطانية في أحضان سجدة أو سحابة عَبرة أو سريان رجفة من خشية الله تعالى!!**

قال **النووي**: «وإنما رجحت صلاة **الليل** وقراءته لكونها أجمع للقلب وأبعد عن الشاغلات والملهيات والتصرف في الحاجات وأصون عن الرياء وغيره من المحبطات مع ما جاء الشرع به من إيجاد الخيرات في الليل، فإن الإسراء برسول الله ﷺ كان ليلاً»[(٣)].

---

(١) تفسير القرطبي ص ٦٢١٢ – ط دار الشعب.

(٢) صحيح : انظر حديث رقم : ١٣٤٣ في صحيح ابن ماجة وأخرجه مسلم.

(٣) شرح النووي لمسلم ١/ ٢٨.



ويزيدك ابن الجوزي وهو يدبِّج عبارة من عبارات المحبين فيقول: «ظلمة الليل للتواصل أهنئ من ضياء النهار عند المحب، وصلهم سِرُّهم، وما أحوج السِرَّ إلى سِتره بسحُب الحُجُب»[١].

6 الصوت الحسن:

وعن **أبي هريرة** ﷺ أنه سمع النبي ﷺ يقول: «**ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي حسن الصوت يجهر بالقرآن**»[٢]، وقال ﷺ: «**ليس منا من لم يتغنَّ بالقرآن يجهر به**»[٣].

والمراد التلذذ به كما يستلذ أهل الطرب بالغناء، ولا شك أن النفوس تميل إلى سماع القراءة بالترنم أكثر من ميلها لمن لا يترنم، لأن للتطريب تأثيرًا في رقة القلب وإجراء الدمع، وكان بين السلف خلاف في جواز قراءة القرآن بالألحان، أما تحسين الصوت وتقديم حَسَن الصوت على غيره فلا نزاع بينهم على جوازه.

ولذا أحب النبي ﷺ أن يسمع صاحب الصوت الحسن، وليس صوت أحسن من صوت **عبد الله بن مسعود** ﷺ يتلو عليه صدر سورة النساء، فسمع منه ﷺ وبكى لتلاوته حتى اخضلت لحيته، وورث **ابن مسعود** هذه الطريقة وسار على نفس النهج وأحب ما أحب حبيبه، فكان يحب أن يسمع القرآن من غيره، فعن **علقمة بن قيس** قال: كنت رجلاً قد أعطاني الله حسن الصوت بالقرآن، فكان **عبد الله بن مسعود** يُرسل إلي فأقرأ عليه، قال: فكنتُ إذا فرغت من قراءتي قال: زدنا من هذا؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**حسن الصوت زينة القرآن**»[٤].

7 التلذذ بالثواب:

إن معرفة ثواب الأعمال يهيئ القلب لاستقبالها باطمئنان وحب وشوق، واسمع لتشتاق:

عن **أبي هريرة** ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أيحب أحدكم إذا رجع إلى أهله أن يجد فيه ثلاث خلفات عظام سمان؟!**» قلنا: نعم. قال: «**فثلاث آيات يقرؤهن أحدكم في صلاته خير**

---

(١) التذكرة في الوعظ ص ١٩٠.
(٢) صحيح: انظر حديث رقم: ١٣٠٧ في صحيح أبي داود وهو في البخاري ومسلم بلفظ مشابه كما في اللؤلؤ والمرجان رقم: ٤٥٥.
(٣) صحيح: انظر حديث رقم: ١٣٠٤ في صحيح أبي داود.
(٤) حسن: انظر حديث رقم ١٨١٥ في السلسلة الصحيحة.

له من ثلاث خلفات سمان عظام»(١).

وعن **أبي سعيد الخدري** ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**يُقال لصاحب القرآن إذا دخل الجنة: اقرأ واصعد، فيقرأ ويصعد بكل آية درجة حتى يقرأ آخر شيء معه**»(٢).

وعن **جابر** ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**القرآن شافع مُشفَّع، وماحل مُصَدَّق، من جعله أمامه قاده إلى الجنة، ومن جعله خلفه قاده إلى النار**»(٣).

وماحِل مُصَدَّق أي خصم مجادل مُصدَّق، من قولهم: محل بفلان إذا سعى به إلى السلطان، فمن اتبع القرآن وعمل بما فيه كان شافعًا له مقبول الشفاعة، لكنه كذلك مصدق فيما يرفع من مساوئ العبد إذا ترك العمل به.

الدموع: كنز المرأة الثمين

ولأن النساء شقائق الرجال فإليكن أيتها المريضات هذا المثال لتنسجن على المنوال وتدركن المنال بإذن الله. قال **القاسم**: «كنتُ إذا غدوتُ أبدأ ببيت عائشة أُسلِّم عليها، فغدوتُ يومًا فإذا هي قائمة تسبِّح وتقرأ: ﴿ **فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ** ﴾ [الطور: ٢٧]، وتدعو وتبكي وتُرَدِّدُها، فقمت حتى مللت القيام، فذهبت إلى السوق لحاجتي، ثم رجعت فإذا هي قائمة كما هي تصلي وتبكي»(٤).

يا أختاه.. الدواء منك قريب وفي متناول يدك، فقد خلقك الله أعذب مشاعرًا وأرق عواطف، فدمعتك أقرب من دمعة الرجل بكثير، وهذا هو كنزك الثمين وأغلى حليك: «**عينان لا تمسها النار أبدا: عين بكت من خشية الله،...**»(٥).

---

(١) صحيح: انظر حديث رقم ٣٠٤٩ في صحيح ابن ماجة وهو في صحيح مسلم، والخلفات جمع خلفة وهي الحامل من النوق، وهي من أعز أموال العرب.

(٢) صحيح: انظر حديث رقم: ١٣١٧ في صحيح أبي داود.

(٣) صحيح: انظر حديث رقم: ٢٠١٩ في السلسلة الصحيحة.

(٤) صفة الصفوة ٢/ ١٥، ١٦ – ط دار الفكر.

(٥) صحيح: انظر حديث رقم: ٤١١٣ في صحيح الجامع.

8 ما المطلوب مني:

وصف **أبو بكر الآجري** [ت: ٣٦٠] صفات حامل القرآن في كتابه أخلاق أهل القرآن:

«ليس همته متى أختم السورة، همته متى أستغني بالله.. متى أكون من المتقين.. متى أكون من المحسنين.. متى أكون من المتوكلين.. متى أكون من الخاشعين.. متى أكون من الصابرين.. متى أكون من الصادقين.. متى أكون من الخائفين.. متى أكون من الراجين.. متى أزهد في الدنيا.. متى أرغب في الآخرة.. متى أتوب من الذنوب.. متى أعرف النعم المتواترة.. متى أشكره عليها.. متى أعقل عن الله الخطاب.. متى أفقه ما أتلو.. متى أغلب نفسي على ما تهوى.. متى أجاهد في الله حق الجهاد.. متى أحفظ لساني.. متى أغض طرفي.. متى أحفظ فرجي.. متى أحاسب نفسي.. متى أتزود ليوم معادي.. متى أكون عن الله راضيًا.. متى أكون بالله واثقًا.. متى أكون بزجر القرآن متعظًا.. متى أكون بذكره عن ذكر غيره مشتغلا.. متى أحب ما أحب.. ومتى أبغض ما أبغض.. متى أنصح لله.. متى أخلص له عملي.. متى أُقصِّر أملي.. متى أتأهب ليوم موتي وقد غُيِّب عني أجلي.. متى أعمر قبري.. متى أفكر في الموت وشدته.. متى أفكر في خلوتي مع ربي.. متى أفكر في المنقلب.. متى أحذر مما حذرني منه ربي»(١).

فإذا لم تأخد بنصيحة **الآجري** وعمي قلبك عن أوامر الله في كتابه كنت «مثل العاصي إذا قرأ القرآن وكرره، كمثل من كرر كتاب الملك وأعرض عن عمارة مملكته وما أُمر به في الكتاب، فهو مقتصر على دراسته، مخالف أوامره، فلو ترك الدراسة مع المخالفة كان أبعد من الاستهزاء واستحقاق المقت»(٢).

هذا وإلا كنت من المغرورين الذين سرد حكايتهم **ابن قدامة**، ولم يحمله اختصاره وإيجازه في كتابه مختصر منهاج القاصدين أن يغفل ذكرهم فانبرى يفضحهم:

«وفرقة أخرى اغتروا بقراءة القرآن، فهم يهذُّونه هذًّا، وربما ختموا في اليوم مرتين،

---

(١) أخلاق حملة القرآن ص ١٤٤ – تحقيق محمود النقراشي – مكتبة النهضة بالقصيم – ط الأولى١٤٠٧ هـ ١٩٨٧م.

(٢) مختصر منهاج القاصدين ص ٥٤.

فلسان أحدهم يجرى به وقلبه يتردد فى أودية الأماني، ولا يتفكر فى معاني القرآن ولا يتعظ بمواعظه، ولا يقف عند أوامره ونواهيه، فهذا مغرور يظن أن المقصود من القرآن التلاوة فقط، ومثال ذلك مثال عبد كتب إليه مولاه كتابًا يأمره فيه وينهاه، فلم يصرف عنايته إلى فهمه والعمل به، بل اقتصر على حفظه وتكراره، ظانًّا أن ذلك هو المراد منه، مع مخالفته أمر مولاه ونهيه»[١].

وهؤلاء مع إتقانهم للتلاوة ضيَّعوا على القلب الحلاوة، وبرعوا في نقل الرسالة وما برعوا في العمل بما جاء في الرسالة، أهل تجويد القراءة لا تجويد العمل، ولما قرأ رجل سورة من القرآن عند **عمر بن عبد العزيز** وعنده رهط من هؤلاء قال أحدهم: لَحَنَ، فقال له عمر: «أما كان فيما سمعت ما يشغلك عن اللحن»[٢].

9 فيم الاستعجال:

قال ابن القيم:

«كان له حزب يقرؤه ولا يُخِل به، وكانت قراءته ترتيلاً لا هذًّا ولا عجلة، بل قراءة مفسرة حرفًا حرفًا، وكان يقطع قراءته آية آية، وكان يمد عند حروف المد فيمد الرحمن ويمد الرحيم،»[٣].

الوقوف عند الآيات: عن **أم سلمة** رضي الله عنها قالت: كان الرسول ﷺ (يقطع قراءته آية آية) ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ثم يقف ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ ثم يقف»[٤].

وما كان رسول الله يفعل إلا أنه ينفذ الأمر الرباني الذي صدر عليه ونُشِر على الناس أجمعين: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ [الإسراء:١٠٦] أي مهل وتؤدة وتأنٍّ، فإنه أيسر للحفظ، وأعون على الفهم.

---

(١) مختصر منهاج القاصدين ص ٢٤٤.
(٢) الحلية ٥/ ٣٤٣.
(٣) زاد المعاد ١/ ٤٨٢ – ط مؤسسة الرسالة.
(٤) صحيح: رواه الترمذي والحاكم وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم: ٥٠٠٠.

واقتفى **عبد الله بن عباس** ﷺ الأثر شبرًا بشبر وذراعًا بذراع، فعن **ابن أبي مليكة** قال: «سمعت **ابن عباس** من مكة إلى المدينة ومن المدينة إلى مكة، وكان يصلي ركعتين، فإذا نزل قام شطر الليل، ويرتل القرآن يقرأ حرفًا حرفًا، ويُكثِر في ذلك من النشيج والنحيب»(١).

حرفًا حرفًا دون عجلة حتى يتدبر، ومتى تدبر فهم، ومتى فهم نقل إلينا ما فهم، فكان كمن يترجم لنا ما غمض علينا من معاني القرآن حتى لُقِّب بترجمان القرآن، فهل علمت الآن كيف بلغ **ابن عباس** ما بلغ؟

الشيطان يسرق!!

وهذا الداء هو ما سبق وحذّرك منه النبي ﷺ فقال: «**هذا أوان يُختلس العلم من الناس حتى لا يقدروا منه على شيء**»، فقال **زياد بن لبيد الأنصاري**: يا رسول الله.. وكيف يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن ونُقرِئه أبناءنا ويُقرِئه أبناؤنا أبناءهم إلى يوم القيامة، فقال: «**ثكلتك أمك يا زياد!! إن كنتُ لأعُدُّك من أفقه أهل المدينة!! هذه التوراة والإنجيل عند اليهود والنصارى، فماذا يُغني عنهم؟!**»(٢).

إنها قراءة المتعجِّلين منكم، يريد الشيطان منك أن تمر على الآية بسرعة فيفوتك خيرها، وتُحرِم بركتها، ولا تقطف ثمرتها، فلا تزيد بها إيمانًا، أو تبكي وجلاً، أو تُمضي عملاً، أو تقدِّم جهادًا،، فهل ستتركه يفعل ذلك بك وأنت المريض السقيم وأحوج ما تكون اليوم إلى الدواء؟!

---

(١) الحلية ٢/ ٣٦٥.

(٢) صحيح: انظر حديث رقم: ٦٩٩٠ في صحيح الجامع.

10 خوف الطرد يطاردك:

قال رسول الله ﷺ في الحديث الذي رواه عنه **أبو مالك الأشعري** رضي الله عنه: «**والقرآن حُجَّة لك أو عليك**»(١).

قال **النووي**: «فمعناه ظاهر، أي: تنتفع به إن تلوته وعملت به، وإلا فهو حجة عليك»(٢).

في غيبة تدبرك: تكون قراءتك دليل إدانتك، فما أشبه قراءة القرآن بصحيفة تعليمات تنتظر التنفيذ، أو قائمة تكليفات تُحاسب عليها فور قراءتها دون تأخير، ثم يكون العقاب إن أهمل الإنسان أو تعمَّد النسيان.

ولذلك كان أهل المعاصي معاقبين بعدم الانتفاع بالقرآن بسبب هجرانهم له، وإيثارهم شهواتهم عليه. قال تعالى: ﴿ **وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ۝ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا** ﴾ [الإسراء: ٤٥، ٤٦].

ومما يجب أن تخاف منه أيضًا أن تدخل في من عناهم الله بقوله: ﴿ **مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ** ﴾ [الجمعة: ٥].

قال **ابن القيِّم**: «فقاس من حمَّله سبحانه كتابه ليؤمن به ويتدبره ويعمل به ويدعو إليه، ثم خالف ذلك ولم يحمله إلا على ظهر قلب، فقراءته بغير تدبر ولا تفهم ولا اتِّباع له ولا تحكيم له وعمل بموجبه كحمار على ظهره زاملة أسفار؛ لا يدري ما فيها، وحظه منها حمله على ظهره ليس إلا، فحظه من كتاب الله كحظ هذا الحمار من الكتب التي على ظهره، فهذا المثل وإن كان قد ضُرِب لليهود، فهو متناول من حيث المعنى لمن حمل القرآن فترك العمل به، ولم يؤدِّ حقه، ولم يرعه حق رعايته»(٣).

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم والنسائي والترمذي والدارمي وأحمد عن أبي مالك الأشعري كما في مشكلة الفقر رقم: ٥٩.
(٢) صحيح: صحيح مسلم بشرح النووي ٣/ ١٠٢.
(٣) إعلام الموقعين ١/ ١٦٥.





فوائد الصوم العلاجية:

ومن أعظم آثار الصوم شأنًا وأنصعها برهانًا وأعلاها خطرًا:

1 الحريــة:

أفضل ما في الصوم أنه يحرِّر الإنسان من سلطان غرائزه وقيود شهواته، ويتيح له أن ينطلق من سجن جسده، ويتحكم في مظاهر حيوانيته، ويلتحق بالملائكة في السمو إلى المستوى الإيماني الرفيع، وصون حواسه عن الشرور والآثام، إنه كسر القيد الثقيل وتنسم نسائم الحرية، وهل الحرية إلا حرية القلب؟!

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

«فإنَّ أسْرَ القلب أعظم من أسر البدن، واستعباد القلب أعظم من استعباد البدن؛ فإن من استُعْبِد بدنُه واستُرِقَّ وأُسِر لا يبالي إذا كان قلبُه مستريحًا من ذلك مطمئنًّا، بل يمكنه الاحتيال في الخلاص؛ وأما إذا كان القلب - الذي هو مَلِك الجسم - رقيقًا مستعبدًا متيَّمًا لغير الله؛ فهذا هو الذلُّ، والأسرُ المَحْض، والعبودية الذليلة لما استعْبد القلب، ولو كان في الظاهر ملكَ الناس؛ فالحريةُ حرية القلب، والعبودية عبودية القلب»(١).

فلينزل هذا الدواء على قلبك نزول الماء من الظمآن كما أوصاك بذلك رسول الله ﷺ:

«ألا أُخبِركم بما يذهب وَحَر الصدر؟ صوم ثلاثة أيام من كل شهر»(٢).

---

(١) الفتاوى الكبرى ٥/ ١٨٢ بتصرف.

(٢) صحيح: رواه النسائي عن رجل كما في ص ج ص رقم: ٢٦٠٨ في صحيح الجامع، ومن جميل ما اطَّلعت عليه من أبحاث أحد علماء الإعجاز العلمي أنَّه ذكر في سبب ترغيب رسول الله ﷺ للمسلمين أن يصوموا الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر من كل شهر هجري، أنَّ البحر يمد في هذه الأيام بسبب ضوء القمر، ويصيب البحر الجزر في الليالي الظلماء، وكذلك الدم فإنَّه يزيد ضخه في هذه الأيام، فأمر عليه الصلاة والسلام بصيامها؛ لأنَّ الشيطان يزيد عتوُّه فيها.

ووَحر الصدر: غِشُّه ووساوِسُه، وقيل: الحِقْد والغَيْظ والعَداوَة، وقيل: أشدُّ الغَضَب، وهي كلها أمراض قلوب يقضي عليها الصوم كما أخبر بذلك الحبيب ﷺ.

ويُقال إن أَصل هذه الكلمة من الدُّوَيْبَّة التي يقال لها الوَحَرَة، فشبَّه النبي ﷺ العداوة والغلَّ ولصوقها بالصدر بالتصاق الوَحَرَةِ بالأَرض، ومع هذا يقضي الصوم على كل هذا، وذلك في ثلاثة أيام فقط إذا حافظت عليها.

وأشار إلى فاعلية هذا الدواء مقارنة بغيره من الأدوية في قوله **لأبي أمامة**: «**عليك بالصوم، فإنه لا مِثْل له**» وفي رواية: «**لا عدل له**». إنه قطع الطريق على الشيطان ومباغتته وإتيانه من حيث لا يحتسب.

أما عن سِرِّ فاعلية الدواء وسبب قوته فقد أوجزها **أبو قدامة** في سطرين اثنين فحسب حين قال: «أنه قهر لعدو الله، لأن وسيلة العدو الشهوات، وإنما تقوى الشهوات بالأكل والشرب، وما دامت أرض الشهوات مخصبة، فالشياطين يترَدَّدون إلى ذلك المرعى، وبترك الشهوات تضيق عليهم المسالك»[(١)].

وهذا ما شاهده **أحمد بن أبي الحوارى** أمام عينيه حين قال: خرجت مع **أبي سليمان الداراني**، فمررنا على زرع، وإذا طائران يلتقطان الحب، فلما شبعا أراد الذكر الأنثى، **فقال**: «يا **أحمد**.. انظر فيما كان؛ لما شبعا دعته بطنه إلى ما ترى»[(٢)].

ولأن الروح سماوية علوية، والجسد أرضي سفلي، وكانت منافذ الروح تُغلق بالشبع وملء البطون، وتُفتح بالصوم ومكابدة الجوع، ذلك أن الصوم يُضعف سيطرة البدن على الروح، فتتحرر تلك النفحة العلوية في الإنسان من براثن الجسد والشهوات المقيِّدة، وتنتصر على ما كان يغلبها في الماضي، ولسان حال القلب:

وانكسر القيد يا روحي   وحانت ساعة النصر

---

(١) مختصر منهاج القاصدين ص ٤٣ – ابن قدامة المقدسي- ط دار التراث.
(٢) حلية الأولياء ٩/ ٢٦٨.

2 التدريب التربوي:

ومن آثار الصوم كذلك التغلب على نزعات الشهوة، واتخاذ الكف عن الطعام والشراب وسيلة تدريبية إلى كفِّ اللسان عن السب والشتم والصخب، وإلى كفِّ اليد عن الأذى والبطش، وإلى كفِّ البصر عن النظرة الخائنة، وإلى كفِّ السمع عن الإصغاء للغيبة والنميمة وأي قول يُرضي الشيطان ويغضب الرحمن، ولهذا قيل: إذا جاعت النفس شبعت جميع الأعضاء، وإذا شبعت جاعت كلُّها.

إن من أهم فوائد الصوم كذلك تيقن المريض بإمكانية الشفاء وعدم استحالته، والاطمئنان إلى وجود القدرة النافذة والإرادة المُنجِزة طوال ساعات الصوم، مما يجعل الاستمرار على الاهتداء أسهل والمداومة ممكنة إذا وُجِدت النية.

يقول **ابن القيِّم** مبيِّنًا الحقيقة السابقة:

«وللصوم تأثير عجيب في حفظ الجوارح الظاهرة، والقوى الباطنة، وحميتها عن التخليط الجالب لها المواد الفاسدة التي إذا استولت عليها أفسدتها، واستفراغ المواد الرديئة المانعة لها من صحَّتها؛ فالصوم يحفظ على القلب والجوارح صحتها، ويعيد إليها ما استلبته منها أيدي الشهوات»[(١)].

ولهذا جاء رمضان جرعة إجبارية سنوية يتناولها كل مسلم، لينال الجميع من هذه الجرعة الحد الأدنى والفائدة الأساسية المرتجاة فضلاً من الله ونعمة.

---

(١) زاد المعاد ٢/ ٢٩.

3 صناعة النفس الذلول:

كما تجمح الدابة أحيانًا فتهوي بصاحبها، كذا تجمح النفس أحيانًا كثيرة فتهوي بصاحبها إلى مهاوي سحيقة من غضب الله وسخطه، وتفور كما تفور القِدر إذا استجمعت غليانًا؛ لذا ألزمنا الله سبحانه بالصوم حتى إذا جاع العاتي منا وظمئ ذلَّت نفسه، وتصدَّع كبره وفخره، وأحس أنه - مهما أوتي - فهو مسكين تُقعده اللقمة إذا فُقدت، وتُضعفه جرعة الماء إذا مُنعت، وهنالك ينزل من عليائه ويخفِّف من غلوائه، ويعترف بفضل الله عليه حتى في كسرة الخبز ورشفة الماء، ومتى عرف فضل الله تواضع، ومتى تواضع استقام، ومتى استقام شُفي مما عاناه من بغي وعتو واستطالة وعلو.

إنها القوة المكتسبة من الصوم ولو كنت في أدنى درجات القوة، وقهر الضعف ولو كنت غارقًا في لجة الضعف، واسمع خبر **إبراهيم بن هانىء أبي إسحاق النيسابوري** واستنشق عبيره واملأ به صدرك:

نقل عن إمامنا مسائل كثيرة وكان ورعًا صالحًا صبورًا على الفقر قال ابنه **إسحاق**: كان **أحمد بن حنبل** مختفيًا ها هنا عندنا في الدار فقال لي: ليس أطيق ما يطيق أبوك يعني من العبادة!!

وداوم على هذا الدواء حتى لانت له واستسلمت على الدوام حتى وهو في أضعف حالاته وهو يحتضر، فقد زاره ملك الموت وهو صائم، فدعا ابنه **إسحاق** حين حضرته الوفاة فقال: هل غربت الشمس؟! قال: لا، ثم قال: يا أبت! رُخِّص لك في الإفطار في الفرض وأنت متطوع. قال: أمهل، ثم قال: «لمثل هذا فيعمل العاملون»، ثم خرجت نفسه[١].

4 قتل بذور الشر:

قال ابن القيم:

«وأما فضول الطعام: فهو داعٍ إلى أنواع كثيرة من الشر؛ فإنه يحرك الجوارحَ إلى المعاصي، ويثقلُها عن الطاعات، وحسبك بهذين شرًّا، فكم من معصية جَلَبها الشبعُ، وفضول الطعام،

---

(١) صفة الصفوة ٢/ ٤٠١.

وكم من طاعة حال دونها؛ فمن وُقِي شرَّ بطنه؛ فقد وُقِي شرًّا عظيمًا، والشيطان أعظم ما يتحكَّم من الإنسان إذا ملأ بطنه من الطعام»(١).

إلى أن قال رحمه الله: «ولو لم يكن من الامتلاء من الطعام إلا أنه يدعو إلى الغفلة عن ذكر الله عز جل، وإذا غفل القلب عن الذكر ساعةً واحدةً جَثَم عليه الشيطانُ، ووعده، ومنَّاه، وشهَّاه وهام به في كل وادٍ؛ فإن النفس إذا شبعت تحرَّكت، وجالت وطافت على أبواب الشهوات، وإذا جاعت سكنت وخشعت وذلت»(٢).

لقد أثبت العلماء في أحدث أبحاثهم أن الصوم له دور فعال في كبح الرغبة الجنسية، وقد ثبت هبوط مستوى هرمون الذكورة هبوطًا كبيرًا أثناء الصوم الدائم، بل وبعد إعادة التغذية بثلاثة أيام، ثم ارتفع المعدل عاليًا بعد ذلك، مما يؤكِّد إعجاز السنة النبوية والتشريع الإلهي في عصر العلم.

إنها الحماية الأكيدة والدفاع المتين والوقاية من كيد الشيطان، والتي بدورها تؤدي إلى الوقاية من النيران.

قال ﷺ: «**الصيام جُنَّة، وهو حصن من حصون المؤمن**»(٣).

أخي.. كيف تجمع مع النوم الشبع؟! إن لم يكن قيام فصيام، في متناول يديك شفيعان؛ إن فاتك الأول فعليك بالثاني، وإلا لم تجد من يقف بجوارك يوم لا تنفع الشفاعة عنده إلا بإذنه.

5 دواء الدنيا والآخرة:

قال **مالك بن دينار** لحوشب: لا تبيتن وأنت شبعان، ودع الطعام وأنت تشتهيه، فقال **حوشب**: هذا وصف أطباء أهل الدنيا. قال: **ومحمد بن واسع** يستمع كلامهما، فقال **محمد**: نعم، ووصف أطباء طريق الآخرة، فقال **مالك**: «بخ بخ للدين والدنيا»(٤).

---

(١) بدائع الفوائد ٢/ ٤٩٨.
(٢) السابق ٢/ ٤٩٨.
(٣) حسن: رواه الطبراني عن أبي أمامة كما في ص ج ص رقم: ٣٨٨١.
(٤) حلية الأولياء ٢/ ٣٥١.

وقد كان أسلافنا الكبار ينهون عن كثرة الأكل؛ ويقولون: المعدة بيت الداء، وقد قال **لقمان** لابنه: يا بني! إذا امتلأت المعدة، نامت الفكرة، وخرست الحكمة، وقعدت الأعضاء عن العبادة، حتى **حاتم الطائي** قال وهو في الجاهلية:

فإنَّك إن أعطيتَ بطنك سؤله وفرجَك نالا منتهى الذمِّ أجمعا

وقد غدت السمنة داء العصر، وهي تنتج إما عن إسراف في تناول الطعام، أو الضغوط النفسية أو الاجتماعية مما يؤدي إلى الإصابة بالسمنة، والصوم يقضي على العاملين معًا ويولد الاستقرار البدني والنفسي؛ نتيجة الجو الإيماني المحيط بالصائم والذكر والعبادة، وتهذيب النوازع والرغبات، وتوجيه الطاقة النفسية توجيهًا إيجابيًّا نافعًا.

مضاعفات القوة

من أراد أن ينال من هذا الدواء أعلى درجات الشفاء وأن يسبق من تناول منه نفس الجرعات معه فعليه بالآتي:

1 الصوم في الحر الشديد:

عن **أبي الدرداء** ﷺ قال: « خرجنا مع النبي ﷺ في بعض أسفاره في يوم حار حتى يضع الرجل يده على رأسه من شدة الحر، وما فينا صائم إلا ما كان من النبي ﷺ **وابن رواحة**»(١).

وعن **ابن عباس** -رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ بعث **أبا موسى** على سرية في البحر، فبينما هم كذلك قد رفعوا الشراع في ليلة مظلمة إذا هاتف فوقهم يهتف: يا أهل السفينة!! قفوا أخبركم بقضاء قضاه الله على نفسه، فقال **أبو موسى**: أخبرنا إن كنت مخبرًا. قال: إن الله تبارك وتعالى قضى على نفسه أنه من أعطش نفسه له في يوم صائف سقاه الله يوم العطش. قال: فكان **أبو موسى** يتوخى اليوم الشديد الحر الذي يكاد الإنسان ينسلخ فيه حرًّا فيصومه(٢).

إن المتسابق الفذ والمريض الذي يريد تحصيل أعلى درجات الشفاء هو الذي يقتدي **بأبي موسى**، فيختار اليوم شديد الحر فيصومه، لكي يسبق غيره ويفوق سواه، ولهذا سمى **الحسن البصري** أهل الصيام في أيام الحر: الرعيل الأول لأنهم تقدَّموا صفوف الأتقياء وسبقوا صفوة الأنقياء، فعن **الحسن** أنه عُرِض عليه طعام فقال: إني صائم، فقيل له: في هذا الحر الشديد!! قال: «إني أحب أن أكون في الرعيل الأول»(٣).

بل كانوا يتمنون الحر الشديد ليحصدوا الثواب الجزيل المضاعف، ومن ذلك ما حدث مع **عامر بن عبد قيس** لما سار من **البصرة** إلى الشام كان **معاوية** ﷺ يسأله أن يرفع إليه حوائجه فيأبى، فلما أكثر عليه قال: حاجتي أن تَرُدَّ عليَّ من حَرِّ البصرة لعل الصوم أن يشتد عليَّ شيئًا،

---

(١) صحيح: رواه الشيخان عن أبي الدرداء كما في اللؤلؤ والمرجان رقم: ٦٨٥.
(٢) حسن: رواه ابن عباس كما في صحيح الترغيب والترهيب رقم: ٩٧٤.
(٣) الجوع ص ٣١٦ نقلاً عن كتاب من أخبار السلف – زكريا بن غلام قادر – مكتبة الرشد.

فإنه يخِفُّ عليَّ في بلادكم!!»[(١)].

ومما يعين على هذا الصوم أن يفهم أنه يصبر على العطش فيه ليوم عطش أكبر، ويتحمَّل مشقته ليوم تشيب فيه الولدان، وليتعلم من الأعراب الذين صاروا أساتذة الدنيا بحسن صلتهم بالله وشدة يقينهم بوعده الذي لا يُخلَف وكرمه الذي لا يوصف، واسمع تقتدِ:

خرج **الحجاج** ذات يوم فأصحر وحضر غداؤه فقال: اطلبوا من يتغدَّى معي، فطلبوا، فإذا أعرابي في شملة، فأُتي به، فقال: السلام عليكم. قال: هلُمَّ أيها الأعرابى.

قال: قد دعاني من هو أكرم منك فأجبته.

قال: ومن هو؟

قال: دعاني الله ربي إلى الصوم فأنا صائم.

قال: وصومٌ في مثل هذا اليوم الحار!!

قال: صمت ليوم هو أحرُّ منه.

قال: فأفطر اليوم وصُمْ غدًا.

قال: ويضمن لي الأمير أني أعيش إلى غد؟!

قال: ليس ذاك إليه.

قال: فكيف تسألني عاجلاً بآجل ليس إليه سبيل؟!

قال: إنه طعام طيب.

قال: والله ما طيَّبه خبَّازك ولا طبَّاخك.

قال: فمن طيَّبه؟!

قال: العافية.

قال **الحجاج**: تالله ما رأيت كاليوم.. أخرجوه عني[(٢)].

فإن كان قلبك قاسيًا ولم يرغِّبك ما سبق في تحمل حر هذه الأيام لم يبق في جعبتي إلا خبر **مسروق** الذي ذكَّرنا فيه بحر يوم القيامة، والطريق إلى تلطيف الجو فيه، فعن **الشعبي** قال: غُشي على **مسروق** في يوم صائف وهو صائم، فقالت له ابنته: أفطر. قال: ما أردت بي؟!

---

(١) لطائف المعارف ص ٣٤٧.

(٢) جمهرة العرب ٣/ ٢٥٤، ٢٥٥.

قالت: الرفق. قال: «يا بنية إنما أطلب الرفق لنفسي في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة»(١).

ومثل هذا الأعرابي في وفائه ومثل **مسروق** في صبره كان **حسين بن رستم الأيلي** في رجولته وقد دخل على قوم وهو صائم فقالوا له: أفطر، فقال: «إني وعدت الله وعدًا، وأنا أكره أن أُخلِف الله ما وعدته!!»(٢).

2 رفع عملك أثناء صومك:

إذا جمع المرء فضيلة الصوم في يوم شديد الحر مع فضيلة العمل الصالح، ولم تُقعِده شدة الحرارة ومكابدة العطش عن أعمال البر من ذكر ودعاء وسعي في حاجات الناس وصلة رحم، إذا حدث هذا رجحت كفة الصوم، وازداد صاحبه قربًا من الشفاء، وبعدًا عن الأسقام والوباء، وهذا هو سر صيام النبي ﷺ ليومي الاثنين والخميس. قال ﷺ: «**تُعرض الأعمال يوم الاثنين والخميس، فأُحِبُّ أن يُعرض عملي وأنا صائم**»(٣).

وهو أيضًا سر صيام النبي ﷺ لشعبان حتى ورد عنه أنه «**كان يصوم شعبان كله**»(٤)، ولما سأله **أسامة بن زيد** -رضي الله عنهما- قال: قلت: يا رسول الله!! لم أرك تصوم من شهر من الشهور ما تصوم من شعبان. قال: «**ذاك شهر يغفل الناس عنه بين رجب ورمضان، وهو شهر تُرفع فيه الأعمال إلى رب العالمين، وأحب أن يُرفع عملي وأنا صائم**»(٥).

3 صيام داود:

وإذا جمع العبد مع ما سبق صيام **داود** -عليه السلام- فقد نما أجره وفاض، فعن **عبد الله بن عمرو بن العاص** رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أفضل الصوم صوم أخي داود: كان يصوم يومًا ويُفطر يومًا، ولا يَفِرُّ إذا لاقى**»(٦).

(١) صفة الصفوة ٣/ ٦١٣.
(٢) شعب الإيمان ٣/ ٤١٨.
(٣) صحيح: رواه النسائي عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع حديث رقم: ٢٩٥٩.
(٤) صحيح: رواه الشيخان عن عائشة كما في صحيح الترغيب والترهيب ١/ ٢٤٧.
(٥) حسن: رواه النسائي عن أسامة بن زيد كما في صحيح صحيح الترغيب والترهيب ١/ ٢٤٧.
(٦) صحيح: رواه الترمذي والنسائي عن ابن عمرو كما في ص ج ص حديث رقم: ١١٢٠.

فهو أفضل من صوم الدهر لأنه أشق على النفس بمصادفة مألوفها يومًا ومفارقته يومًا، فتتربى النفس على مخالفة النفس، وتشب على المجاهدة، وتصبح طوع أمر صاحبها، يوجهها إلى الخير فتلبي النداء. قال **الغزالي**:

«وسِرُّه أن من صام الدهر صار الصوم له عادة؛ فلا يُحِسُّ وقعه في نفسه بالانكسار، وفي قلبه بالصفاء، وفي شهواته بالضعف، فإن النفس إنما تتأثر بما يرد عليها لا بما تمرَّنت عليه، ألا ترى أن الأطباء نَهوا عن اعتياد شرب الدواء، وقالوا: من تعوَّده لم ينتفع به إذا مرض؛ لألف مزاجه له، فلا يتأثر به، وطب القلوب قريب من طب الأبدان»(١).

ويلمح الإمام **الخطابي** سببا آخر لأفضلية صوم يوم وإفطار يوم لمحه في آخر جملة من الحديث فيقول: «محصل قصة **عبد الله بن عمرو** أن الله تعالى لم يتعبَّد عبده بالصوم خاصة، بل تعبَّده بأنواع من العبادات، فلو استفرغ جهده لقصَّر في غيره، فالأوْلى: الاقتصاد فيه ليستبقي بعض القوة لغيره، وقد أشير إلى ذلك بقوله -عليه الصلاة والسلام- في **داود** عليه السلام: «**ولا يَفِرُّ إذا لاقى**»، لأنه كان يتقوَّى بالفطر لأجل الجهاد»(٢).

فالغرض من الفِطر إذن:

التقوِّي به على الطاعة لئلا يضعف الإنسان عن أعمال الخير، فلو أنه واصل الصوم ولم يفطر، فربما أضعف ذلك قوته وأنهك جسمه ولم يقوَ على قتال الأبطال، فصوم يوم وفطر يوم يجمع له بين الحسنيين وييسِّر له القربتين.

4 الصوم الحقيقي:

يا ركب الشفاء وقافلة المهتدين..

ليس الصوم امتناعًا عن الطعام والشراب فحسب، بل صونًا للجوارح عما حرَّم الله، وكل الصائمين يبحر في بحر الصوم لكن كم منهم يصل إلى شاطئ التقوى؟! كلهم يحرم

---

(١) فيض القدير ١/ ١٧١.
(٢) فتح الباري ٤/ ٢٢١.

نفسه الطعام والشراب لكن.. من ينال مقابل تعبه ومن يذهب حرمانه أدراج الرياح؟! فكل من جمع بين صوم البطن والفرج والجوارح فقد سبق غيره من الصائمين وغلبه، وإلا فما أرخص الصوم الزائف!! قال ميمون بن مهران يقول: «إن أهون الصوم ترك الطعام والشراب»(١).

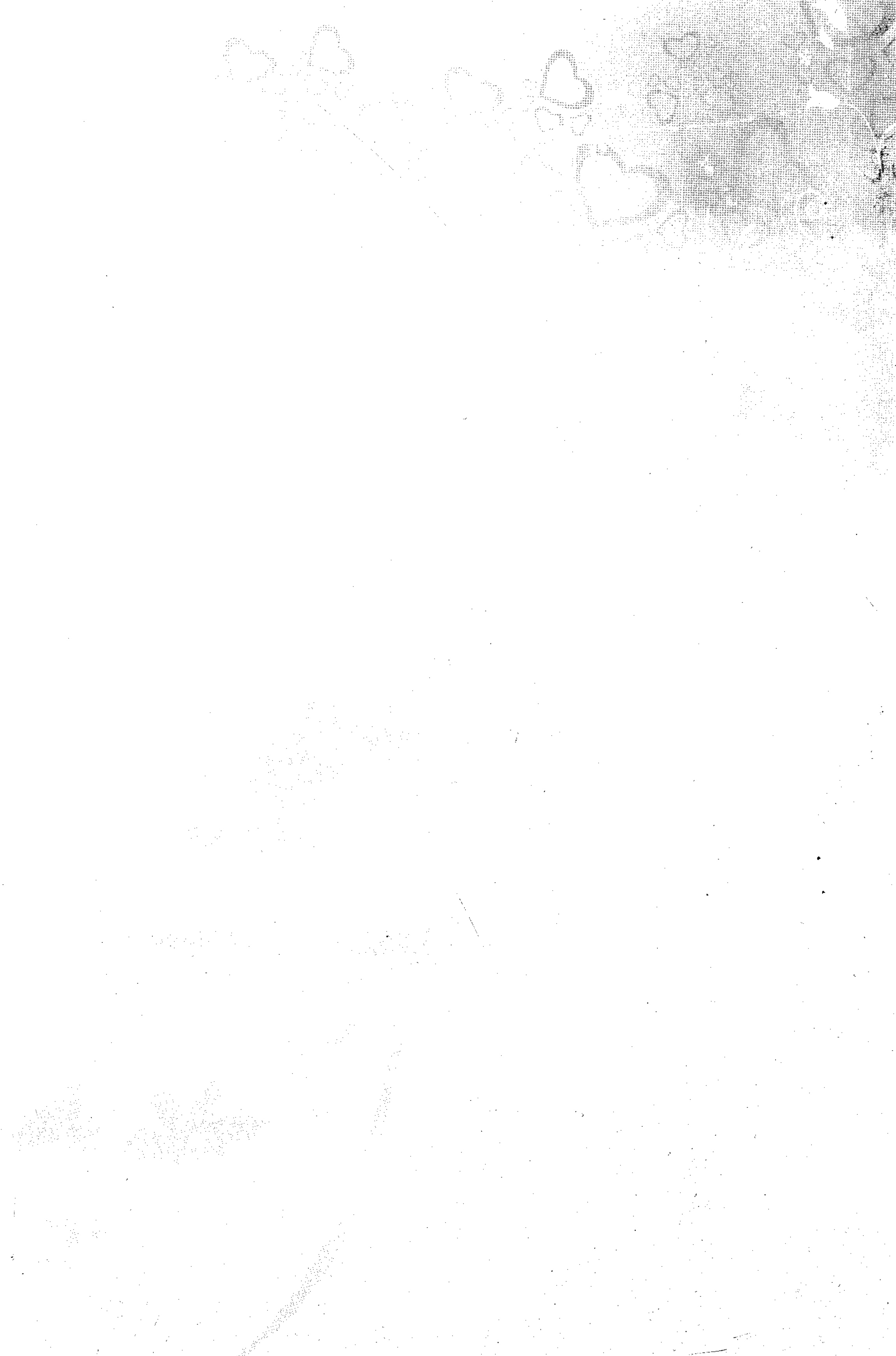
ولو صام المسلمون حقًّا لكان الحال غير ما نحن فيه اليوم، ولاختفت علامات الفحش وسوء الخلق والأثرة والاعتداء على الغير من مجتمعاتنا، ولرضي عنا ربنا فيسَّر لنا دنيانا وأكرمنا في آخرتنا، ولكننا قوم لا يصومون!!

5 إخفاء الصوم:

وإذا أضاف المريض إلى ما سبق: إخفاء صومه؛ فقد عطَّر عمله بالإخلاص قبل أن يبعث به إلى ربه ليتقبله، والإخلاص أسمى العبادات القلبية؛ لذا يتضاعف ثواب الصائم الخفي أضعافًا مضاعفة. قال ﷺ: «**وكل عمل لصاحبه إلا الصيام يقول الله: الصيام لي وأنا أجزي به**».

والمعنى: أتولى الجزاء على الصوم بنفسي، فلا أكله إلى ملك مقرب ولا غيره، لأنه سِرٌّ بيني وبين عبدي، فلما كف نفسه عن شهواتها سرًّا وجهرًا كوفئ بتولي الله سبحانه الإحسان إليه بنفسه فضلاً وبرًّا؛ لذا حرص الصالحون على إخفاء صومهم، فعن علم الزهاد وبركة العصر **معروف الكرخي** أنه سأله رجل: يا أبا محفوظ كيف تصوم؟ فبقي يغالطه ويقول: صوم نبينا ﷺ كان كذا، وصوم **داوود** كان كذا، فألح عليه فقال: «أصبح دهري صائمًا، فمن دعاني أكلت، ولم أقل: إني صائم»(٢).

(١) شعب الإيمان ٣/ ٣١٨.
(٢) تاريخ الإسلام.





والذي دسَّ سم البخل في قلب المريض هو أعدى أعدائه: شيطانه، حيث تسلل إلى القلب على حين غفلة من صاحبه فنفث فيه من سحره، لكن الله مطلع.. رآه ففضحه، وكانت فضيحته على رؤوس الأشهاد حيث نُشِرت على صفحات القرآن، ليخلد هذا التحذير فينا إلى قيام الساعة. قال عز وجل: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِ﴾[البقرة: ٢٦٨].

قال **مقاتل والكلبي**: «كل فحشاء في القرآن فهي الزنا إلا في هذا الموضع فإنها البخل»[(١)]، ويؤكِّد هذا **ابن القيِّم** قائلاً: «أمَرَه بالفحشاء وهي البخل الذي هو من أقبح الفواحش، وهذا إجماع من المفسرين أن الفحشاء هنا: البخل»[(٢)].

وهذا السم له تركيبة خاصة ومفعول محدد كما هو واضح في الآية، ومن مفعوله أن يُحدِث أثرين خطيرين: أن يصرف العبد عن كل خير ويرغِّبه في كل شر. قال **ابن القيِّم**:

«وهذان الأمران هما جِماع ما يطلبه الشيطان من الإنسان، فإنه إذا خوَّفه من فعل الخير تركه، وإذا أمره بالفحشاء وزيَّنها له ارتكبها»[(٣)].

إن خوف الفقر هو أول حلقة في سلسلة طويلة يجر بعضها بعضًا، وهو داء يفتح على صاحبه عشرات الأدواء ودوامة الشقاء؛ لذا كان **سفيان الثوري** يقول:

«إياكم وخوف الفقر، فإنه ليس للشيطان سلاح يقاتل به ابن آدم أشدَّ من خوفه الفقر، لأنه إذا خاف الفقر أخذ من الباطل، ومنع من الحق، وتكلم بالهوى، وظن بربه سوء الظن، فلقي كل سوء»[(٤)].

---

(١) إغاثة اللهفان ١/ ١٠٧.
(٢) طريق الهجرتين وباب السعادتين ١/ ٥٥٤.
(٣) إغاثة اللهفان ١/ ١٠٧.
(٤) تنبيه المغترين ص١٠٣.



قصة وعبرة

يا حارس نعمته وخازن ورثته، ألا تعلم أنه:

قد يجمع المال غير آكله ويأكل المال غير من جمعه

واسمع لتعرف صدق ما أقول:

قال **فرقد**: دخلنا على **الحسن** [ت: ١١٠] فقلنا: يا أبا سعيد! ألا يعجبك مِن **محمد بن الأهتم**؟ فقال: ماله؟ فقلنا: دخلنا عليه آنفًا وهو يجود بنفسه، فقال: انظروا إلى ذاك الصندوق - وأومأ إلى صندوق في جانب بيته - فقال: هذا الصندوق فيه ثمانون ألف دينار أو قال درهم لم أؤدِّ منها زكاة، ولم أصل منها رحمًا، ولم يأكل منها محتاج، فقلنا: يا أبا عبد الله.. فلمن كنت تجمعها؟! قال: لروعة الزمان، ومكاثرة الأقران، وجفوة السلطان.

فقال **الحسن**: انظروا من أين أتاه شيطانه فخوَّفه روعة زمانه، ومكاثرة أقرانه، وجفوة سلطانه؟ ثم وجَّه إليك الخطاب قائلاً:

أيها الوارث! لا تُخْدَعنَّ كما خُدِع صاحبك بالأمس، جاءك هذا المال لم تتعب لك فيه يمين، ولم يعرق لك فيه جبين، جاءك ممن كان له جموعًا منوعًا، من باطل جمعه، من حق منعه، ثم قال: إن يوم القيامة لذو حسرات، الرجل يجمع المال ثم يموت ويدعه لغيره، فيرزقه الله فيه الصلاح والإنفاق في وجوه البِر، فيجد ماله في ميزان غيره!![1]

وما تزوَّدَ مما كان يَجمعه إلا حنوطًا غداةَ البين معْ خِرَقِ
وغيرَ نفحةِ أعوادٍ تُشَدُّ به وقلَّ ذلك مِن زادٍ لمنطلقِ

إنها ليست مصيبة واحدة أن يفقد الإنسان ما جمعه بالموت، بل مصيبتان ومصيبتان عظيمتان.

قال **يحيى بن معاذ**: مصيبتان لم يسمع الأولون والآخرون بمثلها في ماله عند موته. قيل: ما هما؟! قال: «يُؤخذ منه كله، ويُسأل عنه كله»[2].

---

(١) البداية والنهاية ٩/ ٢٧٤.

(٢) صفة الصفوة ٤/ ٩١، ٩٢.

أخي.. **ما زال يصرخ فيك الصارخ: ما حكَّ جلدك مثل ظفرك، فتولَّ أنت جميع أمرك، ولماذا تترك نفسك فريسة لأهلك ينفقون بالنيابة عنك من مالك بعد موتك، يتصدقون أو يغفلون، يُرسلون إليك من مالك أو به يشتغلون وعليه يقتتلون.**

من هنا حسم ميمون بن مهران الموازنة قائلاً: «لأن أتصدَّق بدرهم في حياتي أحب إليَّ من أن يُتصَدَّق عني بعد موتي بمائة درهم»[(١)].

إن المال نعمة من الله إما أن نقضي بها الحياة الزائلة هنا أو نبني بها الحياة الدائمة هناك، ومن هنا حرص الأذكياء على تحويل المال من نعمة مؤقتة زائلة إلى نعمة دائمة باقية، وليس ذاك إلا بإنفاقه، ولقد أحسن أبو العباس أحمد بن مروان يصف كل جامع لورثته بخيل على نفسه:

وذو حرص تراه يلُمُّ وفرًا ... لوارثه ويدفع عن حماه
ككلب الصيد يمسك وهو طاوٍ ... فريسته ليأكلها سواه[(٢)]

البخلاء يختنقون

وعلى الضد من ذلك يكون حال البخيل؛ فإن هو همَّ يومًا بالصدقة ضاق صدره وانقبضت يده، خوفًا من نقص المال بعد أن صار جمعه كل همه وغايته، يقول ابن القيم وهو يصف بركات الإحسان ومضاعفات داء البخل في دقة واقتدار: «فإن الكريم المحسن أشرح الناس صدرًا، وأطيبهم نفسًا، وأنعمهم قلبًا، والبخيل الذي ليس فيه إحسان أضيق الناس صدرًا، وأنكدهم عيشًا، وأعظمهم همًّا وغمًّا»[(٣)].

وقد ضرب النبي ﷺ لذلك مثلاً من أبلغ ما يكون فقال:

«مثل البخيل والمُتصدِّق كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد من ثُدِيِّهما إلى تراقيهما[(٤)]،

---

(١) الحلية ٤/ ٨٧.
(٢) المستطرف ص ٨٠.
(٣) زاد المعاد، لابن القيم: ٢/ ٢٥، ٢٦.
(٤) تراقيهما: جمع ترقوة، وهي العظم البارز أعلى الصدر.

فأما المنفق فلا ينفق شيئًا إلا سبغت على جلده حتى تُخفي بنانه وتعفو أثره، وأما البخيل فلا يريد أن يُنفق شيئًا إلا لزقت كل حلقة مكانها، فهو يوسعها فلا تتسع»(١).

وهذا مثل رائع غزير الفوائد ضربه النبي ﷺ للبخيل والمتصدق، فشبَّههما برجلين أراد كل منهما أن يلبس درعًا يستتر به من عدوه، والدرع أول ما يقع على الصدر والثديين إلى أن يُدخِل الإنسان يديه في كميها، فجعل المنفق كمن لبس درعا فهي تتسع عليه كلما أنفق وتظل تتسع حتى تستر جميع بدنه بل وتصل إلى الأرض حتى تمحو آثار أقدامه من ورائه حين يمشي، بعكس البخيل فهو كمثل رجل غُلَّت يداه إلى عنقه، وكلما أراد لبس الدرع اجتمعت في عنقه فلزمت ترقوته.

والمراد: أن الجواد إذا همَّ بالصدقة انشرح لها صدره وطابت بها نفسه، فتوسع في الإنفاق حتى صار عنده عادة لا يستطيع الانقطاع عنها، والمراد كذلك أنها تستر عوراته في الدنيا والآخرة كما يستر هذا الثوب السابغ جسد من يلبسه، وأن الصدقة تمحو خطايا صاحبها كما يمحو الثوب الطويل آثار أقدام لابسه إذا مشى.

والبخيل بعكس هذا كله ضيِّق الصدر إذا حدَّث نفسه بالصدقة شحَّ وانقبضت يداه، وقد اعتاد إمساك المال فصار له عادة لا فكاك منها، مفضوح ببخله بين الناس لا يستره شيء كمن لبس جبة إلى ثدييه، فبقي مكشوف العورة مفتضحًا في الدنيا والآخرة.

أخي.. احذر مالك.. أنفقه وإلا أسرك.. أخرجه من عندك وإلا استعبدك.. أدرك قلبك منه قبل أن يصيبه بالجشع.

إذا المرء لم يُعتِق من المال نفسه ... تملَّكه المال الذي هو مالكه
ألا إنما مالي الذي أنا منفق ... وليس لي المال الذي أنا تاركه
إذا كنتَ ذا مال فبادر به الذي ... يحق وإلا استهلكته مهالكه

(١) صحيح: رواه الشيخان وأحمد والترمذي كما في ص ج ص حديث رقم: ٥٨٢٦.

معلّم نبي وشارح وفي

والمعلِّم وسيد المعلِّمين هو النبي ﷺ يضرب لنا المثل الثاني تأكيدًا وتعليمًا وتوضيحًا وتبيينًا، حتى لا يعود لأحد منا حجة أو ذريعة. قال ﷺ:

«إنما أخاف عليكم من بعدي ما يُفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها، إنه لا يأتي الخير بالشر، أن مما يُنبِت الربيع يقتل حَبَطا أو يُلِمُّ إلا آكلة الخَضِر، فإنها أكلت حتى إذا امتلأت خاصرتاها استقبلت الشمس فثلطت وبالت، ثم رتعت»(١).

والتلميذ هو **ابن قيم الجوزية** الذي بدأ شرحه لهذا الحديث على صفحات كتابه **إغاثة اللهفان** فقال:

«أخبر ﷺ أنه إنما يخاف عليهم الدنيا، وسمَّاها زهرة؛ فشبهها بالزهر في طيب رائحته وحسن منظره وقلة بقائه، وأن وراءه ثمرًا خيرًا وأبقى منه.

وقوله: «**إن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطا أو يُلِمُّ**» من أحسن التمثيل المتضمن للتحذير من الدنيا والانهماك عليها والمسرة فيها، وذلك أن الماشية يروقها نبت الربيع فتأكل منه، فربما هلكت حبطًا، والحَبَط انتفاخ بطن الدابة من الامتلاء أو من المرض، فكذلك الشرِه في المال يقتله شَرَهه وحرصه، فإن لم يقتله قارب أن يقتله وهو قوله: «**أو يُلِمُّ**»، وكثير من أرباب الأموال إنما قتلتهم أموالهم، فإنهم جمعوها من غير حِلِّها ووضعوها في غير حقها.

وقوله «**إلا آكلة الخَضِر**»: تمثيل لمن أخذ من الدنيا حاجته، مَثَّله بالشاة الآكلة من الخضر بقدر حاجتها، أكلت حتى اذا امتلأت خاصرتاها، وإنما تمتد من امتلائها من الطعام، وثنَّى الخاصرتين لأنهما جانبا البطن.

وفي قوله «**استقبلت عين الشمس فثلطت وبالت**»: أنها أعرضت عما يضرها من الشَّره في المرعى، وأقبلت على ما ينفعها من استقبال الشمس التي يحصل لها بحرارتها الانتفاع والفائدة، ثم إنها استفرغت بالبول والثَّلط ما جمعته من المرعى في بطنها،

---

(١) صحيح: رواه الشيخان وأحمد والنسائي وابن ماجة عن أبي سعيد الخدري كما في ص ج ص رقم: ٢٣١٧.



فاستراحت بإخراجه ولو بقي فيها لقتلها، وكذلك جامع المال فإنه من مصلحته أن يفعل به كما فعلت هذه الشاة وإلا هلك».

ولذا رُوِي أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً بدينًا فأشار إلى بطنه وقال: «**لو كان هذا في غير هذا لكان خيرًا لك**»(١) ، أي لو كنت أنفقت ما أكلت على الفقراء صدقة وفضلاً لوقيت نفسك المرض، ولنلت في الجنة الغرض، فإن النعمة إذا أُكِلت صارت بعد قليل إلى المزبلة، وإذا تُصدِّق بها سافرت إلى أعلى عليين.

(١) ضعيف كما في السلسلة الضعيفة ٣/ ١١٣١.

مضاعفات القوة

1 مفتاح بوابة البر:

يا مريض القلب.. دواؤك في الصدقة(١)، وأقسم بالله على ذلك، فإن أبيت إلا كتاب الله تطلب منه الدليل، فأعطني سمعك: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ [الليل: ٥-٧].

والمعنى أي نُيَسِّر له كل خير، ونحبِّب إليه كل طاعة، ونفتح له أبواب المعروف، ونصده عن المنكرات، ويشهد لذلك قوله تعالى: ﴿ لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران: ٩٢]، فلابد للدواء حتى يُحدث أثره ويسري مفعوله أن تكون صدقتك من أفضل ما تملك وأكثر ما تحب، وإلا ظللت طريح الفراش خائر الهمة صريع الشيطان، تنوي الطاعة فلا تقدر، وتعزم على الخير فتخونك قواك، وقد حثنا رسول الله ﷺ على هذا النوع الغالي من الإنفاق فقال:

«أفضل الرقاب أغلاها ثمنًا وأنفسها عند أهلها»(٢).

لكن ما هو البِرُّ؟!

أجاب **ابن القيم**: «فالبر كلمة جامعة لجميع أنواع الخير والكمال المطلوب من العبد»(٣).

قصة آية

لكن ما قصة هذه الآية: ﴿ لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾، وما أثرها في القلوب الحية؟!

- حين أدرك الصحابة - رضي الله عنهم- قيمة هذا الدواء الناجع؛ جرَّبوه واستعملوه،

---

(١) بل ومريض الجسد كذلك. قال ﷺ: « **داووا مرضاكم بالصدقة** ». حديث حسن حسنه الألباني في ص ج ص رقم: ٣٣٥٨.

(٢) صحيح: رواه الشيخان والنسائي وابن ماجة عن أبي ذر كما في ص ج ص رقم: ١١٠٥.

(٣) الرسالة التبوكية ص ٩.



فكان الواحد منهم إذا ازداد حبه لشيء من ماله[(١)] بذله لله رجاء نيل البر، فعن **أنس بن مالك** ﷺ قال:

«كان **أبو طلحة** أكثر أنصاري بالمدينة مالاً من نخل، وكان أحب أمواله إليه بيرحاء، وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب. قال أنس: فلما أنزلت هذه الآية: ﴿ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران: ٩٢] قام **أبو طلحة** إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله.. إن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾، وإن أحب أموالي إليَّ بيرحاء، وإنها صدقة لله، أرجو بِرَّها وذُخرها عند الله، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله. قال: فقال رسول الله ﷺ: بخ!! ذلك مال رابح.. ذلك مال رابح»[(٢)].

ورأى **زيد بن حارثة** ﷺ ما فعله أخوه فغار، وما أربح الغيرة في الطاعات، وما أحبها إلى رب السماوات، ذلك أنه لما نزلت: ﴿ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ جاء **زيد بن حارثة** بفرس له كان يحبها فقال: يا رسول الله.. هذه في سبيل الله، فحمل رسول الله ﷺ عليها **أسامة بن زيد**، فكأن **زيدًا** وجد في نفسه، فلما رأى ذلك منه النبي ﷺ قال: «أما إن الله قد قبلها»[(٣)].

والمشاهد أن لهذه الآية سرًّا عجيبًا وتأثيرًا فريدًا وأثرًا عظيمًا لكل من كان له قلب حي ووعي ذكي؛ لذا لما سمعها الصحابة باعوا أغلى ما يملكون في سبيل نيل ما إليه يطمحون، لكن أين كان **الصديق** من كل هذا؟! وهل كان غائبًا عن شهود هذا الخير مع أفضليته؟! وهل يترك غيره يسبقه دون أن ينافسه؟! كلا والله، فقد كان الإنفاق من أفضل ما يحب المرء علامة متعارفًا عليها بين أبناء هذا الجيل، وسجية تفيض بها كتب السير عنهم حتى ذكر **عمر بن شبَّة** في أخبار المدينة أن دار **أبي بكر** التي أُذِن له في إبقاء الخوخة منها إلى المسجد كانت ملاصقة

---

(١) عن **المفضل الضبي** قال: "المال عند العرب الصامت والناطق، فالصامت: الذهب والفضة والجوهر، والناطق: البعير والبقرة والشاة، فإذا قلت عن حضري: كثر ماله فالمراد الصامت، وإذا قلت عن بدوي: فالمراد الناطق». فتح الباري ٧/ ٤٩٩.

(٢) صحيح: رواه الشيخان عن أنس بن مالك كما في اللؤلؤ والمرجان رقم: ٥٨٢.

(٣) تفسير الطبري ٣/ ٣٤٥.

للمسجد، ولم تزل بيد أبي بكر حتى احتاج إلى شيء يعطيه لبعض من وفد عليه، فباعها فاشترتها منه حفصة أم المؤمنين بأربعة آلاف درهم[١]، ولسان حاله:

كأنك في الكتاب وجدت أنَّ (لأ) محرمة عليك فلا تحلُّ
فما تدرى إذا أعطيت مالاً أيكثر في سماحك أم يقلُّ
إذا حضر الشتاء فأنت شمس وإن حضر المصيف فأنت ظلُّ

وفارس آخر في الميدان وهو أشد الناس شبهًا برسول الله ﷺ كما روت ذلك عنه **عائشة** رضي الله عنها، وهذا هو **عبد الله بن عمر** ﷺ حيث لم يطق صبرًا وهو يقرأ هذه الآية في صلاته، فائتمر بأمرها ونفَّذ على الفور ما أرادته الآية وهو داخل الصلاة!! فقد أخرج **أحمد** في الزهد عن **مجاهد** قال: «كان ابن عمر قائمًا يصلي، فأتى على هذه الآية: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾، فأعتق جارية له وهو يصلي قد أراد أن يتزوجها»[٢].

وموقف آخر لكن هذه المرة خارج الصلاة وهو يقرأ نفس الآية العجيبة؛ وكان راكبًا يومًا على راحلة عظيمة، فأعجبته فأناخها وجعلها لله تعالى.

وفي موقف ثالث اشترى سكرًا وتصدَّق به، وكثيرًا ما كان يفعل، فقال له أصحابه: لو اشتريت لهم بثمنه طعامًا كان أنفع لهم من هذا، فيقول: «إني أعرف الذي تقولون، ولكن سمعت الله يقول: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ وابن عمر يحب السكر»[٣].

وفهم التابعون الدرس لأنهم تلاميذ نجباء، ولأن المعلِّم واحد، والكتاب الذي يُستقى منه خالد، فتسلَّموا الراية عن طريق **الربيع بن خيثم** الذي جاءه سائل يسأل، فخرج إليه في ليلة باردة، فاذا هو كأنه مقرور (من القُرِّ وهو البرد)، فنزع بُرنسًا له، فكساه كان يزعم أنه من خزٍّ، فأعطاه إياه، ثم تلا الآية نفسها: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[٤].

---

(١) فتح الباري ٧/ ١٤.
(٢) الزهد لأحمد ص ١٩٤.
(٣) الدر المنثور ٢/ ٢٦٢.
(٤) الزهد لأحمد ص ٣٣١.



ومن قبل **الربيع** كان خامس الخلفاء الراشد **عمر بن عبد العزيز**، وكان لزوجته **فاطمة بنت عبد الملك** جارية بارعة الجمال وكان **عمر** راغبا فيها، وكان قد طلبها منها مرارًا فلم تُعطِه إياها، فلما ولي الخلافة زيَّنتها وأرسلتها إليه، فقالت: قد وهبتكها يا أمير المؤمنين لتخدمك، فقال: من أين ملكتِها؟ قالت: جئت بها من بيت **أبي عبد الملك**، ففتش كيف تملكها، فقيل: إنه كان على فلان العامل ديون فلما توفي أُخذت من تركته، ففتش عن العامل وأحضر ورثته وأرضاهم جميعًا بإعطاء المال، ثم توجه إلى الجارية -وكان يهواها هوى شديدًا- فقال: «أنت حرة لوجه الله تعالى!!»(١).

ولذا لم يكن غريبًا أن يعتبر **سعد بن عبادة** ﷺ الصدقة أساس صلاح سائر الأعمال، فيدعو قائلاً: اللهم ارزقني مالاً أجود به، فإنه لا يُصلِح الفعال إلا المال، ثم أنشد قائلاً:

أرى نفسي تتوق إلى فعال — فيقصر دون مبلغهن مالي
فلا نفسي تُطاوِعني ببُخل — ولا مالي يبلّغني فِعالي(٢)

وما هذا إلا لغيرته في الخير وسعيه لينال ما نال إخوته من الفضل، وتسري في قلبه نفس اللذة.. لذة الانتصار على الهوى، ولذة اليقين بموعود الله، ولذة الإيثار الأخوية، ولذة السمو الأخروية، فلله درُّه من صحابي عالي الهمة وسامق العزم.. هتاف نفسه وحديث قلبه:

يا لهْف نفسي على مالٍ أجود به — على المقلّين من أهل المروءات
إن اعتذاري إلى من جاء يسألني — ما ليس عندي لَمِن إحدى المصيبات

2 أخرجها من قلبك أولاً:

قال تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٦١]

---

(١) تفسير أبي السعود ٢/ ٥٨.
(٢) تنبيه المغترين ص ١٣٨، ١٣٩.

قال ابن القيِّم في جلسة تفسير خاصة بهذه الآية:

«فإن ثواب الإنفاق يتفاوت بحسب ما يقوم بالقلب من الإيمان والإخلاص والتثبيت عند النفقة؛ وهو إخراج المال بقلب ثابت قد انشرح صدره بإخراجه، وسمحت به نفسه، وخرج من قلبه قبل خروجه من يده، فهو ثابت القلب عند إخراجه غير جزع ولا هلع، ولا متبع نفسه ترجف يده وفؤاده»[(١)].

لكن.. لماذا ختم الله الآية بقوله: ﴿ عَلِيمٌ﴾؟!

والجواب: أي عليم بمكنونات القلوب ومحتويات الضمائر، ومن ثَمَّ عليم بمن يستحق هذه المضاعفة ممن لا يستحق، فلا يظن أحد أن سعة عطاء الله تقتضي وصوله لكل منفق، فإن كان عطاؤه لا يضيق بأحد إلا أنه كذلك ليس لأي أحد، فإنه سبحانه حكيم يضع فضله في مواضعه، ويمنعه من لا يستحق.

احذر: آفتان قلبيتان

قال عز وجل:

﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢٦٥].

والآية تشبِّه محسوسًا وهو ثمار الزروع بآخر غير مرئي ولا محسوس وهو ثواب المنفق عند الله، فجعل الله الثواب المترتِّب على الصدقة الخالصة من آفتي الرياء والتردد ضِعف الثواب العادي للصدقة كما تشير الآية: ﴿فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ﴾، قال السدي: «كما أضعفت ثمرة تلك الجنة فكذلك تُضاعف ثمرة هذا المنفق ضعفين»[(٢)].

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين ١/ ١٨٤.
(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٣/ ٦٩.

فلو أن رجلاً نال في الجنة قيراطًا بصدقته فإن المخلص الذي ما تردَّد له قيراطان، وهي كما ترى ليست سوى أعمال قلوب لكنها ترفع صاحبها إلى أعلى عليين؛ لذا فهي منازل نادرة وحِكر عليكم أيها الراغبون في التميِّز بالدرجات والتفرُّد بأعلى المقامات.

إن اليد التي تنفق لابد لها من قلب يعمل معها على التوازي، فالصدقة وحدها لا تكفي، بل لا بد أن يصاحبها عمل قلبي حتى تُقبل، وإلا ذهبت أدراج الرياح، وخسر صاحبها ماله دون أن يجد ثوابه؛ ولذا قال **ابن القيِّم** معلِّقًا على الآية السابقة:

«فإن المنفق يعترضه عند إنفاقه آفتان إن نجا منهما كان مثله ما ذكره في هذه الآية؛ إحداهما: طلبه بنفقته محمدة أو ثناء أو غرضًا من أغراضه الدنيوية، وهذا حال أكثر المنفقين، والآفة الثانية: ضعف نفسه وتقاعسها وترددها: هل يفعل أم لا، فالآفة الأولى تزول بابتغاء مرضاة الله، والآفة الثانية تزول بالتثبيت، فإن تثبيت النفس تشجيعها وتقويتها والإقدام بها على البذل وهذا هو صدقها، وطلب مرضاة الله إرادة وجهه وحده وهذا إخلاصها»[(١)].

ومعنى الخلاص من الآفة الثانية أي من ضعف النفس وتقاعسها: أن لا يتردَّد أحدهم أبدًا في إنفاق في مجالات الخير، بل إذا نازعته نفسه مثلاً أن يخرج ألفًا أو ألفين أنفق ألفين، وإذا حدَّثته أن ينفق اليوم أو غدًا أنفق اليوم، فما خُيِّر بين أمرين إلا اختار أعلاهما قدرًا وأكثرهما أجرًا.

3 البعد عن المَنِّ والأذى

أولا: المَنُّ:

والمَنُّ هو تذكير المنعِم المنعَم عليه بإنعامه، وهو أمر يبعث على الحسرة والألم، لأن المنفق بعد جهاد طويل مع نفسه وصراع مرير مع قلبه؛ قد أحبط عمله بمنِّه وتفضله على غيره وفي طرفة عين، وقديمًا قيل: تناسي المعروف أعظم قلادة في جيد الجود.

وعند **أبي حامد الغزالي** أن القلب هو مصدر هذا البلاء؛ حيث قال رحمه الله: «وعندي أن

(١) طريق الهجرتين ١/ ٥٤٦.

المَنّ له أصل ومغرس، وهو من أحوال القلب وصفاته، ثم يتفرع عليه أحوال ظاهرة على اللسان والجوارح»(١).

وبمزيد تفصيل يشرح **ابن القيِّم** كلام أخيه **أبي حامد** قائلاً:

«فالمَنُّ نوعان أحدهما: منٌّ بقلبه من غير أن يصرِّح به بلسانه، وهذا إن لم يُبطِل الصدقة؛ فهو من نقصان شهود منة الله عليه في إعطائه المال وحرمان غيره وتوفيقه للبذل ومنع غيره منه، فلله المنة عليه من كل وجه، فكيف يشهد قلبه مِنَّة لغيره؟!

والنوع الثاني: أن يمُنَّ عليه بلسانه، فيعتدي على من أحسن إليه بإحسانه، ويريه أنه اصطنعه، وأنه أوجب عليه حقًّا، وطوَّقه مِنَّة في عنقه، فيقول: أما أعطيتك كذا وكذا، ويُعدِّد أياديه عنده. قال سفيان: يقول أعطيتك فما شكرت، وقال **عبد الرحمن بن زياد**: كان أبي يقول: إذا أعطيتَ رجلاً شيئًا ورأيتَ أن سلامك يثقل عليه فكفَّ سلامك عنه، وكانوا يقولون: إذا اصطنعتم صنيعة فانسوها، وإذا أُسدِيت إليكم صنيعة فلا تنسوها: وفي ذلك قيل:

وإن امرأ أهدى إليَّ صنيعة   وذكَّرنيها مرة لبخيل

وقيل: صنوان من منح سائله وَمَنَّ ومن منع نائله وضنَّ»(٢).

لكن لماذا حرَّم الله سبحانه على عباده المنَّ؟!

أجاب **ابن القيِّم**: «وحظر الله على عباده المَنِّ بالصنيعة، واختص به صفة لنفسه، لأن منَّ العباد تكدير وتعيير، ومَنُّ الله سبحانه وتعالى إفضال وتذكير.

وأيضًا فإنه هو المنعم في نفس الأمر، والعباد وسائط، فهو المنعم على عبده في الحقيقة.

وأيضًا فالامتنان استعباد وكسر وإذلال لمن يَمُنُّ عليه، ولا تصلح العبودية والذل إلا لله.

وأيضًا فالمِنَّة أن يشهد المعطي أنه هو رب الفضل والإنعام، وأنه ولي النعمة ومُسديها، وليس ذلك في الحقيقة إلا الله.

وأيضًا فالمانُّ بعطائه يشهد نفسه مترفعًا على الآخذ مستعليًا عليه غنيًّا عنه عزيزًا، ويشهد

---

(١) الإحياء ١/ ٢١٦.

(٢) طريق الهجرتين ١/ ٥٤١.

ذل الآخذ وحاجته إليه وفاقته، ولا ينبغي ذلك للعبد.

وأيضًا فإن المعطي قد تولى الله ثوابه ورد عليه أضعاف ما أعطى، فبقي عوض ما أعطى عند الله، فأي حق بقي له قِبَل الآخذ، فإذا امتنَّ عليه فقد ظلمه ظلمًا بيِّنًا، وادعى أن حقه في قلبه.

ومن هنا - والله أعلم- بطلت صدقته بالمَنِّ، فإنه لما كانت معاوضته ومعاملته مع الله؛ وعوض تلك الصدقة عنده، فلم يرض به، ولاحظ العِوض من الآخذ والمعاملة عنه، فمنَّ عليه بما أعطاه أبطل معاوضته مع الله ومعاملته له»(١).

لكل شيء علامة

وعلامة المَنِّ الظاهرة: التحدث به وإظهاره، وعلامته الباطنة: طلب المكافأة عليه بأي شكل من أشكال الشكر أو الدعاء أو الخدمة أو التوقير والتعظيم أو القيام بالحقوق والحوائج، فهذه كلها من المَنِّ، وقد أشار أبو حامد الغزالي كذلك إلى علامة من علامات المَنِّ ربما لا يفطن لها الكثير من أحياء القلوب وذلك حين سئل: فهل من علامة يمتحن بها قلبه فيعرف بها أنه لم ير نفسه محسنًا؟! فأجاب رحمه الله بكلم نادر نفيس:

«فاعلم أن له علامة دقيقة واضحة، وهو أن يُقدِّر أن الفقير لو جنى عليه جناية مثلاً؛ هل كان يزيد في استنكاره واستبعاده له على استنكاره قبل التصدق، فإن زاد لم تَخْلُ صدقته من شائبة المنة، لأنه توقع بسببه ما لم يكن يتوقع قبل ذلك»(٢).

وأشار في موضع آخر إلى علامة أخرى خفية من علامات المَنِّ مرتبطة بالعلاقة التي تربط المنفق بمن مدحه أو ذمه، فقال في ذكره لعلامات الإخلاص:

«وعلاماته أن لا يجد في نفسه استثقالا للذام عند تطويله الجلوس عنده أكثر مما يجده في المادح، وأن لا يجد في نفسه زيادة هزة ونشاط في قضاء حوائج المادح فوق ما يجده في قضاء حاجة الذام، وأن لا يكون انقطاع الذام عن مجلسه أهون عليه من انقطاع المادح، وأن لا يكون موت

---

(١) طريق الهجرتين ١/ ٥٤١، ٥٤٢.
(٢) الإحياء ١/ ٢١٦.

المادح له أشد نكاية في قلبه من موت الذام، وأن لا يكون غمُّه بمصيبة المادح وما يناله من أعدائه أكثر مما يكون بمصيبة الذام، وأن لا تكون زلة المادح أخف على قلبه وفي عينه من زلة الذام»[(١)].

ثانيًا: الأذى:

قال **أبو حامد الغزالي**: «وأما **الأذى** فظاهره التوبيخ والتعيير وتخشين الكلام وتقطيب الوجه وهتك الستر بالإظهار وفنون الاستخفاف، وباطنه وهو منبعه: أمران؛ أحدهما: كراهيته لرفع اليد عن المال وشدة ذلك على نفسه، والثاني: رؤيته أنه خير من الفقير، وأن الفقير لسبب حاجته أخس منه، وكلاهما منشؤه الجهل»[(٢)].

أما كراهيته لرفع يده عن المال فهو حمق؛ لأن من كره بذل درهم في مقابل ألف درهم شديد الحمق، ومعلوم أن المتصدِّق يبذل المال لطلب رضا الله -عز وجل- والجنة في الآخرة، فضلاً عن كون ذلك منه شكرًا لنعمة المال مما يستوجب المزيد، وكونه تطهيرًا للقلب من آفات الشح والبخل، فأي كراهة لهذا الخير؟!

وأما الثاني وهو رؤيته أنه خير من الفقير؛ فهو أيضًا جهل لأنه لو كان عالمًا حقًّا لرأى الفقير محسنًا إليه بقبوله حق الله -عز وجل- منه، وحق الله هو وحده الذي يطهِّر ماله ويدخله الجنة، ولو لم يقبل الفقير صدقة الغني لبقي الغني في الإثم واستحق العقوبة؛ فقد جعل الله الفقير نائبًا عنه سبحانه في قبض حقه تبارك وتعالى، فليدرك كل متصدِّق أنه يؤدي إلى الله حقه بهذه الصدقة، وما الفقير إلا آخذ رزقه من يد الله بعد أن استلمته يد الله من كف الغني، فكيف تؤذي الفقير بعد ذلك بأذاك؟!

ومثال هذا أنك لو كنت مدينًا لأحد بمال وبعثت بهذا المال خادمك ليؤديه لصاحبه، فلو مننت على خادمك بعد ذلك بهذا المال لكنت جهولاً سفيهًا؛ إذ ما هو إلا رسول يؤدِّي الحق إلى صاحبه، وأنت الساعي في سداد الواجب الذي عليك، فكيف تمنُّ به على من عاونك في قضاء حاجتك وبلوغ غايتك؟!

---

(١) السابق ٣/ ٢٩١.
(٢) الإحياء ١/ ٢١٧.

4 الصدقة المتجرِّدة:

قال عز وجل: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢].

وقوله: ﴿وَلَا يَأْتَلِ﴾ أي ولا يحلف، والقصة أن **أبا بكر الصديق** ﷺ كان يعطف على قريبه ونسيبه **مِسْطَح بن أثاثة**، فإنه كان ابن خالة **الصديق**، ومن فقراء المهاجرين مسكينًا لا مال له إلا ما ينفق عليه **أبو بكر** ﷺ، لكنه وقع في عرض **عائشة** -رضي الله عنها- في حادثة الإفك، فمنع عنه **أبو بكر** النفقة، وأقيم عليه الحد في ذلك،، فلما نزلت هذه الآية: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ﴾ إلى قوله: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾، قال **الصديق**: بلى والله إنا نحب يا ربنا أن تغفر لنا، ثم أُرجع إلى **مسطح** ما كان يصله من النفقة، وقال: والله لا أنزعها منه أبدًا في مقابلة ما كان قال: والله لا أنفعه بنافعة أبدًا، فقد فهم **الصديق** من الآية أن الجزاء من جنس العمل، والمعنى: كما تغفر عن المذنب إليك نغفر لك، وكما تصفح نصفح عنك، وقد شرح **الكيلاني** صنيع **أبي بكر** وإنكاره لحظ نفسه، فقال آمرًا كل مقتفٍ للأثر طامع في الأجر:

«كن مع الحق بلا خلق، ومع الخلق بلا نفس»(١).

إننا حين نتصدق نعامل الله بصدقاتنا، ونضعها في يده، ولا نبالي أمدح الناس أم ذموا، أشكروا أم كفروا، وإذا ذمك من تصدَّقت عليه، وأساء إليك من أحسنت إليه، فتذكَّر وصية **الكيلاني** على الفور تربح، فإن هذا علامة إخلاصك ودليل إرادتك بصدقتك وجه الله لا مدح الناس، واطمح بقلبك في نيل شرف قوله ﷺ: «**أفضل الصدقة: الصدقة على ذي الرحم الكاشح**»(٢).

والكاشح: المبغض المعادي، فإنه طوى كشحه على بغضه وعداوته، وإنها فلسفة هذا الدين الرائع في نزع بذور العداوة وغرس شجر المحبة بدلاً منها، وما أجمل ما قال **أبو الحسين**

---

(١) المدارج ٢/ ٣٢٦.

(٢) صحيح: رواه أحمد والطبراني عن أبي أيوب وحكيم بن حزام، والطبراني والحاكم عن أم كلثوم بنت عقبة كما في ص ج ص رقم: ١١١٠.

سراج بن عبد الملك في ذلك ينصحك بالتشبُّه بالغيث:

بُثَّ الصنائع لا تحفل بموقعها ... من آملٍ شكرَ الإخوان أو كفرا
فالغيث ليس يبالي أين ما انسكبت ... منه الغمائم تُربا كان أو حجرا(١)

5 وقت الإنفاق:

عن المنذر بن جرير عن أبيه قال: كنا عند رسول الله ﷺ في صدر النهار، فجاءه قوم حفاة عراة مجتابي النِّمار أو العَبَاء متقلِّدي السيوف عامتهم من مُضَر بل كلهم من مُضَر، فتمعَّر وجه رسول الله ﷺ لما رأى بهم من الفاقة، فدخل ثم خرج فأمر بلالاً فأذَّن وأقام فصلى، ثم خطب فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴾ [النساء: ١] والآية التي في الحشر ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ [الحشر: ١٨] تصدق رجل من ديناره، من درهمه، من ثوبه، من صاع بُرِّه، من صاع تمره؛ حتى قال: ولو بشقِّ تمرة. قال: فجاء رجل من الأنصار بصُرَّة كادت كفه تعجز عنها بل قد عجزت. قال: ثم تتابع الناس حتى رأيت كومين من طعام وثياب رأيت وجه رسول الله ﷺ يتهلل كأنه مَذْهَبَة، فقال رسول الله ﷺ: «من سنَّ في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سنَّ في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها وَوِزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»(٢).

وفي وقت الأزمات قد تسبق الصدقة كل أنواع العبادات الأخرى، ليبرز ما يُعرَف اليوم باسم فقه الأولويات، واسمعوا ما كان من عبد الله بن المبارك رحمه الله أثناء حجه مما يدل على عظيم فقهه

---

(١) القلائد من فرائد الفوائد ص ٥٧، ٥٨ – ط المكتب الإسلامي – مصطفى السباعي عن كتاب الصلة لابن بشكوال – الطبعة الثانية ١٤٠١هـ-١٩٨١م.

(٢) صحيح مسلم ٢/ ٧٠٤، ومجتابي النمار أي لابسيها، والنِّمار: جمع نَمِرة وهو كلُّ ثوب مُخطَّط من مآزِر الأعراب، وأُخِذَت من لون النَّمر لما فيها من السَّواد والبَياض.

وروعة فهمه. قال ابن كثير:

«خرج عبد الله بن المبارك مرة إلى الحج، فاجتاز ببعض البلاد، فمات طائر معهم، فأمر بالقائه على مزبلة هناك، وسار أصحابه أمامه، وتخلف هو وراءهم، فلما مرَّ بالمزبلة إذا جارية قد خرجت من دار قريبة منها، فأخذت ذلك الطائر الميت، ثم لفته ثم أسرعت به إلى الدار، فجاء فسألها عن أمرها وأخذها الميتة، فقالت: أنا وأخي هنا ليس لنا شئ إلا هذا الازار وليس لنا قوت إلا ما يلقى على هذه المزبلة، وقد حلَّت لنا الميتة منذ أيام، وكان أبونا له مال فظُلِم وأُخذ ماله وقُتِل، فأمر ابن المبارك برد الأحمال وقال لوكيله: كم معك من النفقة؟! قال: ألف دينار، فقال: عدَّ منها عشرين دينارًا تكفينا إلى مرو، وأعطها الباقي، فهذا أفضل من حجنا في هذا العام، ثم رجع»[1].

ومما يشهد لأفضلية وقت الإنفاق قول الله –سبحانه وتعالى- : ﴿ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ ﴾[الحديد: ١٠].

وأكثر المفسرين على أن المراد هنا بالفتح: فتح مكة، وإنما كانت النفقة قبل الفتح أعظم لأن حاجة الناس كانت أكثر لضعف الإسلام وقلة المسلمين، وفعل ذلك كان على المنفقين حينئذٍ أشق، والأجر على قدر النصب، وقد قدَّم الله الإنفاق على القتال إعلامًا بفضيلة الإنفاق.

ولعل ما يضاعف أثر وقت الإنفاق مضاعفة لا حدَّ لها أن يُقدَّم إلى المجاهدين الذين يحمون ظهر المستضعفين من المؤمنين ، وقد قدَّم نبينا ﷺ هذه الصدقة على سائر أنواع الصدقات حين قال :

« أفضل الصدقات ظل فُسطاط في سبيل الله عز وجل ، أو مِنحة خادم في سبيل الله ، أو طَروقة فحل في سبيل الله »[2].

وهي كما ترى ثلاث صدقات كلها تدور حول بذل الصدقات للمجاهدين، فالفسطاط هو الخيمة أو الخباء التي يستظل بها المجاهد ، ومِنحة الخادم هي هبته أو إعارته للمجاهد يخدمه ويعينه ، وطَروقة الفحل هي الناقة أو الفرس التي بلغت أن يطرقها الفحل تُبذل للمجاهد في سبيل الله يركبها إعارة أو قرضا أو هبة.

---

(١) البداية والنهاية ١٠/ ١٨٧.

(٢) حسن : رواه أحمد والترمذي عن أبي أمامة والترمذي عن عدي بن حاتم كما في صحيح الجامع رقم : ١١٠٩.

فانظر أخي إلى أوقات المحن ونزول البلاء بالأمة وتوالي النكبات عليها، وإذا رزقك الله بجار مكروب، أو صادفت في مسيرة حياتك فقيرًا أرهقته الفاقة فاعلم أنها فرصة ثمينة، وردُّ الفرصة التي عرضها الله عليك علامة إعراض منك عن الرب سبحانه، فاعمد إلى مالك وقتها فأخرجه، فإن صدقة كهذه تجعل وجه رسولك يتهلل لك كأنه الذهب، ويُسَرُّ بك بينا هو في قبره؛ لأنك تنقذ أمته وهو أرحم الناس بأمته، بل وسيتهلل وجهه أكثر يوم أن يلقاك في القيامة على الحوض، وينظر إليك نظرة المبتسم الراضي وهو يسقيك بيده الشربة المباركة التي تُبيد الظمأ إلى الأبد.

6 سر الأسرار:

لا يبالي المنفق أن يُعرف، فضلا عن أن يحبَّ أن يشتهر بكرمه بين الناس، بل ولو اشتهر بينهم بالبخل وهو الكريم السخي ما أفشى من سر إنفاقه شيئًا، وما قيمة أن يعلم الناس عنه وليس في قلبه أحد من الخلق من الأساس، فلا يلمح غير نظر الله إليه، وقد علم الله كرمه وخيره، ليقتدي في تجرده هذا بعلي بن الحسين الذي قال عنه شيبة بن نعامة: كان علي بن الحسين يُبَخَّل، فلما مات وجدوه يقوت مائة أهل بيت بالمدينة. قال جرير: إنه حين مات وجدوا بظهره آثارًا مما كان يحمل بالليل الجرب إلى المساكين.(١)

7 عشرة من عشرة:

قال ابن القيِّم محصيًا أنواع الجود: «و الجود عشر مراتب:

أحدها: الجود بالنفس وهو أعلى مراتبه كما قال الشاعر:

يجود بالنفس إذ ضنَّ البخيل بها ... والجود بالنفس أقصى غاية الجود

الثانية: الجود بالرياسة، وهو ثاني مراتب الجود، فيحمل الجواد جوده على امتهان رياسته

---

(١) حلية الأولياء: ٣/ ١٦٣.

والجود بها، والإيثار في قضاء حاجات الملتمس.

الثالثة. الجود براحته ورفاهيته وإجمام نفسه فيجود بها تعبًا وكدًّا في مصلحة غيره، ومن هذا جود الإنسان بنومه ولذته لمسامره؛ كما قيل:

متيَّم بالندى لو قال سائله ... هب لي جميع كرى عينيك لم ينَمِ

الرابعة. الجود بالعلم وبذله، وهو من أعلى مراتب الجود، والجود به أفضل من الجود بالمال؛ لأن العلم أشرف من المال، ومن الجود به: أن تبذله لمن يسألك عنه بل تطرحه عليه طرحًا، ومن الجود بالعلم: أن السائل إذا سألك عن مسألة: استقصيت له جوابها جوابًا شافيًا لا يكون جوابك له بقدر ما تدفع به الضرورة؛ كما كان بعضهم يكتب في جواب الفتيا نعم أو لا مقتصرًا عليها، ولقد شاهدت من شيخ الإسلام **ابن تيمية** - قدس الله روحه- في ذلك أمرًا عجيبًا: كان إذا سئل عن مسألة حكمية ذكر في جوابها مذاهب الأئمة الأربعة إذا قدر، ومأخذ الخلاف، وترجيح القول الراجح، وذكر متعلقات المسألة التي ربما تكون أنفع للسائل من مسألته، فيكون فرحه بتلك المتعلقات واللوازم: أعظم من فرحه بمسألته، فمن جود الإنسان بالعلم: أنه لا يقتصر على مسألة السائل بل يذكر له نظائرها ومتعلقها ومأخذها بحيث يشفيه ويكفيه، وقد سأل الصحابة -رضي الله عنهم- النبي ﷺ عن المتوضئ بماء البحر فقال: «**هو الطهور ماؤه الحِلُّ ميتته**»، فأجابهم عن سؤالهم، وجاد عليهم بما لعلهم في بعض الأحيان إليه أحوج مما سألوه عنه.

الخامسة. الجود بالنفع بالجاه كالشفاعة والمشي مع الرجل إلى ذي سلطان ونحوه، وذلك زكاة الجاه المطالب بها العبد كما أن التعليم وبذل العلم زكاته.

السادسة. الجود بنفع البدن على اختلاف أنواعه كما قال: يصبح على كل سلامى من أحدكم صدقة كل يوم تطلع فيه الشمس، يعدل بين اثنين: صدقة، ويعين الرجل في دابته فيحمله عليها أو يرفع له عليها متاعه: صدقة، والكلمة الطيبة: صدقة، وبكل خطوة يمشيها الرجل إلى الصلاة: صدقة، ويميط

الأذى عن الطريق: صدقة.

السابعة: الجود بالعرض كجود **أبي ضمضم** من الصحابة ﷺ كان إذا أصبح قال: اللهم إنه لا مال لي أتصدق به على الناس وقد تصدقت عليهم بعرضي، فمن شتمني أو قذفني: فهو في حِلٍّ، فقال النبي ﷺ: «**من يستطيع منكم أن يكون كأبي ضمضم**»[(١)]، وفي هذا الجود من سلامة الصدر وراحة القلب والتخلص من معاداة الخلق ما فيه.

الثامنة: الجود بالصبر والاحتمال والإغضاء، وهذه مرتبة شريفة من مراتبه، وهي أنفع لصاحبها من الجود بالمال وأعز له وأنصر وأملك لنفسه وأشرف لها، ولا يقدر عليها إلا النفوس الكبار، فمن صعب عليه الجود بماله فعليه بهذا الجود، فإنه يجتني ثمرة عواقبه الحميدة في الدنيا قبل الآخرة، وهذا جود الفتوة. قال تعالى: ﴿ **وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ** ﴾ [المائدة: ٤٥]، وفي هذا الجود قال تعالى: ﴿ **وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ** ﴾ [الشورى: ٤٠] فذكر المقامات الثلاثة في هذه الآية: مقام العدل وأذِن فيه، ومقام الفضل ونَدَب إليه، ومقام الظلم وحَرَّمه.

التاسعة: الجود بالخُلُق والبشر والبسطة، وهو فوق الجود بالصبر والاحتمال والعفو، وهو الذي بلغ بصاحبه درجة الصائم القائم، وهو أثقل ما يوضع في الميزان. قال النبي ﷺ: «**لا تحقرنَّ من المعروف شيئًا، ولو أن تلقى أخاك ووجهك منبسط إليه**»، وفي هذا الجود من المنافع والمسار وأنواع المصالح ما فيه، والعبد لا يمكنه أن يسع الناس بحاله، ويمكنه أن يسعهم بخلقه واحتماله.

العاشرة: الجود بتركه ما في أيدي الناس عليهم فلا يلتفت إليه، ولا يستشرف له بقلبه، ولا يتعرض له بحاله ولا لسانه، وهذا الذي قال **عبدالله بن المبارك**: إنه أفضل

---

(١) ضعيف: رواه أبو داود عن أنس كما في ضعيف الجامع رقم: ٢١٨٥، وهو فعل علي بن الحسين الذي كان إذا خرج من بيته قال: «اللهم إني أتصدق اليوم أو أهب عرضي اليوم من استحله». البداية والنهاية ٩/ ١٠٧.



من سخاء النفس بالبذل، فلسان حال القدر يقول للفقير الجواد: وإن لم أُعطك ما تجود به على الناس، فجُد عليهم بزهدك في أموالهم وما في أيديهم تفضل عليهم وتزاحمهم في الجود، وتنفرد عنهم بالراحة»(١).

وإذا أراد منفق أن يسبق منفقًا فلينفق عشرة نفقات من هذه العشرة ليسبق من حقق سبعة أو خمسة أو أقل من ذلك؛ وبذا يتضاعف أثر الصدقة إلى ما لا يتصوره عقل مريض أو طبيب.

قال عبيد الله بن عباس لأخيه: إن أفضل العطية ما أعطيت الرجل قبل المسألة، فإذا سألك فإنما تعطيه ثمن وجهه حين بذله إليك. (٢)

---

(١) مدارج السالكين ٢/ ٢٩٣-٢٩٦ بتصرف.
(٢) قضاء الجوائح، ١/ ٤٩.



رابعًا: استراحة القلب

وقبل البدء في الرحلة العلاجية مع هذه الجرعة الإلهية، سأل مريضنا عن فضل الذكر وسر قوته وبركة مفعوله حتى إذا ما فهم وأيقن بها أقبل بكل حواسه عليه، فوافيناه بالآتي:

1 هدف كل العبادات وثمرتها:

ما شُرعت العبادات كل العبادات إلا لإقامة ذكر الله عز وجل، ففي الصلاة يقول الله عز وجل: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴾ [طه: ١٤].

وفي الصيام قال ربنا: ﴿ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وفي الزكاة قرن الله الزكاة بالصلاة وهي من الذكر في قوله: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٣].

وفي الحج قال: ﴿ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖ ﴾ [البقرة: ٢٠٣]، بل جعل النبي ﷺ الذكر أفضل أعمال الحج، فقال عليه الصلاة والسلام: «**أفضل الحج العَجُّ و الثَّجُّ**»[(١)]، والعجُّ هو رفع الصوت بالتكبير، والثَّجُّ هو إراقة الدم.

بل وجعل الله ذكره ثمرة العبادات وغايتها ومنتهاها، ففي الصلاة -مثلاً- قال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ﴾[العنكبوت: ٤٥]، وقال: ﴿ فَإِذَا قَضَيۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمۡ ﴾ [النساء: ١٠٣].

وفي صلاة الجمعة جعل نهاية الصلاة ذكر فقال: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي

---

(١) حسن: رواه الترمذي عن ابن عمر وابن ماجة والحاكم عن أبي بكر كما في ص ج ص حديث رقم: ١١٠١.

﴿ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠].

وفي الحج قال: ﴿فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ﴾ [البقرة: ١٩٨]، وقد خُتِم به الحج كما جاء في قوله: ﴿فَإِذَا قَضَيۡتُم مَّنَٰسِكَكُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكۡرِكُمۡ ءَابَآءَكُمۡ أَوۡ أَشَدَّ ذِكۡرٗاۗ﴾ [البقرة: ٢٠٠].

بل وختم به الحياة، فإذا كان آخر كلام العبد ذِكْرًا دخل الجنة، وهل أرسل الله رسوله إلا من أجل ذكر الله: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٨ لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾ [الفتح: ٨، ٩]، بل وحتى الجهاد في سبيل الله غايته ذكر الله، وهل جاهد من جاهد إلا لإعلاء كلمة الله؟!

2 أمارة القلب الحي:

حدّد **ابن القيم** ستة مشاهد لا يشهدها إلا القلب الحي السليم، وكان للذكر فيها نصيب الأسد وهو النصف أي ثلاثة مشاهد من أصل ستة حيث جعل من علامات صحة القلب: أن لا يفتر العبد عن ذكر ربه، وأنه إذا فاته وِرْده وجد لفواته ألـمًا أعظم من تألم الحريص على فوات ماله وفقده، وأنه إذا دخل في الصلاة ذهب عنه همُّه وغمُّه بالدنيا واشتد عليه خروجه منها(١).

وما كان **ابن القيم** بقوله السابق غير شارح لقول النبي ﷺ عن **أبي موسى** ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر مثل الحي والميت**».

فمن أراد اليوم معرفة موقع قلبه من الحياة والموت، فلينظر كيف ذكره لله ومواظبته عليه، وليعلم أن القلب الحي إذا انقطع عن ذكر ربه فقد حرم نفسه أسباب حياته، وهو ميت لا محالة. قال **ابن القيِّم**: «وسمعت شيخ الاسلام **ابن تيمية** – قدَّس الله تعالى روحه– يقول: الذكر للقلب مثل الماء للسمك، فكيف يكون حال السمك إذا فارق الماء؟!»(٢).

---

(١) وبقية العلامات التي ذكرها **ابن القيم**: ومن علامات صحته: أنه يشتاق إلى الخدمة كما يشتاق الجائع إلى الطعام والشراب، ومن علامات صحته: أن يكون همه واحدًا وأن يكون في الله، ومن علامات صحته: أن يكون أشح بوقته أن يذهب ضائعًا من أشد الناس شحا بماله.

(٢) الوابل الصيب ص ٦٣.

وفي المقابل بشارة وبارقة أمل، فإن القلب الميِّت إذا عاد إلى ذكر ربه وداوم عليه عادت فيه الحياة ودبَّت فيه الروح وقام من قبره.

3 نسيان الذكر هلاك:

عن أبان بن عثمان يقول: سمعت عثمان بن عفان ﷺ يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«من قال بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم ثلاث مرات؛ لم تُصبه فجأة بلاء حتى يصبح، ومن قالها حين يصبح ثلاث مرات لم تُصِبه فجأة بلاء حتى يمسي»**[١]، فأصاب أبان بن عثمان الفالج، فجعل الرجل الذي سمع منه الحديث ينظر إليه، فقال له: ما لك تنظر إلي؛ فوالله ما كذبت على عثمان ولا كذب عثمان على النبي ﷺ، ولكن اليوم الذي أصابني فيه ما أصابني غضبتُ فنسيتُ أن أقولها، وفي رواية: ولكني لم أقله يومئذ ليُمضيَ اللهُ عليَّ قدرَه.

وإذا كان هذا الصحابي نسي ذكرًا واحدًا فأصابه ما أصابه في دنياه، فكيف بمن نسي ذكر الله على الدوام؟! ترى ماذا سيصيبه في دنياه وأخراه؟! ألم تر هلاكه في الدنيا العاجلة إما بمصائب نازلة، أو بنعم متتالية تستدرجه نحو خاتمة سيئة، فضلاً عما ينتظره في آخرته من دموع وحسرات وعذاب وزفرات، حتى وإن دخل الجنة ناله بعضًا من هذا الألم، فقد قال النبي ﷺ: **«ليس يتحسَّر أهل الجنة على شيء إلا على ساعة مرَّت بهم لم يذكروا الله عز و جل فيها»**[٢].

4 أعنف معارك الشيطان:

إن الذكر هو الجرعة الوقائية والدفاع الحصين التي تُرهِب به عدو الله وتُبقي الشيطان بعيدًا يخاف أن يقترب فيحترق أو يجتاز حدود قلبك فينتحر، فعن **الحارث الأشعري** ﷺ أن النبي ﷺ قال:

«إن الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بها ويأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها وإنه كاد أن يبطيء بها. قال عيسى: إن الله أمرك بخمس كلمات لتعمل بها وتأمر بني إسرائيل

---

(١) صحيح: رواه أبوداود عن أبان بن عفان كما في صحيح أبي داود رقم: ٤٢٤٤.
(٢) صحيح: رواه الطبراني والبيهقي في الشعب عن معاذ كما في ص ج ص رقم: ٤٢٤٤.



أن يعملوا بها، فإما أن تأمرهم وإما أن آمرهم، فقال يحيى: أخشى إن سبقتني بها أن يُخسف بي أو أُعذَّب، فجمع الناس في بيت المقدس، فامتلأ وقعدوا على الشُّرُف.

فقال: إن الله أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن وآمركم أن تعملوا بهن: وأمركم أن تذكروا الله، فإن مثل ذلك كمثل رجل خرج العدو في إثره سراعًا حتى إذا أتى على حصن حصين، فأحرز نفسه منهم، كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله»(١).

لذا لابد أن تعلم أن الشيطان سيبذل قصارى جهده في سبيل أن يحول بينك وبين هذا الدواء الناجع والسد المنيع، حتى يحرمك من الخير، فعن **أبي الجوزاء** قال: «والذي نفسي بيده إن الشيطان ليلزم بالقلب حتى ما يستطيع صاحبه ذكر الله، ألا ترونهم في المجالس يأتي على أحدهم عامة يومه لا يذكر الله إلا حالفًا، والذي نفس **أبي الجوزاء** بيده: ماله في القلب طرد إلا قول لا إله إلا الله، ثم قرأ: ﴿ **وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا** ﴾ [الإسراء: ٤٦]»(٢).

وقد بيَّن الله أن تسليط الشيطان على العبد قد يكون عقوبة له على تركه الذكر، فقال تعالى: ﴿ **وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَـٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَـٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ** ﴾ [الزخرف: ٣٦]

فعوقِب تارك الذكر والمُعرِض عنه بأن سُلسِل مع عدوه اللدود في قيد واحد، ليؤذيه ويغويه، ويضله ولا يهديه، ظلمة من بعد ظلمة، وعقوبة من بعدها عقوبة، فإن سألت: كيف يقيِّض الله لهم قرناء من الشياطين وقد نهاهم عن اتباع خطواتهم؟! قلت: معناه أنه خذلهم ومنع عنهم التوفيق لصدودهم عن الذكر، فلم يتبق لهم من قرناء سوى الشياطين.

5 مذيب القسوة الفعال:

من أكثر الأمراض شيوعًا في هذا العصر: قسوة القلب، فهو مرض العصر بلا منازع، ولم يوصف لهذه القسوة الجاثمة على الصدور مثل الذكر، فهو أنجع دواء في إذابة قسوة القلب وحالة الجدب الروحي المنتشرة اليوم كالوباء، قسوة ولا ذكر لها، ولذا لما قال رجل **للحسن**:

---

(١) صحيح: رواه أحمد والترمذي والنسائي عن الحارث بن الحارث الأشعري كما في صحيح الترغيب والترهيب رقم: ٥٥٢.
(٢) حلية الأولياء ٣/ ٨٠.

يا أبا سعيد.. أشكو إليك قسوة قلبي. قال: أذِبْه بالذكر، وهذا لأن القلب كلما اشتدت به الغفلة اشتدت به القسوة، فإذا ذكر الله -تعالى- ذابت تلك القسوة كما يذوب الرصاص في النار.

الذكر شفاء القلب ودواؤه، والغفلة مرضه وداؤه، والقلوب مريضة وتتعطَّش إلى جرعة واحدة من ذكر.

إذا مرضنا تداوينا بذكركم ونترك الذكر أحيانًا فننتكس

وهو ما علَّمته **أم الدرداء لعون بن عبدالله** الذي قال: «كنا نأتي **أم الدرداء**، فنذكر الله عندها. قال: فاتكأت ذات يوم، فقيل لها: لعلنا أن نكون قد أمللناك يا **أم الدرداء**، فجلست فقالت: أزعمتم أنكم قد أمللتموني!! قد طلبت العبادة بكل شيء، فما وجدت شيئًا أشفى لصدري ولا أحرى أن أدرك ما أريد من مجالسة أهل الذكر»[1].

(١) حلية الأولياء ٤/ ٢٤١.



مضاعفات القوة

ومما يضاعف مفعول الذكر ويزيد من أثره في القلب:

1 التنويع:

لأن النفس تملُّ المداومة على نوع واحد من الذكر ولو كان طعمه كالعسل، ومن فضل الله علينا أن جعل الذكر ألوانًا وأنواعًا. قال ابن القيِّم:

«وهو أنواع:

- الأول: ذكره بأسمائه وصفاته والثناء عليه بها.
- الثاني: تسبيحه وتحميده وتكبيره وتهليله وتمجيده.
- الثالث: ذكره بأحكامه وأوامره ونواهيه، وهو ذكر العالِم[1]؛ بل الأنواع الثلاثة هي ذكرهم لربهم.
- ومن أفضل ذكره: ذكره بكلامه. قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه: ١٢٤]، فذكره هنا كلامه الذي أنزله على رسوله، وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨].
- ومن ذكره سبحانه: دعاؤه واستغفاره والتضرع إليه.

فهذه خمسة أنواع من الذكر»[2].

إن هذا التنويع ما هو إلا قطف لأزهار من بساتين شتى، وتقلب بين موائد للرحمن عامرة وأغذية روحية عامرة، وحين ننظر إلى النبي ﷺ وذكره لله نرى أنه كان أروع نموذج عملي

---

(١) قال أبو هزان: «قلت لعطاء: ما مجلس الذكر؟ قال: مجلس الحلال والحرام وكيف تصلي وكيف تصوم وكيف تنكح وكيف تطلق وتبيع وتشتري». حلية الأولياء ٣/ ٣١٣.

(٢) جلاء الأفهام ١/ ٤٥١.

على المحافظة على كل أنواع الذكر بل وأعظم الذاكرين على الإطلاق، فقد «كان النبي أكمل الخلق ذكرًا لله عز وجل، بل كان كلامه كله في ذكر الله وما والاه، وكان أمره ونهيه وتشريعه للأمة ذكرًا منه لله، وإخباره عن أسماء الرب وصفاته وأحكامه وأفعاله ووعده ووعيده ذكرًا منه له، وثناؤه عليه بآلائه وتمجيده وحمده وتسبيحه ذكرًا منه له، وسؤاله ودعاؤه إياه ورغبته ورهبته ذكرا منه، وسكوته وصمته ذكرًا منه له بقلبه، فكان ذاكرًا لله في كل أحيانه وعلى جميع أحواله، وكان ذكره لله يجري مع أنفاسه قائمًا وقاعدًا وعلى جنبه وفي مشيه وركوبه ومسيرة ونزوله وظعنه وإقامته»(١).

وكن ذاكرًا لله في كل حالةٍ ... فليس لذكر الله وقتٌ مُقيَّدُ
فذكر إله العرش سرًّا ومُعْلِنا ... يُزيل العناء والهمَّ عنك ويطردُ
ويجلب للخيرات دنيا وآجلا ... وإن يأتك الوسواس يومًا يشرُدُ
فقد أخبر المختار يومًا لصحبه ... بأن كثير الذكر في السبق المُفرَّدُ

2 الذكر الكثير:

لم يفرض الله على عباده فريضة إلا جعل لها حدًّا معلومًا، ثم عذر أهلها في حال عدم استطاعتهم القيام بها إلا الذكر، فإن الله لم يجعل له حدًّا ينتهي إليه، ولم يعذر أحدًا في تركه. قال: ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ﴾ [النساء: ١٠٣]. قال ابن عباس رضي الله عنهما: «أي بالليل والنهار في البر والبحر، والسفر والحضر، والغنى والفقر، والمرض والصحة، والسر والعلانية»(٢).

لسان الحال: من صبر على كثرة ذكرنا؛ وصل إلى لذة قربنا.

فكيف لا تكثر ذكره؟! وهو كلما ذكرته أفادك، وكلما أطعته أعانك، وكلما خدمته أحيا فؤادك.

---

(١) زاد المعاد ٢/ ٣٣٢.
(٢) الإحياء ١/ ٢٩٤.

أخي.. **الذكر الكثير هو الذي يزين كل مكان ويعطّر كل أرض بقعة يظهر فيها**، وهي وصية أبي مسلم الخولاني حين أتاه رجل وقال له: أوصني يا أبا مسلم. قال: اذكر الله تحت كل شجرة وحجر. قال: زدني، فقال: اذكر الله حتى يحسبك الناس من ذكر الله مجنونًا. قال: فكان أبو مسلم يكثر ذكر الله، فرآه رجل يذكر الله، فقال: أمجنون صاحبكم هذا؟! فسمعه أبو مسلم فقال: «ليس هذا بالجنون يا ابن أخي، ولكن هذا دواء الجنون»[١].

الذكر الكثير هو الذي يملأ الوقت ويشغل اللسان حتى أثناء الأعمال الدنيوية والعادات اليومية والأوقات البينية. قال **إسحاق بن هانئ**: «تعشَّيتُ مرة أنا وأبو عبد الله وقرابة لنا، فجعلنا نتكلم وهو يأكل، وجعل يمسح عند لقمة بيده بالمنديل، وجعل يقول عند كل لقمة: الحمد لله وبسم الله، ثم قال لي: أكل وحمد خيرٌ من أكل وصمت»[٢].

الذكر الكثير هو الذي لا يُقعِد عنه أي ظرف ولو كان شديد الوطأة، وهل أشد من الجهاد؟! قال **محمد بن كعب القرظي**: «لو رُخِّص لأحد في ترك الذكر، لرُخِّص لزكريا عليه السلام. قال تعالى: ﴿ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ [آل عمران: ٤١]، ولو رخِّص لأحد في ترك الذكر لرخِّص للذين يقاتلون في سبيل الله. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥]»[٣].

والذكر الكثير يؤدي إلى معايشة القلب الرب، ومراقبته في كل فعل، حتى لا يقطع العبد أمرًا دونه، ولا يخطو خطوة في غير رضاه؛ لأن الذكر كالغيث ينزل من السماء فتصبح الأرض مخضرة، وكذلك القلب ينزل عليه الذكر فيخضر بعد جدبه، ويبقى أثره حتى وإن سكت اللسان، مما يؤكِّد المعنى اللغوي لكلمة الذكر والذي قاله **الفيروز آبادي** في القاموس:

---

(١) شعب الإيمان ١/ ٤٥٥.
(٢) بدائع الفوائد ٤/ ١١٩.
(٣) الحلية ٣/ ٢١٥.

«الذكر بالكسر: الحفظ للشيء»(١).

وبهذا تعلم أن حقيقة الذكر: الحفظ والتذكر والاستحضار، وعندها فقط تفهم ترجمة معاني كلمات ذي النون، وتتفهَّم مشاعره حين واجهك وصارحك قائلا:

«ويحك!! مَن ذَكَر الله على حقيقة ذكره نسي في جنب الله كل شيء، ومن نسي في جنب الله كل شيء حفظ الله عليه كل شيء، وكان له عِوضا من كل شيء».

وعندما تصل إلى هذه الدرجة الرفيعة والمرتبة العالية يسهل عليك وداع الحياة ذاكرا، فتموت على ما اعتدته في حياتك مكافأة لك من ربك على جميل صنعك ودوام ذكرك، وهو ما حدث مع الإمام الجنيد الذي قيل له عند احتضاره: قل لا إله إلا الله، فقال: «ما نسيتُه حتى أذكره»(٢).

3 لا تطع غافلاً:

قال تعالى: ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ [الكهف: ٢٨]

وأصل الإغفال: إيجاد الغفلة وهي الذهول عن تذكر الشيء، وأريد بها هنا غفلة من نوع خاص، وهي الغفلة الدائمة الشاملة، وجعلت الآية الإغفال من الله تعالى كناية عن كونه في أصل خِلقة تلك القلوب وليس طارئًا عليها، فهو طبع ملازم، والطبع لا يتخلف، وفي هذه الحال يكون مجرد النظر إلى هؤلاء الغافلين هذه الغفلة سببًا لحرمان الذاكر من حلاوة الذكر؛ لذا حذَّرنا الفضيل ابن عياض بلهجة صارمة ولو من نظرة عابرة إلى مواكب الغافلين فقال: «لا تنظروا إلى مراكبهم، فإن النظر إليها يطفئ نور الإنكار عليهم»(٣).

---

(١) القاموس المحيط ١/ ٥٠٧.
(٢) إحياء علوم الدين ٧/ ١١٧.
(٣) الورع ١/ ٦٧، ٦٨.

هي خطة شيطانية خبيثة إذن يسلك بها الشيطان طريقه نحو قلوب الذاكرين وفق تخطيط محكم دقيق يمحو الذكر ليستبدله بالغفلة، وتبدأ خطته بالأمر رقم (١) وهو:

زرع الغفلة في قلب عبد من العباد.

ومن بعده يأتي الأمر رقم (٢)، والأمر رقم (٣) في الخطة، ويتمثلان في قول الشيطان لجنده:

«واقرنوا بين الغافلَيْن (٢)، ثم استعينوا بهما على الذاكر (٣)، ولا يغلب واحدٌ خمسة، فإن مع الغافلين شيطانين صاروا أربعة، وشيطان الذاكر معهم، وإذا رأيتم جماعة مجتمعين علي ما يضركم من ذكر الله ومذاكرة أمره ونهيه ودينه ولم تقدروا على تفريقهم؛ فاستعينوا عليهم ببني جنسهم من الإنس البطالين، فقرِّبوهم منهم، وشوِّشوا عليهم بهم»(١).

فإن ابتُليت بمثل هؤلاء فلك أن تخرج من هذا الفخ بأن تقلِّد **ابن الجوزي** حين قال:

«أعوذ بالله من صحبة البطالين، لقد رأيت خلقًا كثيرًا يجرون معي فيما قد اعتاده الناس من كثرة الزيارة، ويسمون ذلك التردد خدمة ويطلبون الجلوس، ويُجرون فيه أحاديث الناس، وما لا يعني وما يتخلله: غيبة، وهذا شيء يفعله في زماننا كثير من الناس، وربما طلبه المزور وتشوق إليه، واستوحش من الوحدة، وخصوصا في أيام التهاني والأعياد، فتراهم يمشي بعضهم إلى بعض، ولا يقتصرون على الهناء والسلام بل يمزجون ذلك بما ذكرته من تضييع الزمان، فلما رأيت أن الزمان أشرف شيء، والواجب انتهاؤه بفعل الخير كرهت ذلك، وبقيت مهمومًا بين أمرين:

إن أنكرتُ عليهم وقعت وحشة، وإن تقبَّلتُه منهم ضاع الزمان، فصرت أدافع اللقاء جهدي، فإذا غلب قصَّرت في الكلام لأتعجَّل الفراق، ثم أعددت أعمالاً تمنع من المحادثة لأوقات لقائهم لئلا يمضي الزمان فارغًا، فجعلت من المستعد للقائهم قطع الكاغد وبري القلام وحزم الدفاتر، فإن هذه الأشياء لا بد منها، ولا تحتاج إلى فكر وحضور قلب، فأرصدتها لأوقات زيارتهم لئلا يضيع شيء من وقتي»(٢).

(١) الجواب الكافي ص ٧٠.
(٢) صيد الخاطر ص ٢٥٥ بتصرف.

4 بركة المضاعفات النبوية:

قال رسول الله ﷺ:

«ألا أدُلك على ما هو أكثر من ذكرك الله الليل مع النهار؟ تقول: الحمد لله عدد ما خلق، الحمد لله ملء ما خلق، الحمد لله عدد ما في السماوات وما في الأرض، الحمد لله عدد ما أحصى كتابه، والحمد لله على ما أحصى كتابه، والحمد لله عدد كل شيء، والحمد لله ملء كل شيء، وتسبِّح الله مثلهن، تَعلَّمهن، وعلِّمهن عقِبك من بعدك»(١).

ولاشك أن أمثال هذه الأذكار تجمع بين البركة النبوية إضافة إلى المضاعفة الربانية؛ لذا يتضاعف الأثر في صحيفة الأعمال ثوابًا، وفي شفاء القلوب نورًا واهتداء.

5 سباعية الذكر الرائعة:

المذكور واحد لكن الذكر مختلف، وما بين درجات الذاكرين تفاوت وتباين كما بين السماء والأرض، فكيف يصل الذاكر إلى أعلى الدرجات ويسبق غيره إلى أسماها؟!

قال **ابن الجوزي** في كلام عُجِن لفظه بمسك معانيه ففاح نسيمه وعبق عبيره حتى تعلق به الرواة وسارت به الركبان:

«أول ما يحتاج إليه العازم على ذكر الله: التفرغ من الشواغل الظاهرة، ثم تسكين جوارح البدن عن الحركات الشاغلة، ثم قطع الفكر عن قلبه، ثم إشعار نفسه عظمة ما قد عزم عليه من ذكر ربه، ثم استفراغ الوسع في تجويد الذكر، ثم إطالة المجلس ما أمكنه إطالته، ثم التحفظ بالحالة التي استفادها قلبه من الرقة باجتناب الملهيات من حين يقوم عن الذكر إلى أن يعود إليه، فهذه الشرائط السبع من راعاها حق الرعاية بلغ من مراد الذاكرين أقصى الغاية»(٢).

وإليك تفصيل هذه الوصية النادرة واحدة واحدة:

---

(١) صحيح: رواه الطبراني عن أبي أمامة كما في ص ج ص رقم: ٢٦١٥.

(٢) التذكرة في الوعظ ص ١١٩.



أ- التفرغ عن الشواغل الظاهرة:

فلا تذكر الله في مواضع الضوضاء والزحام التي تشوش على القلب فيتشتت في أودية كثيرة يسترق السمع إليها، ويا حبذا لو اخترت أوقات السكون الطبيعي في جوف الليل حين يصغي القلب إلى الخير دون أن يعترض طريقه أحد، ومن هنا تفهم لماذا أُمرنا بذكر الله في الثلث الأخير من الليل، ونفهم لماذا كان الإسراء ليلاً، ونفهم سِرَّ نهي النبي ﷺ أن يجهر أحدنا بصلاته على صلاة أخيه.

ومن الشواغل الظاهرة كذلك ما يشوِّش على البصر كذلك فيزيغ وراء ما يلفت الأعناق ويخلب العقول، وعلى المرء أن يجتنب الذكر في هذه الأماكن ما استطاع، يقتدي في ذلك برسول الله ﷺ، فعن **أنس** ﷺ قال: كان قِرام **لعائشة** سترت به جانب بيتها فقال النبي ﷺ: «**أميطي عنا قِرامك هذا، فإنه لا تزال تصاويره تعرض لي في صلاتي**»[(١)].

والقِرام: ستر رقيق من صوف ذو ألوان ونقوش، وقد شغل النبي ﷺ عن صلاته فأمر بإزالته على الفور، بل ولما صلى في خميصة أهداها له **أبو جهم**، والخميصة: ثوب يلفت البصر بما فيه من زخارف وعلامات، ردَّها وقال: «**اذهبوا بهذه الخميصة إلى أبي جهم بن حذيفة، وأتوني بأَنْبجَانِيَّتِه فإنها ألهتني آنفًا في صلاتي**»[(٢)].

أي لما شغله الثوب عن حضور قلبه في الذكر رده على صاحبه، وقوله: «**وأتوني بأَنْبجَانِيَّتِه**»: هي ثوب بلا أعلام، وإنما طلبها من **أبي جهم** وهو من أهدى إليه الخميصة أولاً؛ لأن النبي ﷺ رقيق المشاعر؛ لم يُرِد أن يُؤَثِّر ردُّ هديته عليه في قلبه. قال **الطيبي**:

«فيه إيذان بأن للصور والأشياء الظاهرة تأثيرًا في القلوب الطاهرة والنفوس الزكية يعني فضلا عمن دونها»[(٣)].

ب- تسكين جوارح البدن عن الحركات الشاغلة:

فإن الجوارح سواقي إلى القلب، وأدنى حركة للجارحة تؤثر على القلب ولاشك سلبًا

---

(١) صحيح: رواه البخاري وأحمد عن أنس كما في ص ج ص رقم: ١٤٠٥.
(٢) صحيح: رواه الشيخان والنسائي عن عائشة كما في ص ج ص رقم: ٨٦٤.
(٣) فتح الباري ١/ ٤٨٣.

أو إيجابًا، فلتخشع وقت الذكر ولتكن ساكنًا سكون الطير، ولتقتد في ذلك بالصحابة - رضوان الله عليهم- الذين كانوا إذا سمعوا القرآن فكأن على رؤوسهم الطير، وكن كالليث إذا أراد الصيد؛ إذ ليس مع الجلبة قنص، ولا كالسكون معين على حضور القلب وتفريغ الباطن وتهيئته لتلقي بذور الخير وقطف ثمرات الذكر.

ج- قطع الفكر عن قلبه:

والمقصود به تهيؤ القلب -والقلب أولاً وقبل كل شيء- قبل الدخول على من يطلع على السرائر والأفئدة، فتستحي أن تدخل عليه وقلبك مشغول مع غيره، أو تنطق بكلمات الثناء عليه وقلبك يثني على سواه، أو تتعوَّذ خوفا من عذابه وقلبك خائف من عباده، أو تحمده وتشكره بلسانك والقلب جاحد ناكر لا يأمر الجوارح بشكر أو معروف.

ولقطع الفكر الدنيوي عن القلب طريقتان ذكرهما **ابن القيم** فاسمع كلماته دواء ناجعًا شافيًا معافيًا، وكأنها قميص يوسف أُلقي على أجفان يعقوب، فأبصر كل قلب كان قد عمي. يقول رحمه الله:

«من الذاكرين من يبتدئ بذكر اللسان وإن كان على غفلة، ثم لا يزال فيه حتى يحضر قلبه فيتواطآ على الذكر، ومنهم من لا يرى ذلك ولا يبتدئ على غفلة، بل يسكن حتى يحضر قلبه فيشرع في الذكر بقلبه، فإذا قوى استتبع لسانه فتواطآ جميعا، فالأول ينتقل الذكر من لسانه إلى قلبه، والثاني ينتقل من قلبه إلى لسانه من غير أن يخلو قلبه منه، بل يسكن أولاً حتى يحس بظهور الناطق فيه، فإذا أحس بذلك نطق قلبه، ثم انتقل النطق القلبي إلى الذكر اللساني، ثم يستغرق في ذلك حتى يجد كل شيء منه ذاكرًا، وأفضل الذكر وأنفعه ما واطأ فيه القلب اللسان، وكان من الأذكار النبوية، وشهد الذاكر معانيه ومقاصده»[1].

ليس المطلوب أي ذكر إذن؛ بل ذكرٌ خاص ينبع من القلب ليصل إلى الرب، ويكون معه جمع هَمّ، وتطليق دنيا، وخلوة ساعة، وسِحْر سَحَر، أخي.. إذا غاب قلبك تاهت رسائلك في الطريق، وإذا حضر وصلت أسرع من البرق.

(١) الفوائد ص ١٩٢ - ط دار الكتب العلمية.



د- إشعار نفسه عظمة ما قد عزم عليه من ذكر ربه:

لقد أورد **ابن القيِّم** في كتابه القيِّم الوابل الصيِّب من الكلم الطيِّب أكثر من مائة فائدة للذكر، من تقلب فيها قذف الله في قلبه نور التعظيم لما بادر إليه من ذكره، لكني اخترت منها اثنتين فحسب:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ **فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ** ﴾ [البقرة: ١٥٢]

ولو لم يكن من فضائل الذكر غير هذه لكفتنا فضلاً وشرفًا وفاضت علينا، إن ذكر الله لنا إن ذكرناه هو ذكره لنا برحمته وفضله، وذكره لنا بتأييده ونصره، وذكره لنا بمغفرته وستره، وذكره لنا بتوفيقه وبِرِّه، وذكره لنا واحدًا واحدًا بأسمائنا في الملأ الأعلى، وفي المقابل إذا نسي أحد ذكر الله نسيه الله، ونسيان الله له: إهماله له، وطرده من رحمته، وحرمانه من بركته، فلما ترك ذكر الله تركه الله في عذاب الدنيا بتعسير أمره، وفي الآخرة بتعذيب روحه وبدنه، فما أقبح نسيانك لذكر من لا يغفل لحظة واحدة عن بِرِّك.

والثانية: قوله تعالى: ﴿ **وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ** ﴾ [العنكبوت: ٤٥]

ومعنى أكبر أي ذكره لكم أكبر من ذكركم إياه.

ومن معاني أكبر أي أكبر من كل عبادة أخرى شرفًا وقدرًا وقربًا إلى الله.

ومن معانيها أي أكبر مما تتصورون أو يخطر ببالكم أو تحلمون.

ومن معانيها أي أكبر من دنياكم التي عليها تنافسون بكل ما عليها من نعيم لأنه يورث النعيم في الآخرة ولا مقارنة.

ومن معانيها أي أكبر من أن تصمد أمام الذكر أية فاحشة أو منكر، فالذكر إذا وقع سحق ومحق كل خطيئة ومعصية، ولأنه أكبر فما حسن عمر أحد ولا تزيَّنت حياته بأفضل من ذكره لله وتسبيحه وتهليله، فعن **عبد الله بن شداد** ﷺ أن نفرا من بني عذرة ثلاثة أتوا النبي ﷺ فأسلموا. قال: فقال النبي ﷺ: من يكفيهم؟ قال **طلحة**: أنا. قال: فكانوا عند **طلحة**، فبعث النبي ﷺ بعثا، فخرج فيه أحدهم فاستشهد، ثم بعث بعثا فخرج فيه آخر فاستشهد، ثم مات الثالث على فراشه. قال **طلحة**: فرأيتُ هؤلاء الثلاثة الذين كانوا عندي في الجنة، فرأيتُ الميت على فراشه أمامهم، ورأيت الذي استشهد أخيرًا يليه، ورأيت أولهم آخرهم. قال: فداخلني

من ذلك فأتيت النبي ﷺ فذكرت ذلك له، فقال: «**وما أنكرت من ذلك؛ ليس أحد أفضل عند الله -عز وجل- من مؤمن يُعمَّر في الإسلام لتسبيحه وتكبيره وتهليله**»(١).

هـ- استفراغ الوسع في تجويد الذكر:

إن تحسين الصوت بالذكر، وإعطاء كل حرف حقه، والتغني به، وقراءته بحزن، كل هذا يجعل للذكر طعمًا آخر وأثرًا أوكد، ومن هنا تفهم لماذا أحب رسول الله ﷺ أن يسمع القرآن من غيره، وهو **عبد الله بن مسعود** ﷺ صاحب الصوت الندي الشجي الذي أبكى رسول الله ﷺ(٢) حين قرأ عليه صدر سورة النساء؛ لذا مدحه النبي ﷺ بقوله: «**من أحب أن يقرأ القرآن غضًّا كما أنزل، فليقرأه على قراءة ابن أمِّ عبد**»(٣).

و- إطالة المجلس ما أمكنه إطالته:

قلما تجتمع الجودة مع السرعة، وجرِّب أن تعطي اثنين كتابين، وتطلب إليهما أن ينسخا بيديهما عشر صفحات كلٌّ على حدة؛ أحدهما في خمس دقائق والآخر في ساعة من الزمن، وقارن بين النسختين، وستجد ولا شك أن صاحب الزمن الأطول كتابته أجود وخطه أجمل ولو كان سيئ الخط في الأصل، لأن الوقت في صالحه، والآخر متعجِّل ولذا خطه غير مقروء ولا يكاد يُفهم.

فافهم ما وراء المثل، واعلم أن مجالس البشر تختلف عن مجالس رب البشر؛ مجالس البشر إذا طال فيها المجلس كان للشيطان فيها نصيب، ومجالس رب البشر كلما طالت كلما ابتعد الشيطان عنها ولم يعد له فيها أدنى نصيب.

---

(١) حسن: رواه الضياء في المختارة عن عبد الله بن شداد، وحسنه الألباني في الصحيحة رقم: ٦٥٤.

(٢) الآية التي أبكت رسول الله ﷺ هي: ﴿**فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا**﴾. قال ابن الجوزي: «بكاؤه عند هذه الآية الكريمة لأنه لا بد من أداء الشهادة، والحكم على المشهود عليه إنما يكون بقول الشاهد، فلما كان هو الشاهد وهو الشافع بكى على المُفرِّطين منهم.
الثاني: أنه بكى لعظم ما تضمنته هذه الآية الكريمة من هول المطلع وشدة الأمر؛ إذ يؤتي بالأنبياء عليهم السلام شهداء على أممهم بالتصديق والتكذيب.
الثالث: أنه بكى فرحًا لقبول شهادته أمته يوم القيامة وقبول تزكيته لهم في ذلك اليوم العظيم». عمدة القاري ١٨/ ١٧٤.

(٣) حسن: كما في السلسلة الصحيحة ٥/ ٣٧٩.

ز- التحفظ بالحالة التي استفادها قلبه:

وذلك بصيانة النفس بعد الفراغ من مجالس الذِّكر عن الوقوع في الحرام، والإغراق في اللهو، والإسراف في المباح، وحتى في حالات عدم الذكر عليك استحضار نية التقوي بالمباح على ذكر الله وطاعته، حتى موعد الذكر القادم، فيكون حال روحك إما أن تتصل أو تتهيأ كي تتصل.



إنها قوة الصبر لكن.. ما هو الصبر؟!

قال أبو قدامة:

«فالصبر عبارة عن ثبات باعث الدين في مقابل باعث الشهوات، فإن ثبت حتى قهر الشهوة التحق بالصابرين، وإن ضعف حتى غلبت الشهوة ولم يصبر على دفعها، التحق بأتباع الشياطين، وإذا ثبت أن الصبر عبارة عن ثبات باعث الدين في مقاومة الهوى، فهذه المقاومة من خاصية الآدميين»(١).

وحديثنا القادم يتناول نوعين: الصبر على الطاعات والصبر عن المعاصي.

بين الطاعة والبلاء

الصبر على الطاعة أعلى مقامًا من الصبر على البلاء؛ لأن الصبر على الطاعة صبر اختيار، والصبر على البلاء صبر اضطرار؛ لذلك (كان صبر **نوح وإبراهيم وموسى وعيسى** - عليهم الصلاة والسلام- على ما نالهم في الله باختيارهم وفعلهم ومقاومتهم قومهم: أكمل من صبر **أيوب** على ما ناله في الله من ابتلائه وامتحانه بما ليس مسببًا عن فعله، وكذلك كان صبر **إسماعيل** الذبيح وصبر أبيه **إبراهيم** عليهما السلام على تنفيذ أمر الله أكمل من صبر **يعقوب** على فقد **يوسف**)(٢).

وسبب آخر لكون الصبر على الطاعة أكمل من الصبر على البلاء؛ وهو أن من علامات كمال الصبْر على البلاء وأمارات قبوله عند الله: فعل الطاعة بعده؛ ولذلك قال تعالى في معرض الحديث عن غزوة أحد: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن

(١) مختصر منهاج القاصدين ص ٢٦٨-٢٦٩ - ابن قدامة المقدسي - ط دار التراث.
(٢) المدارج ٢/ ١٦٥.



مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، ولم يقل وسيجزي الصابرين مع أن المقام مقام صبر بل قال: ﴿ ٱلشَّـٰكِرِين ﴾ أي الطائعين الذين استمروا على طاعتهم عقب البلاء.. أعظم بلاء، وهل أعظم من مقتل النبي ﷺ؛ وكأن المطلوب منك يا صاحب القلب الحي أن تخرج من مصيبتك بمزيد الطاعة والقرب من ربك والحرص على رضوانه، وإلا رُدَّ صبرك عليك ولم يُقبل.

وأصحاب القلوب الحية لا يزيدهم البلاء إلا طاعة لله؛ لذا حكى الله موقف الصحابة بعد غزوة أحد حيث البلاء الشديد والجراح الغائرة استجابتهم لأمر الله ورسوله، وخروجهم وهم المثخنون بالجراح الغارقون في الأوجاع والأحزان إلى غزوة حمراء الأسد بعد أقل من خمس عشرة ساعة من نهاية غزوة أحد، فقال عز وجل: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾ [آل عمران: ١٧٣-١٧٤]

بل قد لا تكون المصيبة سوى طريق لجذب العبد إلى الطاعة وتقريبه منها، كما قال ابن عطاء في حكمة تحذيرية:

«من لم يُقبِل على الله بملاطفات الإحسان، قِيْد إليه بسلاسل الامتحان»(١).

والصابرون على الطاعات المداومون عليها دومًا قلة قليلة بين الناس. قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَـٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴾ [النساء: ٦٦]، ولأنهم قلة وسط كثرة مفرِّطة فقد وعدهم الله بأثمن المكافآت وأغلى الجوائز. قال تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء: ٦٩] فهل علمتم ثوابكم يا أهل الصبر على طاعته، ولو لم يكن لكم من جزاء غير هذا لكفى.

---

(١) الحكم العطائية ص ٢٩.

والصديقون هم السابقون في تصديقهم المبالغون في الصدق، وهم أفضل أصحاب الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- وخواصهم المقربين، والشهداء هم الذين بذلوا أرواحهم في طاعة الله تعالى وإعلاء كلمته، والصالحون هم الصارفون أعمارهم في طاعته وأموالهم في مرضاته ﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾، وما أروعها من صحبة، والصابر على الطاعات هؤلاء غدا هم أصحابه وجيرانه وأحبابه وخلانه، إنه أسمى نعيم الجنة، وهل أحلى من صحبة الأنبياء وأشباه الأنبياء وأصفياء الله من خلقه ومن صنعهم على عينه؟!

بين الطاعة والمعصية

والصبر على الطاعة أكمل كذلك وأعلى من الصبر عن المعصية؛ لأن عدم ملء الوقت بالطاعة كان سبب وقوع المعصية، وعدم سدِّ الفراغ بالطاعة مهَّد الطريق لاقتحام المعصية، فكلما حُجِب الإنسان عن طاعة وقع في معصية، بل وكانت الطاعة مكافأة كل صبر عن معصية، ومن هنا كان الصبر على الطاعة أعلى درجات الصبر(١)، بل وكان ترك الصبر على الطاعة أبغض عند الله من عدم الصبر عن المعصية. قال **سهل بن عبد الله**: «ترك الأمر عند الله أعظم من ارتكاب النهي؛ لأن آدم نهى عن أكل الشجرة فأكل منها فتاب عليه، وإبليس أُمِر أن يسجد لآدم فلم يسجد فلم يتب عليه»(٢).

ثم شرع **ابن القيم** في ذكر ثلاثة وعشرين وجهًا بيَّن من خلالها صحة القاعدة السابقة، ثم قال بعد ذلك:

«سِرُّ هذه الوجوه أن المأمور محبوبه والمنهي مكروهه، ووقوع محبوبه أحب إليه من فوات مكروهه، وفوات محبوبه أكره اليه من وقوع مكروهه»(٣).

---

(١) قال **ابن القيِّم**: «وفصل النزاع في ذلك أن هذا يختلف باختلاف الطاعة والمعصية، فالصبر على الطاعة المعظمة الكبيرة أفضل من الصبر عن المعصية الصغيرة الدنية، والصبر عن المعصية الكبيرة أفضل من الصبر على الطاعة الصغيرة، وصبر العبد على الجهاد مثلاً أفضل وأعظم من صبره عن كثير من الصغائر، وصبره عن كبائر الإثم والفواحش أعظم من صبره على صلاة الضبح وصوم يوم تطوعًا ونحوه، فهذا فصل النزاع في المسألة والله أعلم». طريق الهجرتين ١/ ٤١٤.

(٢) الفوائد ١/ ١١٩.

(٣) السابق ص ١٢٨.

لكن الصبر على الطاعة مع ذلك أصعب أنواع الصبر، ولذا جاءت صيغة الأمر بالصبر على الطاعة مغايرة لغيرها فقال تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ [مريم: ٦٥]، وقال: ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢]، فاستخدام صيغة الافتعال تدل على المبالغة في الفعل؛ إذ زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، والمقصود بالاصطبار: شدة الصبر على الأمر الشاق لأن صيغة الافتعال ترد لإفادة قوة الفعل، وما ذاك إلا لصعوبة هذا النوع من الصبر على النفس لما فيه من القيام بحق العبودية في كل الأحوال.

قال الزمخشري: «لأن العبادة جُعِلت بمنزلة القرن في قولك للمحارب: اصطبر لقرنك، أي اثبت له فيما يورد عليك من شداته»[(١)].

1 الصبر على طاعة الله:

وهو أوضح ما يكون في قصة إبراهيم وإسماعيل التي خلَّد الله ذكرها في كتابه، فمن أيهما تعجب: من الأب الذي رأى في المنام أنه يذبح ابنه فلبى؟! أم من الابن الذي استسلم لأمر الله طواعية واختيارًا؟! لقد كان الابن وحيد إبراهيم ولم يُرزَق إلا على كِبَر فما ظنك بتعلق أب كهذا بابنه؟! لكن إبراهيم حطَّم كل نداءات الأرض لما جاءه أمر السماء، وضرب لنا أروع مثل على الإطلاق في الصبر على طاعة ربه، ولقد كان باستطاعته أن يتأول الرؤيا لصالحه بدافع من غريزة الأبوة، لكنه امتثل الأمر على وجه عجيب، وفاتح ابنه في ما رأى، ولم يكن الابن صغيرًا لا يفهم ما سيُفعل به؛ بل بلغ مع أبيه السعي فأصبح فتى مفتول العضلات قوي الساعد مما زاد من شغف الأب بابنه وتعلق الابن بأبيه، وجاءت إجابة الابن محيِّرة حقًّا، فقد حسم الموقف بجملتين فاصلتين ممتلئتين بالرضا فضلاً عن الصبر قالهما لأبيه وخلَّدهما التاريخ له: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢].

وبعد أن شهد إسماعيل لنفسه بالصبر شهد الله -جل جلاله- له بالصبر ودوَّن اسمه في

(١) الكشاف ص ٧٣٧.

سجل الصابرين وأين؟! على صفحات القرآن: ﴿ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٥]، ثم هو مع ذلك لم ينس أن يستمد العون من الله الذي لا يكون الصبر إلا بمشيئته، فهو لا يعتمد على قوته وشدة جلده بل يعتمد على ربه، وصدقا وأسلم الوالد ولده، وتله للجبين، وتهيأ للذبح، وعندها فحسب جاءته البشرى والنجاة.

أنواع خمسة

من الصبر على الطاعة:

- **الصبر على التعلُّم والمُعلِّم**، وهذا صبر على مكافحة الجهل، وصبر على ما يمكن أن يكون من شدة المعلِّم، وصبر على الخجل من طلب العلم وخاصة إذا كنت كبير السن وأستاذك أصغر منك، ولا شك أن ذلك صعب على النفس؛ لذا كان مما يورث الأجر العظيم، واذكروا ما قاله نبينا ﷺ: «**الذي يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرؤه وهو عليه شاق له أجران**»(١)، وهذا الصبر سبق وواجهه **موسى** حين رحل إلى الرجل الصالح ليُعلِّمه مما علمه الله، فأبرم **موسى** معه العهد بالصبر قائلا: ﴿ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا ﴾ [الكهف: ٦٩].

- **الصبر على تصحيح النية وتخليص الضمائر من شوائب الرياء**، أو الصبر على حفظ الطاعة بعد انتهائها، وعدم إفشائها والتباهي بها، أو العجب والاغترار، لئلا تتحوَّل سيئة: ﴿ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴾ [محمد: ٣٣]، ولعل هذا هو سر تقديم الصبر على العمل الصالح في قولــــه: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [هود: ١١]، وهي معركة من معارك العبد مع الشيطان يقص علينا وقائعها وتفاصيلها **سفيان الثوري** في قوله: «بلغني أن العبد يعمل العمل سرًّا، فلا يزال به الشيطان حتى يغلبه، فيُكتب في العلانية، ثم لا يزال الشيطان به حتى يُحِبَّ أن يُحمد عليه، فيُنسخ من العلانية فيثبت في الرياء»(٢).

---

(١) رواه أحمد والترمذي عن عائشة كما في ص ج ص رقم: ٥٤٩٧.

(٢) حلية الأولياء ٧/ ٣٠، ٣١.



- **الصبر على المداومة على الطاعة وعدم الملل منها ومن ثم الانقطاع عنها**، ولا شك أن المداومة على أي عمل ولو كان سهلاً على مدار الأيام والأعوام مما يشق على أي نفس، وفي مقابل هذه المشقة ينال المرء أعظم الأجر كما أخبر بذلك الحبيب ﷺ: «**أحبُّ الأعمال إلى الله أدومها وإن قلَّ**»(١).

- **الصبر على وحشة التفرد وقلة سالكي طريق الحق وكثرة المعرضين عنه**: إذا كنتَ الوحيد الذي يغض بصره عن النساء في عملك، وكنتَ الوحيد الذي يصوم تطوعًا في يوم حار، وكنتَ الوحيد الذي يطهِّر لسانه من الغيبة وسط صحبة العمل أو الدراسة، وكنتِ الوحيدة التي تحافظ على الحجاب الصحيح شكلاً وسلوكًا، إذا كنتَ أو كنتِ من هؤلاء فهنيئًا لك.

- **الصبر على تبعات التزام طريق الحق والثبات عليه**: وهي الرسالة الأولى التي تلقاها النبي ﷺ في مهد الدعوة حين انطلقت به **خديجة** إلى **ورقة بن نوفل** ابن عم **خديجة**، وكان شيخًا كبيرًا قد عمي، فقالت له **خديجة**: يا ابن عم.. اسمع من ابن أخيك، فقال له **ورقة**: يا ابن أخي ماذا ترى فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى، فقال له **ورقة**: هذا الناموس الذي كان ينزل على **موسى**، يا ليتني فيها جذعا، ليتني أكون حيا إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ: أو مخرجيَّ هم؟! فقال: نعم.. لم يأت أحد بمثل ما جئت به إلا عُودِيَ، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا(٢).

2 الصبر عن معصية الله:

وأبرز الأمثلة وأشدها وضوحًا صبر **يوسف** - عليه السلام- على مراودة امرأة العزيز له، ولقد كان الصبر ظهير **يوسف** في محنته التي ابتلي بها اضطرارًا واختيارًا، وكشف عن هذا السر حين عثر إخوته عليه فقال: ﴿ **قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَـٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ** ﴾ [يوسف: ٩٠]. قال **ابن القيم**:

---

(١) رواه الشيخان عن عائشة كما في ص ج ص رقم: ١٦٣.
(٢) البداية والنهاية ٣/ ٣.

«وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدَّس الله روحه يقول: كان صبر يوسف عن مطاوعة امرأة العزيز على شأنها: أكمل من صبره على إلقاء إخوته له في الجب وبيعه وتفريقهم بينه وبين أبيه، فإن هذه أمور جرت عليه بغير اختياره لا كسب له فيها؛ ليس للعبد فيها حيلة غير الصبر، وأما صبره عن المعصية: فصبر اختيار ورضا ومحاربة للنفس، ولا سيما مع الأسباب التي تقوى معها دواعي الموافقة، فإنه كان شابًّا؛ وداعية الشباب إليها قوية، وعزبًا ليس له ما يعوضه ويرد شهوته، وغريبًا والغريب لا يستحي في بلد غربته مما يستحي منه من بين أصحابه ومعارفه وأهله، ومملوكًا والمملوك أيضا ليس وازعه كوازع الحر، والمرأة جميلة، وذات منصب، وهي سيدته، وقد غاب الرقيب، وهي الداعية له إلى نفسها، والحريصة على ذلك أشد الحرص، ومع ذلك توعدته إن لم يفعل بالسجن والصغار، ومع هذه الدواعي كلها: صبر اختيارًا وإيثارًا لما عند الله، وأين هذا من صبره في الجب على ما ليس من كسبه»(١).

ولكن ما الدافع إلى الصبر عن معصية الله؟!

والجواب: إما الخوف وإما الحياء.

أما الخوف فهو من سوء عواقب المعصية وقبح أثرها، أي خوف المرء مما يصيبه من جرائها في الدنيا والآخرة:

والخوف أيضًا قسمان: **خوف الدنيا وخوف الآخرة،** أما خوف الدنيا فهو ما ذكره الإمام **ابن القيِّم:**

«الصبر عن الشهوة أسهل من الصبر على ما توجبه الشهوة، فإنها إما أن توجب ألمًا وعقوبة، وإما أن تقطع لذة أكمل منها، وإما أن تضيع وقتًا إضاعته حسرة وندامة، وإما أن تثلم عرضًا توفيره أنفع للعبد من ثلمه، وإما أن تُذهب مالاً بقاؤه خير له من ذهابه، وإما أن تضع قدرًا وجاهًا قيامه خير من وضعه، وإما أن تسلب نعمة بقاؤها ألذ وأطيب من قضاء الشهوة، وإما أن تطرق لوضيع إليك طريقًا لم يكن يجدها قبل ذلك، وإما أن تجلب همًّا وغمًّا وحزنًا وخوفًا لا يقارب لذة الشهوة، وإما أن تنسي علمًا ذكره ألذ من نيل الشهوة، وإما أن

---

(١) المدارج ٢/ ١٥٦.



تُشمت عدوًّا وتُحزن وليًّا، وإما أن تقطع الطريق على نعمة مقبلة، وإما أن تُحدث عيبًا يبقى صفة لا تزول، فإن الأعمال تورث الصفات والأخلاق»[(١)].

وأما خوف الآخرة وهو مما يلقى العاصي من العقوبة النارية والتقلب بين الأطباق الجهنمية، فهي العقوبة إن عصى علنًا فيكون مجاهرًا بذنبه داعيًا إليه، وهي العقوبة إن عصى سِرًّا ليكون هاتكًا ستر الله عليه مظهرًا غير ما يبطن.

أما الدافع الثاني الذي يدفع إلى الصبر عن المعصية هو **الحياء**، لكن ما الحياء؟!

قال الجنيد: «الحياء رؤية الآلاء ورؤية التقصير فيتولد بينهما حالة تسمى الحياء، وحقيقته خلق يبعث على ترك القبائح ويمنع من التفريط في حق صاحب الحق»[(٢)].

وهب ربك عفا عنك فأين الحياء مما جنيت يا رجل؟!

وسؤال أخير: أيهما أعلى مقامًا وأكثر أجرًا: الخوف أم الحياء؟!

فَصَل **ابن القيِّم** بين الخصمين فقال في كلام ألفاظه أنوار ومعانيه ثمار:

«ولما كان الحياء من شيم الأشراف وأهل الكرم والنفوس الزكية: كان صاحبه أحسن حالا من أهل الخوف، ولأن في الحياء من الله ما يدل على مراقبته وحضور القلب معه، ولأن فيه من تعظيمه وإجلاله ما ليس في وازع الخوف، فمن وازعه الخوف: قلبه حاضر مع العقوبة، ومن وازعه الحياء: قلبه حاضر مع الله، والخائف مراعٍ جانب نفسه وحمايتها، والمستحي مراعٍ جانب ربه وملاحظ عظمته، وكلا المقامين من مقامات أهل الإيمان؛ غير أن الحياء أقرب إلى مقام الإحسان وألصق به، إذ أنزل نفسه منزلة من كأنه يرى الله، فنبعت ينابيع الحياء من عين قلبه وتفجرت عيونها»[(٣)].

---

(١) الفوائد ص ١٣٩.

(٢) مدارج السالكين ٢/ ٢٥٨، وقد قال ابن القيم عن خلق الحياء: «ولولا هذا الخلق لم يُقْرَ الضيف، ولم يُوفَّ بالوعد، ولم تُؤدَّ أمانة، ولم يُقضَ لأحد حاجة، ولا تحرَّى الرجل الجميل فآثره، والقبيح فتجنَّبه، ولا سُتِر له عورة، ولا امتنع من فاحشة، وكثير من الناس لولا الحياء الذي فيه لم يؤدِّ شيئًا من الأمور المفترضة عليه، ولم يرْعَ لمخلوق حقًّا، ولم يصل له رحما، ولا بَرَّ له والدًا، فإن الباعث على هذه الافعال إما ديني وهو رجاء عاقبتها الحميدة، وإما دنيوي علوي وهو حياء فاعلها من الخلق، قد تبين أنه لولا الحياء إما من الخالق أو من الخلائق لم يفعلها صاحبها». مفتاح دار السعادة ١/ ٢٧٧.

(٣) المدارج ١/ ١٦٥.

ولابد مع الخوف والحياء لكي يُحدِثا أعظم الأثر من صفتين متلازمتين وهما العلم واليقين، فبغيابهما يغيب الخوف والحياء، وبقوتهما يقويان.

فكل من علم أن الذي ينام عن الصلاة المكتوبة يكسر الحجر رأسه في قبره ثم أيقن بذلك؛ كيف ينام عن صلاة الفجر؟!

وكل من علم أن ناشر الكذب ومروِّج الإشاعة يُشقُّ من رأسه ومنخره وعينه إلى قفاه ثم أيقن بذلك، قل لي بعدها: كيف يكذب؟!

وكل من علم أن الزاني يُحرق بنار أسفل منه وهو عريان ليفتضح في العلن كما كان يأتي الفاحشة في السر ثم أيقن بذلك؛ فكيف يزني؟!

وكل من علم أن أكل الربا يورث السباحة في نهر الدم والتقام الحجارة ثم أيقن بذلك؛ فكيف يرابي؟!

وكل من علم أن الوقوع في أعراض الناس يُعاقب فاعله بخمش وجهه وصدره بأظفار من نحاس، ثم أيقن بذلك؛ فكيف يُعقل أن يغتاب؟!

وهكذا مع كل معصية وعقوبتها.

زاد الصابرين!!

1 تلمح لذة العاقبة:

مرارة الصبر شفاء، لأن الصبر على مرارة الدواء في البداية يورث حلاوة الشفاء في النهاية، ما أشبه حال المبتلى بذنب بحال المدمن؛ عافت نفسه الطيِّب ولا صبر له عن الخبيث، فإن تجرَّع جرعة صبر، وتحمَّل المشقة حينًا، وأكل من الحلال وداوم عليه إذن لزال أثر السم بالكلية، ورجعت نفسه تعاف كل كريه كانت تحبه، وكل معصية كان يلتذ بها، فالصبر الصبر، والتفكر في حلاوة العاقبة، والاعتبار بسوء مصير الهالكين.

قال **الأشعث بن قيس**: «دخلتُ على أمير المؤمنين **علي بن أبي طالب** ﷺ، فوجدته قد أثر فيه صبره على العبادة الشديدة ليلاً ونهارًا، فقلت: يا أمير المؤمنين!! إلى كم تصبر على مكابدة هذه الشدة؟ فما زادني إلا أن قال:

اصبر على مضض الإدلاج في السَّحَر ... وفي الرواح إلى الطاعات في البكر
إني رأيت وفي الأيام تجربة ... للصبر عاقبة محمودة الأثر
وقلَّ من جدَّ في أمر يؤمِّله ... واستصحب الصبر إلا فاز بالظَّفَر

فحفظتها منه وألزمتُ نفسي الصبر في الأمور، فوجدت بركة ذلك»[(١)].

وتعرَّف إلى أسرار العبادات وأثر الجرعات وفضائل القربات، واغرق في أنوارها وراجع ما ورد من أحاديثها، وعندها تطيع أمر الله وتستسلم له ولو كان شاقًّا، وسترى العجب كما سبقه ورآه خليل الرحمن لما صبر. قال **ابن القيِّم**:

«وأُنبِّهك على خصلة واحدة مما أكرمه الله به في محنته بذبح ولده، فإن الله -تبارك وتعالى- جازاه على تسليمه ولده لأمر الله بأن بارك في نسله وكثرة حتى ملأ السهل والجبل، فإن الله تبارك وتعالى لا يَتكرَّم عليه أحد وهو أكرم الأكرمين، فمن ترك لوجهه أمرًا

(١) المستطرف ص ٣٣٢.

أو فعله لوجهه بذل الله له أضعاف ما تركه من ذلك الأمر أضعافًا مضاعفة، وجازاه بأضعاف ما فعله لأجله أضعافًا مضاعفة، فلما أمر إبراهيم بذبح ولده؛ فبادر لأمر الله، ووافق عليه الولد أباه رضاء منهما وتسليمًا، وعلم الله منهما الصدق والوفاء فداه بذبح عظيم، وأعطاهما ما أعطاهما من فضله، وكان من بعض عطاياه أن بارك في ذريتهما حتى ملئوا الأرض، وجعل النبوة والكتاب في ذريته خاصة وأخرج منهم محمدًا»(١).

من كالخليل يُرينا خيرَ تضحيـــة ... جلّت مواقفها عن كــل تبيــين
صحا مع الفجر صوت الوحي يُفزِعه ... قم يا بني فصوت الله يدعونـــي
إني بذبحك قد أُلهمـــتُ يا ولـــدي ... أمرُ السماء فهل تعصي وتُخزيني
فشـــمَّر الطفـــل إيمانًا بلا جزعٍ ... جمِّع قواك أبي خُذْ تلك سكيني

2 الاستعانة بالله:

قال تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ [النحل: ١٢٧].

والمأمور به في الآية: الاستعانة بالله ورؤية أنه هو المُصبِّر وحده، وأن صبر العبد بربه لا بنفسه، وبمشيئة الله ومعونته لا بمشيئته هو وقوته، فهو لا يرى لنفسه صبرًا ولا قوة ولا فضلاً ولا عزمًا، بل كل ذلك من الله وبفضل الله، وعندها يعلم حقيقة قوله: لا حول ولا قوة إلا بالله، فإن لم يصبِّرك هو فليس إلا الجزع والهلاك، بل لو لم يصبِّر الله خير خلقه وصفوة رسله محمد ﷺ ما كان ثبت.

قال تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلاً ﴾ [الإسراء: ٧٤].

ولذا روى حذيفة عن رسول الله ﷺ أنه (كان إذا حزبه أمر صلى)(٢) ليستمد من القوة التي لا تُغلب، والطاقة التي لا تُحدُّ، والإله الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

(١) مفتاح دار السعادة ١/ ٣٠٠.
(٢) حسن: رواه أحمد وأبو داود عن حذيفة كما في ص ج ص رقم: ٤٧٠٣.

3 صبر أعدائك يُعدي:

أعداء دينك لا ينامون، بل يصبرون ويحتملون في سبيل الباطل ما لا تحتمله أنت في سبيل الحق، والله إن المرء ليستحي أن يكسل في جنب الله حين يسمع عن بطل رياضي يعاني الأعوام الطوال ويُتعِب نفسه منذ نعومة أظفاره ليفوز في النهاية بميدالية الذهب، وتُسلَّط عليه الأضواء، وتُغدق عليه الأموال، مع أنه سيكبر يومًا وينصرف الناس عنه، بل ويموت وينساه كل من كان محتفيًا به بالأمس، ويترك كل ما جمع ويرحل تحت التراب، فكيف لا تصبر أنت يا طالب ذهب الآخرة؟! ألا تريد أن تُسلَّط عليك الأضواء هناك وأنت متكئ على أريكة لك في الفردوس؟! ألا تطمع أن تُغدق عليك اللذات وأنت مستلق في قصر من قصورك في جنات عدن؟! ألا تتعب قليلاً لتستريح طويلاً.. هناك في خلد لا تذوق فيه الموت بل لا تسمع حتى مرادفات أو مشتقات كلمة (موت).. واعجبًا من خاطب دنيا يتعب وطالب آخرة ينام، واحسرتاه على طالب رضا البشر وغافل عن رضا ربِّ البشر.

عن **عمر بن عثمان المكي** قال: «لقد وبَّخ الله التاركين للصبر على دينهم بما أخبر عن الكفار أنهم قالوا: ﴿ ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴾ [ص: ٦]، فهذا توبيخ لمن ترك الصبر من المؤمنين على دينه»(١).

إن مقارنة المريض لصبره على الطاعات بصبر غيره من موتى القلوب على الباطل يبعث في القلب الحياة، وانظروا إلى **خلف بن أيوب** وكان لا يطرد الذباب عن وجهه في الصلاة، فقيل له: كيف تصبر؟! فقال: «بلغني أن الفساق يتصبَّرون تحت السياط ليقال فلان صبور، وأنا بين يدي ربي؛ أفلا أصبر على ذباب يقع عليَّ؟!»(٢).

بل واسمعوا صبر أهل الدنيا يا أصحاب الآخرة واقرؤوا خبر **أبي الهيثم خالد الحدَّاد**، وكان يُضرَب المثل بصبره. قال له **المتوكِّل** يومًا: ما بلغ من جَلَدِك؟ قال: املأ لي جرابي عقارب، ثم أُدخِل يدي فيه، وإنه ليؤلمني ما يؤلمك، وأجد لآخر سوط من الألم ما أجد لأول سوط، ولو وُضِعت في فمي خرقة وأنا أُضرب لاحترقت من حرارة ما يخرج من جوفي،

---

(١) ذم الهوى ص ٥٥ – ابن الجوزي – ط دار الكتب العلمية.
(٢) المستطرف ص ٢٠.

ولكنني وطَّنت نفسي على الصبر، فقال له **الفتح**: ويحك!! مع هذا اللسان والعقل ما يدعوك إلى ما أنت عليه من الباطل، فقال: «أحب الرياسة»(١).

ولماذا أمثلة الماضي والحاضر بين أيدينا ينطق ويشهد، وأهل اللهو في لهوهم من أهل الغناء والفن الهدام يفتخرون أنهم يصلون الليل والنهار ويهجرون الراحة ويعانقون التعب في أوقات كثيرة ليجنوا حصاد أعمالهم: سيئات تلطِّخ الصحائف وتورث اللعنات وتُصليهم جهنم وبئس المهاد، فلماذا لا نصل نحن -أهل الحق- الليل بالنهار ونهجر الراحة ونعانق التعب لنجني حصائد أعمالنا: حسنات تُشرِق على صحائفنا وتثقِّل موازيننا وتورثنا اللذة الأبدية والنعيم الذي لا يبيد.

4 جهاد النفس:

إن النفس البشرية بطبيعتها تحب الراحة والكسل والدعة وتنفر من البذل والاجتهاد والعطاء، فهي الآمرة بالسوء الناهية عن الخير، وهي الحقيقة التي قرَّرها رب العزة والجلال بقوله ﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾ [يوسف: ٥٣] لذا كانت مخالفتها نوعًا من أنواع الموت الدامي! قال **حاتم الأصم**: «الموت الأحمر: مخالفة النفس»(٢).

لذا عبَّر النبي ﷺ عن هذه المخالفة بأقوى الألفاظ وأشدها وهو لفظ الجهاد فقال: «**والمجاهد: من جاهد نفسه في الله**»(٣).

وقال عز وجل: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ﴾ [الحج: ٧٨]. قال **ابن المبارك** في تفسيرها: «هو جهاد النفس والهوى»(٤).

أما أن تطيع نفسك في كل ما تأمرك به، وتنتهي عن كل خير تنهاك عنه، فليس هذا من الجهاد فضلاً عن الرجولة في شيء.

نعم الأمر صعب وشاق .. ليس في هذا شك، لكن في المقابل تؤنسك بشرى الله لك:

---

(١) تلبيس إبليس ص ٤٥١.
(٢) ذم الهوى ٥٠.
(٣) صحيح: رواه أحمد في المسند وابن حبان في صحيحه والترمذي، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم: ٥٤٩.
(٤) ذم الهوى ص ٤٠.

﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩] فالخطوة الأولى عليك ثم يأتيك المدد الإلهي عميمًا من حيث لا تحتسب، والهداية طريق طويل طويل، لكن أول وأهم خطوة فيها: المجاهدة.

والبشارة الثانية من راشد هو **عمر بن عبد العزيز** -رحمه الله- الذي قال وكأنه يهوِّن عليك مشقة العمل الصالح ويروِّح عليك بمراوح الرجاء: «أحب الأعمال إلى الله ما أُكرهت عليه النفوس»[1].

والبشارة الثالثة أن النفوس اليوم قد تغيَّرت، والزمان الحاضر ليس كالماضي في صلاحه وتقواه، ومن ثم كان الثواب اليوم أعظم والأجر أوفى، ولقد جاء ذلك في قول الإمام **عبد الله بن المبارك**: «إنَّ الصالحين فيما مضى كانت أنفسهم تواتيهم على الخير عفوًا، وإن أنفسنا لا تكاد تُواتينا إلا على كُرْه ينبغي لنا أن نكرهها عليه»[2].

فليت شعري لو أدرك **ابن المبارك** زماننا هذا ماذا سيقول؟!!

تجربة جهادية!!

يقول **ابن الجوزي**:

« تأملتُ جهاد النفس فرأيتُه أعظم الجهاد، وإنما الجهاد لها كجهاد المريض العاقل، يحملها على مكروهها في تناول ما ترجو به العافية، و يذوِّب في المرارة قليلاً من الحلاوة، ويتناول من الأغذية مقدار ما يصفه الطبيب، ولا تحمله شهوته على موافقة غرضها من مطعمٍ ربما جرَّ جوعًا، ومن لقمة ربما حَرَمت لقمات[3]، فكذلك المؤمن العاقل لا يترك لجامها، ولا يهمل مقودها، بل يُرخي لها في وقت والطول بيده، فإذا رآها مالت ردَّها باللطف، فإن ونت وأبت فبالعنف،

---

(١) السابق ص ٤٨.

(٢) ذم الهوى ص ١٤٥.

(٣) قال الناشئ:

إذا المـــرء أحمـــى نفســـه كـــلَّ شـــهوةٍ ... لصـــحَّة أيَّـــامٍ تبيـــد وتنفـــد

فمـــا بالـــه لا يحتمـــي عـــن حرامهـــا ... لصـــحَّة مـــا يبقـــى لـــه ويخلَـــد

ويحبسها في مقام المداراة، كالزوجة التي مبنى عقلها على الضعف والقلة، فهي تُدارى عند نشوزها بالوعظ، فإن لم تصلح فبالهجر، فإن لم تستقم فبالضرب، وليس في سياط التأديب أجود من سوط عزم، هذه مجاهدة من حيث العمل.

فأما من حيث وعظها وتأنيبها، فينبغي لمن رآها تسكن للخلق، وتتعرض للدنيء من الأخلاق أن يُعرِّفها تعظيم خالقها لها فيقول: ألستِ التي قال فيك: خلقتك بيدي، وأسجدتُ لك ملائكتي، وارتضاك للخلافة في أرضه، وراسلك واقترض منك واشترى، فإن رآها تتكبر، قال لها: هل أنت إلا قطرة من ماء مهين، تقتلك شرقة، وتؤلمك بقَّة؟! وإن رأى تقصيرها عرَّفها حق الموالي على العبيد، وإن ونت في العمل حدَّثها بجزيل الأجر، وإن مالت إلى الهوى، خوَّفها عظيم الوزر، ثم يحذرها عاجل العقوبة الحسية، كقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَـٰرَكُمْ ﴾، والمعنوية كقوله تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾، فهذا جهاد بالقول، وذاك جهاد بالفعل»[(١)].

أخي.. هل لك أن تأخذ خطوة عملية على الطريق؟! عوِّد نفسك – مثلاً- بالنسبة للطعام أن تقوم عن المائدة ولا زلت تشتهيه، وبالنسبة للكلام جرِّب يومًا من الأيام أن توثِق لسانك فلا تتكلم بكلام إلا إذا أدركت مغزاه وفائدته، وبالنسبة للمنام جرِّب يومًا في الأسبوع أن تهجر الفراش الناعم وتنام على الأرض مخالفة للنفس، والمران على ذلك يورث الانتصار على النفس الشرود وسهولة قيادتها.

جهاد النفس وجهاد العدو

إن هذا الجهاد هو المقدمة الطبيعية والتمهيد الذي لابد منه لجهاد أكبر وهو جهاد الأعداء والانتصار على اليهود، ويشهد لهذا قول **عبدالله بن عمر** ﷺ لمن سأله عن الجهاد: «ابدأ بنفسك فجاهدها، وابدأ بنفسك فاغزُها»[(٢)].

يا من يجاهد غازيًا أعداء ديـ ـن الله يرجو أن يُعان ويُنصـرا

(١) صيد الخاطر ص ٤٦ –٤٧ – ط دار الفكر بتصرف.
(٢) جامع العلوم والحكم ص ١٩٦.



هلا غشيت النفس غزوًا إنها | أعدى عدوِّك كي تفوز وتظفرا
مهما عُنيتَ جهادها وعنادها | فلقد تعاطيتَ الجهاد الأكبرا

قال ابن القيِّم شارحًا قول ابن عمر:

«ولما كان جهاد أعداء الله في الخارج فرعا على جهاد العبد نفسه في ذات الله، كما قال النبي ﷺ: «**المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله**» كان جهاد النفس مُقدَّمًا على جهاد العدو في الخارج وأصلاً له، فإنه ما لم يجاهد نفسه أولاً لتفعل ما أُمِرت به، وتترك ما نُهيت عنه ويحاربها في الله لم يمكنه جهاد عدوه في الخارج، فكيف يمكنه جهاد عدوه والانتصاف منه؟! وعدوه الذي بين جنبيه قاهر له متسلط عليه لم يجاهده.ولم يحاربه في الله؛ بل لا يمكنه الخروج إلى عدوه حتى يجاهد نفسه على الخروج»(١).

بل إن جهاد النفس في رأي ابن القيم أصعب من جهاد العدو. قال وهو يحاو أن يقنعنا بصحة مذهبه وصواب رأيه:

«اعلم أنه إنما كان جهاد النفس أكبر من جهاد الأعداء؛ لأن النفس محبوبة وما تدعو إليه محبوب، لأنها لا تدعو إلا إلى ما تشتهي، وموافقة المحبوب في المكروه محبوبة، فكيف إذا دعا إلى محبوب؟!

فإذ عُكِست الحال وخولف المحبوب فيما يدعو إليه من المحبوب اشتدَّ الجهاد وصَعُب الأمر، بخلاف جهاد الكفار فإنَّ الطباع تُحْمَل على خصومة الأعداء»(٢).

---

(١) زاد المعاد ٣/ ٥.

(٢) ذم الهوى ص ٤٠.

مضاعفات القوة

1 الصبر الدائم:

النفس ملولة والمواظبة على الأعمال الصالحة يحتاج منها إلى قوة وصبر؛ ولهذا ربطت كثير من الأحاديث بين المواظبة على الأعمال ودخول الجنة، فمثلاً:

«خصلتان أو خلتان لا يحافظ عليهما عبد مسلم إلا دخل الجنة وهما يسير ومن يعمل بهما قليل: يُسبِّح الله في دبر كل صلاة عشرًا ويحمده عشرًا ويكبِّره عشرًا، وذلك خمسون ومائة باللسان وألف وخمسمائة في الميزان، ويكبِّر أربعًا وثلاثين إذا أخذ مضجعه، ويحمد ثلاثًا وثلاثين ويسبِّح ثلاثًا وثلاثين، فذلك مائة باللسان وألف في الميزان».(١)

ثمن الجنة إذن ليس برخيص بل هو في المحافظة الدائمة، وليس بمجرد عمل يوم أو يومين أو شهر أو شهرين، فالصبر على العمل والمواظبة عليه يقابلها الله بأعظم الجزاء لصعوبتها على النفس وانقطاع أكثر الناس عنها.

2 صبر التميُّز والانفراد:

وهذه نماذج للصبر الذي أعنيه بأنواعه الثلاثة:

***الصبر على الطاعة:**

- ✍ يعمل بين أناس لا يصلون ويصلي وحده.
- ✍ يصوم تطوعًا بين قوم لا يصومون، وإن صاموا لا يحفظون صيامهم مما يفسده.
- ✍ يذكر الله في رفقة غافلة.
- ✍ يصل رحمه بين قرابة قاطعين.
- ✍ يدعو من حوله إلى النجاة وهم يدعونه إلى النار.
- ✍ يفي بالعهد ويصدق في الوعد حين فشا النفاق وعمَّ الوباء حتى بين من يوصَفون اليوم بالتدين.

---

(١) صحيح: رواه أبو داود والترمذي عن عبد الله بن عمرو، كما في صحيح الترغيب والترهيب رقم:٦٠٦.

* **الصبر عن المعصية:**

- يتعفَّفُ عن مال فيه شبهة بين رهط لا يتورعون عن المال الحرام.
- يغض بصره عن الحرام والناس تقع أبصارهم على مشاهد العري صورة ومتحرِّكة.
- يطهِّر لسانه من الغيبة ومن حوله ينهشون لحم إخوانهم دون اكتراث.
- يتورَّع عن الشبهات وغيره يخوض في المنكرات.

* **الصبر على البلاء:**

- لا يرفع صوته عند البلاء بالشكوى أو الاعتراض.
- يرتقي من مقام الصبر إلى مقام الرضا، فيرضى قلبه عن ربه وما قضاه له.
- لا ينتقم ممن ظلمه بل يعفو ويصفح، لأن « الرجل العارف لا تساوي نفسه عنده أن ينتقم لها، ولا قدر لها عنده يوجب عليه انتصاره لها»[(١)].
- لا يفقد بشاشته ولا يبدِّل ابتسامته عند المصائب.
- لا يتوقف عمله لدينه ونشاطه لدعوته تحت وقع المحنة وإثر المصيبة.

فالصبر على كل هذه الشدائد وعدم الانجرار مع التيار المضاد يضمن لصاحبه أعظم الثواب عند الله؛ ولذا وردت الآثار بفضل ذكر الله في الغافلين، وأكَّد النبي ﷺ هذا المعنى فقال: «**عبادة في الهرج والفتنة كهجرة إليَّ**»[(٢)].

والهرج هو وقت الفتن واختلاط الأمور، حيث يخف أمر الدين ويقلُّ الاعتناء به ولا يبقى لأحد اعتناء الا بأمر معاشه ودنياه، ومن ثم عظم قدر العبادة أيام الفتنة وكثر ثوابها حتى ساوى ثواب الهجرة بعنائها ومشاقها.

3 صبر الزمن الصعب:

فلا شك أن الصبر على الطاعات والصبر عن الشهوات في هذا الزمن الذي انتشرت فيه الفتن يعتبر أكثر ثوابًا وأعلى مقامًا، حيث تعرض الفاحشة نفسها جهارًا نهارًا، ولم تعد تتوارى

---

(١) قاعدة في الصبر لابن تيمية ص ٤٨.

(٢) صحيح : رواه الطبراني عن معقل بن يسار كما في ص ج ص رقم : ٣٩٧٤.

حياء ولا خوفًا، مما ينزع كراهية الحرام من القلب ويغرس حب الحرام بدلاً منه.

أضف إلى هذا قلة الأعوان على الخير، ثم تواري العلماء والمصلحين خوفًا أو ورعًا، ثم غياب التقوى في من يحيط بك وجرأتهم على السوء والعصيان، ومن هنا عظم أجر المهتدي ونال غاية الثواب.

4 صبر الشباب:

فالصبر في هذه المرحلة العمرية التي تشتد فيها قوة النفس الأمارة بالسوء، وتشتعل الشهوة الجموح وتنفتح أبواب الإغراءات على مصراعيها، وتتنوع الملهيات وتعرض نفسها على الراغبين كل ساعة فوق طبق من ذهب، وأين هذا من صبر الشيخ الذي نامت شهوته وسكن هواه؟!.

وليس معنى كلامي أن المطلوب من الشباب اليوم أن يُطَلِّق شهوته وينسى غريزته، بل المطلوب أن يكظم النفس عنها رجاء ما هو أحلى في الجنة، أو يصبر عنها حرامًا حتى ييسِّرها الله له حلالاً، وذلك في مقابل الأجر العظيم والجزاء الذي لا يوصف؛ لأن لكل شيء مقابلاً، والمقابل عند الله لا حدود له ولا نهاية لفضله.

سُئل **عمر بن الخطاب** ﷺ عن قوم يشتهون المعصية ولا يعملون بها، فأجاب بقول القرآن: «أولئك قوم امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم»[(١)].

ومن الأجر العظيم أن تكون في ظل العرش يوم القيامة، ومن هنا استحق السبعة المذكورون في الحديث الصحيح أن يظلهم الله في ظل عرشه وذلك لكمال صبرهم ومشقته، فالإمام العادل: صبر في حكمه حالة رضاه وغضبه، والشاب الذي نشأ في طاعة الله: صبر على العبادة في ظل مغريات العصر ومخالفة هواه، والرجل الذي قلبه معلَّق بالمساجد: صبر على ملازمته والمكوث فيه، والمتصدِّق بيمينه حتى أخفاها عن شماله: صبر على الرياء وحب محمدة الناس، والمتحابان في الله في اجتماعهما وافتراقهما: صبرا على طاعة الله، والباكي من خشية الله: صبر على كتمان ذلك وعدم إظهاره للغير.

(١) جامع العلوم والحكم ص ٩٧.

5 الصبر على ما تم اعتياده:

قال ابن القيِّم: «فإن للعادة طبيعة خاصة، فإذا انضافت الشهوة إلى العادة تظاهر جندان من جند الشيطان، فلا يقوى باعث الدين على قهرهما»(١).

ويكون للصبر هنا أعظم الدور في علاج الإدمان بكل أنواعه: إدمان سماع الغناء أو إدمان مشاهدة المواقع الإباحية أو أكل الرشوة أو ترك الصلاة أو الوقوع في أعراض الخلق، فإن كل هذه سيئات من اعتادها مع مرور الأيام صعب عليه التحوُّل عنها، ومن فارقها وصبر على مفارقتها بعد أن اعتادها كان له عند الله الجزاء الأوفى على ما لقيه من عناء وقاساه من بلاء.

ويضرب ابن القيِّم مثلاً حيًّا لذلك حين يتناول معاصي الفرج واللسان بقوله:

«الصبر عن معاصي اللسان والفرج من أصعب أنواع الصبر لشدة الداعي إليهما وسهولتهما، فإن معاصي اللسان فاكهة الإنسان كالنميمة والغيبة والكذب والمراء والثناء على النفس تعريضًا وتصريحًا وحكاية كلام الناس والطعن على من يبغضه ومدح من يحبه ونحو ذلك، فتتفق قوة الداعي وتيسر حركة اللسان فيضعف الصبر، ولا سيما إذا صارت المعاصي اللسانية معتادة للعبد، فإنه يعِزُّ عليه الصبر عنها، ولهذا تجد الرجل يقوم الليل ويصوم النهار ويتورَّع عن استناده إلى وسادة حرير لحظة واحدة، ويطلق لسانه في الغيبة والنميمة والتفكُّه في أعراض الخلق»(٢).

6 أشق الصبر:

قال ابن القيم:

«مشقة الصبر بحسب قوة الداعي إلى الفعل وسهولته على العبد، فإذا اجتمع في الفعل هذان الأمران كان الصبر عنه أشق شيء على الصابر، وإن فُقِدا معا سهل الصبر عنه، وإن وُجِد أحدهما وفُقِد الآخر سهل الصبر من وجه وصعب من وجه، فمن لا داعي له إلى القتل

---

(١) عدة الصابرين ص ٥٣.

(٢) عدة الصابرين ص ٥٦ بتصرف.

والسرقة وشرب المسكر وأنواع الفواحش ولا هو سهل عليه فصبره عنه من أيسر شيء عليه وأسهله، ومن اشتد داعيه إلى ذلك وسهل عليه فعله فصبره عنه أشق شيء عليه؛ ولهذا كان صبر السلطان عن الظلم، وصبر الشباب عن الفاحشة، وصبر الغنى عن تناول اللذات والشهوات عند الله بمكان»(١).

فمن أشق الصبر الذي يحتسب به العبد أعظم الأجر: رجل فقير في شدة الاحتياج إلى المال تُعرض عليه الرشوة فيأبى، وشاب في عنفوان الشباب يعيش في الغربة وتُعرض عليه الفاحشة فيأبى، وامرأة كثيرة الكلام دخلت في خصومة مع جارة لها ثم جلست مع من يقع في جارتها فتصون لسانها وتأبى.

7 الصبر عند مواسم الجزر:

الشيطان يتحيَّن لحظات الفتور عند العبد، ولن يجرؤ على مواجهة جيش قلبك عند اشتداد هجمة الإيمان عليه، بل يتربص حتى تحين استراحة مقاتل، وعند إخلادك إلى الراحة يبدأ الانقضاض عليك، ومن صبر عند مواسم الفتور ونوبات ضعف الإيمان عن شهوة محرَّمة، أو عن ذنب خلوة، أو عن صحبة سوء، أو عن لقمة شهوة كان أجر صبره هو الأعلى وإيمانه الأقوى، وكان في ذلك دلالة على قوة قلبه ولو في لحظات ضعفه، ومجاهدته لنفسه حتى عند أوقات فتوره.

8 قوة الصبر الثلاثية:

من الناس من يشقُّ عليه الصبر على الطاعة، وبعضهم بالعكس تسهل الطاعة عليه، لكن ترك المعصية عليه شاق، وبعض الناس يسهل عليه الصبر على الطاعة والصبر عن المعصية، لكنه ضعيف الصبر عند المصائب فيجزع، وأعظم الصابرين من عرف الأنواع الثلاثة: ذاق الطاعة فواظب عليها، وذاق المعصية فعافها، ونزل به البلاء فاستقبله استقبال الأبطال.

---

(١) عدة الصابرين ص ٥٦.

9 الصبر على ما بعد الصبر:

قد يصبر الإنسان على العمل الصالح حتى يؤديه، لكنه يُعجب بعمله ويُتبِعه بالمنِّ فيكون هذا أضر عليه من كثير من المعاصي، فمن الصبر عدم إبداء الصبر كما أن من الإخلاص إخفاء الإخلاص، فمن صبر عن الحرام وجعل ذلك سرًّا بينه وبين ربه لم يُفشه أوتي أجره مرتين: ثواب الصبر وثواب الإخلاص، وقد حقق هذين الأجرين كثير من الصالحين ولا يزالون، **فعن أبي عبدة العبدري:**

«لما هبط المسلمون المدائن وجمعوا الغنائم أقبل رجلٌ بحُقٍّ معه، فدفعه إلى صاحب الأقباض (بيت المال)، فقال الذين معه: ما رأينا مثل هذا قط ما يعدله ما عندنا ولا يقاربه، فقالوا له: هل أخذت منه شيئًا؟! فقال: أما والله لولا الله ما أتيتكم به، فعرفوا أن للرجل شأنًا، فقالوا: من أنت؟! فقال: لا والله لا أخبركم لتحمدوني، ولا غيركم ليُقرِّظوني، ولكني أحمد الله وأرضى بثوابه، فأتبعوه رجلاً حتى انتهى إلى أصحابه، فسأل عنه فإذا هو **عامر بن عبد قيس**»(١).

---

(١) صفة الصفوة ٣/ ٢١١.



سادسًا: فرق الإنقاذ

بنى النبي ﷺ حين هاجر أول ما بنى المسجد وهو صرح الإيمان، ثم بنى الروابط والصلات بين المهاجرين والأنصار وهو صرح الأخوة، وهذان الصرحان كل منهما علامة على الآخر ولازم من لوازمه. فالبناء الرأسي هو الإيمان وهو بناء الصلة مع الله، والبناء الأفقي هو الأخوة وهو بناء الروابط مع أفراد المؤمنين، ولا بناء بدون أساس، وهو أمر تلمحه في قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾، وفي قول النبي ﷺ: «**ثلاث من كن فيه ذاق بهن حلاوة الإيمان: أن يحب المرء لا يحبه إلا لله**».

بل إن الإيمان إذا كان بغير أخوة ضاع وانهدم، وإن غياب أخلاق الأخوة الإيمانية سيؤدي حتمًا إلى هدم الصلة بالله والرابطة الإيمانية، فإن «**فساد ذات البين هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين**».

لذا أعطى **عمر بن الخطاب** رضي الله عنه الأخوة قدرها وأوصى بها، فإذا به يقول: «إذا رزقكم الله عز وجل مودة امرئ مسلم فتشبَّثوا بها»(١).

وقد فعلها **عمر** وطبَّق على نفسه ما دعانا إليه وتشبَّث بهذه الأخوة، فكان رضي الله عنه يذكر الرجل من إخوانه بالليل، فيقول: يا طولها من ليلة، فإذا صلى المكتوبة غدا إليه، فإذا التقيا عانقه(٢)، وقد كان رضي الله عنه صاحب عاطفة أخوية دفاقة عكس ما عُهِد فيه من شدة، فلما أتى الشام يومًا استقبله **أبو عبيدة بن الجراح**، فالتزمه **عمر**، وقبَّل يده، وجعلا يبكيان(٣)، وصدق الشاعر رقيق المشاعر حين قال:

ما ذاقت النفس على شهوة ... ألذ من حُبِّ صديقٍ أمين

من فاته وُد أخٍ صالح ... فذلك المغبون حق اليقين

(١) الإخوان ص ٨١.

(٢) السابق ص ١٣٤.

(٣) الإخوان ص ١٨٢

وقد أدرك الصحابي الجليل **عبد الله بن مسعود** ﷺ قيمة نعمة الأخوة فكان إذا خرج إلى أصحابه قال: «أنتم جلاء حزني»[(١)].

وورث جيل التابعين هذه التركة الثمينة وذاقوا طعمها، فعدَّها **الحسن البصري** من حلاوة العيش لا في مطعم شهي أو مرقد دفي. قال رحمه الله: «لم يبق من العيش إلا ثلاث: أخ لك تصيب من عشرته خيرًا فإن زغت عن الطريق قوَّمك، وكفاف من عيش ليس لأحد عليك فيه تبعة، وصلاة في جُمَع تُكفى سهوها وتستوجب أجرها»[(٢)].

وهذه الحلاوة كان طعمها أحلى من العسل عند المحدِّث القارئ **طلحة بن مصرف** الذي كان إذا لقي **مالك بن مغول** يقول له: «لَلُقياك أحب إليَّ من العسل»[(٣)].

(١) السابق ص ١٣٥.
(٢) تاريخ بغداد ٦/ ٩٩.
(٣) حلية الأولياء ٥/ ١٧.

التآخي والاستشفاء

للأخوة دور عظيم في دورات الاستشفاء، وهذه بعض آثارها:

1 ابدأ وعينك على القمم:

من فوائد ذكر الصالحين وضرب نماذج المتقين إبطال كيد الشيطان وإغاظته والنيل منه وغزوه في عقر داره، والأمر كما قال **الرافعي**: «فإن أسماء الزُّهّاد والعُبَّاد والصالحين هي في تاريخ الشياطين كأسماء المواقع التي تنهزم فيها الجيوش»(١).

ومن فوائدها كذلك معرفة قدر نفسك إن كان الغرور والعجب قد بدأ يتسلل إليك، فتقطع الطريق على الشيطان من البداية وتبطل كيده والغواية.

ومن فوائدها الارتقاء إلى سماوات القدوات إن كانت الدنيا قد أظلمت من قلة الصالحين وكثرة الرويبضات، والتطلع إلى اللآلئ الغالية بدلاً من التحديق في الأصداف الخاوية، وعندها «يحق لمن رأى الراحلين إلى الحبيب وهو قاعد أن يبكي، ولمن سمع بأخبار الواصلين وهو متباعد أن يقلق»(٢).

كُن كالصحابة في زهدٍ وفي ورع … القوم هُم ما لهم في الناس أشباهُ
عبَّاد ليل إذا جنَّ الظلام بهم … كم عابدٍ دمعه في الخدِّ أجراه
وأُسدُ غاب إذا نادى الجهاد بهم … هبُّوا إلى الموت يستجدون رؤياه
يا رب فابعث لنا من مثلهم نفرًا … يُشيِّدون لنا مجدًا أضعناه

وانظروا كيف حرص كل صالح -مهما بلغ من صلاحه- على صحبة من هو أفضل منه، وما لهذا المبدأ من أثر رائع لا يُتصوَّر، فسفيان **الثوري** الذي كان يُشبَّه في زمانه **بأبي بكر وعمر** في زمانهما يقول:

«إني لأشتهي من عمري كله أن أكون سنة واحدة مثل **عبد الله بن المبارك**، فما أقدر أن

(١) وحي القلم ١/ ٤٣٥- ط مؤسسة الرسالة.
(٢) المدهش ص ٥١٩.



أكون ولا ثلاثة أيام»[(١)].

لكن من هو **عبد الله بن المبارك**؟!

عبد الله بن المبارك إمام من أئمة السلف، ثري من أرباب الأموال، لكنه مع هذا زاهد مجاهد، عالم محدِّث حافظ، فضائله لا تُحصى، جمع خصائل الخير كلها وحاز من الفضل أعلاه، ويكفيك أن تعلم أنه حين اجتمع جماعة مثل **الفضل بن موسى** و**مخلد بن الحسين** و**محمد بن النضر** قالوا:

«تعالوا حتى نعُدَّ خصال **ابن المبارك** من أبواب الخير فقالوا: العلم، والفقه، والأدب، والنحو، واللغة، والزهد، والشعر، والفصاحة، وقيام الليل، والعبادة، والحج، والغزو، والشجاعة، والفروسية، والقوة، وترك الكلام فيما لا يعنيه، والإنصاف، وقلة الخلاف على أصحابه»[(٢)].

لذا وجب على **سفيان** مع جلال قدره وعلو شأنه أن يقتدي بهذه المنظومة الشمولية النادرة المتفرِّدة، لكن بمن كان يقتدي أمثال **عبد الله بن المبارك** إذا أصابهم الفتور وحلَّ عليه التعب من مواصلة السير؟!

قال **ابن المبارك** يومًا :

«إذا نظرت إلى **فضيل بن عياض** جُدِّد لي الحزن ومقتُّ نفسي»، ثم بكى[(٣)].

وكذلك كان **الربيع بن خيثم** يقارن نفسه دومًا بمن هو أعلى وأتقى، وهل هناك من هو أعلى من ذلك وأرقى؟! فيبكي حتى يبل لحيته من دموعه ويقول: «أدركنا قومًا كنا في جنوبهم لصوصًا»[(٤)]، وإذا كان **الربيع** يرى نفسه لصًّا في جنب هؤلاء فماذا أكون أنا وأنت؟

2 غيِّر وسطك تنطلق:

وهذا تفسير للمرض وليس بتبرير له، يعني أن هذا ليس عذرًا لك بل أنت مسؤول عن نفسك وعن تغيير نفسك؛ ولذلك ننادي دائمًا بأهمية الصحبة الصالحة والوسط الطيب كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿ **وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ**

(١) صفة الصفوة ٤/ ١٣٨.
(٢) تاريخ الإسلام.
(٣) تاريخ الإسلام.
(٤) الزهد للإمام أحمد ص ٤٦٩.

وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

تلك العناصر التي من صفاتها ما أخبرنا به ﷺ: «**إن من الناس ناسًا مفاتيح للخير مغاليق للشر**»(١).

وعندما يتعرض المسلم لفتنة ويبتليه ربه ليمحصه، أو يضعف إيمانه إثر غارة من غارات الأبالسة من الجن والإنس؛ يكون من عوامل الثبات أن يقيِّض الله له رجلاً صالحًا يعظه ويثبته، فتكون كلماته مرهم الجروح وبلسم الشفاء.

وهاك أخي، هذه الأمثلة من سيرة الإمام **أحمد** رحمه الله، الذي دخل المحنة ليخرج ذهبا نقيا.

يقول الإمام **أحمد** عن مرافقة الشاب **محمد بن نوح** الذي صمد معه في المحنة:

«ما رأيت أحدًا على حداثة سنه وقدر علمه أقوم بأمر الله من **محمد بن نوح**، إني لأرجو أن يكون قد خُتِم له بخير.

قال لي ذات يوم: يا أبا عبد الله، الله الله، إنك لست مثلي، أنت رجل يُقتدى بك، قد مدَّ الخلق أعناقهم إليك، لما يكون منك، فاتق الله، واثبت لأمر الله، فمات وصليت عليه ودفنته»(٢)، ونِعْم الأخوة..

كم من أخٍ لك لم يلده أبوكا ... وأخ أبوه أبوك قد يجفوكا
صافِ الكرام إذا أردت إخاءهم ... واعلم بأن أخا الحفاظ أخوكا
كم إخوة لك لم يلدك أبوهم ... وكأنما آباؤهم ولدوكا
لو كنت تحملهم على مكروهة ... تخشى الحتوف بها لما خذلوكا
وأقارب لو أبصروك مُعلّقا ... بنياط قلبك ثم ما نصروكا

إن الأخ الصالح هو الجماعة ولو كان واحدًا، ولقد كان **محمد بن أسلم الطوسي** الإمام

---

(١) حسن: رواه ابن ماجة عن أنس مرفوعا رقم: ٢٣٧ وانظر السلسلة الصحيحة رقم: ١٣٣٢.
(٢) سير أعلام النبلاء ١١/ ٢٤٢.



المتفق على إمامته مع رتبته أتبع الناس للسنة في زمانه حتى قال: ما بلغني سنة عن رسول الله ﷺ إلا عملت بها، ولقد حرصت على أن أطوف بالبيت راكبًا فما مُكِّنتُ من ذلك، فسئل بعض أهل العلم في زمانه عن السواد الأعظم الذين جاء فيهم الحديث: إذا اختلف الناس فعليكم بالسواد الأعظم، فقال: «**محمد بن أسلم الطوسي** هو السواد الأعظم»(١).

3 مرآة العيوب:

ومن فوائد الأخوة أنها مرآة العيوب وجهاز الاكتشاف المبكِّر لأمراض القلوب؛ لذا كان **بلال بن سعد** يقول لأخيه: «بلغني أن المسلم مرآة أخيه، فهل تستريب من أمري شيئًا؟!»(٢)، وروى **جعفر بن برقان عن ميمون بن مهران** قول **ميمون** له: «يا **جعفر**.. قل لي في وجهي ما أكره، فإن الرجل لا ينصح أخاه حتى يقول له في وجهه ما يكره»(٣).

وهي واحدة من أفضل الوسائل المؤدية إلى اكتشاف عيوب المرء ، وفي المثل الغربي : ما الحقيقة؟! قيل : انطباعات الآخرين.

فحقيقة نفسك هي ليس ما تراه أنت وتظنه فيك من مزايا أو عيوب ، بل ما يراه الآخرون فيك ، والآخرون عندنا هم أبناء الآخرة ، ومن أبناء الآخرة كان الشيخ المجدِّد وباعث النهضة الإيمانية في جيل صلاح الدين : الإمام **عبد القادر الجيلاني** الذي كان يطلب ممن يحضر دروسه هذا الطلب العجيب :

« اجعلني مرآتك ، اجعلني مرآة قلبك وسرك ، مرآة أعمالك ، ادْنُ مني ، فإنك ترى في نفسك ما لا تراه مع البعد عني ، إن كان لك حاجة في دينك فعليك بي ، فإني لا أحابيك في دين الله عز وجل »(٤).

فربىَّ بذلك الجموع الهادرة وأوقد الشعلة النائمة التي نمت بعد ذلك إلى أن صارت

---

(١) إغاثة اللهفان ١/ ٧٠.
(٢) حلية الأولياء ٥/ ٢٢٥.
(٣) السابق ٤/ ٨٦.
(٤) الفتح الرباني ص ٣٨

انتفاضة واعية ونهضة شاملة انتهت بتحرير المقدسات والصلاة في الأقصى مطهرًا من دنس الصليبيين.

أفهم أن يضل المسافر ساعة أو ساعتين، فإن طال غيابه فيومًا أو يومين، ثم يهتدي، فواعجبًا من تائه طوال عمره؛ ثم لا هو يهتدي ولا هو يسير مع المهتدين!!

يا من انحرف عن جادتهم كن فى أواخر الركب ونم إذا نمت على الطريق، فالأمير يراعي الساقة، وقد قالت امرأة فرعون من قبل: ﴿ رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ ﴾ [التحريم: ١١]، فقدَّمت الجار قبل الدار حين قالت ﴿ عِندَكَ ﴾ قبل ﴿ بَيْتًا ﴾، وقد قال الله تعالى عن بلقيس: ﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴾ [النمل: ٤٣]، فقد تأثرت بمن أحاط بها رغم ذكائها ورجاحة عقلها.

4 تقليد الإصلاح:

وهي حقيقة بشرية وخصلة إنسانية فطرية كما قرَّر ذلك **ابن تيمية**:

«فكم من الناس لم يُرِد خيرًا ولا شرًّا حتى رأى غيره، لا سيما أن كان نظيره يفعله ففعله، فإن الناس كأسراب القطا مجبولون على تشبه بعضهم ببعض؛ ولهذا كان المبتدئ بالخير وبالشر له مثل من تبعه من الأجر،.... وذلك لاشتراكهم في الحقيقة، وإن حكم الشيء حكم نظيره، وشبيه الشيء منجذب إليه»[١].

وقد ورد في الأثر تشبيه الأخوين باليدين تغسل إحداهما الأخرى، لأن اليدين دائما تتعاونان على غرض واحد، فكذا الأخوان إنما تتم أخوتهما إذا ترافقا في مقصد واحد فكانا كالشخص الواحد، وهذا يقتضي المواساة في السراء والضراء، والمشاركة في الحال والمآل، وغياب الأثرة والأنانية، وتبادل النصح والترحيب به؛ ولذا قال **علي بن أبي طالب** رضي الله عنه: الرجل بلا أخ كشمال بلا يمين.

وما المـــرء إلا بإخوانـــه ... كما يقبض الكف بالمعصم

---

(١) الاستقامة ٢/ ٢٥٤، ٢٥٥.

ولا خـــير في الكـــفّ مقطوعـــة ولا خير في الســـاعد الأجـذم

وكما أن عدوى الأمراض تنتشر فكذلك عافية الدواء تنتشر. قال **ابن القيم**:

«مجالسة العارف تدعوك من ست إلى ست: من الشك إلى اليقين، ومن الرياء إلى الإخلاص، ومن الغفلة إلى الذكر، ومن الرغبة في الدنيا إلى الرغبة في الآخرة، ومن الكبر إلى التواضع، ومن سوء الطوية إلى النصيحة»(١).

ولأن الفترة بعد النشاط فطرة، والعمل الدائم بلا وهن من سلوك الملائكة، كان الفتور متوقعًا، وكانت وصفة الأطباء لك أن تفتر -إن فترت- بين إخوانك، ولا تنعزل عنهم تحت ذريعة ملبيًا دعوة طبيبك الخاص **ابن القيم** حين أوصى: «يا من انحرف عن جادتهم: كن في أواخر الركب، ونم إذا نمت على الطريق، فالأمير يُراعي الساقة»(٢).

ابحث عنهم.. فتِّش عن مجالسهم تفتيشك عن الكنز ولهثك خلف الأموال.. فهم آخر سهم في كنانتك.. وربما كانوا قريبين منك لكنَّ بصرك أثَّرت فيه الأهواء حتى أضعفته، قال **ابن الجوزي**: «يا قليل الخبرة بالطريق: اطلب رفقة، إذا لم تعرف القبلة بالعلامات، ففي المساجد محاريب، إذا رأيت قطار التائبين متصلاً فعلِّق عليه»(٣).

ويساعد على هذا الإصلاح اتهام الإنسان نفسه إذا أحس منها بالنفور من أهل الخير والصلاح. قال عليه الصلاة والسلام: «**ما توادَّ اثنان في الله -عز وجل- أو في الإسلام، ففُرِّق بينهما إلا بذنب يُحدِثه أحدهما**»(٤).

ويؤكِّد هذا المعنى ابن الجوزي في معرض تعليقه على حديث «**الأرواح جنود مجندة**» فيقول: «ويُستفاد من هذا الحديث أن الإنسان إذا وجد من نفسه نفرة ممن له فضيلة أو صلاح، فينبغي أن يبحث عن المقتضي لذلك، ليسعى في إزالته حتى يتخلص من الوصف المذموم»(٥).

---

(١) المدارج ٣/ ٣٤٥.
(٢) الفوائد ص٤٣.
(٣) المدهش ص٢٦١.
(٤) صحيح: رواه البخاري في الأدب المفرد رقم: ٤٠١ وأحمد في المسند ٢/ ٦٨، وهو في السلسلة الصحيحة رقم: ٦٣٧.
(٥) فتح الباري ٦/ ٣٧٠.

5 الأنس وعدم الوحشة:

وفي صحبة الصالحين إيناس لوحشة الروح وتخلص من صعوبة التفرد كما حكاه **ابن القيم**:

«والقصد أن في ذكر هذا الرفيق ما يزيل وحشة التفرد ويحث على السير والتشمير للحاق بهم، وهذه إحدى الفوائد في دعاء القنوت: **اللهم اهدني فيمن هديت**، أي أدخلني في هذه الزمرة واجعلني رفيقًا لهم ومعهم»(١).

ولذا ذكر الله -تعالى- في القرآن نوعًا من العذاب في جهنم حين قال على لسان أهلها: ﴿**فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ۝ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ**﴾ [الشعراء: ١٠٠، ١٠١]، فعلَّمنا أن في النار عذابًا آخر غير الحرق والشواء، ألا وهو عذاب الوحدة والتفرد وعدم المشاركة في تحمل الآلام.

أنتم سروري وأنتم مشتكى حُزني ... وأنتم في سواد الليل سُمَّاري
أنتم وإن بعُدت عنا منازلكم ... نوازلٌ بين أسراري وتذكاري
فإن تكلمت لم ألفظ بغيركمُ ... وإن سكتُّ فأنتم عقد إضماري
الله جاركم مما أحاذره فيكم ... وحبي لكم من هجركم جاري

ولذا قيل في المثل: فَقْد الإخوان غُربة، وهؤلاء الإخوان هم الذين يشبهونك خُلُقًا وروحًا، وإلا كنت غريبًا ولو كان حولك ألف صاحب لكنهم لا يشبهونك!! وبهذه التجربة مرَّ الإمام العلامة المحدِّث الرحَّال **أبو سليمان الخَطَّابي**؛ وذلك حين شعر أنه غريب بين قومه وفي بلده «**بست**» حين لم يجد له شبيهًا في الهمة والهم والعزم والحزم، فانطلق شاكيًا يقول:

وإني غريبٌ بين بُسْتَ وأهلها ... وإن كان فيها أُسْرَتى وبها أهْلى
وما غُرْبَةُ الإنسان في غُرْبَةِ النَّوَى ... ولكنَّهَا والله في عَدَمِ الشكْلِ(٢)



(١) مدارج السالكين ١/ ٢٢.
(٢) مجمع الامثال ٢/ ٨٣.

مضاعفات القوة

وأعني بها هنا ما يقوي روابط الأخوة ويجعل قطعها من المستحيلات، وأولها:ذ

1 التماس العذر:

وإذا لم تقبل عذر إخوانك انفضوا من حولك وتركوك حائرا، تظن بمن حولك الظنون وتوزع عليهم الاتهامات وما العيب إلا فيك. قال حمدون القصار: «إذا زلَّ أخ من إخونكم فاطلبوا له سبعين عذرًا، فإن لم تقبله قلوبكم؛ فاعلموا أن المعيب أنفسكم، حيث ظهر لمسلم سبعون عذرًا فلم تقبلوه»[(١)].

إذا مـــا بدَتْ من صاحب لك زلة فكُنْ أنت محتالاً لزلّته عــذرا
أحب الفتى ينفي الفواحشَ سمعُه كأنَّ به عن كل فاحشة وقـرا
سليم دواعي الصدر لا باسطٌ أذى ولا مانعٌ خيرًا ولا قائلٌ هجــرا

وجعله الفضيل بن عياض أصل الفتوة ليس بضخامة الجسم واستعراض العضلات حين قال: «الفتوة: العفو عن عثرات الإخوان»[(٢)]، بل وهدَّد في نبرة جادة كل من أمسك بالمنظار المكبِّر ليفتش عن عيوب الإخوان ويُحصي زلاتهم فقال: «من طلب أخًا بلا عيب بقي بلا أخ»[(٣)]؛ لذا كان سلوك طريق المغفرة والتسامح هو سكة كل من يريد الإبقاء على إخوانه والمحافظة عليهم.

وكنـت إذا الصـديق أراد غيظـي وشـرَّقني علـى ظمـإ بريقـــي
غفـــرت ذنوبـه وكظمـت غيظـي مخافـة أن أعـيش بـلا صـديق

إن التسامح والعفو كذلك علامة من علامات المروءة، وسمة من سمات الأصل الكريم

---

(١) آداب الصحبة ص ٤٤.
(٢) السابق ص ٤٦.
(٣) شعب الإيمان ٦/ ٣٣٠.

والخلق السامي، كما عرَّف **عمر بن عثمان المكي** المروءة فقال: «المروءة التغافل عن زلل الإخوان»[١]، وقد حفلت قصائد الشعراء بهذا المعنى، **فالأبرش** يخاطب صاحبه الذي جفاه:

هبني أسأت كما زعمتَ ... فأين عاطفةُ الأخوة
ولئن أسأتُ كما أسأتَ ... فأين فضلك والمروة

والأصمعي يستعطف أخاه المخاصم له بتذكيره بعطف الله حين يقول:

أتيتك تائبًا من كل ذنب ... وخير الناس من أخطأ فتابا
أليس الله يُستعفى فيعفو ... وقد ملك العقوبة والثوابا

وهذا هو الصاحب الذي طالما بحث عنه الخليفة **المأمون** ولم يجده، وتمنى لو اشترى صحبة مثله ولو ضحَّى بالخلافة بأسرها، وذلك لما سمع **ابن العتاهية** يُنشد:

وإني لمحتاج إلى ظِلِّ صاحب ... يروق ويصفو إن كدرت عليه

فقال **المأمون**: « خذ مني الخلافة، وأعطني مثل هذا الصاحب »[٢].

وليس مجرَّد الرضا والصفاء فحسب بل طمِع **الصلاح الصفدي** في ما هو أكثر من ذلك وأكرم حين أمرك مع كل صاحب مروءة فقال:

صديقك مهما جنى غطِّه ... ولا تُخْفِ شيئًا إذا أحسنا
وكن كالظلام مع النار إذ ... يواري الدُّخان ويُبدي السَّنا[٣]

والأمر أبعد من مجرد هذا، بل هو شرط من شروط الأخوة من حققها استحق أن ينضم إلى قافلة الإخوان، ومن فرَّط فيها ظل منزويًا في دائرة المعارف، وممن طبَّق هذا المبدأ بصرامة **سفيان الثوري** الذي كان يقول: «إذا أردت أن تؤاخي رجلاً فأغضبه، ثم دُسَّ عليه من يسأله عنك وعن أسرارك، فإن قال خيرًا وكتم سرَّك فاصحبه»[٤].

---

(١) صفة الصفوة ٢/ ٤٤٠.
(٢) الكشكول ١/ ٣٠٢.
(٣) حكم وأخلاق عربية محمد المكي بن الحسين ص ٢٣ –الدار الحسينية للكتاب ط ١٤١٦ –١٩٩٥.
(٤) الإحياء ٢/ ١٧٩.

وهو نفس مذهب الفضيل بن عياض الذي قال: إذا أردت أن تصادق صديقًا فأغضبه، فإن رأيته كما ينبغي فصادقه.

قال ابن الجوزي معلِّقًا: «وهذا اليوم مخاطرة، لأنك إذا أغضبتَ أحدًا صار عدوًّا في الحال»[(١)].

كان في زمانهم مخاطرة، أما اليوم فهو انتحار!! فقد شحَّت النفوس وضاقت الصدور، إلا ما بقي من إخوان صدق أحيوا ما اندرس وأعادوا ما سلف.

أخ يخاصم أخًا له صحِبه دهرًا، وذلك من أجل زلة لسان أو فورة في لحظة غضب؟! ثم يحسبها أخوة في الله ويطلب بها الاستظلال في ظل عرش الرحمن!!

ممنوع العتاب!!

ولأن العتاب مقدمة القطيعة وطليعة الفرقة، فقد اجتنبه الإخوان، ولما جرى بين أبي العباس محمد بن صبيح الكوفي الزاهد الشهير بابن السماك وبين أخ له خلاف أورث كدرًا في القلب، فقال له صديقه: الميعاد غدًا نتعاتب، فقال: «بل الميعاد غدًا نتغافر»[(٢)].

وذلك لعظيم فقهه رحمه الله، ولإدراكه أن الأخوة الإيمانية تقوم أساسًا على محبة الخير للإخوان، والخير كل الخير في مسامحة أخيك واجتياز أبواب الجنة وأنت ممسك بيده، وكل ما يحول بينك وبين هذا فهو عائق لا بد لك من إزالته، وعقبة لابد من تحطيمها، وأعظم هذه العوائق والعقبات: الذنوب، ومن هنا كان من الأجدر إذا جرى بينك وبين أخيك مشاحنة أن تكون عينك على ذنبك وذنبه، فيكون خوفك من أن يكون ملك السيئات قد خطَّ عليك أو عليه خطيئة، وحتى إن أساء عليك فعليك أن تحزن عليه لا منه، فتلتقي به في أول لقاء ترجو منه المغفرة وتناشده العفو (**نتغافر**)، لا أن يرمي كل منكما صاحبه بالتهم ويلقي عليه باللائمة (**نتعاتب**) كما يفعل أبناء الدنيا وإخوان المصالح، وعندها تبقى المحبة وتدوم، المحبة في الله وحدها هي التي تدوم.

---

(١) صيد الخاطر ص ٣٨٥.

(٢) شعب الإيمان ٦/ ٣٢٤.

وكــــل محبـــة في الله تبقـــــى ... على الحـالين مـن فـرج وضـيق
وكــل محبــة فيمـــا ســـواه ... فكـالأخشاب في لهب الحريـق

جهابذة المروءة!!

إنها نفسية النبلاء وأصحاب المروءات، وهل مثل عبد الله بن المبارك من معلِّم مروءة فذٍّ وأستاذ الأساتذة في الهمم العالية، وانظر حين صحب رجلا سيئ الخُلق في سفر، فكان يحتمل منه ويُداريه فلما فارقه بكى!! فقيل له في ذلك، فقال:

«بكيتُه رحمة له، فارقته وخُلُقُه معه لم يفارِقه»[(١)].

وهو ما يبلغ بالأخ المسلم مقام الفتوة الحقة، فليست الفتوة بالصرعة والبطش وشدة البأس، وإنما هي احتمال الإساءة والأذى ثم ردِّهما على صاحبهما إحسانًا وندى، وقد جعلها أبو حاتم محمد بن حبان البستي من واجبات الأخوة الحقة ولوازمها، فضلًا عن كونها من علامات العقلاء كما ذكر ذلك في كتابه روضة العقلاء، حيث قال رحمه الله:

«الواجب على العاقل إذا رزقه الله وُدَّ امرئ مسلم صحيح الوداد محافظ عليه: أن يتمسك به، ثم يوطِّن نفسه على صلته إن صرمه، وعلى الإقبال عليه إن صدَّ عنه، وعن البذل له إن حرمه، وعلى الدُّنُو منه إن باعده، حتى كأنه ركن من أركانه، وإن من أعظم عيب المرء تلونه في الوِداد»[(٢)].

2 الزيارة :

قال ﷺ: **«والرجل يزور أخاه في ناحية المصر في الله في الجنة»**[(٣)].

وقد سبق وأن طاب قلب رجل صالح فطاب ممشاه في زيارة إخوانه، ومتى صدقت نية المرء زالت كل عقبة ولو كانت الجبل، وبلغ المراد ولو كان السحاب. قال **عبد الله بن الإمام أحمد:**

---

(١) الإحياء ٣/ ٥٢.
(٢) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء ١/ ١٠٣ – ط دار الكتب العلمية بيروت.
(٣) حسن: رواه الدارقطني في الأفراد والطبراني عن كعب بن عجرة ، وحسنه الألباني رقم: ٢٦٠٤.

«لما أُطلق أبي من المحنة خشي أن يجيء إليه إسحاق بن راهويه، فرحل أبي إليه، فلما بلغ الري دخل إلى مسجد، فجاء مطر كأفواه القِرَب، فلما كانت العتمة قالوا له: اخرج من المسجد، فإنا نريد أن نغلقه، فقال لهم: هذا مسجد الله وأنا عبد الله، فقيل له: أيهما أحب أن تخرج أو نجُرَّ رجلك. قال أحمد: فقلت سلامًا، فخرجت من المسجد والمطر والرعد والبرق، فلا أدري أين أضع رجلي ولا أين أتوجه، فإذا رجل قد خرج من داره، فقال لي: يا هذا!! أين تَمُرُّ في هذا الوقت؟! فقلت: لا أدري أين أمر، فقال لي: ادخل، فأدخلني دارًا ونزع ثيابي وأعطوني ثيابًا جافة وتطهرت للصلاة، فدخلت إلى بيت فيه كانون فحم ولبُّود ومائدة منصوبة، فقيل لي: كُل، فأكلت معهم، فقال لي: من أين أتيت؟! فقلت: من بغداد، فقال لي: تعرف رجلاً يقال له أحمد بن حنبل، فقلت: أنا أحمد بن حنبل، فقال لي: وأنا إسحاق بن راهويه»[1]. لسان الحال:

ولو قطعوا رجلي مشيتُ على العصا   وإن قطعوا الأخرى حبوتُ حبوتُ
ولو دفنوني تحت ألفي قامة   تخلخلت من بين التراب وجئتُ

والأخ في الله مشغول بألوان الطاعات قد تشغله كثرة الواجبات وقلة الأوقات عن كثرة الزيارات وتبادل الصلات، لكن إن لم تلتقِ الأجساد وتباعدت البلاد فإن الأرواح متصلة وتتعانق، وهذه علامة فارقة من علامات الأخوة في الله، فأخو الدنيا يخاصمك إذا لم تصله وترد له الزيارة بمثلها، لكن أخا الدين يعذرك ويدعو لك بظهر الغيب أن يعينك الله على ما شُغِلت به من الخير.

أبلغ أخاك أخا الإحسان بي حُسنًا   إني وإن كنتُ لا ألقاه ألقاه
فإن طرفي موصولٌ برؤيته   وإن تباعد عن مثواي مثواه

وفهم سلفنا الصالح هذا المعنى فهمًا عميقًا وترجموه واقعًا ملموسًا وأحداثًا يومية، فكان بين عبد الرحمن بن مهدي ويحيى بن سعيد القطان مودة وإخاء، فكانت تمرُّ السنة عليهما لا يلتقيان، فقيل لأحدهما في ذلك فقال:

(١) مناقب أحمد لابن الجوزي.

«إذا تقاربت القلوب لم يضر تباعد الأجسام»[(١)].

وروي أن يونس بن عبيد أصيب بمصيبة، فقيل له : ابن عوف لم يأتك؟! فقال : « إنا إذا وثقنا بمودة أخينا لم يضرَّه أن لا يأتينا »[(٢)].

فكل أخوة لا تزداد إلا باللقاء وكثرة المجالسة بينها وبين الأخوة الحقيقية مسافة كبيرة، ومن هنا قال الحسن بن صالح :

« كل مودة لا تزداد إلا بالالتقاء مدخولة »[(٣)].

3 النصح:

قال **عمر بن عبد العزيز**: «من وصل أخاه بنصيحة له في دينه ونظر له في صلاح دنياه، فقد أحسن صلته وأدى واجب حقه، فاتقوا الله فإنها نصيحة لكم في دينكم فاقبلوها، وموعظة منجية في العواقب فالزموها»[(٤)].

أم أننا كبرنا على النصح، وتخرجنا من جامعة الهداية، فلم نعد نقبل أن ينصحنا تلامذة الأمس وأبناء البارحة، رغم أن كثرة النصح ودوامه والتماسه من الغير تسهِّل اكتشاف العيب فوق ظهوره، وتتيح للمرء أن يصححه على الفور، بعكس ما إذا طالت المدة واتسعت الخروق وكثرت العيوب؛ لذا كان المريض الذكي هو من يقصد إخوانه فيطلب منهم النصح لا أن ينتظرهم حتى ينصحوه.

وكان من الذكاء كذلك أن يدفن المريض نفسه وسط جموع الصالحين وكثرة من المتقين؛ ولذا كان العمل الجماعي أعظم بركة لكونه أسرع بيئة يُكتشف فيها الخطأ ويقوَّم فيها الزلل وفي الحال.

واعلم أنه ليس من علامات الأخوة الصادقة موافقة الأخ أخاه إذا خالف الحق، بل في مخالفته في ما ذهب إليه من الباطل، فقد كان **الشافعي** مؤاخيًا **لمحمد بن عبد الحكم**، وكان

(١) الآداب الشرعية ٣/ ٥٦٥.
(٢) روضة العقلاء ص ٨٩.
(٣) روضة العقلاء ص ١١٦.
(٤) تاريخ الطبري ٤/ ٧١.

يقرِّبه ويُقبِل عليه ويقول ما يقيمني بمصر غيره، وظن الناس لصدق مودتهما أنه سيفوِّض أمر حلقته إليه بعد وفاته، فقيل **للشافعي** في علته التي مات فيها: إلى من نجلس بعدك يا أبا عبد الله؟! فاستشرف له **محمد بن عبد الحكم** وهو عند رأسه ليومئ إليه، فقال **الشافعي**: سبحان الله!! أيُشك في هذا.. **أبو يعقوب البويطي**، فانكسر لها **محمد**، ومال أصحابه إلى **البويطي** مع أن **محمد بن عبد الحكم** كان قد حمل عن **الشافعي** مذهبه كله، لكن **البويطي** كان أفضل وأقرب إلى الزهد والورع (١).

وحين يختفي النصح من دوائر الإخوان وينقلب سكوتًا عن الانحرافات والتجاوزات؛ عندها تكون الأخوة في الله قد لفظت أنفاسها الأخيرة وانتقلت إلى جوار ربها.

وما أحلى مواعظ **ابن الجوزي** في المدهش ومنها:

«لو صحَّ مزاج فطرتك حلا طعم النصح في فمك، المفروض عندك مرفوض، وكلام النصيح صوت الريح» (٢).



الأخوة الخاصة:

والمقصود بها هنا: الاختيار والاصطفاء من بين زمرة الأصدقاء ليكون منهم خليلك وصفيك الذي تبثه نجواك، وتتعاون معه على مرضاة الله، وهو مع ما فعله النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار، فمع أخوة الإيمان العامة بين كل المؤمنين؛ فقد آخى النبي ﷺ بين **سلمان وأبي الدرداء**، وبين **عوف بن مالك** وبين **الصعب بن جثامة**، وبين **سعد بن الربيع وعبد الرحمن بن عوف**، وبين **عتبة بن غزوان وعباد بن بشر**، وبين **حاطب بن أبي بلتعة وعويم بن ساعدة**، وبين **طلحة ابن عبيد الله وكعب بن مالك**، وبين **عثمان بن عفان وأوس بن ثابت**، وهكذا وجد كل مهاجر أخًا أنصاريًّا خاصًّا فضلاً عن أخوته مع جميع الصحابة.

وهذا الأمر في حاجة مع الاختيار إلى الاختبار، وبعد الاختبار إما النجاح والانضمام إلى قائمة الإخوان، أو السقوط والبقاء في دائرة الأصدقاء أو جملة المعارف، وهو منهج سار عليه

---

(١) الإحياء ٢/ ١٨٧ بتصرف واختصار.
(٢) المدهش ص١٩١ - دار الكتب العلمية

سفيان الثوري حتى تمثل قول الشاعر:

ابلُ الرِّجال إذا أردت إخاءهـم　　وتوسَّمـــن أمورهـــم وتفــقَّدِ
فإذا وجدتَ أخا الأمانة والتُّقى　　فبه اليدين قريرَ عينٍ فاشْـدُدِ

وكلما استكثر الواحد من هذه الأخوة كلما كانت فرصه في النجاة أوفر وإحرازه للفوز أرجى؛ لذا أوصى بعض السلف: «استكثروا من الإخوان، فإن لكل مؤمن شفاعة، فلعلك تدخل في شفاعة أخيك»(١).

5 الإعانة على الخير:

عن **معاذ بن جبل** ﷺ أن رسول الله ﷺ أخذ بيده يومًا ثم قال: **يا معاذ!! والله إني لأحبك**، فقال له **معاذ**: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، وأنا والله أحبك. قال: **أوصيك يا معاذ.. لا تدعن في دبر كل صلاة أن تقول: «اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»**، وأوصى بذلك **معاذ الصنابحي**، وأوصى بها **الصنابحي أبا عبد الرحمن**، وأوصى بها **أبو عبد الرحمن عقبة بن مسلم**(٢).

وكأنه عهد تتوارثه الأجيال ويناوله السابق إلى اللاحق، ثم تأمل أخذ النبي ﷺ بيد **معاذ** تأكيدًا على أنه عقد محبة وبيعة مودة، وتعليمًا لنا أن المحبة لا تدوم ولا تثبت إلا في ظل التواصي بالخير.

وكلما كانت إعانتك لأخيك على الخير أشد كنت من الله أقرب وإليه أحب، وهذا وعد نبيك الكريم ﷺ الذي بشَّرك: «**خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه**»(٣).

وهذه الخيرية تشمل خير الدنيا من إنفاق مال وإهداء هدية وسعي في قضاء حاجة، وخير الآخرة من نصح وإعانة على الطاعة.

ولا تُميَّز أخوة الدين عن أخوة الدنيا إلا بمثل هذا، ولهذا كان الصحابة لا يفترقون إلا

---

(١) الإحياء ٢/ ١٧١.
(٢) صحيح: رواه أبو داود والنسائي واللفظ له كما في صحيح الترغيب والترهيب رقم: ١٥٩٦.
(٣) صحيح: رواه أحمد والترمذي والحاكم كما في صحيح الجامع رقم: ٣٢٧٠.

على سورة العصر مذكِّرين بعضهم بعضًا بشرط مهم من شروط الأخوة الإيمانية: ﴿ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴾.

وإذا كانت الأخوة عندهم كذلك فإن الدنيا لا تدخل في حسابات الأخوة بشيء، فلا يتنازعون عليها ولا يختلفون بسببها، وقد رُوي أنه كان رجلان متآخيين في الله، فطلب أحدهما من صاحبه شيئًا فمنعه، فلم يتغيَّر له عن حاله، فقال له:

يا أخي.. سألتني حاجة فما قضيتُها فما تغيَّرت لي؟! قال: إنما أحببتك لأمر فلم تتغير عن الذي أحببتك من أجله، فأنا لا أتغيَّر لك وإن منعتني، فقال الآخر: إنما منعتك لأُجرِّبك، فمُدَّ يدك الآن إلى ما شئت من مالي فخذه، فما أنا بأحق به منك!!

وهذا التعاون أوجب وأهم وأحوج ما يكون في أمر الدعوة إلى الله ، ليشدَّ الأخ أزر أخيه ، ويتقوى به على أعلى العبادات مقامًا وأشرفها عند ربها ، كما شدَّ الله أزر نبي من أنبيائه بنبي مثله ، فقال الله تعالى لموسى عليه السلام : ﴿**سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ**﴾ [القصص : ٣٥] مع أن **موسى** من أولي العزم من الرسل ، لكن الله أيَّده بأخيه **هارون** ليربينا على هذه السنة الإلهية وندرك **أثرها** على البركة الدعوية.

وفهمها **ورقة بن نوفل** بديهة ومن أول لحظة فبذل الوعد للنبي ﷺ: «وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا» ، أي أعاونك وأؤيدك في نشر دعوتك.

ولأن نسب الأنبياء متصل ، فقد طلب النبي ﷺ هذه الإعانة والنصرة من قومه ، وذلك على مدار عشر سنين كاملة إمضاء للسُنَّة نفسها ، وهو ما حكاه جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال :

«مكث رسول الله ﷺ بمكة عشر سنين يتبع الناس في منازلهم بعكاظ ومجنة وفي المواسم بمنى يقول: من يؤويني؟! من ينصرني؟! حتى أبلِّغ رسالة ربي وله الجنة»(١).

وما زال صدى هذه الكلمات يتردد يطلب منا النصرة والتكاتف لتبليغ الرسالة وافتداء الدين ، في ظل حركة واجبة وتعاون أوجب يوصل إلى الهدف أسرع ويجعل الأداء أروع.

---

(١) صحيح : رواه الإمام أحمد في مسنده حديث رقم : ١٣٩٣٤. قال الشيخ شعيب الأرناؤوط : إسناده صحيح على شرط مسلم.

استشارة قلبية

إذا صاحبت الصالحين ومع ذلك لم تتغيَّر، ولم تتقدم خطوة في ميدان الطاعات، وأخذت هذا الدواء ولم تتعاف، فلابد لك من مراجعة طبيب حاذق، وأنا أوصيك أن تراجع مرة أخرى الطبيب القلبي البارع: **ابن قيم الجوزية** الذي قال:

«الاجتماع بالإخوان قسمان: أحدهما: اجتماع على مؤانسة الطبع وشغل الوقت، فهذا مضرته أرجح من منفعته، وأقل ما فيه أنه يفسد القلب ويضيع الوقت.

الثاني: الاجتماع بهم على التعاون على أسباب النجاة والتواصي بالحق والصبر، فهذا من أعظم الغنيمة وأنفعها، ولكن فيه ثلاث آفات:

إحداها: تزيُّن بعضهم لبعض.

الثانية: الكلام والخلطة أكثر من الحاجة.

الثالثة: أن يصير ذلك شهوة وعادة ينقطع بها عن المقصود، وبالجملة فالاجتماع والخلطة لقاح؛ إما للنفس الأمارة، وإما للقلب والنفس المطمئنة، والنتيجة مستفادة من اللقاح، فمن طاب لقاحه طابت ثمرته، وهكذا الأرواح الطيبة لقاحها من المَلَك، والخبيثة لقاحها من الشيطان، وقد جعل الله سبحانه بحكمته الطيبات للطيبين والطيبين للطيبات، وعكس ذلك»[1].

---

(١) الفوائد ص ٥١، ٥٢.



سابعًا: البيت الجديد

أعني بالبيت الجديد: القبر، وهذه التربية على ذكر الموت وما بعد الموت هي التربية التي نقل بها **عمر بن عبد العزيز** بني أمية نقلة نوعية تاريخية من الإغراق في الترف إلى الإغراق في العمل، والدواء الذي استطاع أن يعالج بها انحراف الأمة عن نهجها القويم سنين، ووالله ما كان يستطيع **عمر** أن يفعل ما فعل لولا إشاعة ذكر الموت في القلوب، وذلك عبر سلسلة من المواعظ القولية والمواقف العملية اليومية، ومن ذلك ما رُوِي عنه أنه لما دخل عليه **عنبسة بن سعيد بن العاص** قال: يا أمير المؤمنين!! إن من كان قبلك من الخلفاء كانوا يعطون عطايا منعتناها ولي عيال وضيعة، أفتأذن لي أن أخرج إلى ضيعتي وما يصلح عيالي؟! فقال **عمر**: أحبكم إلينا من كفانا مؤونته، فخرج من عنده، فلما صار عند الباب قال **عمر**: أبا خالد!! أبا خالد!! فرجع فقال: «أكثر من ذكر الموت فإن كنت في ضيق من العيش وسَّعه عليك، وإن كنت في سعة من العيش ضيَّقه عليك»(١).

وإننا حين نذكر الموت نذكر شدته وسكرته وكربته، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه لما تغشاه الموت جعل يمسح العرق عن وجهه ويقول: «**سبحان الله.. إن للموت لسكرات**»، وانظروا إلى **أبي بكر** ﷺ لما ثقل عليه الموت جاءته **عائشة** -رضي الله عنها- فتمثلت بهذا البيت:

لعمرك ما يغني الثراء عن الفتى ... إذا حشرجت يومًا وضاق بها الصدر

فكشف عن وجهه وقال ﷺ: ليس كذلك ولكن قولي ﴿**وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ**﴾ [ق: ١٩].

فلما علم الله استبعاد الكافرين ومرضى القلوب الغافلين للبعث والجزاء عبَّر عنه بلفظ الماضي، وسكرة الموت هي شدته المذهبة للعقل، حين يختل الإدراك ويعتري العقل غيبوبة،

---

(١) الحلية ٥/ ٢٦٥.

وهي مشتق من السَّكْر وهو الغلق لأن العقل يُغلق عندها، ومنه جاء وصف السكران، وما أصدق قول القائل:

قالـوا صف الموت يا هذا وشـــدَّته ... فقلـت وامتد مني عندها الصوت
يـكفيـكم منه أن النـاس إن عجـزوا ... عن وصـف ضربهم قالوا هو الموت

الموت هو السفرة العظمى التي يسافرها الأمير مع الفقير لا يتمايزان. وقف **عبد الملك بن مروان** على قبر **معاوية بن أبي سفيان** ﷺ وقفة اعتبار وتأمل، فقال: الحمد لله عشرين سنة أميرًا، وعشرين سنة خليفة، ثم صرتَ إلى هذا.

هـل الـدهـر والأيـام إلا كـمـا تـرى ... رزِيَّـة مــال أو فــراق حبيــب[1]

ولما مات **عبد الملك بن مروان** وجد من يعتبر بموته من بعده كما اعتبر هو من قبل بمصرع **معاوية**، فعن **ابن سابط الجمحي** أنه خرج من قنسرين وهو قافل قال: فأشار لي إنسان إلى قبر **عبد الملك بن مروان**، فوقفت أنظر فمر رجل من العباد فقال: لم وقفت ها هنا؟! فقلت: أنظر إلى قبر هذا الرجل الذي قدم علينا مكة في سلطان وأمن، ثم عجِبت إلى ما رُدَّ إليه، فقال: ألا أخبرك خبره لعلك ترهب؟ قلت: وما خبره؟! قال: هذا مَلِك الأرض بعث إليه ملك السماء والأرض، فخلع روحه، فجاء به أهله، فجعلوه ها هنا حتى يأتي الله به يوم القيامة مع مساكين أهل دمشق»[2].

كم قد توارث هذا القصر من ملك ... فمات والوارث الباقي على الأثر

(١) الاعتبار وأعقاب السرور والأحزان ص ٧٢.
(٢) الاعتبار وأعقاب السرور والأحزان ص ٧٢.

مضاعفات القوة

1 اسمع كلام الموتى:

من رأى قبرًا فإنما رأى أعظم واعظ وأدوم مذكِّر، وإن كان القبر صامتًا لكنه ناطق، وإن كان جامدًا لكنه يحرِّك الجماد، فكأنه إنسان يخاطبك ويبين لك عاقبتك ويقول لك: يا هذا!! قد كنتُ حيًّا مثلك ومت وأنت كذلك ميِّت، وضيَّعت أمر ربي وندمت فلا تشبه أخاك في خيبته، ولا تضيِّع أمر ربك فتهلك.

ووالله ما وقف عاقل على شفير قبر فرآه محفورًا إلا هيأ نفسه أن لو كان صاحب هذا القبر، ولا حضر جنازة فرأى صاحبها يُدَلَّى في الحفرة إلا سأل نفسه: على من يُغلق؟! أيغلق على طائع أم عاصي؟! وعلى أي شيء يُغلق؟! أعلى نار موقدة أم على جنة وارفة؟!

إن التفكر والدعاء واجبان لازمان عليك تجاه نفسك وتجاه كل من مررت بهم من أموات؛ من عرفت منهم ومن لم تعرف، وإلا استحققت أن يُطلق عليك لقب الخائن كما في قاموس **حاتم الأصم** الذي قال: «من مرَّ بالمقابر فلم يتفكر لنفسه ولم يدعُ لهم، فقد خان نفسه وخانهم»[(١)].

وكانت توبة كثير من الصالحين تبدأ من ناحية القبور، ومن ضمن هؤلاء: داود الطائي، فقد كان أول ما بدأ أمر عبادته أنه مرَّ بجارية وهي تبكي أباها وتقول:

يا ليت شعري .. بأي خديك بدأ البلى؟! فأُجيبت:

«بخده اليمنى؛ فإنها التي تلي الثرى»[(٢)].

ومن هنا رأينا أن نضمِّن كان من برنامج العلاج أن يمر صاحبنا المريض بهذه التجربة، فيمر

---

(١) الإحياء ٢/ ٢١٠.

(٢) الزهد للبيهقي ص ٢٠٩.

على مقابر الأموات عساها تبعث في قلبه الحياة، ودخل المقبرة.. كانت رائحة الموت في كل ناحية، والبوم تنعق فوق شجرة جرداء ميتة، وكأن الشجر أصر على أن يشارك الأموات موتهم، والسكون يلف المكان كله، فَعَلَت الزائر رهبة لكنها رهبة مدروسة، واعتراه خوف لكنه جزء من برنامج العلاج، وشرط لازم لبلوغ أولى مراحل الشفاء، وتقدم أخيرًا نحو المقبرة فإذا على البوابة لوحة رخام مكتوب عليها:

ألا قــل لمــاشٍ علــى قبرنــا   جهــول بأشـياء حلـت بنـا

ســيندم يومــا لتفــريطه   كمــا قــد نــدمنا لتفريطنــا

فويحــك كُــفَّ خطـام الهـوى   وقَــدِّم جميــلا تفُــز بـالمنى

فارتعد واضطرب وأحس أن كل ميت يخاطبه بهذه العبارة، وأنها قامت مقام تحية الزوار حين عجزت ألسنة الموتى عن النطق والكلام، فتحركت قدماه ببطء وكأنه يزحف، واجتاز البوابة ليجد القبر الأول أمامه، حاول أن يقرأ اسم صاحبه لكنه كان غير واضح، كانت الرياح قد محته من على لوحة الرخام كما محته الأيام من ذاكرة الأحباب والإخوان، لكنه استطاع أن يقرأ كلمات لم تمح، لم تستطع الأيام أن تمحوها على الرغم من طول عمر المقبرة، ربما لأن معانيها ثابتة لا تتغير، أو لأن الله أراد لنا أن ننتفع بها فحرَّم على أي من خلقه أن يمحوها، دقَّق النظر فوجد مكتوبًا:

قف واعتبر فكأنْ قـد   حللــت هـذا المحـلا

هـذا مكـان يســاوي   فيــه الأعــز الأذلا

مـا كـان لـي من صديـق   إلا جفــاني ومــلا

ومــا جفـاني ولكــن   طــال المـدى فتسـلى

فازداد حسرة على حسرته، وأحس بوحشة هذا القبر وغربة أهله وبؤس ساكنه، وزاد من هذه الحسرة مروره على القبر الثاني الذي لمح فيه نفس المرارة، كان قبر شاعر فضح أصحابه في وجوههم قبل موته وقد اجتمعوا حول سريره وهو يحتضر، وفضحهم بعد موته بأن أوصى أن يُكتب على قبره:

وعمــا قليل لن ترى لـي باكيـًا   سيضحك من يبكي ويُعرِض عن ذكري

ترى صاحبي يبكي قليلا لفرقتي ويضحك معْ غيد الحسان على قبري
ويُنشئ إخوانا وينسى مودتي وتشغله الأحباب عني وعن ذكري

وثالث استبق الأحداث، وتنبأ بما سيجري في المستقبل، وتأكَّد أن الطي في مجاهل النسيان سيكون مصيره، فأوصى أن يُكتب على قبره:

ملَّ الأحبة زورتي فجُفيتُ وسكنتُ في دار البلى فنُسيت
الحي يكذب لا صديق لميِّت لو كان يصدق مات حين يموت

ومرَّ بقبر رابع وكان صاحبه هو أبا بكر محمد بن أبي مروان بن زهر، وكان طبيب عصره حيث كان طبيب أشبيلية الأوحد حيث النعيم والترف والغنى والمال الذي لا منتهى له ولا حد ولا عدد، لكن بماذا أوصى هذ الغارق في النعيم حتى منتهاه؟! اسمعوا ما أوصى بكتابته على قبره مَن طالما شفى وأبرأ وداوى وأراح:

ترحَّم بفضلك يا واقفًا وأبصِر مكانًا دُفِعنا إليه
تراب الضريح على صفحتي كأنيَ لم أمشِ يومًا عليه
أداوي الأنام حذار المنون فها أنا قد صرتُ رهنًا لديه

وخامس أطال الأمل فأساء العمل، ويبدو أن الوقت كان قد تأخر عليه، فقد أفاق لكن في الوقت الضائع، وتاب لكن عند رؤية ملك الموت، فأراد أن ننتفع إن فاته هو الانتفاع، وأن نعمل إن هرب من بين يديه العمل، وأن نجتهد ما دامت فينا الروح لم تُنزع بعد، فانطلق يصرخ فينا:

يا أيها الناس كان لي أمل قصَّر بي عن بلوغه الأجل
فليتق الله ربه رجلٌ أمكنه في حياته العمل
ما أنا وحدي نُقلت حيث ترون كلٌّ إلى مثله سينتقل

وهنا.. وبعد المقبرة الخامسة بدأ يلمح فاعلية هذا الدواء وأثره على القلب ودوره في إعادته إلى الصحة المنشودة والعافية الضائعة وتنسمه لنسيم الهداية بعد أن ظل مزكومًا من

زمن، فازداد عزمًا وحماسة على إكمال المشوار، والاستمرار في تلقي رسائل الأموات، فمرَّ بالقبر السادس، فوجد هذه القصة منقوشة عليه:

الموت أخرجني من بيت مملكتي والترب مُضَّطجعي من بعد تشريف
لله عبد رأى قبـــري فأعبـــره وخاف من دهره ريب التصـــاريف
هذا مصير بني الدنيا وإن نعمـوا فيهـــا وغرَّهم طول التســـاويف
أستغفر الله من جرمي ومن زللي وأسأل الله فوزا يـــوم توقيـــف

فأحس أن من أوصى بكتابة هذه السطور كان ملكًا مطاعًا أو أميرًا سيدًا في قومه حتى زاره الموت وانتزعهِ من هذه السطوة وانتشله من بين كل هذه الأُبَّهة، وألقى به في هذه الحفرة المسماة عند أهل الدنيا قبرًا، فأيقن أن الدنيا وإن بلغت به أعلى مراقيها فلابد أن ينزل به الموت إلى أدنى مهاويها، واستمرت الرحلة حتى وصلت إلى القبر السابع، وكان ما كُتِب عليه أشبه بالبكاء، حتى لكأن المداد الذي كُتِب به هو دموع صاحب هذا القبر، فماذا كتب؟!

ما حال من سكن الثرى ما حاله أمسى وقد صُرِمت هناك حباله
أمســـى ولا روح الحياة يصيبه يومـًا ولا لطـف الحبيب يناله
أضحـــى وحيدًا موحشًا متفردًا متشتتا بعـد الجميـــع عيالـه
أمسى وقد بَلِيَتْ محاســـن وجهه وتفرَّقـــت في قبره أوصالـــه
واستبدلت منه المجالـــس غيره وتقسَّمـــت من بعـــده أموالـه

وثامن تنبأ بما سيفعله أهله من بعد، سيذكرونه يومًا أو يومين، فإن علا قدره فشهرًا أو شهرين، ثم يكون ما كُتِب:

وأصبح مالُكَ المجموع نهبًا وعُطِّل بعدك القصر المشيد
وصار بنوك أيتامًا صغارًا وعانق عرسَك البعلُ الجديد

ومرَّ بتاسع قبر وكان في بستان كثير النخل والرمان وأصناف الشجر، لكن هل كان الأمر كذلك تحت الأرض؟! اسمعوا ما كتب صاحب هذا القبر لتعرفوا:

كـــم ســـاكنٍ في حفـــرة يبلـــى جديـــد جمالـــه

تــــــرك الأحبــةَ بعــــده يتلـــــــــذُّذون بمالـــــه

وكان القبر العاشر آخر قبر وهو متمِّم الشفاء ومسك الختام، وكان صاحبه مدفونا على قارعة الطريق واسمه **أبو هريرة بن النقاش**، وهو الذي أوصى بدفنه في هذا المكان بذكائه وفطنته ليترحم عليه كل من يمر على قبره، وأوصى أن يُكتب على القبر:

بقارعة الطريق جعلتُ قبري لأحظى بالترحُّم من صديـــق

فيا مولى الموالي أنت أولــى برحمة من يموت على الطريق

2 ربط الموت بالعمل:

حقيق بالمسافر أن يأخذ أهبة الرحيل وحوائج السفر وما يصلح لمنزل الإقامة المقبل، ويبادر بالعمل خوف المفاجأة، ومن احتدت عين بصيرته زاد في الجد وأحسن اختيار الزاد.

يا أخي.. كل امرئ على ما قدَّم قادم وفيما شيَّد خالد، فما الذي قدمت لنفسك؟! فلا بد لمن ذكر الموت حق ذكره أن يظهر ذلك على عمله جليًّا، فما الذي ظهر على عملك؟! إن المنية تقطع الطريق على الأمنية فاقطع أنت عليها الطريق بالعزمة الفتية.

لقد أوصانا رسول الله ﷺ أن نذكر الموت في صلاتنا، فنصلي صلاة مودِّع، وعلى العاقل أن ينسج على نفس المنوال ويفهم ما وراء رسالة الحبيب، فإذا تصدق ذكر الموت فأخلص وأكثر ثم تواضع وخشع، وإذا ظلم ذكر الموت فتاب على الفور وأدى الحقوق إلى أهلها لا يسوِّف أو ينتظر لأن الموت لن ينتظر، وإذا دعا ذَكَر الموت فدعا دعاء المخلصين من القلب وكأنه آخر دعاء له في حياته، واسمعوا تجربة الشيخ **عائض القرني** لتفهموا معنى ما أقول. يقول الشيخ:

«ارتحلتُ مع نفر من الناس في طائرة من أبها إلى الرياض في أثناء أزمة الخليج، فلما أصبحنا في السماء أُخبِرنا أننا سوف نعود مرة ثانية إلى مطار أبها لخلل في الطائرة، وعدنا وأصلحوا ما استطاعوا إصلاحه، ثم ارتحلنا مرة أخرى، فلما اقتربنا من الرياض أبتْ

العجلات أن تنزل، فأخذ يدور بنا على سماء الرياض ساعة كاملة، ويحاول أكثر من عشر محاولات يأتي المطار ويحاول الهبوط فلا يستطيع، فيرتحل مرة أخرى، وأصابنا الهلع، وأصاب الكثير الانهيار، وكثر بكاء النساء، ورأيتُ الدموع تسيل على الخدود، وأصبحنا بين السماء والأرض ننتظر الموت أقرب من لمح البصر، وتذكرتُ كلَّ شيء فما وجدت كالعمل الصالح، وارتحل القلب إلى الله - عزَّ وجل- وإلى الآخرة، فإذا تفاهة الدنيا، ورخص الدنيا، وزهادة الدنيا، وأخذنا نكرِّر: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملكُ وله الحمدُ وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ»، في هتاف صادق، وقام شيخٌ كبير مسنٌّ يهتف بالناس أن يلجؤوا إلى الله وأن يدعوه، وأن يستغفروه وأن ينيبوا له، وقد ذكر الله عن الناس أنهم: ﴿ **فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ** ﴾.

ودعونا الذي يجيب المضطر إذا دعاه، وألححنا في الدعاء، وما هو إلا وقت، ونعود للمرة الحادية عشرة والثانية عشرة، فنهبط بسلام، فلما نزلنا كأنا خرجنا من القبور، وعادت النفوس إلى ما كانت، وجفت الدموع، وظهرت البسمات، فما أعظم لطف الله سبحانه وتعالى.

كمْ نطلبُ اللهَ في ضُرٍّ يحِلُّ بنا — فإنْ تولّتْ بلايانا نَسِيَناهُ
ندعوه في البحرِ أنْ يُنْجي سفينتَنا — فإنْ رجعنا إلى الشاطئ عصيناهُ
ونركبُ الجوَّ في أمنٍ وفي دَعَةٍ — وما سقطْنا لأنَّ الحافظ اللهُ[1]

وإذا سارت حياة الإنسان على هذا النسق وغمرتها هذه الروح في كل جنباتها أحب الإنسان ولا بد لقاء الله، واشتاق إلى الموت كما فعل **بشر بن منصور** -رحمه الله- حيث قال له من شهد موته:

كأني أراك تُسرُّ من الموت!! قال: فعجب من تعجبي، وقال: «أتعجَّل قدومي على خالقي.. أرجو خيره كمقامي مع مخلوق أخافه!!»[2].

إنه وعد الله لعباده الصالحين الذي كثيرًا ما نمرُّ عليه في القرآن دون أن ننتبه له، لكن

(١) لا تحزن ص ١٠٥ - توزيع مكتبة ابن تيمية.
(٢) وصايا العلماء عند حضور الموت ١/ ١٠٤.

الأمر مختلف مع صحابي جليل طويل التدبر حاضر القلب مثل **أبي الدرداء** ﷺ الذي غاص في كتاب الله فخرج منه بهذه الفائدة:

«ما من مؤمن إلا و الموت خير له، فمن لم يصدقني فإن الله تعالى يقول: ﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴾ [آل عمران: ١٩٨]، ومثله **حيان بن الأسود** الذي رأى أن: «الموت جسر يوصل الحبيب إلى الحبيب»(١).

ولذلك لما قيل **لمكحول**: أتحب الجنة؟ قال: ومن لا يحب الجنة!! قال: «فأحب الموت، فإنك لن ترى الجنة حتى تموت».

إذا مدحوا الحياة فأكثروا ... ففي المَوت ألفُ فضيلةٍ لا تُعرفُ
منها ضمانُ لقائه بحبيبه ... وفِراقُ كُلِّ مُعاشِرٍ لا يُنصِفُ

لذا يكون الاستعداد عند هؤلاء ليوم الرحيل وكأنه يوم عرس يتجهَّز فيه الإنسان بأجمل ثيابه وأزكى أعماله، ويظل ينتظر ذلك اليوم على شوق أحر من الجمر كما سبق وانتظره **سعد بن أبي وقاص** ﷺ الذي روى عنه **محمد بن شهاب الزهري** أنه لما حضره الموت دعا بخلق جبة له من صوف فقال: «كفِّنوني فيها، فإني لقيتُ المشركين فيها يوم بدر، وإنما كنتُ أُخبِّأها لهذا اليوم»(٢).

لله درِّك يا سعد وما أحلى كلامك! وكأنك تريد بذلك أن توقد فينا شعلة العزم ونار الغيرة المقدَّسة لننافسك في الخيرات، ونلحق بك وإن سبقتنا إلى الجنات، وتقتدي بك وإن فاتتنا رؤيتك الغالية، فأين المنافس؟!

وما أروعك يا **سعد**! وما أوثقك بربك! حتى وأنت على بعد خطوات من لقائه. قال ابنه **مصعب**: كان رأس أبي في حجري وهو يقضي فبكيت، فرفع رأسه إليّ فقال: أي بني!! ما يبكيك؟ قلت: لمكانك وما أرى بك، فقال: «لا تبكِ، فإن الله لا يعذبني أبدًا، وإني من أهل الجنة»(٣).

---

(١) مختصر التذكرة ص ١٢ - ط دار العاصمة - فتحي بن فتحي الجندي ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.
(٢) المستدرك على الصحيحين ٣/ ٥٦٧.
(٣) تاريخ الإسلام.

إنه النعيم الذي ليس مثله نعيم والراحة الأبدية التي لا توصف والهدف الذي سعى إليه العاقلون النابهون، وهذا الكنز للأسف لا يبصره إلا القليل من الناس وهم أحياء القلوب، وكان **أبو عطية** من هذا القليل؛ ولذا لما تحادث قوم عنده فتذاكروا النعم، فقالوا: من أنعم الناس؟! فقالوا: فلان وفلان، ثم سألوه: ما تقول يا أبا عطية؟ فقال: «أنا أخبركم من هو أنعم منه؟! جسد في اللحد قد أمِن من العذاب.. ينتظر الثواب»[(١)].

وهذا الجسد لو أُذِن له أن يتكلم وهو يدفن لصاح منشدًا في من يدفنه:

إذا أمسى فراشي من تراب ... وصـرتُ مجاور الربِّ الكريم

فهنُّوني أحبائي وقولـــوا ... لك البشرى قدمت على كريم

والعكس بالعكس.. ما نسى أحدٌ ذكر الموت إلا أساء العمل وفرَّط في مستقبله. قال **سليمان بن عبد الملك** لأبي حازم: يا أبا حازم!! ما لنا نكره الموت؟ فقال: لأنكم عمَّرتم دنياكم وخرَّبتم أخراكم، فأنتم تكرهون النقلة من العمران إلى الخراب. قال: كيف القدوم على الله عز وجل؟! فقال: يا أمير المؤمنين.. أما المحسن فكالغائب يأتي أهله فرحًا مسرورًا، وأما المسيء فكالعبد الآبق يأتي مولاه خائفًا محزونًا»[(٢)].

تجهَّزتم؟!

كان **زياد بن جرير** يقول: تجهَّزتم؟! فسمعه رجل فقال: ما يعني بقوله: تجهزتم؟ فقيل: «تجهزتم للقاء الله»[(٣)]، وأنا آخيت زيادًا في قوله ووريثه في نصحه؛ لذا أسأل الجميع وخاصة نفسي: تجهَّزتم؟!

أخي المتردِّد بين نعيم الجنة ولهيب النار!!

لا تحيِّر معك الوعاظ ولا تتعب معك المصلحين ولا تفعل كما فعل صاحب بلال بن سعد حين قال: «يُقال

(١) الحلية ٥/ ١٥٣، ١٥٤.
(٢) صفة الصفوة ٢/ ١٥٨.
(٣) حلية الأولياء ٤/ ١٩٧.

لأحدنا: تريد أن تموت؟ فيقول: لا، فيقال له: لم؟ فيقول: حتى أتوب وأعمل صالحاً، فيقال له: اعمل، فيقول: سوف أعمل، فلا يحب أن يموت ولا يحب أن يعمل، فيؤخِّر عمل الله تعالى، ولا يُؤخِّر عمل الدنيا»[1].

ولو لم يُترجم ذكر الموت إلى عمل صالح لكان ذكرًا هزليًّا، وتمثيلاً سمجًا، وادعاءً باهتًا، إلا أن يثمر سلوكًا وحركة، وعملك الصالح هو في النهاية -أخي- قرينك الذي يُدفن معك حيًّا في قبرك وأنت ميت، فيؤنس وحشتك وينير ظلمتك وينافح عنك ويحاجج عن سلامتك.

ذكر الموت حياة!!

هذا هو عنوان الثقافة الإيمانية التي تستهدف إصلاح الحياة، وإذا كان الموت بوابة العبور إلى الآخرة فإنه يحمل بين طياته إصلاح الدنيا، فلا يسرق امرؤ ولا يغش ولا يعتدي ولا يتهرب من واجب أو يسطو على حق لأنه يعلم أن الموت منتظره والحساب يرتقبه.

ذكر الموت إذن هو كلمة السر، وليس معناه بأي حال من الأحوال اعتزال دنياك واتشاحها بلون السواد، وإنما معناه خوض غمارها باعتبارها مزرعة الآخرة وقاعة الامتحان التي نجتهد فيها لسعادة الغد، وذلك بتسخير هذه الدنيا في طاعة الله وخدمة الخلق، لنودّع الحياة وقد تركنا أثرًا جميلاً وذكرًا حسنًا وعلامة فارقة من عمل صالح وخُلُق نبيل ومشروع نافع ومؤسسة رائدة وكتاب مفيد، ونحو ذلك من صنوف عمارة الأرض التي تمثِّل في حقيقتها رسوم دخول الجنة، فإذا أدى بك ذكر الموت إلى عكس ذلك من وقف إنتاجك وانتهاء إبداعك وموت نفعك لإخوانك فقد أضر بك وما نفع.

---

(١) العاقبة في ذكر الموت ١/ ٩١.

3 دوام الذكر:

لقد ذكر الله كلمة الموت ومشتقاتها في القرآن الكريم أكثر من مائة وسبعين مرة، وكأن المطلوب منك ليس مجرد ذكر الموت بل مزيد الذكر، ودوام الذكر، وأثر الذكر، فلا تكن كساكني القبور الذين يشربون ويضحكون ويأكلون؛ دون أن يؤثر فيهم موت جديد بمقدار ذرة، ولا يحرك فيهم شعرة، واعلم أن أحياء القلوب بكل أطيافهم يذكرون الموت؛ أما المحب فإنه يذكر الموت دائمًا لأنه موعد لقاء حبيبه، والمحب لا ينسى قط موعد لقاء الحبيب، وأما المجتهدون في العمل الساهرون في بذل الجهد فيذكرون الموت دائمًا ليقبضوا أجرهم ويودِّعوا تعبهم، وأما الراجون لعفوه الطامعون في كرمه فيذكرون الموت لتنهمر عليهم سحائب رحماته وبشائر إنعامه، وأما الخائفون من تقلب القلوب فيذكرون الموت خوفًا من تغير الحال وسوء الخاتمة والمآل.

وهي وصية الرسول ﷺ لنا: «**أكثروا ذكر هادم اللذات: الموت**»(١).

أي قاطعها من هدم البناء، فشبه اللذات الفانية والشهوات العاجلة ثم زوالها ببناء مرتفع ينهدم تحت وقع الصدمات المتتالية، ثم أمر المنهمك في بناء هذا الجدار بذكر وقوع الهدم حتى لا ينشغل بالبناء وينسى ما وراءه.

وهذا كلام مختصر وجيز وقد جمع التذكرة وأبلغ في الموعظة، فإن من ذكر الموت حقيقة ذكره نغَّص عليه لذته الحاضرة، ومنعه من محاولة نيلها في الحرام، وزهَّده في الدنيا الراحلة عن قريب، ولكن النفوس الراكدة والقلوب الغافلة تحتاج إلى تطويل الوعاظ وتزويق الألفاظ؛ وإلا ففيما ذكر من قوله – عليه الصلاة والسلام– الكفاية كل الكفاية.

وحين نقول الذكر نعني بذلك ذكر القلب ليس غير، لأن المريض إذا ذكر الموت بقلبه تبع ذلك كل ألوان الذكر الأخرى. قال **الراغب**:

«والذكر وجود الشيء في القلب أو في اللسان: وذلك أن الشيء له أربع وجودات: وجوده في ذاته، ووجوده في قلب الإنسان، ووجوده في لفظه، ووجوده في كتابته، فوجوده في

---

(١) صحيح: رواه الترمذي والنسائي عن ابن عمر كما في ص ج ص حديث رقم: ١٢١٠.

ذاته سبب لوجوده في القلب، ووجوده في القلب سبب لوجوده في اللسان ولوجوده في الكتابة»[(١)].

إن دوام ذكر الموت يجعل للعبادة طعمًا آخر في القلب، ووزنًا آخر في ميزان الأعمال؛ لأنها تخرج من قلب مُقبِل على الآخرة معرِض عن شواغل الدنيا، والله يطلع على قلب العبد قبل أن يطلع على عمله، فإذا رأى فيه هذا ضاعف ثواب عمله حتى يسبق العبد كثيرًا من أصحاب الأعمال الكثيرة لكنهم عن ذكر الموت غافلون؛ لذا كان الأوزاعي يقول: «من أكثر ذكر الموت كفاه اليسير من العمل»[(٢)].

واتفق معه **يحيى بن معاذ** في الرأي إلا أنه أضاف عليه وزاد: «من أكثر ذكر الموت لم يمت قبل أجله، ويدخل عليه ثلاث خصال من الخير؛ أولها: المبادرة إلى التوبة، والثاني: القناعة برزق يسير، والثالث: النشاط في العبادة»[(٣)].

وأكثر الناس عرضة لنسيان الموت: أعلاهم مكانة وأشرفهم منزلة ؛ ممن خوَّلهم الله المناصب الدنيوية الرفيعة والألقاب الشرفية المزعومة؛ لذا كانوا أحوج الناس إلى من يهزهم بمواعظه ويتصدَّق عليهم بنصيحته، ولو كانوا الصحابة!!

عن أبي مسلم الخولاني أنه نادى معاوية بن أبي سفيان وهو جالس على منبر دمشق فقال : «يا معاوية!! إنما أنت قبر من القبور»[(٤)].

حدة السباق

سباقٌ رهيبٌ يجري بين أحياء القلوب وأمواتها، بين الذاكرين للموت والغافلين عنه، لكن كل منهم يجري عكس الآخر، فأحياء القلوب يركضون نحو الموت بذلاً وعملاً،

---

(١) فيض القدير ٢/ ٨٤.
(٢) حلية الأولياء ٦/ ١٤٣.
(٣) السابق ١٠/ ٦٦.
(٤) الزهد لأحمد ١/ ٣٩١.

وأموات القلوب يركضون بعيدًا عنه عجزًا وكسلاً، إلا أن خطى الأيام تجرفهم نحو الموت قسرًا على نحو مذل مهين، فلا الدنيا لهم بقيت، ولا الآخرة بهم سعدت.

وفي النهاية يلتقي الفريقان ويتقابل الضدان.. هناك.. تحت التراب وفي ظلمة القبر حيث الأفراح والأتراح، وقد أدرك ذلك جيدًا **سفيان الثوري** فكان يتمثل بأبيات **الأعشى** التي يروي فيها تفاصيل اللقاء ويصرخ بها صرخة النذير:

إذا أنت لم ترحل بزاد من التُّقى ... ولاقيتَ بعد الموت من قد تزوَّدا

ندمت على أن لا تكون كمثله ... وأنك لم ترصد بما كان أرصدا[1]

4 الدعوة:

إذا صاحب ذكر الموت تحذير الناس مما هم فيه من غفلة، وحثهم على العمل، والسعي إلى النجاة مما وراء الموت، فقد تضاعف أثر العلاج وعظم تأثيره في القلب، وانظروا كيف كانت هذه الدعوة صادقة خاصة لمن كان على فراش الموت يحتضر، إنها الدعوة التي أطلقها **يزيد الرقاشي** عند احتضاره، فأبى إلا أن يصدقنا النصيحة، وهل أصدق من رجل عاين الموت، ورُفِع عنه الحجاب ، ورأى أولى مراحل الحساب، وأدار ظهره للدنيا واستقبل الآخرة، واسمعوا:

لما احتضر **يزيد الرقاشي** بكى فقيل له: ما يبكيك رحمك الله؟ فقال في أصدق لهجة بلا زيف أو تجمُّل: أبكي والله على ما يفوتني من قيام الليل وصيام النهار، ثم بكى وقال: «من يصلي لك يا يزيد؟! ومن يصوم؟! ومن يتقرب لك إلى الله بالأعمال بعدك؟! ومن يتوب لك إليه من الذنوب السالفة؟! ويحكم يا أخوتاه!! لا تغترن بشبابكم، فكأن قد حلَّ بكم ما حلَّ بي من عظيم الأمر وشدة كرب الموت، النجاء النجاء.. الحذر الحذر يا إخوتاه.. المبادرة رحمكم الله»[2].

---

(١) اقتضاء القول العمل ١/ ٩٨.

(٢) المحتضرين ص ١٤٥.

وتكررت النصيحة مع كل محتضر صالح من أمثال **المغيرة بن حكيم**، فعن **عبد العزيز بن أبي رواد** قال: دخلت على **المغيرة بن حكيم** في مرضه الذي مات فيه قلت: أوصني، فقال: «اعمل لهذا المضجع»(١).

ومن قبلهما **أبو الدرداء** ﷺ، فعن **محمد بن قيس** قال: «جاء رجل إلى **أبي الدرداء** وهو في الموت، فقال: يا **أبا الدرداء**!! عِظني بشيء لعل الله ينفعني به وأذكرك قال: إنك في أمة مرحومة.. أقم الصلاة المكتوبة، وآت الزكاة المفروضة، وصُمْ رمضان، واجتنب الكبائر أو قال المعاصي، وأبشر، فكأن الرجل لم يرض بما قال حتى رجَّع الكلام عليه ثلاث مرات، فغضب السائل وقال: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ**﴾ [البقرة: ١٥٩]، ثم خرج الرَّجل، فقال **أبو الدرداء**: أجلسوني فأجلسوه قال: رُدُّوا على الرجل، فقال: ويحك!! كيف بك لو قد حُفِر لك أربع أذرع من الأرض، ثم غرقت في ذلك الجرف الذي رأيت، ثم جاءك فيه ملكان أسودان أزرقان منكر ونكير يفتنانك ويسألانك عن رسول الله ﷺ، فان ثبَتَّ فنعم ما أنت فيه، وإن كان غير ذلك فقد هلكت، ثم قمت على الأرض ليس لك إلا موضع قدميك ليس ثم ظل إلا العرش، فإن ظللت فنعم ما أنت فيه، وإن أضحيت فقد هلكت، ثم عرضت جهنم والذي نفسي بيده إنها لتملأ ما بين الخافقين، وإن الجسر لعليها، وإن الجنة لمن ورائها، فإن نجوت منه، فنِعْم ما أنت فيه، وإن وقعت فيها فقد هلكت، ثم حلف له بالله الذي لا إله إلا هو إن هذا لحق»(٢).

وعند النزع الأخير وبينما هو يجود بنفسه تحامل ﷺ على نفسه حتى استطاع أن ينطق بكلماته الأخيرة قبل الوداع: «ألا رجلٌ يعمل لمثل مصرعي هذا؟! ألا رجلٌ يعمل لمثل يومي هذا؟! ألا رجلٌ يعمل لمثل ساعتي هذه؟! ثم قُبِض»(٣).

لكن.. لماذا يدعو الإنسان عند موته فحسب؟! لماذا لا يستغل العافية التي يرفل فيها

---

(١) الحلية ٨/ ١٩٤.

(٢) الزهد ١/ ٥٥٤.

(٣) الثبات عند الممات ص ١٢٩.

اليوم ليقرع جرس الإنذار في من حوله تحذيرًا لهم من الموت وعواقبه؟! لماذا لا يستفرغ طاقته في نصح أهله ومن يحب حتى يُختم له حياته بمثل هذه الخاتمة السعيدة: وهو يدعو؟!

أخي.. ألا تعظ الناس حتى ينزل بك ملك الموت؟!
ألا تحذِّرهم إلا مما ترى وتعاين؟!
ألا تنطق إلا والنائحات عليك يندبن والثكالى ينظرن؟!

إن الدعوة عند الاحتضار علامة حسن الخاتمة لكنها أصعب بكثير من الدعوة في العافية، «وإذا كان العبد في حال حضور ذهنه وقوته وكمال إدراكه قد تمكن منه الشيطان واستعمله بما يريده من المعاصي، وقد أغفل قلبه عن ذكر الله تعالى، وعطَّل لسانه من ذكره، وجوارحه عن طاعته، فكيف الظن به عند سقوطه قواه واشتغال قلبه ونفسه بما هو فيه من ألم النزع؟!

وجمع الشيطان له كل قوته وهمته، وحشد عليه بجميع ما يقدر عليه لينال منه فرصته، فان ذلك آخر العمل، فأقوى ما يكون عليه شيطانك ذلك الوقت، وأضعف ما تكون أنت في تلك الحالة، فمن تري يسلم من ذلك؟!

فهناك ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ [إبراهيم:٢٧]»[1].

5 قصر الأمل:

كلنا واقف في طابور الموت ينتظر، إلا أن طول الأمل عمَّ جموع الواقفين، وفارق كبير بين من باغتته مصيبة وهو متحسب لها، مترقب عواقبها، وبين من باغتته المصيبة وهو لاهٍ، فكيف إذا كانت تلك المصيبة هي أعظم المصائب وعواقبها أخطر العواقب، إنها مصيبة الموت، وعاقبتها النار لكل من غفل عنها واستهان بها ولم يتجهَّز لها.

من كان يعلم أن الموت مدركه ... والقبر مسكنه والبعث مخرجه

---

(١) الجواب الكافي ١/ ٦٢.

وأنـــــه بين جنـــات ســـتبهجه　　يـــوم القيامة أو نار ســـتضجه
فكل شيء سوى التقوى بـه سمـج　　ومـــا أقـــام عليه منه أســـمجه
ترى الذي اتخذ الدنيا لـــه وطنـًا　　لم يـــدرِ أن المنايا سوف تزعجه

إذا دفع ذكر الموت صاحبه إلى قصر الأمل وما يتبعه من استشعار قرب الرحيل، ودنو موعد الحساب، واقتراب مواجهة أسئلة الملكين في القبر، والتجهُّز ليوم العرض فقد حصل المطلوب وبلغنا المراد، لكن ما هو قصر الأمل؟ وكيف الوصول إليه؟!

يقول الإمام **ابن القيم**:

«فأما قصر الأمل: فهو العلم بقرب الرحيل، وسرعة انقضاء مدة الحياة، وهو من أنفع الأمور للقلب؛ فإنه يبعثه على معافصة الأيام، وانتهاز الفرص التي تمر مَرَّ السحاب، ومبادرة طَيِّ صحائف الأعمال، ويثير ساكن عزماته إلى دار البقاء، ويحثه على قضاء جهاز سفره، وتدارك الفارط، ويُزهِّده في الدنيا، ويُرغِّبه في الآخرة؛ فيقوم بقلبه - إذا داوم مطالعة قصر الأمل - شاهدٌ من شواهد اليقين يريه فناء الدنيا، وسرعة انقضائها، وقلة ما بقي منها، وأنها قد ترحلت مُدْبِرَة ولم يبق منها إلا صبابة كصبابة الإناء يتصابُّها صاحبها، وأنها لم يبق منها إلا كما بقي من يوم صارت شمسه على رؤوس الجبال، ويريه لقاء الآخرة ودوامها، وأنها قد رحلت مقبلة، وقد جاء أشراطُها وعلاماتها، وأنه من لقائها كمسافر خرج صاحبه يتلقاه، فكل منهما يسير إلى الآخر، فيوشك أن يلتقيا سريعًا.

وقصر الأمل بناؤه على أمرين: تيقن زوال الدنيا ومفارقتها، وتيقن لقاء الآخرة وبقائها ودوامها، ثم يقايس بين الأمرين، ويؤثر أولاهما بالإيثار»(١).

سبق وأن قام بهذه المقايسة **سفيان الثوري** ثم صاغها في بيت من الشعر كان كثيرًا ما يتمثل به:

باعوا جديدًا جميلاً باقيًا أبدًا　　بدارسٍ خَلَقٍ يا بئس ما اتَّجروا(٢)

(١) مدارج السالكين ١/ ٤٥٠.
(٢) حلية الأولياء ٧/ ٥.

يا طويل الأمل.. يا كثير الزلل.. يا عظيم الكسل.. يا عديم الوجل.. الإفاقة الإفاقة قبل نزول الفاقة، فما أطلق عبد العنان لأمله إلا عثر في الطريق بأجله، وإن غاب عن ذهنك الموت فيسأتي ما يذكِّرك به لا محالة، كان أبو بكر الصديق إذا أخذته الحمى يقول:

كل امرئ مصبَّحٌ في أهله والموت أدنى من شراك نعله

انتبه.. انتبه؛ فإن اللص حين يريد سرقة مالك يشغلك بأمر آخر؛ حتى يسرق ما في جيبك، وكذلك الشيطان حين يريد إهلاكك، يحاول إغراقك في زحمة الأحداث الدنيوية والأعباء المعيشية ليسرق منك عمرك!! وهل يملك العبد منا زادًا عند الله يوم القيامة سوى ما قدّم من عمل أثناء عمره؛ فإن سرقه الشيطان منك فبماذا تقدم على ربك؟!

سهوتُ وغرَّني أملي وقد قصَّرت في عملي
ومنزلة خُلِقتُ لها جعلتُ لغيرها شغلي
يظل الدهر يطلبني ويمضي بي على عجل
فأيامي تقرِّبني وتُدنيني من الأجل

طول الأمل في الشباب منقصة لكنه في الشيب عار، طول الأمل في الشباب له ما يبرره أما عند الشيوخ وعلى مشارف القبر فلا عذر لصاحبه.. فيا هذا.. «يا من يجمع العيب إلى الشيب.. لا الماء بارد ولا الكوز نظيف»[1]..

يا من شاب في الإسلام.. إذا قرع الشيب بابك فقد استأذن عليك ملك الموت وزارك، لأن الشيب مؤذن الرحيل، ألا فانتبه..

ألا فامهد لنفسك قبل موت فإن الشيب تمهيد الحمام
وقد جدَّ الرحيل فكن مُجِدًّا بحَطِّ الرَّحل في دار المقام

يا من استأنس بظل زائل عن قريب:

اعلم أن الطريق إلى قبرك بعدد أنفاس عمرك، وأن الدنيا قنطرة نحو الآخرة، ومنا من

(١) المدهش ص ٣٩٠.

قطع نصف القنطرة، ومنا من قطع ثلاثة أرباعها، ومنا من لم يبق له على القنطرة إلا خطوة واحدة وهو لا يدري؛ يزيِّن القنطرة ويجدِّدها وهو لا يدرك أنه واقف على حافتها يوشك أن يسقط منها إلى القبر، ونادرًا ما يدرك طويل الأمل سراب أمله إلا عند هجوم أجله، وهنا يستحيل حلو العيش مرًّا، ويعلم المخدوع أن الباقيات الصالحات أنفع ذُخرًا، فليس في الدنيا مقيل ولا عليها تعويل، فبالله كيف يطمع عاقل في الإقامة في دار رحيل؟!

كيف نتنافس فيه؟!

اعلم أن المرضى يتفاوتون في قصر الأمل وطوله، فأطولهم أملاً المشركون الذين قال الله فيهم: ﴿ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ [البقرة: ٩٦]، وأقصر منهم أملاً من يأمل البقاء إلى آخر المشيب وهو أقصى عمر شاهده في حياته ورأى أهله، ومنهم من يأمل البقاء إلى سنة مقبلة، ومنهم من قصر أمله إلى إلى أن يصل إلى يوم واحد أو بعض يوم كما في وصية **عبد الله بن عمر** ﷺ: «إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء»، وهي عصارة فهمه لحديث النبي ﷺ حين أخذ بمنكبيه وقال له: «**كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل**»(١).

لكن لماذا الغريب وعابر السبيل على وجه التحديد وليس غيرهما؟!

والجواب: الغريب يسكن دار الغربة لكن قلبه دائمًا متعلق بوطنه مشتاق إليه، فلا يعلِّق قلبه بشيء من هذا البلد الغريب عنه، لأن إقامته فيه مؤقتة حتى يفرغ من حاجته فيعود إلى مستقره على الفور، وكذلك المؤمن غريب عن هذه الدنيا مشتاق إلى الجنة، والغريب دائمًا قليل الانبساط إلى الناس مستوحش، لا يكاد يمرُّ بمن يعرف فيأنس به.

أما عابر السبيل فهو أصعب من الغريب حالاً وأقصر منه أملاً، وهو المسافر الذي يمر كل ليلة على مكان يبيت فيه فقط لكونه على طريقه، فهو ليلة في بيت صاحب له، وليلة في بيت من بيوت الله، وليلة لا يجد مكانًا ينام فيه إلا جانب الطريق يفترش فيه الأرض ويلتحف السماء، وهو لهذا خفيف الأحمال لأن سفره شاق طويل لا يقطعه إلا المُخِفّون.

---

(١) صحيح: رواه البخاري وأحمد والترمذي وابن ماجة عن ابن عمر كما في ص ج ص حديث رقم: ٤٥٧٩.

قال **الحافظ ابن حجر**: «عابر السبيل هو المار على الطريق طالبًا وطنه، فالمرء في الدنيا كعبد أرسله سيده في حاجة إلى غير بلده، فشأنه أن يبادر بفعل ما أُرسِل فيه، ثم يعود إلى وطنه ولا يتعلق بشيء غير ما هو فيه»(١).

ورسول الله ﷺ حين أوصى **عبد الله بن عمر** ﷺ أوصى معه كل من يحب من أمته بأن لا يرضى لقلبه في الدنيا إلا إحدى هاتين الحالتين: إما الغربة وإما حال عابر السبيل، وهز النبي ﷺ **عبد الله بن عمر** هزًّا حين أمسك بمنكبيه وكأنه يلقِّنه ويحفِّظه هذه الوصية لأهميتها وخطورتها وأثرها في حياة القلب إن روعيت وموته إن أُهمِلت، لكن ما معنى «**أو**» في هذه الوصية؟!

قال **الطيبي**: «ليست «**أو**» للشك بل للتخيير والإباحة، والأحسن أن تكون بمعنى بل، فشبَّه الناسك السالك بالغريب الذي ليس له مسكن يأويه، ولا مسكن يسكنه، ثم ترقَّى وأضرب عنه إلى عابر السبيل؛ لأن الغريب قد يسكن في بلد الغربة بخلاف عابر السبيل القاصد لبلد شاسع، وبينهما أودية مردية ومفاوز مهلكة وقطاع طريق، فإن من شأنه أن لا يقيم لحظة ولا يسكن لمحة»(٢).

والتشابه بين حال الإنسان في الدنيا وحال الغريب أو عابر السبيل واضح بيِّن وهو أن كلاهما على سفر، فإن «الناس منذ خلقوا لم يزالوا مسافرين، وليس لهم حطٌّ عن رحالهم إلا في الجنة أو النار، والعاقل يعلم أن السفر مبني على المشقة وركوب الأخطار، ومن المحال عادة أن يُطلب فيه نعيم ولذة وراحة، إنما ذلك بعد انتهاء السفر، ومن المعلوم أن كل وطأة قدم أو كل آن من آنات السفر غير واقفة، ولا المكلف واقف، وقد ثبت أنه مسافر على الحال التي يجب أن يكون المسافر عليها من تهيئة الزاد الموصل، وإذا نزل أو نام أو استراح فعلى قدم الاستعداد للسير»(٣).

فهذه مراتب الناس في الأمل وهي كما ترى تتفاوت تفاوتًا شاسعًا، ولكل منهم درجة **عند الله**، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون، وصدق **أبو حامد الغزالي** وهو يقرِّر ذلك في قوله:

---

(١) فتح الباري ١١/ ٢٣٤.
(٢) فتح الباري ١١/ ٢٣٤.
(٣) الفوائد ١/ ١٩٠.

«وليس من أمله مقصور على شهر كمن أمله شهر ويوم؛ بل بينهما تفاوت في الدرجة عند الله، فإن الله لا يظلم مثقال ذرة، ومن يعمل مثقال ذرة خيرًا يره»[(١)].

وقد وعى **عبد الله بن عمر** ﷺ الدرس جيدًا؛ لذا أوصانا بعد روايته لهذا الحديث أن نختار مرتبة من أعلى مراتب قصر الأمل وأشرفها؛ بحيث لا نغفل عن الموت ليلاً أو نهارًا، فإن حدث وعشنا إلى المساء شكرنا الله على توفيقه لنا في طاعته نهارًا، وإن حدث وعشنا إلى الصباح شكرناه على مثل ذلك من الليل، وذلك كل يوم.

إذا أمسيتَ فابتدر الفلاحا ... ولا تُهمِلْه تنتظر الصباحا

وتُب مما جنيتَ فكم أناسٍ ... قضوا نحبًا وقد باتوا صِحاحا

---

(١) الإحياء ٤/ ٤٥٨.

ثامنًا: النظرة الثاقبة

فضل التفكر

هي عبادة جليلة وجرعة ثمينة ذات شأن عظيم، إلا أنها للأسف ضمرت واضمحلَّت في هذا الزمان، حتى كادت تُنسى وسط زحمة الحياة المضطربة، وذلك على الرغم من نجاعتها في العلاج، وقوتها في التأثير، لكنها تحتاج إلى سكينة نفس قد لا يملكها الكثيرون، وفراغ وقتي وعقلي ورُقي روحي يشكو من ندرته المشغولون، وما أقل من اعتبر، وما أندر من اتعظ وادَّكر، واسمعوا قول أطباء القلوب:

قال **ابن القيم** وهو يتكلم عن:

«فضل التفكر وشرفه، وأنه من أفضل أعمال القلب وأنفعها له؛ حتى قيل: تفكر ساعة خير من عبادة سنة، فالفكر هو الذي ينقل من موت الفطنة إلى حياة اليقظة، ومن المكاره إلى المحاب، ومن الرغبة والحرص إلى الزهد والقناعة، ومن سجن الدنيا إلى فضاء الآخرة، ومن ضيق الجهل إلى سعة العلم ورحبه، ومن مرض الشهوة والإخلاد إلى هذه الدار إلى شفاء الإنابة إلى الله والتجافي عن دار الغرور، ومن مصيبة العمى والصمم والبكم إلى نعمة البصر والسمع والفهم عن الله والعقل عنه، ومن أمراض الشبهات إلى برد اليقين وثلج الصدور، وبالجملة؛ فأصل كل طاعة إنما هي الفكر، وكذلك أصل كل معصية إنما يحدث من جانب الفكرة»(١).

ولأثره الناجع في علاج القلب من أدوائه جزم **ابن عطاء**:

(١) مفتاح دار السعادة ١/ ١٨٣.

«ما نفع القلبَ مثل عُزلة يدخل بها ميدان فكرة».

وتابعها **الغزالي** في سرد فضائل التفكر والإشادة به فقال:

«ولا يخفى أن الفكر هو مفتاح الأنوار ومبدأ الاستبصار، وهو شبكة العلوم ومصيدة المعارف والفهوم، وأكثر الناس قد عرفوا فضله ورُتْبَتَه؛ لكن جهلوا حقيقته وثمرته ومصدره ومورده ومجراه ومسرحه وطريقه وكيفيته»(١).

اللهم لا تجعلنا من أكثر هؤلاء الناس ونحن لا نعلم!!

ولدوره العظيم ومكانته الرفيعة بين سائر العبادات؛ جعله **سعيد بن المسيب** هو العبادة. قال **مالك**: سمعت **يحيى بن سعيد** يقول: أول من صلى في المسجد بين الظهر والعصر **عبد الملك بن مروان** وفتيان معه، كانوا إذا صلى الإمام الظهر قاموا فصلوا إلى العصر، فقيل **لسعيد بن المسيب**: لو قمنا فصلينا كما يصلي هؤلاء، فقال **سعيد**: «ليست العبادة بكثرة الصلاة ولا الصوم، إنما العبادة التفكر في أمر الله، والورع عن محارم الله»(٢).

وسبب آخر لشرف التفكر وفضله، وهو قول الإمام **ابن القيم**: «لأن الفكرة عمل القلب، والعبادة عمل الجوارح، والقلب أشرف من الجوارح، فكان عمله أشرف من عمل الجوارح»(٣).

فلكل عضو من أعضاء الجسد عمل، ويقوم بدور وينشغل بوظيفة، فإن كانت عيون المتقين تبكي؛ فإن قلوبهم تتفكر. قال **أبو سليمان الداراني**: «عوِّدوا أعينكم البكاء وقلوبكم التفكر»(٤).

من أجل ذلك عدَّه خامس الخلفاء ودرة الأمراء **عمر بن عبد العزيز** أفضل أنواع العبادات فقال: «الفكرة في نعم الله – عز وجل– من أفضل العبادة»(٥).

---

(١) الإحياء ٤/ ٤٢٣.
(٢) أخرجه الذهبي في تاريخ الإسلام.
(٣) مفتاح دار السعادة ١/ ١٨٦-١٨٧.
(٤) حلية الأولياء ٩/ ٢٧٤.
(٥) الإحياء ٤/ ٤٢٥.

وهو شرط الانتفاع بالعلم عند **شقيق البلخي** الذي جزم بقوله:

«ولو أن رجلا كتب جميع العلم لم ينتفع به حتى يكون فيه خصلتان: حتى يكون فعله التفكر والعبر؛ قلبه فارغا للتفكر وعينه فارغة للعبر، كلما نظر إلى شيء من الدنيا كان له عبرة، المؤمن مشغول بخصلتين، والمنافق مشغول بخصلتين، المؤمن بالعبر والتفكر، والمنافق مشغول بالحرص والأمل»(١).

ولفضله كان أكثر عبادة **أبي ذر**، فعن **محمد بن واسع** أن رجلاً من أهل البصرة ركب إلى **أم ذر** بعد موت **أبي ذر** فسألها عن عبادة **أبي ذر** فقالت: «كان نهاره أجمع في ناحية البيت يتفكر»(٢).

ومن ثمرات التفكر أن الفكرة تلد الفكرة ثم الفكرة تلو الفكرة وهلم جرًّا، وتوالد الأفكار بالاتفاق هو منبع الحكمة. قال **الحسن**: «إن أهل العقل لم يزالوا يعودون بالذكر على الفكر، وبالفكر على الذكر حتى استنطقوا قلوبهم؛ فنطقت بالحكمة»(٣)، ومن كلام **الشافعي**: «استعينوا على الكلام بالصمت، وعلى الاستنباط بالفكرة»(٤).

ومن ثمراته: التوبة، لأن من تفكَّر فقد صنع مفتاحًا مباركًا يفتح به باب الرحمة الإلهية ليدخل بإذن الله ساحة الغفران مأجورًا مرحومًا، لأنه يتفكَّر في ذنوبه وجرائمه التي ارتكبها في حق نفسه وحق ربه، ويدرك عندها العواقب ويزداد يقينا بالجزاء فيبكي ويقلع ويتوب. قال سفيان ابن عيينة: «التفكر مفتاح الرحمة، ألا ترى أنه يتفكر فيتوب»(٥).

لذا كانت مجالس التفكر أشهى مجالس المؤمنين وأحلى لحظات العاقلين. قال **يحيى بن معاذ الرازي** وقد سئل: أي مجلس أشهى و ألذ؟ قال: «الجلوس مع الفكرة في ميدان التوحيد

---

(١) حلية الأولياء ٣/ ٣٨١
(٢) الإحياء ٤/ ٤٢٤.
(٣) الإحياء ٤/ ٤٢٥.
(٤) السابق ٤/ ٤٢٥.
(٥) الحلية ٧/ ٣٠٦.



تُشمُّ من رائحة المعرفة وتُسقى من كأس المحبة، سبحان الله ما ألـذه مـن مجلس! وأعذبـه مـن شراب!»(١).

أول طريق النبوة

مع سن السابعة والثلاثين بدأ الرسول ﷺ ينطلق إلى غار حراء، بعد أن حبَّب الله تعالى إليه الخلوة فيه، فكان يخلو بنفسه في شهر رمضان يتحنث، حتى فجأه الوحي بعد ثلاث سنوات، ليلقي على قلبه: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ [العلق: ١] .

فما هو هـذا الغـار؟ وأيـن موقعـه؟ ولماذا كـان اختيـار الله سبحانه وتعـالى لـه؟ ومـا نـوع التحنث الذي كان يقوم به النبي ﷺ في الغار؟ وما هي الحكمة المستفادة والدرس العملي مـن وراء ذلك؟!

يقع غار حراء في جبل النور، وهو غار ضيق يتسع لبضعة رجال يصلون فيه ويجلسـون، وموقع الغار يشـير إلى حكمـة الله البالغـة في اختيـاره، ليكـون مكـان خلـوة الرسـول ﷺ قبـل البعثة، فهو بعيد عن كفار مكة وأصنامها، وبعيد عن مجالس اللهو وإفسادها، وشواغل الدنيا وإلهائها، وضجة الحياة وصخبها، وهموم الناس الصغيرة وتفاهاتها.

ومن جهة أخرى فإنه يُشرِف على الكعبة المشرَّفة؛ كأنه يربط قلب **محمـد** ﷺ بـأطهر بقعـة عـلى وجـه الأرض، ويأخـذ بـه إلى عـالم التوحيـد الخـالص لله رب العـالمين مـن خـلال عبـادة التفكر، وقد حقق الرسول **محمد** ﷺ هذا الترابط الوثيق بينه وبين الكعبة، فكان أول ما يفعله بعد تركه للغار هـو الطـواف بالبيـت، ثـم يرجع إلى بيتـه، ليختـم فـترة طوافـه القلبـي -وهـو التفكر- بطواف جسده حول الكعبة، ليجتمع له مع صفاء القلب طهارة القالب.

وغار حراء يُشرِف كذلك على جبال مكة؛ التي تبدو للناظر إليهـا مـن الغـار لأول وهلـة وكأنها راكعة ساجدة لخالق هذا الكون العظيم، ليلقي هذا المشهد في النفس رهبة يرتجـف لهـا القلب تبجيلاً وتوقيرًا للخالق سبحانه، ويجدِّد مشـاعر التقـديس والتعظـيم للحـق سـبحانه، ويثير في الشعور الإحساس بالقدرة الإلهية الفائقة في هذا الوجود.

---

(١) شعب الإيمان ١/ ٣٧٤.

وفي هذا الجو الساكن الهادئ وبين حنايا هذا الموقع الفريد، صفا قلب **محمد** ﷺ، وتحرَّرت روحه من عالم الشهادة إلى عالم الغيب، وتهيَّأ قلبه لاستقبال وحي السماء، وتلقى بذور النبوة، وتباشير الرسالة، وكأن المنح الإلهية والأعطيات الربانية لا تُوزَّع بالمجان، ولا تتنزل إلا قلب صفا بالتفكر وسما بطول التأمل.

أنواع التفكر الثمانية

1 التفكر في الآخرة:

وأول التفكر العلم، والمقصود به العلم بأحوال الآخرة، وأهوال القيامة، وصفة الصراط، وساحة العرض يوم الحشر، ورهبة الموقف يوم الفزع، وعذاب النار، ونعيم الجنة، لكن.. أنَّى لرجل أن يتفكر في مجهول لا يعلم عنه شيئا؟!

إنها الحياة بروحك في أحداث المستقبل القريب وتفاصيل الغيب الرهيب، ومن عاش فيها اليوم متفكِّرًا في هذه الأحداث كانت عليه غدًا بردًا وسلامًا، ومن لم تمر على خاطره اليوم فوجئ بهولها يوم أن يلقاها.

إن برنامج أي رحلة ترفيهية في هذا الدنيا قد يناسبك فتشترك فيها أو لا تشترك، لكن الأمر مع هذه الرحلة الإجبارية مختلف، فلا مجال للاختيار، والبرنامج ثابت لا يتغيَّر، وأحداثها جسام تحتاج إلى عزائم رجال.

وقد أعاننا على تصور الموقف وتخيله **ابن القيم** -رحمه الله- في مشهد تصويري رهيب ليوم القيامة ووقائعه، وهو يكاد يكون ثلاثي الأبعاد لدقته، وشديد الوقع على القلب لصدقه وجدَّته:

«فإذا صحت فكرته أوجبت له البصيرة فهي نور في القلب، يبصر به الوعد والوعيد، والجنة والنار، وما أعد الله في هذه لأوليائه وفي هذه لأعدائه، فأبصر الناس وقد خرجوا من قبورهم مهطعين لدعوة الحق، وقد نزلت ملائكة السماوات فأحاطت بهم، وقد جاء الله وقد نصب كرسيه لفصل القضاء، وقد أشرقت الأرض بنوره ووضع الكتاب وجيء بالنبيين



والشهداء، وقد نُصب الميزان، وتطايرت الصحف، واجتمعت الخصوم، وتعلق كل غريم بغريمه، ولاح الحوض وأكوابه عن كثب، وكثر العطاش، وقل الوارد، ونصب الجسر للعبور، ولاذ الناس إليه، وقسمت الأنوار دون ظلمته للعبور عليه، والنار يحطم بعضها بعضًا تحته، والمتساقطون فيها أضعاف أضعاف الناجين، فتنفتح في قلبه عين يرى بها ذلك ويقوم بقلبه شاهد من شواهد الآخرة يريه الآخرة ودوامها والدنيا وسرعة انقضائها»[١].

وقد كان التفكر في الآخرة يأخذ وقتًا طويلاً عند أنقياء القلوب أصفياء النفوس؛ حتى قدَّم بعضهم عبادة التفكر على عبادة قيام الليل، فعن **يوسف بن أسباط** قال لي **سفيان** بعد العشاء: ناوِلني المطهرة- الإناء الذي يتوضأ به- فناولته، فأخذها بيمينه ووضع يساره على يده، فبقي مفكرًا، ونمت ثم قمت وقت الفجر، فإذا المطهرة في يده كما هي، فقلت: هذا الفجر قد طلع، فقال: «لم أزل منذ ناولتني المطهرة أتفكَّر في الساعة!!»[٢].

وهذا التأمل يتناول الرحلة الأخروية بتفاصيلها وجميع مراحلها؛ ولذا قال **عبد الله بن المبارك** يومًا **لسهل بن عدي** وقد رآه ساكتًا متفكرًا: أين بلغت؟ قال: «الصراط!»[٣].

2 التفكر في عظمة الخلق:

قال **عطاء**: انطلقت يومًا أنا و**عبيد بن عمير** إلى **عائشة** -رضي الله عنها- فكلمتنا وبيننا وبينها حجاب، فقالت: يا **عبيد**.. ما يمنعك من زيارتنا؟ قال: قول رسول الله ﷺ: «**زر غبًّا؛ تزدد حبًّا**». قال **ابن عمير**: فأخبرينا بأعجب شيء رأيتيه من رسول الله ﷺ، قال: فبكت وقالت: كل أمره كان عجبًا، أتاني في ليلتي ثم قال: ذريني أتعبد لربي عز وجل، فقام إلى القربة فتوضأ منها، ثم قام يصلي فبكى حتى بلّ لحيته ثم سجد حتى بلّ الأرض، ثم اضطجع على جنبه حتى أتاه بلال يؤذنه بصلاة الصبح، فقال: يا رسول الله.. ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فقال:

---

(١) مدارج السالكين ١/ ١٢٣.
(٢) صفة الصفوة ٣/ ١٤٨، ١٤٩.
(٣) إحياء علوم الدين ٤/ ٤٢٥.

لقد أنزلت عليّ الليلة آيات، ويلٌ لمن قرأها ولم يتدبر فيها، أو كما قال عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]، «**ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها**»(١).

وقد كان النبي ﷺ يقرؤها كل ليلة كلما قام لصلاة الليل، أجل كل ليلة، وكأنه يستشعر أن الكون كله بسماواته وأرضه وليله ونهارة قام في هذا الوقت من الليل يسبِّح الله ويذكره، وما هو بصلاته إلا متناغم مع الطبيعة، سائر في ذات الركب.

وهذا التفكر في بديع صنع الله له ثمرة ما بعدها ثمرة، وأثر يمحو كل أثر، ألا وهو الوقاية من الذنوب في المستقبل لأنه يلقي في النفس تعظيم الخالق ويبعث في النفس المهابة منه والوجل، يقول بشر بن الحارث: «لو تفكر الناس في عظمة الله ما عصوا الله عز وجل»(٢).

ولأثره العظيم ودوزه المدهش تعجَّب إقبال غاية التعجُّب ممن لم يجُلْ بنظره في الكون، ولم يعطِ نفسه حظها من هذا المعين الإيماني العذب، ولم يُطعم روحه هذا المطعم الشهي، فانطلق يقرِّر:

كل ما في الكون من بحر وبر ... لوح تعليم لأرباب النظر
أيها المقصود من قول انظروا ... كيف في آفاقها لا تنظر(٣)

إن إدامة النظر في عظمة هذا الكون كافٍ لإزالة مرض الشك في القلب، وحسم الصراع النفسي مع الشيطان إن وُجِد، وزيادة اليقين بالخالق، وزرع التواضع لله في النفس، والخضوع لأمره، وينزع كذلك فتيل الإعجاب المهلك قبل أن ينفجر مخلِّفا الهلاك والدمار، وكل هذا دون حاجة إلى إطالة واعظ أو براعة خطيب، وهو ما ترجمه شوقي شعرًا فقال:

تلك الطبيعة قف بنا يا ساري ... حتى أُريك بديع صنع الباري
الأرض حولك والسماء اهتزَّتا ... لروائع الآيات والآثار
من كل ناطقة الجلال كأنها ... أمُّ الكتاب على لسان القاري
دلَّت على ملك الملوك فلم تدع ... لأدلة الفقهاء والأحبار

---

(١) صحيح: صحح الألباني في السلسلة الصحيحة رقم: ٦٨.
(٢) الحلية ٨/ ٣٣٧.
(٣) ديوان الأسرار والرموز ص ١٢٩.

من شكَّ فيه فنظرة في صنعه تمحو عظيم الشك والآثار[1]

إن تكرار النظر في اللوحة الجميلة يومًا بعد يوم قد يُفقد الإنسان الإحساس بروعتها، ويُعمي الأبصار عن آيات الجمال فيها، لكن تنوع الألوان، وتعدد أنواع الجمال في الكون كفيل بإزالة أي سآمة أو ملل.

قل للجنين يعيش معزولاً بلا	راعٍ ومرعى ما الذي يرعاكا؟
قل للوليد بكى وأجهش بالبكا	عند الولادة ما الذي أبكاكا؟
وإذا ترى الثعبان ينفث سمه	فاسأله من ذا بالسموم حشاكا؟
واسأله كيف تعيش يا ثعبان أو	تحيا وهذا السم يملأ فاكا؟
واسأل بطون النحل كيف تقاطرت	شهدًا وقل للشهد من حلاّكا؟
بل سائل اللبن المُصَفَّى كان بين	دم وفرث من الذي صفّاكا؟
وإذا رأيت الحي يخرج من ثنايا	ميت فاسأله من أحياكا؟
قل للهواء تحسه الأيدي ويخفى	عن عيون الناس من أخفاكا؟
وإذا رأيت البدر يسري ناشرًا	أنواره فاسأله من أسراكا؟
وإذا رأيت النخل مشقوق النوى	فاسأله من يا نخل شق نواكا؟
وإذا رأيت النار شبَّ لهيبها	فاسأل لهيب النار من أوراكا؟
وإذا ترى الجبل الأشم مناطحًا	قمم السحاب فسله من أرساكا؟
وإذا ترى صخرًا تفجَّر بالمياه	فسله من بالماء شق صفاكا؟
وإذا رأيت النهر بالعذب الزلال	جرى فسله من الذي أجراكا؟
وإذا رأيت البحر بالملح الأجاج	طغى فسله من الذي أطغاكا؟
وإذا رأيت الليل يغشى داجيًا	فاسأله من يا ليل حاك دجاكا؟
وإذا رأيت الصبح يُسفِر ضاحيًا	فاسأله من يا صبح صاغ ضحاكا؟
هذي العجائب طالما أخذت بها	عيناك وانفتحت بها أذناكا
والله في كل العجائب مُبْدع	إن لم تكن لتراه فهو يراكا

(١) الشوقيات ٢/ ٣٦.

3 التفكر في عيوب النفس:

قال الفضيل مبيِّنًا هذه الثمرة من ثمرات التفكر: «الفكر مرآة تريك حسناتك وسيئاتك».

إنها ليست تربية الزهاد والعباد فحسب، بل تربية الأمراء وتهذيب الخلفاء كذلك على مكارم الأخلاق وفضائل الخصال، فقد كان الخليفة **أبو جعفر المنصور** يقول لابنه **المهدي** أمير المؤمنين: «يا أبا عبد الله!! إذا أردت أمرًا ففكِّر فيه، فإن فكرة العاقل مرآته تريه حسنه وسيئه»(١).

والتفكر في النفس يشمل التفكر في عيوبها ونقائصها، والتفتيش عن مواضع الفجور فيها، ولا يمكن عمل أي تقويم أو تصحيح وتحسين إلا بعد هذا التفكر الصادق، وما أكثر الصفات السيئة التي قد يُبتلى بها المرء: غضوب.. حاد الطبع.. عجول.. عصبي.. جبان.. ظلوم.. معتدي.. بصير بعيوب غيره.. أعمى عن عيوب نفسه.. يفتري الكذب.. يقع في أعراض الخلق.. وهكذا.

إنها جلسات التفكر اليومية والمحاسبة الدورية؛ تنظر فيها إلى المرآة الإيمانية لترى الصورة نفسك على حقيقتها دون تزييف أو تزيين، في غيبة من خديعة الناس لك بثنائهم عليك؛ إذ لا يرون غير ظاهرك، وخديعتك أنت لنفسك أن ترى حسناتها دون سيئاتها، وتنظر إلى من هو أدنى منك دينًا وخلقًا، ولا يتم هذا الاستشفاء إلا في لحظة مكاشفة ومصارحة لمن أراد الله له الخير والعافية.

4 التفكر في عواقب الأمور:

وهو تفكُّر أوجبه الله على عباده قبل القيام بأي عمل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ ﴾ [الحشر: ١٨]، وهو توطئة لعمل الخير أو الشر كما قال **ابن عباس**: «التفكر في الخير يدعو إلى العمل به، والندم على الشر يدعو إلى تركه»(٢).

---

(١) شعب الإيمان ٦/ ٦٥.
(٢) السابق ٤/ ٤٢٥.

قال ابن القيم شارحًا مستفيضًا:

«إذا فكَّر في عواقب الأمور، وتجاوز فكره مبادئها وضعها مواضعها وعلم مراتبها، فإذا ورد عليه وارد الذنب والشهوة، فتجاوز فكره لذّة وفرح النفس به إلى سوء عاقبته، وما يترتب عليه من الألم والحزن الذي لا يقاوم تلك اللذَّة والفرحة، ومن فكَّر في ذلك فإنه لا يكاد يُقدِم عليه.

وكذلك إذا ورد على قلبه وارد الراحة والدَّعة والكسل والتقاعد عن مشقَّة الطاعات وتعبها؛ حتى عبر بفكره إلى ما يترتب عليها من اللذَّات والخيرات والأفراح التي تغمر تلك الآلام في مبادئها بالنسبة إلى كمال عواقبها، وكلما غاص فكره في ذلك اشتد طلبه لها وسهل عليه معاناتها، واستقبلها بنشاط وقوة وعزيمة»[(١)].

بل حتى وإن كان العمل صالحًا وخرج من دائرة السوء، فلابد لك من التفكر في النية فيه والغرض من ورائه، حتى لا يشوبه رياء محبط أو عجب مهلك، وحتى إن برئ القلب من هذه الآفات، كان من النافع له غاية النفع أن يتفكَّر تفكُّرًا يدفعه إلى تعديد نواياه الصالحة ومضاعفتها حتى يضاعف الله له أجره في مقابل هذا أضعافًا مضاعفة.

5 التفكر في كل ما حولك:

ولنا خير قدوة وأعظم أسوة في رسول الله ﷺ بموقفين أستشهد بهما على سبيل المثال لا الاستقصاء:

الأول:

مشهد سباق إبل!!

عن **أنس** ﷺ قال: كانت ناقة لرسول الله ﷺ تُسمَّى العضباء، وكانت لا تُسبق فجاء أعرابي على قعود له فسبقها، فاشتد ذلك على المسلمين، فقال رسول الله ﷺ: «**إن حقًّا على الله:**

(١) مفتاح دار السعادة ١/ ١٨٦، ١٨٧.

أن لا يرتفع شيء من الدنيا إلا وضعه»[١].

وماذا يستفيد المرء من سباق ومرح وتنافس وفرح؟! لكن قلب النبي ﷺ ليس أي قلب؛ لذا وسط هذا الموقف يقتنص قلبه ﷺ هذا الدرس البليغ، ويربط الحدث العابر بالحكمة الدائمة والدرس الخالد، إنه التفكر الذي ينظر في أحداث الحياة اليومية بمنظار دقيق وعدسة مكبِّرة، فيرى ما وراء الحدث، وينظر إليه بروحه لا بعينه، ويبصر بقلبه مع بصره، وكلما سمت روح المرء وطهر قلبه رأى ما لا يراه الآخرون، وانتفع بما حُرِم منه الغافلون، متربصًا بكل حادث يربطه بربه ويوصله إليه.

الثاني:

مشهد امرأة مرضع!!

عن **عمر بن الخطاب** رضي الله عنه قال: قدم على النبي ﷺ سبي فإذا امرأة من السبي قد تحلب ثديها تسعى، إذ وجدت صبيًّا في السبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته، فقال لنا النبي ﷺ: «**أترون هذه طارحة ولدها في النار؟**»، فقلنا: لا وهي تقدر على أن لا تطرحه، فقال: «**لله أرحم بعباده من هذه بولدها**»[٢].

وانتفع **ابن الجوزي** بهذين الموقفين وغيرهما من سيرة النبي ﷺ، ثم خرج بما يلي:

«لو صفت لك فكرة كان لك في كل شيء عبرة، كل المخلوقات بين مخوِّف ومشوِّق، حر الصيف يُذكِّر حر جهنم، وبرد الشتاء محذِّر من زمهريرها، والخريف يُنبِّه على اجتناء ثمار الأعمار، والربيع يحثُّ على طلب العيش الصافي»[٣].

وعاش رجالات السلف الصالح هذه المواقف، وبرهنوا على صدق اتباعهم لنبيهم واقعًا عمليًّا ومواقف يومية، فهذا **عطاء السلمي** نسج ثوبًا فأحكمه وحسَّنه، ثم حمله إلى السوق، فعرضه فاسترخصه البزَّاز (الخيَّاط)، وقال: إن فيه عيوبًا كيت وكيت، فأخذه عطاء وجلس

---

(١) رواه البخاري وهو في السلسلة الصحيحة رقم: ٣٥٢٥.
(٢) رواه الشيخان عن عمر بن الخطاب كما في اللؤلؤ والمرجان رقم: ١٧٥١.
(٣) المدهش ص ٣٩١.

يبكي بكاء شديدًا، فندم الرجل على ذلك، وجعل يعتذر إليه، ويبذل له في ثمنه ما يريد، فقال **عطاء**: «ليس ذلك ما تظن؛ إنما أنا عامل في هذه الصناعة، وقد اجتهدت في إصلاح هذا الثوب وإصلاحه وتحسينه حتى لا يوجد به عيب، فلما عُرِض على البصير بعيوبه، أظهر فيه عيوبًا كنت عنها غافلاً، فكيف أعمالنا هذه إذا عُرِضت غدًا على الله سبحانه؟! كم يبدو فيها من العيوب والنقصان؟!»[(١)].

وهذا **هشام الدستوائي** يطفئ السراج إلى الصبح ويقول: إذا رأيت الظلمة ذكرت ظلمة القبر!!

وكان بعض السلف إذا شرب الماء البارد في الصيف بكى وتذكر أمنية أهل النار حينما يشتهون الماء، وينادون أهل الجنة: ﴿ **أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ** ﴾.

وصُبَّ على رأس بعض الصالحين ماءٌ فوجده شديد الحر، فبكى وقال: ذكرتُ قوله تعالى: ﴿ **يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ** ﴾.

وأحد الصالحين يمشي ذات يوم فوجد رجلاً يشوي لحمًا فبكى، فقال له الرجل: ما يبكيك؟ أو محتاج إلى اللحم؟! قال: لا.. إنما أبكي على ابن آدم يدخل الحيوان النار ميتًا وابن آدم يدخلها حيًّا.

وطفل مبارك يعلِّم الكبار رأى أهله يوقدون نارًا للطعام، فلما نظر إليها جعل يبكي، فقالوا له: لماذا تبكي؟ قال: وجدتكم تبدؤون بصغار الحطب قبل كباره.

وكان البعوض إذا وقع على ظهر **إبراهيم العجلي** وكتفه يتأذى منه ثم يقول لنفسه:

وأنت تأذَّى من حسيس بعوضة ... فللنار أشقى ساكنين وأوجع[(٢)]

ونختم بموقف **الحسن البصري** الذي حضر مجلسًا جمع شيوخًا وشبابًا فقال: معشر الشيوخ.. ما يُصنع بالزرع إذا طاب. قالوا: يُحصد. ثم التفت فقال: معشر الشباب! كم من زرع لم يبلغ قد أدركته الآفة فأهلكته، وأتت عليه الجائحة فأتلفته، ثم بكى وتلا: ﴿ **وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ** ﴾ [إبراهيم: ٢٥][(٣)].

---

(١) منهاج العابدين ٢٣٤، ٢٣٥.

(٢) التخويف من النار ص ١١٢ – ابن رجب – ط دار ابن خلدون بالإسكندرية.

(٣) الحسن البصري ص ٩٧، ٩٨.

6 التفكر في الدنيا:

عن أمير المؤمنين **عمر بن عبدالعزيز** أنه بكى يومًا بين أصحابه، فسُئل عن ذلك، فقال: «فكَّرت في الدنيا ولذاتها وشهواتها، فاعتبرت منها بها، ما تكاد شهواتنا تَنْقَضي حتى تكدِّرها مرارتُها، ولئن لم يكن فيها عبرة لمن اعتبر إن فيها مواعظ لمن ادَّكر»[(١)].

إن على الحلاوة أن لا تنسيك المرارة، بمعنى أن حلاوة أيام عليها ألا تنسيك مرارة أعوام، فالدنيا إن سرَّتك أحيانًا أبكتك كثيرًا، وصدق من قال:

نصبَت لنا الدنيا زخارف حسنها ... مكرًا بنا وطبيعة ما غيَّرت
وهي التي لم تَحْلُ قطٌّ لذائق ... إلا تغيَّر طعمُها وتمرَّرت
خدَّاعة بجمالها إن أقبلت ... فجَّاعة بزوالها إن أدبرت
وهَّابة سلاَّبة لهباتها ... طلاَّبة لخراب ما قد عمَّرت
وإذا بنت قصرًا لصاحب ثروة ... نصبت مجانقها عليه فدمَّرت

وهذا ما يحيي في قلبك الزهد فيها، والتهيؤ لما بعد الموت، والاستعداد للرقدة الكبرى في روضة جنة أو حفرة نار هي عما قريب قبرك.

7 التفكر في أحوال الأمة:

روى **ابن الجزري** عن **أبي عبد الله الحافظ** أن الروم الإسبان لما استولوا على إشبيلية سنة ست وأربعين وستمائة هال صوت الناقوس وخرس الأذان **أبا الحسن علي بن جابر الدباج اللخمي الأشبيلي**، فما زال يتأسف ويضطرب إلى أن قضى نحبه بعد أيام رحمه الله، وقد عاش ثمانين سنة[(٢)].

وإن كان نصيب **أبي الحسن** من هزيمة المسلمين وانكسار الأمة هو الألم والحسرة القاتلة؛ إلا

---

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٥٨٠.

(٢) غاية النهاية لابن الجزري ١/ ٥٢٨ نقلاً عن كتاب مشاهد الناس عند الموت ص ٩٦ - عبد الرحمن خليف - ط ٢ سنة ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

أن **الإمام البنا** تجاوزهما إلى العمل والحركة، نعم كان يبكي الليالي الطوال، لكنها الدموع التي تحوَّلت إلى طاقة عمل هائلة جابت ربوع القطر المصري؛ حتى أثمرت جهوده نشر دعوته في أرجاء الأرض من الصين حيث الحكم الشيوعي الحاقد إلى أمريكا حيث الشيطان الاستعماري المارد، ووصولاً إلى أدغال إفريقيا وأطراف روسيا. يقول الإمام **البنا** عن نفسه وهو يصف تفكره المثمر النافع:

«ليس يعلم إلا الله كم من الليالي كنا نقضيها نستعرض حال الأمة وما وصلت إليه في مختلف مظاهر حياتها، ونُحلِّل العلل والأدواء، ونُفكِّر في العلاج وحسم الداء، ويفيض بنا التأثر لما وصلنا إليه إلى حد البكاء»(١).

وكثرة من مسلمي اليوم تطاولوا في بنيان القول والبيان، حتى غدت أقوالهم قصورًا شامخات، بينما أفعالهم أنقاض وحطام، لا ترى فيها عوجًا ولا أمتًا، وكم ناصرنا إخواننا المستضعفين في أرجاء الأرض بالثرثرة والزفرات وبكائيات اللسان، مع أن أفعالنا تعين عليهم وتبطش بهم حتى صدق فينا قول القائل:

نبني من الأقوال قصرًا شامخًا … والفعل دون الشامخات ركامُ

8 التفكر في نعم الله:

وأجلُّ وأعظم وأشرف هذه النعم: نعمة الإسلام، فعن **زبدة أخت بشر بن الحارث** قالت: دخل بشر عليَّ ليلة من الليالي، فوضع إحدى رجليه داخل الدار والأخرى خارج الدار وبقي كذلك يتفكر حتى أصبح، فلما أصبح قلت له: في ماذا تفكرت طول الليلة؟! قال: «تفكَّرتُ في بشر النصراني وبشر اليهودي وبشر المجوسي ونفسي واسمي بشر، فقلت: ما الذي سبق منك حتى خصَّك؟! فتفكَّرت في تفضله علي وحمدته علي أن جعلني من خاصته وألبسني لباس أحبائه»(٢).

---

(١) حسن البنا: الداعية الإمام والمجدد الشهيد ص٢٧.
(٢) صفة الصفوة ٢/ ٣٣١.

والا ..

إذا لم تنشغل بالفكر النافع غزاك الفكر الهادم الضار، قال ابن القيِّم:

«فأنفع الدواء أن تشغل نفسك بالفكر فيما يعنيك دون مالا يعنيك، فالفكر فيما لا يعني باب كل شر، ومن فكَّر فيما لا يعنيه فاته ما يعنيه، واشتغل عن أنفع الأشياء له بما لا منفعة له فيه، فالفكر والخواطر والإرادة والهمة أحق شيء بإصلاحه من نفسك، فإن هذه خاصتك وحقيقتك التي تبتعد بها أو تقرب من إلهك ومعبودك؛ الذي لا سعادة لك إلا في قربه ورضاه عنك، وكلُّ الشقاء في بعدك عنه وسخطه عليك، ومن كان في خواطره ومجالات فكره دنيئًا خسيسًا لم يكن في سائر أمره إلا كذلك، وإياك أن تمكن الشيطان من بيت أفكارك وإرادتك، فإنه يفسدها عليك فسادًا يصعب تداركه، ويلقي إليك أنواع الوساوس والأفكار المضرة ويحول بينك وبين الفكر فيما ينفعك، وأنت الذي أعنته على نفسك بتمكينه من قلبك وخواطرك فملكها عليك»(١).

شروط الانتفاع بالتفكُّر

- التحرر من قيود الدنيا المقعدة ساعة من الزمن؛ لأن «الفكر في الدنيا حجاب عن الآخرة وعقوبة لأهل الولاية، والفكر في الآخرة يورث الحكمة ويحيي القلوب»(٢).
- تخيُّر أوقات التفكر المباركة كما تخيَّرها الخليل إبراهيم عليه السلام: عند حلول الليل، وظهور الكواكب، وبزوغ القمر، وشروق الشمس؛ فإنها أوقات لا تُضيَّع يجب أن يكون لك فيها من هذه العبادة نصيب.
- التماس أماكن الهدوء والسكون والبعد عن مصادر الجلبة والمشوشات.
- التريث وعدم الاستعجال، وذلك بالفراغ من شغل البدن قبل البدء في شغل الروح.

---

(١) الفوائد ١/ ١٧٥-١٧٦.
(٢) الإحياء ٤/ ٤٢٥.

✍ وأخيرًا طهارة القلب من الذنوب ونقاؤه من المكدِّرات حتى ترى مرآته صور الحقائق واضحة نقية.

ثمرة التفكر

كما أنه ليس المراد من السحابة الأمطار وإنما وجود الأثمار، فكذلك ليس المراد من التفكر إلا العمل؛ ولذلك قال وهب: «ما طالت فكرة امرئ قط إلا علم، وما علم امرؤ قط إلا عمل»(١).

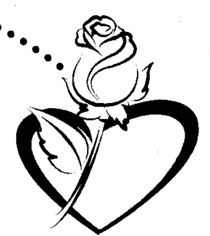
وكل من لم يخرج من عبادة التفكر بمزيد من العمل فإن تفكره ضائع ضائع، وستظل كلمات هذا الفصل كلام منابر وحبرًا يملؤ الأوراق ما لم يتحوَّل إلى طاقة حركة ودفقة عمل، وبهذا كتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز مبرزًا هذه القاعدة:

«اعلم أن التفكُّر يدعو إلى الخير والعمل به، والندم على الشر يدعو إلى تركه»(٢).

---

(١) السابق ٤/ ٤٢٥.

(٢) حلية الأولياء ٢/ ١٣٤، ١٣٥.



تاسعًا: معاهدة الصلح

يا من كل يوم من الذنب يغترف وهو مصرٌّ على أن لا يعترف، اسمعها مني عالية مدوِّية:

طهِّر قلبك من دنس ذنبك بالمتاب، قبل أن يُكبك على وجهك غدًا في أشد العذاب.

لكن لماذا بدأنا بالتوبة كأول علاج؟!

والجواب: التوبة النصوح تزيل أخطر السموم على الإطلاق، ولا سُم أخطر على القلب من الذنوب؛ لذا كانت التوبة أعظم جرعة مضادة لأثر الذنب، والترياق المناسب لرد الهجوم على القلب، والكفيل برد العدو على أدباره بل والقضاء عليه، المعاصي طوق في عنق العاصي لا يفكه منها إلا التوبة، ولهذا سماها علماء القلوب **وظيفة العمر**؛ لأنها تلزم الشاب والشيخ والطائع والعاصي والمتقدِّم والمتعثِّر.

وقد بيَّن **أبو حامد الغزالي** علاقة التوبة بالطاعات، وكيف أن التوبة شرط لازم للإقبال على الطاعة وشرط لازم كذلك لقبول أي طاعة، فقال رحمه الله في كتابه منهاج العابدين:

«عليك يا طالب العبادة –وفقك الله لطاعته- بالتوبة، وذلك لأمرين:

أحدهما: ليحصل لك توفيق الطاعة، فإن شؤم الذنوب يورث الحرمان، ويُعقِب الخذلان، وإن قيد الذنوب يمنع من المشي إلى طاعة الله عز وجل، والمسارعة إلى خدمته، وإن ثِقل الذنوب يمنع من الخفة للخيرات، والنشاط إلى الطاعات، فيا عجبًا!! كيف يُوفَّق للطاعة من هو في شؤم معصية والقساوة؟! وكيف يُدعى إلى الخدمة من هو مُصِرٌّ على المعصية والجفوة؟! وكيف يُقرَّب للمناجاة من هو متلطِّخ بالأقذار والنجاسات؟! فلا جرم أن لا يجد المُصِرُّ على العصيان توفيقًا، ولا تخف أركانه للعبادة، وإن اتفق؛ فبِكَدٍّ لا حلاوة معه ولا صفوة، وكلُّ ذلك لشؤم الذنوب وترك التوبة.

والثاني من الأمرين: أنه تلزمك التوبة لقبول عبادتك، فإن رب الدَّيْن لا يقبل الهدية، وذلك أن التوبة عن المعاصي وإرضاء الخصوم فرض لازم، وعامة العبادة التي تقصدها نفل، فكيف يقبل تبرعك والدَّيْن قد حلَّ عليك لم تقضه؟! أم كيف تترك لأجله الحلال والمباح وأنت مُصِرٌّ على فعل المحظور والحرام؟! وكيف تناجيه وتدعوه وتثني عليه؛ وهو والعياذ بالله عليك غضبان؟!»[١].

معدلات التوبة!!

لكن كم مرة عليك أن تعلن توبتك كل يوم؟! وما هو معدَّل رجوعك إلى ربك وإعلان خضوعك له؟!

تتنوع الأحاديث التي تتناول ذلك:

- فمنها ما يربط التوبة بوقوع الذنب من العبد، فيجعل عليه كلما أذنب توبة كما في قوله ﷺ: «**ما من عبد يذنب ذنبا فيتوضأ فيحسن الطهور، ثم يقوم فيصلي ركعتين، ثم يستغفر الله لذلك الذنب إلا غفر الله له**»[٢].

- ومنها ما يجعله عادة للعبد أذنب أم لم يذنب باعتبار أن العبد خطَّاء على الدوام عرف ذنبه أم لم يعرفه؛ لذا قال النبي ﷺ مرسيًا معدلاً يوميًّا للتوبة:

«**إني لأتوب إلى الله تعالى في اليوم سبعين مرة**»[٣].

- ومنها ما يجعلها خمس مرات على الأقل كل يوم كما في حديث **أبي هريرة** ﷺ: كان رسول الله ﷺ يسكت بين التكبير وبين القراءة إسكاتة هُنيَّة، فقلت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله! إسكاتتك بين التكبير والقراءة ما تقول؟! قال: «**أقول: اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب، اللهم نقِّني من خطاياي كما يُنقَّى الثوب الأبيض من الدنس،**

---

(١) منهاج العابدين ص٣١، ٣٢.

(٢) صحيح: رواه الأربعة وأحمد وابن حبان عن أبي بكر كما في صحيح الجامع رقم: ٥٧٣٨.

(٣) صحيح: رواه النسائي وابن حبان عن أنس كما في صحيح الجامع رقم: ٢٤٧٧.

اللهم اغسل خطاياي بالماء والثلج والبرد»[١].

فتجديد التوبة إذن في ضوء هذا الحديث لا بد أن يتم كل يوم خمس مرات على الأقل، فتجدِّد توبتك كل صلاة، وتستفتح صلاتك بالاعتذار، **والسؤال الأول** الذي يتبادر إلى الأذهان: لماذا يردِّد المسلم هذا الدعاء في اليوم خمس مرات على الأقل، فإن حافظ على السنن الرواتب ردَّده إحدى عشرة مرة؟!

والجواب:

لأن الله سبحانه جعل الدخول عليه مشروطًا باستيفاء الطهارة، فلا يدخل المصلي عليه حتى يطهر، وكذلك جعل الدخول إلى جنته موقوفًا على الطيب والطهارة، فلا يدخلها إلا طيب طاهر، فهما طهارتان: طهارة البدن، وطهارة القلب، ولهذا شُرِع للمتوضئ أن يقول عقب وضوئه:

«أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهِّرين».

فطهارة القلب بالتوبة، وطهارة البدن بالماء، فلما اجتمع له الطهران صلح العبد للدخول على الله تعالى، والوقوف بين يديه ومناجاته.

والسؤال الثاني: لماذا قال: «**اللهم طهِّرني من خطاياي بالماء والثلج والبرد**»، وما فائدة تخصيص الثلج والبرد بل ورد في لفظ آخر والماء البارد، مع أن الماء الحار معروف بأنه أبلغ في التنقية وغسل الأوساخ وإزالة الأذى؟!

سأل الإمام **ابن القيِّم** شيخه **ابن تيمية** نفس السؤال فأجاب رحمه الله بقوله:

«الخطايا توجب للقلب حرارة ونجاسة وضعفًا، فيرتخي القلب، وتضطرم فيه نار الشهوة وتنجسه، فإن الخطايا والذنوب له بمنزلة الحطب الذى يُمِدُّ النار ويوقدها، ولهذا كلما كثرت الخطايا اشتدت نار القلب وضعفه، والماء يغسل الخبث ويطفئ النار، فإن كان باردًا أورث الجسم صلابة وقوة، فإن كان معه ثلج وبرد كان أقوى في التبريد وصلابة الجسم

---

(١) صحيح: رواه الشيخان عن أبي هريرة كما في اللؤلؤ والمرجان رقم: ٣٤٩.

وشدته، فكان أذهب لأثر الخطايا»(١).

وهذا مصداق قول النبي ﷺ:

«تحترقون تحترقون، فإذا صليتم الصبح غَسَلَتْها، ثم تحترقون تحترقون، فإذا صليتم الظهر غَسَلَتْها، ثم تحترقون تحترقون، فإذا صليتم العصر غَسَلَتْها، ثم تحترقون تحترقون، فإذا صليتم المغرب غَسَلَتْها، ثم تحترقون تحترقون، فإذا صليتم العشاء غَسَلَتْها، ثم تنامون فلا يُكْتب عليكم حتى تستيقظوا»(٢).

نحترق بالذنوب كل يوم خمس مرات كما نصَّ الحديث، فالذنوب إذن نار، نعم الذنوب مُحرِقة، وإذا أحرقت أهلكت، لولا أن منَّ الله علينا بصلوات طيبات تطفئ لهب السيئات المهلكات.

الذنوب نار والقلب الحي مع النار كالشجرة الخضراء إذا أُدخِلت النار؛ تبدأ تعرق وتلفظ ماءها أو بالأحرى دموعها، وكذلك القلب الحي إذا وقع عليه الذنب ارتجف وجلاً ودمعت عين صاحبه خوفًا.

الذنوب نار والقلب الميت مع النار كالشجرة اليابسة إذا دخلت النار علا دخانها وتفحَّمت في الحال ولم تخرج منها دمعة واحدة، وكذلك صاحب القلب الميت إذا نزل عليه الذنب لم يتأثَّر بل ربما امتلأ سرورًا بذنبه وفرحًا بمعاندة ربه.

لكن كثيرًا من الناس من لا يحس بلفح نار الذنب وحرِّها لأن قلبه تفحَّم من أثر الذنوب منذ زمن، ولم يعُد فيه سوى الرماد، وهل تأكل النار من الرماد شيئًا؟!

يا قلب ما لي لا أراك تطيعني … أتحثُّ نحو المهلكات خطاكا
يا أيها القلب المُكبَّل بالأسى … مزِّق بعزم التائبين أساكا
تُب واعتبر واندم على ما قد مضى … وادفن بأمواج الرشاد هواكا
واغسل ذنوبك بالمدامع ساجدًا … فعساك تبلغ ما تريد عساكا

---

(١) إغاثة اللهفان من مكائد الشيطان ١/ ٥٧.

(٢) حسن: رواه الطبراني في الصغير والأوسط عن عبد الله بن مسعود، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب رقم: ٣٥٧.

مضاعفات القوة

1 التوبة العملية:

لا تعتمد على الصدمة الأولى، بل استثمرها في البناء، واستغِلَّها في تشييد مناعة إيمانية حصينة تقضي على كل ما تسلل إليك من عدوى الذنوب وجراثيم الهوى، واسمع كلام **ابن القيِّم** وقد فطن إلى هذا المعنى مبكِّرًا:

«وليست التوبة تركًا، وإن كان الترك من لوازمها، وإنما هي فعل وجودي، يتضمن إقبال التائب على ربه وإنابته إليه والتزام طاعته، ومن لوازم ذلك: ترك ما نُهي عنه، ولهذا قال تعالى: ﴿ **وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ** ﴾ [هود: ٣]، فالتوبة رجوعٌ مما يكره سبحانه إلى ما يحب، وليست مُجرَّد الترك، فإن من ترك الذنب تركًا مُجَرَّدًا، ولم يرجع منه إلى ما يحبه الرب تعالى؛ لم يكن تائبًا، فالتوبة: رجوع وإقبال وإنابة»[(١)].

وقد فهم **مطرف** أن من لوازم التوبة : الرجولة الحقة والوفاء الصارم ، فقد سمع رجلا يقول : أستغفر الله وأتوب إليه ، فأخذ **مطرف** بذراعه وقال : «لعلك لا تفعل! من وعد فقد أوجب »[(٢)].

لذا عرَّف **سهل بن عبد الله التستري** التوبة بأنها: «تبديل الحركات المذمومة بالحركات المحمودة»[(٣)]، وأكَّد ذلك **ابن الجوزي** في نغمة لها نفس التردد وذات الصدى لتُحدِث نفس الأثر في الروح:

«قد ثبت في الحكمة أن شفاء الأمراض قصد أسبابها، فمن استشفى لمرضه بغير ذلك فقد أتى البيوت من غير أبوابها، فمن كان داؤه المعصية فشفاؤه الطاعة، ومن كان داؤه الغفلة فشفاؤه اليقظة، ومن كان داؤه كثرة الاشتغال فشفاؤه في تفريغ البال»[(٤)].

(١) الفوائد ص ١٦٤ - ط دار النفائس.
(٢) نثر الدر ٢/ ٦٧
(٣) الإحياء ٤/ ٤.
(٤) التذكرة في الوعظ ص ٥٣.

وسماه المقدسي سبيل المضادة حين قال:

«فاسلك سبيل المضادة، فإن الأمراض إنما تعالج بضدها»[(١)].

فكل من أدمن الاستماع إلى الغناء المحرَّم وجلس مجالس الغيبة لا يكفِّر ذلك عنه إلا سماع القرآن ومجالس الذكر، وكل من أطلق بصره في حرام لا تتم توبته إلا بتقليب نظره إما في كتاب الله المنظور وهو كونه العظيم أو كتاب الله المقروء وهو قرآنه الكريم، وكل من سعت قدمه إلى أماكن الحرام لا بد له من إتعاب هذه القدم في السعي إلى الخيرات والقربات حتى يشفى، وكل من تلوَّث لسانه بالفحش من القول والسباب والغيبة لا بد له من تطهيره بالذكر؛ لذا أوصاك ابن المبارك:

اغتنم ركعتين زلفى إلى الله   إذا كنت فارغًا مستريحا
وإذا ما هممت بالنطق في الباطل   فاجعل مكانه تسبيحا[(٢)]

والشاهد: فاجعل مكانه تسبيحًا...

إن العمل وحده هو الذي يمحو العمل، والسعي والجد بحزم في تكفير السيئات هو العملة المعتمدة في شراء العفو، «وأما انتظار عفو الله تعالى، فعفو الله سبحانه ممكن، إلا أن الإنسان ينبغي له الأخذ بالحزم، وما مثال ذلك إلا كمثل رجل أنفق أمواله كلها، وترك نفسه وعياله فقراء ينتظر من الله تعالى أن يرزقه العثور على كنز في خربة، وهذا ممكن إلا أن صاحبه ملقب بالأحمق»[(٣)].

فهم كعب بن مالك ﷺ مفهوم التوبة العملية بفطرته الإيمانية، وكان قد تخلَّف عن غزوة تبوك دون عذر، ثم اعترف بذلك صادقًا أمام رسول الله ﷺ، ومع أن الله جلَّ في علاه قد شهد له بقبول توبته وأنزل في ذلك قرآنًا يُتلى إلى قيام الساعة: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨]

---

(١) مختصر منهاج القاصدين ص ٢٦٠.
(٢) شعب الإيمان ٤/ ٢٧٥.
(٣) مختصر منهاج القاصدين ص ٢٦٧.

لكن كعبًا لم يركن بعد هذه التبرئة الإلهية إلى الراحة والسكون بل فهم أن له دورًا آخر وعملاً لم يتم فقال:

«يا رسول الله! إن الله إنما أنجاني بالصدق، وإن من توبتي أن لا أُحدِّث إلا صدقًا ما بقيت، قال: فوالله ما علمت أن أحدًا من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا أحسن مما أبلاني الله به، والله ما تعمَّدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول الله ﷺ يومي هذا، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقي».

وأصرَّ على تأكيد توبته بعمل صالح آخر حين قال:

«يا رسول الله! إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسول الله». قال رسول الله ﷺ: «**أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك**». قلت: فإني أُمسك سهمي الذي بخيبر[(١)].

وإشارة أخرى نلتقطها من **سهل بن عبد الله التستري**، وهي أن العمل الصالح توطئةٌ للمغفرة وعلامة لازمة من علاماتها. قال رحمه الله:

«من وفَّقه الله لصالح الأعمال، فذاك دليل على أنه مغفورٌ له، لأن الله تعالى قال: ﴿**يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ**﴾ [الأحزاب: ٧١].

2 أبعاد الندم الثلاثية:

كلما كان ندمك أصدق كلما كان شفاؤك أسرع، وكلما زاد ندمك كلما حسُنت توبتك، وكلما طال ندمك كلما ثقلت موازينك وعلت درجتك، فصدق الندم وقدره وطول بقائه بالقلب ثلاث صفات يتنافس فيها طالبو الشفاء اليوم ويقتسمون بها المنازل عند رب كريم.

وممن حقق هذه الأبعاد الثلاثية صحابي بدري مبارك هو **أبو حذيفة هشيم ابن عتبة بن ربيعة** ﷺ، وأبوه هو من هو في زعامة الكفر، لكنه سبحانه يخرج الحي من الميت، واسمع خبر

(١) صحيح: رواه الشيخان عن كعب بن مالك كما في اللؤلؤ والمرجان حديث رقم: ١٧٦٢.

هذا الحي صاحب القلب الحي على لسان **ابن كثير**:

«عن **عبد الله بن عباس** أن النبي ﷺ قال لأصحابه يوم بدر: إني قد عرفت رجالاً من بني هاشم وغيرهم قد أُخرجوا كرهًا لا حاجة لهم بقتالنا، فمن لقي منكم أحدًا من بني هاشم فلا يقتله، ومن لقي **أبا البختري بن هشام بن الحارث ابن أسد** فلا يقتله، ومن لقي **العباس بن عبد المطلب** عم رسول الله ﷺ فلا يقتله، فإنه إنما خرج مستكرها، فقال **أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة**: أنقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا ونترك **العباس**!! والله لئن لقيته لألجمنه بالسيف، فبلغَتْ رسول الله ﷺ، فقال **لعمر**: يا أبا حفص!! قال **عمر** ﷺ: والله إنه لأول يوم كناني فيه رسول الله ﷺ بأبي حفص.. أيضرب وجه عم رسول الله بالسيف؟! فقال **عمر**: يا رسول الله دعني فلأضرب عنقه بالسيف، فوالله لقد نافق، فقال **أبو حذيفة**: ما أنا بآمن من تلك الكلمة التي قلت يومئذٍ، ولا أزال منها خائفًا إلا أن تُكفِّرها عني الشهادة، فقُتِل يوم اليمامة شهيدًا ﷺ»[1].

فانظر رحمك الله إلى صدقه حيث لم يتراجع عن موقفه أبدًا ولم يتغيَّر لا كمن يعزم على التوبة لحظيًّا ثم ينكص عنها بعد قليل، وانظر مقدار ندمه الذي دفعه إلى اختيار الموت في سبيل الله وحده كوسيلة وحيدة يكفِّر بها عن خطيئته لا كمن لا يساوي مقدار ندمه حزنه على ترقية وظيفية أو مكافأة مالية زائلة، وتأمل طول بقاء ندمه في القلب طوال قرابة عشر سنين لا كمن ينسى ذنبه فور حصوله أو بعد ساعة أو ساعتين على الأكثر، لكن.. ما هو تعريف الندم كي نحققه وما هو الباعث عليه حتى نصل إليه؟

قال **أبو قدامة المقدسي**: «والندم هو توجع القلب عنده شعوره بفراق المحبوب، وعلامته طول الحزن والبكاء، فإن من استشعر عقوبة نازلة بولده أو من يعزُّ عليه، طال بكاؤه، واشتدت مصيبته، وأي عزيز أعز عليه من نفسه؟ وأي عقوبة أشد من النار؟ وأي سبب أدل على نزول العقوبة من المعاصي؟ وأى خبر أصدق من رسول الله؟ ولو أخبره طبيب أن ولده لا يبرأ من مرضه لاشتد فى الحال حزنه، وليس ولده بأعز من نفسه، ولا الطبيب أعلم من الله ورسوله، ولا الموت بأشد من النار، ولا المرض أدل على الموت من المعاصي على سخط الله، والتعرض بها للنار»[2].

---

(١) البداية والنهاية ٣/ ٢٨٤، ٢٨٥.

(٢) مختصر منهاج القاصدين – ص ٢٥٩ – ط دار التراث.

3 التوبة النصوح:

قال **الزرعي** في شرح المنازل:

«النصح في التوبة يتضمن ثلاثة أشياء:

أحدها: تعميم جميع الذنوب واستغراقها بحيث لا تدع ذنبًا إلا تناولته.

والثاني: إجماع العزم والصدق بكليته عليها بحيث لا يبقى عنده تردد ولا تلوُّم ولا انتظار، بل يجمع عليها كل إرادته وعزيمته مبادرًا بها.

والثالث: تخليصها من الشوائب والعلل القادحة في إخلاصها، ووقعها لمحض الخوف من الله تعالى وخشيته والرغبة فيها لديه والرهبة مما عنده، لا كمن يتوب لحفظ جاهه أو حرفته أو منصبه، أو لحفظ حاله أو ماله أو استدعاء حمد الناس أو الهرب من ذمهم أو نحو ذلك من العلل التي تقدح في صحتها وخلوصها لله تعالى.

ولا ريب أن التوبة الجامعة لما ذُكِر تستلزم الغفران وتتضمنه وتمحق جميع الذنوب، وهي أكمل ما يكون من التوبة»[(١)].

إن التوبة النصوح هي مجال تنافس عملي بين المرضى، فمن أراد أن يضاعف أثر التوبة ودواءها فليحقق شروط التوبة النصوح الثلاثة.

فالشرط الأول للتوبة النصوح أن تكون توبة شاملة، وليس بالضرورة أن يكون صاحب التوبة مرتكب كبيرة أو مصرًّا على صغيرة، بل قد تشمل كل واحد منا ولو كان صالحًا كالتوبة من الغفلة، والتوبة من عدم شكر النعمة، والتوبة من إيثار حب غير الله على حب الله، والتوبة من عدم إتقان العبادة، والتوبة من استقلال العبد المعصية وهو عين الجرأة على ربه، والتوبة من إضاعة الوقت، والتوبة من التقصير في الدعوة ونصرة الدين، والتوبة من غلبة الهوى عند لحظات الضعف، بل والتوبة من التوبة أي من عدم استكمال شروط التوبة.

---

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين ص ٥٨ – محمد علي بن محمد علان بن إبراهيم البكري الصديقي المكي – الدار العثمانية ودار ابن حزم – الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ ٢٠٠٤م.



ولذا كان من حرص النبي ﷺ بنا ورحمته بأمته أن علمنا أن نقول في سجودنا -وهو أكثر المواضع قربًا من الله- هذا الدعاء الجامع المانع، وهو دعاء يجبر كسر أوبتنا وما أشده، ويسد خرق توبتنا وما أوسعه، فعن **أبي هريرة** ؓ أن النبي ﷺ كان يقول في سجوده: «**اللهم اغفر لي ذنبي كله، دِقَّه وجِلَّه، وأوله وآخره، علانيته وسِرَّه**»(١).

والشرط الثاني للتوبة النصوح كما حكاه **الزرعي**: المبادرة بها على الفور وعدم تسويفها.

والثالث: اتهام التوبة، وهو أن لا يتيقن العبد أنه أدى توبته على الوجه المطلوب الذي ينبغي له، بل يجب أن يخاف أنه ما وفاها حقها فلم تُقبل منه، وأنه لم يبذل جهده في صحتها فلم تمحُ ذنبه.

4 التكرار يعلِّم الأبرار:

في كثير من الأحيان.. خسارة معركة تُعلِّمك كيف تربح الحرب، والوقوع في الذنب يعرِّفك كيف تتجنبه في المستقبل، ومما يضاعف أثر دواء التوبة هو أن تعرف كيف استزلك الشيطان وأوقعك في الذنب، ثم ما هي المقدمات التي سلكتها ابتداء فأدَّت بك إلى العصيان انتهاء، وذلك لتتجنَّبها في المستقبل، وتستخلص الدروس مما وقعت فيه، ولا ترجع إليه مرة أخرى «**لا يُلدغ المؤمن من جُحرٍ مرتين**».

فقد تكون الخلوة هي من أدت بك إلى السقوط، أو الفراغ، أو الصحبة السيئة هي التي زيَّنت لك الحرام، أو مكان معصية سعيت إليه بقدميك حتى هويت، وتكون من علامات التوبة المقبولة أن تُثبِت لربك أنك استفدت مما جنيت.

ليست التوبة إذن جلدًا للذات ولا غرقًا في أخطاء الماضي؛ لأن الاشتغال بضياع وقتٍ ماضٍ تضييعٌ لوقت ثانٍ، وإنما التوبة استخلاص للعبر من ماضيك لتستقبل بها حاضرك، وتستشرف بها مستقبلك، وإن المريض الذكي اليوم هو من يتعلَّم من أخطائه، ويعقد مع نفسه جلسات

(١) صحيح: رواه مسلم وأبو داود عن أبي هريرة كما في صحيح أبي داود رقم: ٧٨١.

محاسبة دورية يخرج منها بتوصيات عملية تصحح مسيرته وتُقوِّم اعوجاجه وتعيده إلى الجادة، وربما صحَّت الأجساد بالعلل.

5 تعجيل التوبة:

من سوَّف لنفسه بالتوبة على الدوام تراكمت ظلمة الذنوب على قلبه، وتعذَّر عليه الاستدراك، لأن القليل يدعو إلى الكثير، والذنب يستدعي ذنبًا آخر، فيقوِّي أحدهما الآخر، ثم يستدعيان ثالثًا، ثم تجتمع الثلاثة فتستدعي رابعا، وهلم جرًّا حتى تغمره الذنوب، وتحيط به خطيئته من كل جانب، فيصير القلب مقيدًا بسلاسل الشهوات لا يمكنه التخلص من مخالبها، وهذا من معاني انسداد باب التوبة، ولعله المراد بقوله تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ**﴾ [يس: ٩].

وتأخير التوبة من أضراره كذلك نسيان ذنبك، ومعنى نسيان ذنبك أن يضيع في مجاهل النسيان من كثرة توارد الذنوب بعده؛ لذا كانت المبادرة إلى التوبة على الفور هي عمل كل عاقل رأى العواقب وأبصر المصير الذي ينتظره إن تأخَّر، وكان تأخير التوبة هو الذنب الثاني في سلسلة الذنوب المتصلة التي رآها ابن القيِّم فقال:

«المبادرة إلى التوبة من الذنب فرض على الفور ولا يجوز تأخيرها، فمتى أخَّرها عصى بالتأخير، فإذا تاب من الذنب بقي عليه توبة أخرى؛ وهي توبته من تأخير التوبة، وقلَّ أن تخطر هذه ببال التائب، بل عنده: أنه إذا تاب من الذنب لم يبق عليه شيء آخر، وقد بقي عليه التوبة من تأخير التوبة»(١).

أخي.. إن أخَّرت توبتك فقد أعطيت أول خيط من ثوب إيمانك لشيطانك، فأخذ ينسل الثوب خيطًا من بعد خيط حتى يدعك في عراء الأهواء عريانًا من خير لباس.. لباس التقوى ﴿ **وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ** ﴾ [الأعراف: ٢٦].

(١) المدارج ص ٢٧٢.

٦ الأجر على قدر المشقة:

إن توبةً مِن أصعب ما يكون هي توبة **الغامدية** في عهد النبي ﷺ، فقد وقعت في جريمة الزنا، لكنها تابت وأرادت أن تكفِّر عن هذه الخطيئة بإقامة الحد عليها، فأمرها النبي ﷺ أن تذهب حتى وضعت حملها، ولم تُنسِها مشقة الحمل مرارة الذنب ووجوب التكفير عنه؛ لذا رجعت إلى النبي ﷺ ثانية تطلب إليه أن يُطهِّرها، فردَّها النبي ﷺ حتى تفطم طفلها، ولم يُنسِها حنان الأمومة وشدة تعلقها بطفلها يومًا بعد يوم مرارة ذنبها؛ لذا رجعت إلى النبي ﷺ ثالثة ليطهِّرها، وتطهيرها هو رجمها حتى الموت، وإلى هذا المصير قادها قلبها، فامتثلت قدماها للأمر، وأتت رسول الله ﷺ معترفة، فنالت وسام الشرف على لسان نبينا ﷺ:

«لقد تابت توبة لو قُسِّمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم، وهل وجدت توبة أفضل من أن جادت بنفسها لله»(١).

توبة امرأة تعدل توبة سبعين من الصحابة، فتوبتها تعدل توبة كم واحد منا!!

لكن لماذا؟!

أقول: لأنها التوبة الأصعب ولا شك!! فهي توبة تساوي موتة، وليست أي موتة بل رجمًا بالحجارة حتى تزهق الروح، ثم هي فراق الولد الذي اشتد تعلق القلب به، ثم هو قمة الصدق الذي دام رغم مرور سنتين.

وحين تناثرت قطرات دمها الزكي على ثوب **خالد بن الوليد** ﷺ غضب وسبَّها ناظرًا إلى هول جريمتها محتقرًا لها باعتبارها زانية ، فنهاه النبي ﷺ مبيِّنا حقيقة ما فعلت:

«مهلاً يا خالد! لا تسُبَّها، فوالذي نفسي بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس(٢) لغُفِر له»(٣).

---

(١) صحيح : رواه أحمد ومسلم أبو داود والنسائي عن عمران بن حصين كما في صحيح الجامع رقم : ٥١٢٨.

(٢) المكوس : هي الضرائب التي كانت يأخذها العشَّارُون ، وقد غلب استعمال المكس فيما يأخذه أعوان السلطان ظلمًا عند البيع والشراء ، والمكس من أقبح المعاصي والذنوب الموبقات وذلك لكثرة مطالبات الناس له وظلاماتهم عنده ، وتكرر ذلك منه ، وانتهاكه لحرمات الناس ، وأخذ أموالهم بغير حقها ، وصرفها في غير وجهها.

(٣) حسن : رواه أحمد ومسلم أبو داود والنسائي عن بريدة كما في صحيح الجامع رقم : ٦٦٢٨.

إن توبة من اقتات المال الحرام والربا دهرًا، أو توبة من عاش وسط بيت غير ملتزم مليء بالملهيات والموبقات، أو توبة من يعمل في بيئة لا تتقيد بتعاليم الإسلام بل تتحرر منها ولا تعين على التوبة بل تصرف عنها، أو توبة شاب قضى زهرة شبابه في الشهوات والمغريات والكبائر، توبة كل هؤلاء هي سباحة ضد التيار، ومن ثم فهي أشرف قدرا وأكبر أجرًا، ولعلها في ميزان الله أثقل من توبة أتقى العباد وأزهد الزهاد.

مدَّعي النبوة الشهيد!!

لا تيأسوا معاشر المذنبين من فداحة ذنوبكم وطول عصيانكم، بل انظروا دائمًا إلى الجانب المشرق والوجه الساطع من الخطيئة، والمحوا فيها الفرصة السانحة كي ترتقوا أعلى المقامات وتحوزوا غاية الفضل، فالذنب مفتاح التوبة، وكلما كان السقوط أدهى كان الصعود أعلى.

وليس هناك ذنب أخطر من ادعاء النبوة، ومع ذلك غفر الله هذا الذنب، بل وارتقى بصاحبه إلى أسمى مقام يطمح إليه بشر ألا وهو مقام الشهادة، فاعرفوا قدر الرب سبحانه وأنتم تتعاملون معه، واذكروا ما ذكرته كتب التاريخ عن **طليحة بن خويلد الأسدي** الذي ادَّعى النبوة ثم ماذا؟! اقرؤوا ما بعد ماذا:

«وقد خرج **عكاشة** مع **خالد** يوم إمرة **الصديق** بذي القصة، فبعثه **خالد** هو **وثابت بن أقرم** كطليعة بين يديه، فتلقاهما **طليحة الأسدي** وأخوه **سلمة** فقتلاهما، ثم أسلم **طليحة** بعد ذلك، وكان عُمر **عكاشة** يومئذٍ أربعًا وأربعين سنة، وكان **طليحة** ممن شهد الخندق من ناحية المشركين ثم أسلم سنة تسع ووفد على رسول الله ﷺ إلى المدينة، ثم ارتد بعد وفاة رسول الله ﷺ في أيام الصديق وادَّعى النبوة، ثم رجع إلى الإسلام واعتمر، ثم جاء يُسلِّم على **عمر**، فقال له: اغرب عني فإنك قاتل الرجلين الصالحين: **عكاشة بن محصن وثابت بن أقرم**، فقال:

يا أمير المؤمنين، هما رجلان أكرمهما الله على يديَّ ولم أهنأ بأيديهما، فأُعجب عمر بكلامه، ورضي عنه، وكتب إلى الأمراء أن يُشاوَر ولا يُوَلَّى شيئًا من الأمر، ثم عاد إلى الشام مجاهدا، فشهد اليرموك وبعض حروب كالقادسية ونهاوند الفرس، وكان من الشجعان المذكورين والأبطال المشهورين، وقد حسن إسلامه بعد هذا كله، وكان يُعَدُّ بألف فارس لشدته وشجاعته وبصره بالحرب، واستشهد **طليحة** بنهاوند سنة إحدى وعشرين مع **النعمان بن مقرن وعمرو بن معدي كرب**»[1].

إن في هذه القصة كذلك إشارة إلى أن تكرار التوبة والإكثار منها والمواظبة عليها يجعل فرص الخاتمة الحسنة والنهاية الأروع كبيرة، لأن المرء يموت على ما عاش عليه، مما يحث كل عاقل فينا على إدمان التوبة تمهيدا لإحسان خاتمته.

(١) البداية والنهاية ٦/ ٣٣٩.

الدواء الأخير:



وهو دواء لا يقدَّر بثمن وكنز لا يُشترى بمال؛ ولذا لما رأى النبي ﷺ انصراف الناس عنه وعدم انتباههم إلى قدره انطلق يهتف في شداد بن أوس بن ثابت بن المنذر ﷺ وهو ابن أخي حسان بن ثابت الأنصاري الخزرجي ﷺ:

«**يا شداد بن أوس.. إذا رأيتَ الناس قد اكتنزوا الذهب والفضة فاكنز هؤلاء الكلمات: اللهم إني أسألك الثبات في الأمر والعزيمة على الرشد، وأسألك موجبات رحمتك وعزائم مغفرتك، وأسألك شكر نعمتك وحسن عبادتك، وأسألك قلبًا سليمًا ولسانًا صادقًا، وأسألك من خير ما تعلم، وأعوذ بك من شرِّ ما تعلم، وأستغفرك لما تعلم إنك أنت علام الغيوب**»(١).

وهو الحل الأخير والدواء الذي ليس بعده دواء. قال ابن القيِّم:

«فإن عجزت عنه هذه الأدوية كلها لم يبق له إلا صدق اللجأ إلى من يجيب المضطر إذا دعاه، وليطرح نفسه بين يديه على بابه مستغيثا به متضرِّعًا متذللاً مستكينًا، فمتى وُفِّق لذلك فقد قرع باب التوفيق»(٢).

واسأل نفسك وأنت تتناول هذا الدواء: من الذي بيده أن يهب القلوب حياتها؟! من الذي يتفضل عليها بخشوعها وانكسارها؟! من الذي إذا شاء قلَبَ القلب؛ فأصبح أرق ما يكون لذكره، وأخشع ما يكون لآياته، وأبعد ما يكون عن سخطه وغضبه؟

فسبحان من ألان القلوب القاسية ولو كانت الجبال الراسية، فتجد العبد أقسى ما يكون

---

(١) السلسلة الصحيحة ٩/ ٨ رقم: ٣٢٢٨.

(٢) زاد المعاد ٤/ ٢٥١.

قلبًا، وأضعف ما يكون عزمًا، وتأبى رحمة الله إلا أن تناله، فيجود عليه ويكرمه، لتزوره تلك اللحظة العجيبة الرائعة التي يتغلغل فيها الإيمان إلى شغاف القلب بعد أن أذن الله لصاحبه في الشفاء، فمن ديوان الشقاء إلى ديوان السعادة، ومن أهل الجفا إلى أهل الوفا، وبعد أن كان مدبرًا غير مقبل، إذا به يتوجه إلى الله بقلبه وقالبه، وإذا بقلبه ينقلب في لحظة واحدة بل ينعدل في لحظة واحدة، ويصبح بصيرًا متبصرًا بموضع الخطوة القادمة في رحلته نحو الجنة.

ومما يغري النفس باللجوء إلى هذا الدواء: (حياء الرب تعالى من عبده: فذاك نوع آخر لا تدركه الأفهام، ولا تكيفه العقول، فإنه حياء كرم وبر وجود وجلال، فإنه تبارك وتعالى حيي كريم يستحيي من عبده إذا رفع إليه يديه أن يردَّهُما صفرًا، وكان **يحيى بن معاذ** يقول: سبحان من يذنب عبده ويستحي هو!!)[1].

أمل العشاق الوحيد

يا رازحًا تحت وطأة الهوى والحب المحرَّم.. يا من استزله الشيطان وعذَّب قلبه المتيَّم .. يا باكيًا على فراق الحبيب.. يا من طرد ظلام عشقه أنوار فطرته.. يا من أغرق نفسه بيده.. أتؤثر العذابات على اللذات؟! ألا تريد النجاة والفوز؟! تعال أدلك:

عن قتادة قال: «كان **عامر بن عبد قيس** يسأل ربَّه أن ينزع شهوة النِّساء من قلبه، فكان لا يُبالي أذكرًا لقِيَ أم أنثى»[2].

واستجاب الله دعاءه حتى لقِّب بعدها براهب هذه الأمة، وتبدل هواه إلى هداه، وانطفأت نار شهوته ليشرق نور صحوته، وانظروا إلى مشاعره حين حضرت وفاته:

لما احتضر **عامر** بكى، فقيل: ما يبكيك؟ قال: ما أبكي جزعًا من الموت، ولا حرصا على الدنيا، ولكن أبكي على ظمأ الهواجر وقيام الليل.

---

(١) مدارج السالكين ٣/ ٢٠٧.
(٢) صفة الصفوة ٢/ ٢٦١.

مضاعفات القوة

مما يضاعف أثر جرعة الدواء في قلب المريض، ويجعلها تقطع أشواطًا أطول وأسرع في رحلة الشفاء:

1 موعد في السحر:

تعطَّر بالاستغفار إن كانت قد فضحتك روائح الذنوب، مع العلم أن للدواء موعدًا لا ينبغي التخلف عنه حتى يُحدِث أعظم الأثر، وهذا الموعد لم يحدِّده طبيب من الأطباء بل حدَّده رب الأطباء فقال سبحانه: ﴿ **وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ** ﴾ [الذاريات: ١٨].

وقد بلغ من أهمية هذا الدواء في علاج القلب حدًّا جعل الأطباء لا يتصورون أن يتخلف أحد عن موعدٍ واحد من مواعيد تعاطيه، أو يهمل تناول جرعة من جرعاته؛ لذا رُوِي أنَّ **طاووس اليماني** جاء في السَّحَر يطلب رجلاً، فقالوا: هو نائم، فقال: ما كنتُ أرى أنَّ أحدًا ينام في السَّحَر!![١]

بل وفوق ذلك ما روى **يحيى بن عبد الحميد الحمَّانيُّ** عن أبيه أنَّه صحِب **أبا حنيفة** ستة أشهر. قال: فما رأيتُه صلَّى الغداة إلا بوضوء عشاء الآخرة، وكان يختم كُلَّ ليلة عند السَّحَر.

لكن تُرى.. ما الذي رفع سعر هذا الدواء وغلَّاه؟!

إنه الله.. الذي يتنزل بنفسه ليعرض عليك جرعة الدواء بلا رسول أو وسيط أو حاجب أو رقيب، ولأن الجرعة غالية فلا بد حتمًا من غلو الثمن، وهو ترك الفراش الدافئ ومجافاة الزوجة وهجر النوم اللذيذ؛ ولذا ليس في غير هذا الوقت تجد هذه الجرعة: «**من ذا الذي يدعوني فأستجيب له**»، ومتى غير الآن تنعم بشفاء: «**من ذا الذي يسألني فأعطيه**»، ومن أين لك في غير السحر روعة بشارة: «**من ذا الذي يستغفرني فأغفر له**».

---

(١) حلية الأولياء ٤/ ٦.

أخي.. من وظائف رياح الأسحار نقل رسائل الاعتذار، ووالله لو أحسسنا ببلائنا لانقطعت أصواتنا من دعائنا، وقرحت أجفاننا من بكائنا، ولكننا قوم محرومون، فسبحان مستخرج الدعاء بالبلاء، فكل من شرد عنه لابد وأن يعيده إليه، إما لطفًا باختياره، أو قسرًا بابتلائه، لأن من لم تأسره حلاوة النعمة أدبته ضراوة المحنة.

لا يترك الله عبدًا ليس يذكره ... ممن يؤدِّبه أو من يؤنِّبه
أو نعمة تقتضي شكرًا يدوم له ... أو نقمة حين ينسى الشكر تنكُبه

2 المداومة شرط:

إن أفدح الأخطاء أن يترك المريض الدعاء اليوم؛ لأنه يرى أنه لم يُستجب له ورسول الله ﷺ يقول: «**يُستجاب لأحدكم ما لم يعجل فيقول: قد دعوت فلم يستجب لي**»(١).

(وهو إما استبطاء أو إظهار يأس وكلاهما مذموم، أما الأول فلأن الإجابة لها وقت معين كما ورد أن بين دعاء **موسى وهارون** على **فرعون** وبين الإجابة أربعين سنة، وأما القنوط فلا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون؛ مع أن الإجابة على أنواع منها تحصيل عين المطلوب في الوقت المطلوب، ومنها ادخاره ليوم يكون أحوج إلى ثوابه، ومنها وجوده في وقت آخر لحكمة اقتضت تأخيره، ومنها دفع شر بدله)(٢).

قال **ابن القيم**: «ومن الآفات التي تمنع ترتب أثر الدعاء عليه أن يستعجل العبد ويستبطئ الإجابة فيستحسر ويدع الدعاء وهو بمنزلة من بذر بذرًا أو غرس غرسًا فجعل يتعاهده ويسقيه، فلما استبطأ كماله وإدراكه تركه وأهمله»(٣).

وصدق ﷺ حين قال: «**إن الله لا يملُّ حتى تملّوا**»(٤).

---

(١) صحيح: رواه البخاري ٦٣٤٠ ومسلم ٢٧٣٥.
(٢) عون المعبود في شرح سنن أبي داود ٤/ ٢٥٠.
(٣) الجواب الكافي ١/ ٥ – ط دار الكتب العلمية.
(٤) صحيح: رواه البزار عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع حديث رقم: ١٨٥٩.

والمعنى: إن الله لا يمل من الثواب والعطاء على العمل حتى تملوا أنتم من العمل وتنقطعون عنه؛ فينقطع ثوابه عنكم، ولا يسأم من إنعامه عليكم إلا إن سئمتم من عملكم لديه.

واقتدِ **بمُورِّق العجلي** وهو يقول: «ما امتلأت غضبًا قط، ولقد سألت الله حاجة منذ عشرين سنة فما شفَّعني فيها، وما سئمت من الدعاء»(١).

لذا نزع **ابن القيم** اليأس من قلبك وقذف فيه بذرة الأمل عندما قال:

«لا تسأم الوقوف على الباب ولو طُرِدت، ولا تقطع الاعتذار ولو رُدِدت، فإن فُتِح الباب للمقبولين دونك، فاهجم هجوم الكذابين وادخل دخول الطفيلية، وابسط كفَّ ﴿ **وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ** ﴾ [يوسف: ٨٨]»(٢).

---

(١) نزهة الفضلاء ص ٣٩٨.

(٢) الفوائد ص ٥١.



3 التطويل مستحب:

أقصر طريق إلى الإجابة طول الدعاء، **فلا تضيِّعن اليوم لحظة واحدة** مقتديًا في ذلك بنبيك ﷺ الذي شغله الذكر والدعاء يوم عرفة عن كل شيء حتى عن طعامه وشرابه، حتى ظنَّ كثير من الصحابة أنه صائم، فعن **أم الفضل بنت الحارث** أن ناسًا تماروا عندها يوم عرفة في صوم رسول الله ﷺ، فقال بعضهم هو صائم وقال بعضهم ليس بصائم، فأرسلت إليه بقدح لبن وهو واقف على بعيره بعرفة فشرب(١).

نعم لم يضيِّع لحظة واحدة، وكأنه يقول لك: الوقت لا يقدر بثمن، فكل لحظة تُنفقها في غير طاعة أعظم خسارة ، ودعاك إلى ذلك بفعله لتكون استجابتك أسرع وطاعتك أقرب، فعن **أسامة بن زيد** رضي الله عنه: «كنتُ رديف النبي ﷺ بعرفات فرفع يديه **يدعو**، فمالت به ناقته فسقط خطامها، فتناول الخطام بإحدى يديه وهو رافعٌ يده الأخرى»(٢).

واسمع إلى حديث **جابر** رضي الله عنه وتعلم منه:

«......، ثم ركب رسول الله ﷺ حتى أتى الموقف فجعل بطن ناقته إلى الصخرات ، وجعل جبل المشاة بين يديه، واستقبل القبلة فلم يزل واقفًا حتى غربت الشمس»(٣).

تأمل قوله:

«**فلم يزل واقفا حتى غربت الشمس**»... داعيًا دون ملل، راجيًا دون كلل، وظل على تلك الحال حتى بعد غروب شمس عرفة وأثناء سيره لمزدلفة، وهو وقت ينشغل فيه الناس بالزحام إن لم يكن بالجدال واللغو من الكلام، لكن رسول الله ﷺ يُعلمنا غير ذلك حيث أفاض ﷺ وردفه **أسامة بن زيد**، فجالت به الناقة وهو رافع يديه لا تجاوزان رأسه فما زال يسير على هيئته حتى انتهى إلى جَمْع (مزدلفة).

---

(١) صحيح : رواه الشيخان وأبوداود عن أم الفضل بنت الحارث كما في صحيح أبي داود حديث رقم : ٢١٣٢.
(٢) صحيح : انظر حديث رقم : ٢٩٦١ في سنن النسائي وحديث رقم : ٢٠٨٢٠ في مسند أحمد.
(٣) صحيح : انظر حديث رقم : ٢٤٩٤ في صحيح ابن ماجة وحديث رقم : ١٦٧٦ في صحيح أبي داود.

4 الفقراء فقط يدخلون:

ما لكل طارق يُفتح الباب كلاً، ولا كل ضيف يُستهل بأهلا وسهلاً، فإن الدعاء إذا لم يكن فيه ذلٌّ وخضوع لله تعالى وانكسار وانطراح بين يديه ذهب أدراج الرياح. قال **ابن رجب** رحمه الله تعالى: «وقد كان بعض الخائفين يجلس بالليل ساكنًا مُطرِقًا برأسه ويمد يديه كحال السائل، وهذا من أبلغ صفات الذل وإظهار المسكنة والافتقار، ومن افتقار القلب في الدعاء، وانكساره لله عز وجل، واستشعاره شدة الفاقة، والحاجة إليه، وعلى قدر الحُرقة والفاقة تكون إجابة الدعاء».

ونفس المعنى ذكره **ابن القيِّم** في (الوابل الصيب) فقال:

«فمن أراد الله به خيرًا فتح له باب الذل والانكسار ودوام اللجأ إلى الله تعالى والافتقار إليه ورؤية عيوب نفسه وجهلها وعدوانها، ومشاهدة فضل ربه وإحسانه ورحمته وجوده وبره وغناه وحمده، فالعارف سائر إلى الله تعالى بين هذين الجناحين لا يمكنه أن يسير إلا بهما، فمتى فاته واحد منهما فهو كالطير الذي فقد أحد جناحيه»(١).

وذكره كذلك **ابن عطاء** حين قال:

«ما الشأن وجود الطلب، إنما الشأن أن تُرزق حسن الأدب».

أيها المريض.. استعن به على مرضك، اطلب نصره على هواك، لا تدخل المعركة وحدك، كيف وأنت معك المدد كله.. كيف وبجوارك القوة التي لا تُغلب.. أحسن الكلام في الشكوى سؤال المولى.. ولا يدفع أمواج البلاء سوى صيحات الدعاء.

واظب على النياحة والبكاء.. استعن بأرحم الراحمين.. اشكُ إلى أكرم الأكرمين.. أدمن الاستغاثة.. لا تملل طول الشكاية، فإن مصيبتك عظيمة، وبليتك طمَّت، وتماديك طال، وداؤك أعيا، حتى انقطعت حيل الأطباء، وراحت كل محاولاتهم معك سدى؛ ولم يعد لك مطلب ولا مستغاث ولا مهرب ولا ملجأ ولا منجا إلا إلى مولاك، فافزع إليه بالتضرع، واخشع على قدر

---

(١) الوابل الصيب ص ١٤ – ط دار الكتاب العربي.

جرمك وهول ذنبك، فهو لا يرحم إلا المتضرِّع الذليل، ولا يُغيث إلا الطالب المتلهِّف، وقد أصبحت اليوم أحوج ما تكون إلى نظرة ربانية واحدة، ولمسة إلهية حانية.

أخي.. ضاقت بك السبل، وانسدت عليك الطرق، وتقطَّعت بك الأسباب، واستفرد بك الشيطان، وخَفَت فيك وهج الإيمان، ولم تنجح فيك العظات ولا تشييع الأموات، ولم يكسرك التوبيخ، ومع ذلك كله.. المطلوب منه كريم، والمسئول جواد، والمُستغاث رحيم، والرحمة واسعة، والكرم فياض، والعفو شامل، فيا من حال الشيطان بينه وبين التوبة.. يا صاحب القلب المريض.. قل:

أيا ملك الملوك أقل عثاري ... فإني عنك أقصتني الذنوب
وأمرضني الهوى لضلال نفسي ... ولكن ليس غيرك لي طبيب
أيا ديَّان يوم الدين فرِّجْ ... همومًا في الفؤاد لها لهيبُ

اصرخ الى الله صراخ من نفدت كل حيله وبلغ منتهاه، ثم اهتف بلسان الذل والانكسار:

يا فالق الحب والنوى.. يا منشئ الأجساد بعد البلى.. يا ملاذ الراجعين إليه.. يا كافي المتوكلين عليه.. انقطع كل رجاء إلا منك.. خابت ظنوننا إلا فيك.. ضعف اعتمادنا إلا عليك.. وهن استنادنا إلا إليك.. نسألك بالرحمة التي كتبتها على نفسك، وبالكرامة التي أخفيتها لأوليائك أن تمطر قلوبنا بسحائب برك، وأن تعجِّل غوثنا بوابل إحسانك، وأن تجبر كسرنا بآثار رحمتك، وأن تفرِّج ما نحن فيه ببرد عفوك، وأن تقوِّي عزائمنا بقوة عظمتك.. يا أرحم الراحمين.

يا رب.. إليك منا نتظلم، أحوالنا تنطق عنا دون أن نتكلم، وقلوبنا من ذنوبنا تشكو وتتألم، فاللهم بعلمك بحالنا، وقدرتك على شفائنا، وأدراك بعلاجنا، ورحمتك التي لم تزل تعاملنا بها منذ خلقتنا، وخفي لطفك الذي غمرنا رغم خطيئاتنا، داونا بدوائك، فلا شفاء غير شفائك، وأتمم علينا نعمتك وأوجب لنا رضاك وأجزل مثوبتك واجعل جائزتنا منك الجنة.

يا من قلت: ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾: المحبّ لا يُعذِّب حبيبه، فكيف تعذِّبني غدًا يوم ألقاك؟! أو يُتصور من أم أن تضيِّع وليدها، أو تتركه هملاً دون رعاية وحنان؟! وكيف نظن بك أن تضيِّعنا أو تتركنا هملاً في أودية الدنيا وفريسة لمكائد الشيطان، وقد أرسلت لنا عن طريق نبيك ﷺ أنك أرحم بنا من الأم بولدها.

أخي.. **راية الفقراء فارفع، ودلائل العجز والتفريط جهِّز، وصحائف الذنوب قدِّم، والساعات الضائعة من عمرك واللهو في زمن الصبا كل هذا طلِّق، فكم أتعبت الحفظة سنين، وسهرت في المعاصي حينًا بعد حين، وأظهر الفاقة والمسكنة حتى تكون ممن يستحق الصدقة، ألم تقرأ قول ربك:** ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠].

وتعبيرًا عن ذلك: ارفع يديك إلى صدرك متمثِّلاً أعلى درجات الذل والعبودية مقلدًا نبيك الذي قال عنه **ابن عباس** ﷺ: رأيتُ رسول الله ﷺ يدعو بعرفة ويداه إلى صدره كاستطعام المِسكين.

عسى الله فالق الحب والنوى، ومنشئ الأجساد بعد البِلى، ومحيي الأرض بعد موتها؛ الذي أخرج الأخضر من اليابس أن ينقلنا مما يكره إلى ما يحب، ويبدلنا بهمِّ الدنيا الدنية همًا أخرى علية، فطالما أغاث المجدبين عندما قحطوا، وأنزل الغيث من بعد ما قنطوا، فلماذا لا نتكل على رحمته وكيف لا نطمع في غوثه ومعونته؟!

حلاوة الدعاء شرط الشفاء

وهذا الفقر واستشعار الذل كان اسمه حلاوة الدعاء في قاموس **سعيد بن جبير**، فعن **داود بن أبي هند** قال: لَمَّا أخذ **الحجَّاج سعيد بن جبير** قال: ما أُراني إلا مقتولا وسأُخبِركم:

«إنِّي كنتُ أنا وصاحبان لي دعونا حين وجدنا حلاوة الدُّعاء، ثم سألنا الله الشَّهادة، فكِلا صاحبيَّ رُزِقها، وأنا أنتظِرها، قال: فكأنَّه رأى أنَّ الإجابة عند حلاوة الدُّعاء»(١).

وحلاوة الدعاء من الثمرة المعجَّلة للعبد في الدنيا، ومن علامات وإرهاصات القبول في الآخرة، بل وفي الدنيا قبل الآخرة، فمن أراد معرفة حظ دعائه من الإجابة والقبول فلينظر كيف وجد طعمه، لأن الأمر كما قال **ابن عطاء**:

«من وجد ثمرة عمله عاجلاً، فهو دليل على وجود القبول آجلاً»(٢).

---

(١) حلية الأولياء ٤/ ٢٧٤.

(٢) الحكم العطائية ص ٣٢.

5 إخفاء الدعاء:

فإذا جمع المريض إلى ما سبق أن أخفى دعاءه، فلم يعرف به سوى من قصد به وجهه، فقد حاز الفضل وقصب السبق. قال **ابن القيِّم** وقد أحصى عشر فوائد لإخفاء الدعاء:

«وفي إخفاء الدعاء فوائد عديدة:

أحدها أنه أعظم إيمانًا لأن صاحبه يعلم أن الله تعالى يسمع دعاءه الخفي، وليس كالذي قال أن الله يسمع إن جهرنا، ولا يسمع إن أخفينا.

ثانيها أنه أعظم في الأدب والتعظيم، ولهذا لا تُخاطَب الملوك ولا تسأل برفع الأصوات، وإنما تُخفض عندهم الأصوات، ويخِفُّ عندهم الكلام بمقدار ما يسمعونه، ومن رفع صوته لديهم مقتوه، ولله المثل الأعلى.

ثالثها أنه أبلغ في التضرع والخشوع الذي هو روح الدعاء ولبه ومقصوده، فإن الخاشع الذليل الضارع إنما يسأل مسألة مسكين ذليل قد انكسر قلبه وذلت جوارحه وخشع صوته؛ حتى إنه ليكاد تبلغ به ذلته ومسكنته وكسرته وضراعته إلى أن ينكسر لسانه فلا يطاوله بالنطق.

رابعها أنه أبلغ في الإخلاص.

خامسها أنه أبلغ في جمعية القلب على الله تعالى في الدعاء، فإن رفع الصوت يفرِّقه ويشتته.

سادسها أنه دال على قرب صاحبه من الله وأنه لاقترابه منه وشدة حضوره يسأله مسألة أقرب شيء إليه، فيسأله مسألة مناجاة للقريب لا مسألة نداء البعيد للبعيد.

سابعها أنه أدعى إلى دوام الطلب والسؤال، فإن اللسان لا يمل والجوارح لا تتعب بخلاف ما إذا رفع صوته، فإنه قد يكِلُّ لسانه وتضعف بعض قواه.

ثامنها أن إخفاء الدعاء أبعد له من القواطع والمشوِّشات والمضعفات، فإن الداعي إذا أخفى دعاءه لم يدرِ به أحد، فلا يحصل هناك تشويش ولا غيره، وإذا جهر به

تفطنت له الأرواح الشريرة والخبيثة من الجن والإنس فشوَّشت عليه ولا بد، ومانعته وعارضته، ولو لم يكن إلا أن تعلقها به يفرق عليه همته فيضعف أثر الدعاء لكفى.

تاسعها أن أعظم النعم الإقبال على الله والتعبد له والانقطاع إليه والتبتل إليه، ولكل نعمة حاسد على قدرها، دقَّت أو جلَّت، ولا نعمة أعظم من هذه النعمة، فأنفس الحاسدين المنقطعين متعلقة بها، وليس للمحسود أسلم من إخفاء نعمته عن الحاسد، وأن لا يقصد إظهارها له، وكم من صاحب قلب وحال مع الله قد تحدث بها وأخبر بها فسلبه إياها الأغيار، فأصبح يقلِّب كفيه، ولهذا يوصي العارفون والشيوخ بحفظ السر مع الله، وأن لا يطلعوا عليه أحدًا، ويتكتمون به غاية التكتم؛ كما أنشد بعضهم في ذلك:

من سارروه فأبدى السِرَّ مجتهدًا لم يأمنوه على الأسرار ما عاشا

وأبعدوه فلم يظفر بقربهم وأبدلوه مكان الأنس إيحاشا

لا يأمنون مذيعًا بعض سِرِّهم حاشا وِدادهم من ذلكم حاشا

والقوم أعظم شيء كتمانًا لأحوالهم مع الله وما وهب الله لهم من محبته والأنس به؛ ولا سيما للمبتدئ والسالك، فإذا تمكن أحدهم وقوي وثبتت أصول تلك الشجرة الطيبة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء في قلبه؛ بحيث لا يُخشى عليه من العواصف، فإنه إذا أبدى حاله وشأنه مع الله ليُقتدى به ويُؤتَمَّ به لم يبالِ.

عاشرها أن الدعاء هو ذكر للمدعو سبحانه متضمن للطلب منه والثناء عليه بأسمائه وأوصافه فهو ذكر وزيادة»[1].

---

(١) بدائع الفوائد ٣/ ٥١٨-٥٢٠ بتصرف.

٥ كلمة السر: آخرة:

اختبر نوعية دعائك وسائل نفسك: آخر مرة دعوتَ الله فيها: هل خطر لك الدعاء لآخرتك أم أن كل أدعيتك كانت دنيوية؟! هل رجوت الله يومًا أن يرزقك قيام ليلة أو حسن عبادة أو صنيعة معروف أو تفريج كرب أم أن غير زيادة الرزق وتوسيع الدنيا لا يهمك؟! هل تدعو الله في سجودك أن يزيد إيمانك ويرقِّيك في مدارج الهداية كما تدعوه أن يزيد مالك ويُرقِّيك في مراتب الوظيفة؟!

إن الذكي اليوم هو من يعرف أنه إذا أصلح ما بينه وبين الله أصلح الله ما بينه وبين الناس، وأنه إذا جعل الآخرة همه كفاه الله أمر دنياه بل وأتته الدنيا راكعة ذليلة، فإن حدث ولم تأته الدنيا ملأ الله قلبه بالزهد فارتاح ولم يحزن على فقدها، ومن هنا يجعل لدعاء الآخرة أكبر الحظ من دعائه.

وهو حصيلة تأملات شيخ الإسلام **ابن تيمية** الإيمانية وجولاته الروحية حين خاض غمار الأدعية وجرَّبها كلها ، ثم خرج لك بالنتيجة الآتية بعد أن وفَّر عليك عناء البحث ، ثم قدَّمها لك على طبق نوزاني هادي في قوله :

« تأمَّلت أنفع الدعاء فإذا هو : سؤال الله العون على مرضاته »(١).

وقد فهم **ابن عطاء** ذلك جيدا فصاغه حكمة من حكمه قال فيها:

«خير ما تطلبه منه هو ما يطلبه منك».

---

(١) مدارج السالكين ١/ ٧٨

لكن.. لماذا لم يستجب؟!

- لم يستجب لك لأنك لم تستجب له، وقد سبق وأن قال لك: ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢].
- لأن تتابع جرعات الدواء وتوالي مرات الدعاء يضمن حدوث الشفاء.
- لأن الداعي قد يطرق الباب لطلب حاجة واحدة لسد ثغرة يتيمة فتنهمر عليه الخيرات بسبب الدعاء من أبواب كثيرة.
- لتتمتع بطول المناجاة، فكلما تأخرت الإجابة طالت المناجاة فحصلت اللذة وزاد القرب، ولو عُجِّلَتْ الإجابة لفاتت هذه الثمرات. قال **سفيان الثوري**: لقد أنعم الله على عبد في حاجة أَكْثَرَ من تضرعه إليه فيها»[١].
- لأنه أعلم بك منك، وأحرص عليك من نفسك، وأدرى بما ينفعك وما يضرك.

وقد لايستجاب للدعاء لحكمة ربانية كأن يصرف عنه بدعائه سوءًا أو يدخر له من الأجر عند الله، أو بسبب أكل الداعي ومشربه من حرام، أو ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو ارتكاب بعض الذنوب والمداومة عليها وعدم التوبة منها.

قال ابن القيم:

> **«فقضاؤه لعبده المؤمن المنع عطاء، وإن كان في صورة المنع، ونعمة وإن كانت في صورة محنة، وبلاؤه عافية وإن كان في صورة بلية، ولكن لجهل العبد وظلمه لا يعُدُّ العطاء والنعمة والعافية إلا ما التذَّ به في العاجل، وكان ملائما لطبعه ولو رُزِق من المعرفة حظا وافرا لعَدَّ المنع نعمة والبلاء رحمة، وتلذذ بالبلاء أكثر من لذته بالعافية، وتلذذ بالفقر أكثر من لذته بالغنى، وكان في حال القلة أعظم شكرًا من حال الكثرة»**[٢].

---

(١) عدة الصابرين ص ١١١.
(٢) مدارج السالكين ٢/ ٢١٥، ٢١٦ - دار الكتاب العربي.

قبل المغادرة

يا سالك طريق الهدى..

اقرأ هذا الكتاب مرتين يضاعف الله لك الاستفادة ضعفين، ويؤتك أجرك مرتين، ويبدو ذلك على عملك جليًّا فتعمل عمل اثنين.

ثم سائل نفسك بعد القراءة:

منذ متى وأنت تسير في هذا الطريق؟! أتراك وصلت أو قاربت؟! أم أنك لا زلت بعدُ في البدايات؟! أم غرَّك أنك ابتدأت فاطمأننت وتوقفت!!

كلنا اشترك في رحلة الشفاء حين رُفعت له قارورة الدواء..
وسار في الطريق كثير..
حتى مضت فترة من الزمن.. توقف خلالها البعض
وتاه عن الطريق نفر
وبدَّل الطريق وسار عكس الاتجاه فريق
وملّ من طول السير طائفة
ومات قبل أن يصل الضعفاء
ولم يصل إلى ساحل العافية إلا..

كل بطل همام وصابر مقدام

أخي.. هذه آثار أقدام السابقين لنا في هذا الطريق واضحة محفورة في الأرض، لكن... أتراها تبقى هذه الآثار تهدي وتُرشد أم ستعفوها رياح الشر العاصفة ويمحوها تتابع أقدام العابثين عليها!!

لقد آذن الوقت بالنفاد، وأذَّن المنادي بالرحيل، وكاد القلم يفارق صاحبه، وقد بذلت

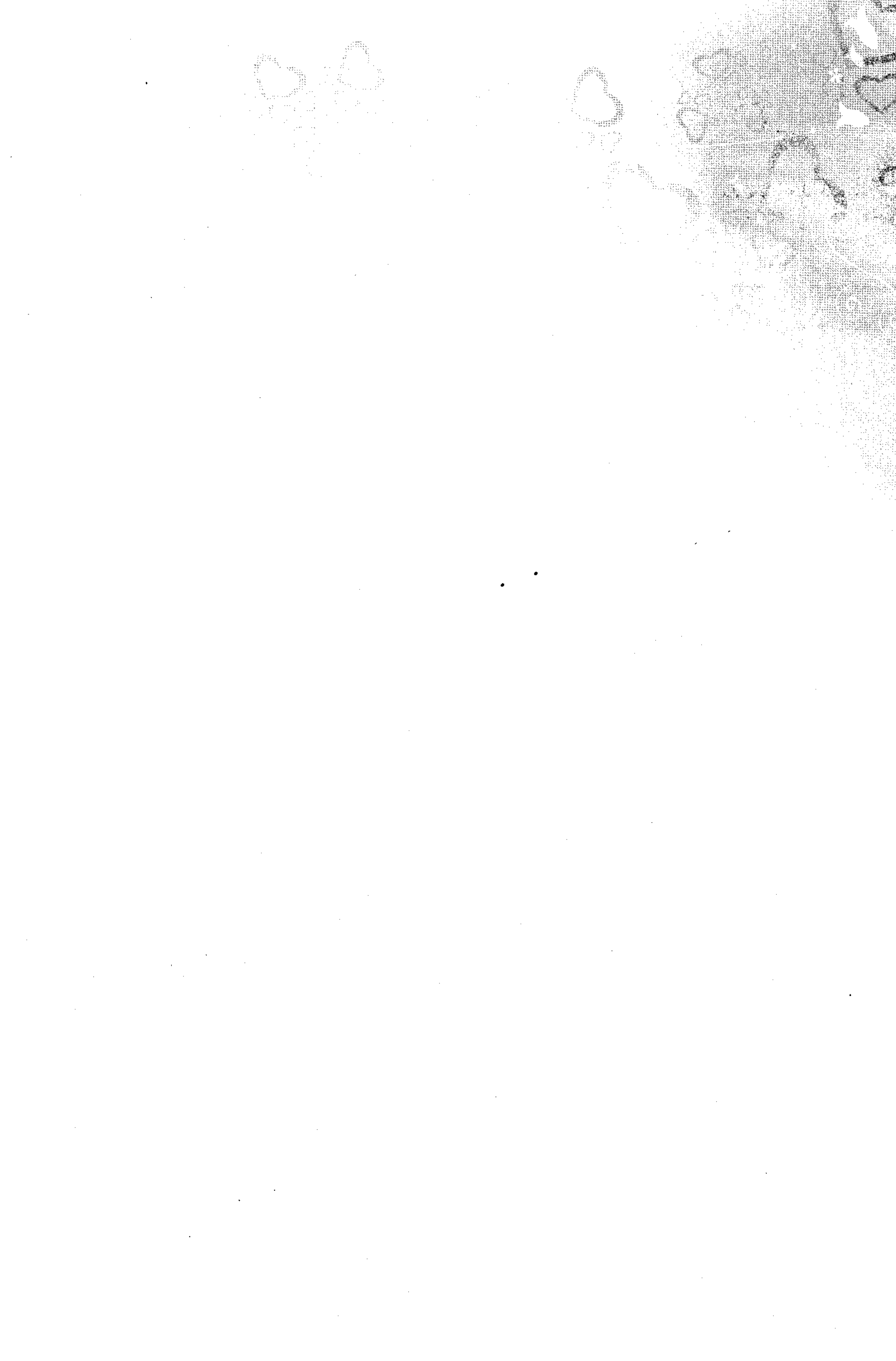
جهدي في نصحك، ونصح نفسي قبل نفسك، فبالله.. هلا شمَّرت عن ساعد الجد لتبدأ البداية الجديدة وتستقبل الحياة السعيدة، وبالله عليك لا تركن، فأمتنا مقهورة، وكرامتها مسلوبة، وآمالها عليك معقودة، وهي الآن قابعة في قيود الذل بعد أن كانت سيدة الدنيا، ولم يعد لها مهرب ولا خلاص إلا عن طريق إصلاح قلبك، فلا تُضيِّع نفسك، فتضيع الأمة بسببك.

يا أيها الناس فلتنجوا بأنفسكم — ولا تكونوا كمن ضلّت مساعيه
عودوا إلى الله ينقذكم برحمته — من الشقاء الذي بتْنا نعانيه
ولتستقوا من كتاب الله منهجكم — فليس في الأرض منهاج يُدانيه

فهلا شُفيت أرواح من أمراضها وذاقت حلاوة الدواء، ثم سمت وارتقت في سلم الشفاء حتى دعت غيرها إلى ما اهتدت إليه، وشفته مما أصيبت به من قبل، ثم تسامت وتسامت حتى كسرت قيد الشهوة التي طالما ملكها واستعبدها، لتعود الروح إلى بارئها، وتطير بشوق نحو ما يُفرِحها، وتصبح مهيَّئة لتعبر بوابة الخلود عن طريق الشهادة لتتوشح أشرف الأوسمة، فإن لم تنل هذا الشرف كانت مشاريع شهادة تنتظر؛ تملؤها الرغبة في البذل، ويحدوها الشوق إلى العمل، لتنال أجر الشهداء دون دماء، وتجني كما جنوا في الجنة ثمرة الهناء.

وعندما تسري هذه الروح في الأمة، عندها فقط تتحرَّر من أسر أعدائها بعد أن تحرَّرت من أسر أهوائها، وتنتصر على عصابة من يهود ما استأسدت علينا إلا لوهن قلوبنا.

وعندما تتحرَّر روحك، وعندما تصرع الشيطان في نفسك، وعندما تنتصر على النفس الشاردة، وعندما تطوِّع الطبيعة المتمرِّدة، وعندما تكون آخرتك أغلى عندك من عاجلتك.. أي عندما يُشفى قلبك من كل هذه الأمراض والأسقام.. عندها يتحقق حتمًا الوعد الإلهي الحق، وألقاك وقتها حتمًا على أعتاب بيت المقدس، وأصلي بجوارك منتشيًا في ساحة الأقصى، ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾.





محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة

5 قبل تناول الدواء

٦ جرعات الدواء



د. خالد أبو شادي
رُدَّ إليَّ روحي
١ موضع الإصابة
٢ قصة القلوب الثلاثة
٣ رحلة سقوط
٤ حراسة الأبواب الستة
٥ قبل تناول الدواء
٦ جرعات الدواء